@ketab_n
Follow Me
11.5.2016

رشا الأمير

يوم الدين

الجديد
Al-Jadeed

رشا الأمير

يوم الدين

الجديد
Al-Jadeed

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الطبعة الثالثة ٢٠١٠

الطبعة الثانية ٢٠٠٣

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ISBN: 9953-11-041-7

جميع الحقوق محفوظة

صندوق بريد: ١١/٥٤٤٤ بيروت ـ لبنان

هاتف وفاكس: ٧٣٩٨٥٠ ـ ٠٠٩٦١١١٥٥٣٦٠٤

aljadeed@cyberia.net.lb

الغلاف: صفحة من قرآن بالخط المغربي يعود تاريخه إلى أواسط القرن السادس عشر (الآيات ٢١ ـ ٢٦ من سورة غافر).
من كتاب *L'art calligraphique de l'Islam* لمؤلفيه عبد الكبير خطيبي ومحمد سجلماسي الصادر عن دار غاليمار، باريس ١٩٩٤.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في توقيع غائب وشكر ناقص وددت لهذا الكتاب أن يحمل توقيعين على الأقل: توقيعي وتوقيع أخي وصديقي، وناشري بالمناسبة، لقمان سليم. ذلك أنني يوم فراغي من مسودة هذا الكتاب عهدت بها إليه ليرى فيه رأيه فكان منه، بعد الاطلاع عليها، أن استمهلني بعض الوقت ثم استأذنني أن يخلو بها بعضاً آخر فكان له ما أراد وخلا بها ما حلا له وإذ أعاد تلك المسودة إليّ وقد علّق في هوامشها ملاحظاته، وإذ وجدتني أسْتَصْوِبُ العديدَ منها، ووجدته ينزل من روايتي بمنزلة الشريك في تأليفها، سألته أن يضم توقيعه عليها إلى توقيعي فتأبّى، على أنّه، وأنَّ هذا الكتاب لا يحمل توقيعه بجانب توقيعي، فبصماته لا تخفى.

وأما الصديق محمود عساف، الأستاذ في العربية،

Twitter: @ketab_n

والأستاذ في تعليمها والتحبيب بها، الذي يدين له هذا الكتاب بما تدين له به معظم كتب دار الجديد، إلى مناقبه الأخرى، فيجب له عندي من الشكر الجزيل ما لا أطمئن إلى أنّ الكلمات تقوم بحقه، لأنّه، تراني أسلّم، على مضض، بأنّني لا أملك له جزاء إلا الإقرار بذلك.

ر. ا.

بيروت، أيلول ٢٠٠١

Twitter: @ketab_n

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾

الانفطار: ١٧/١٨

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كتابكِ، فكيف أهديكهِ؟ حُكمي حكمُ الصَّحيح ولو أنّ في بُرئِيَ الناجز، كما أعلمُ وتعلمين، شيئاً من إنّ.

لأيّام خَلَت، ولأوّل مرّةٍ منذ عام ونيّف، أي منذ نزولي هذا البلد هجرةً بائنة لدنيا أصيبها وامرأة أحبها(*)، حزمتِ حقائبك وأزمعتِ سفراً، طويلاً في حُسباني، قصيراً في مدته. أليس في ذلك الدليل على اطمئنانك إلى بلوغي من الشفاء مبلغاً لا تخشين معه أن أنكس؟ أم أنّكِ، على ما خطر لي

(*) «عن أمير المؤمنين أبي حفصٍ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وسلّم يقول: إنما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

Twitter: @ketab_n

ساعة أشعرتني بقبولك تلك الدعوة إلى المشاركة هناك في ذلك المؤتمر، ـ أنّك تودّين ابتلائي واختبارَ شفائي والتّحققَ منه بالتجربة؟

بعد أيّام تعودين وتكتشفين أنّني لم أستجب إلى ما أوصيتني به مِنَ الاهتمام بساعة الحائط الأثرية التي تطلب أن يفتِل المرء يومياً عضلاتها المعدِنية لتستمر عقاربها في طوافها المُدوِّخ المُتّصل، فتظنّين بي الظنون، وأوّلها أنّني ضَعُفت في ساعةِ تَخَلٍّ وأسْلَمْتُ مقاليدي إلى شياطين ماضٍ مُمْتنعٍ من الصَّرْف والعفاء، مؤثراً إلقاء نفسي في غيابته انتظارَ رجوعك وانتشالك إيّاي منه. وسيحلو لي أن أُغيظك، مكرّراً على مسامعك «الحقيقة»، حقيقةَ أنّني أُشفِقُ على ساعة الحائط تلك التي أعْرِفُ كم هي عزيزة عليكِ من يديّ الفَظّتين الأُميّتين رغم ما تداوَلْتاه من كتبٍ، وستَهُزّين برأسك وتَزْوين بشفتيك منكرةً مؤنبة...

اطمئنّي وصدّقيني ولا تُصَدِّقي ساعة الحائط... وفي أيّة حال فما هي أن أُتِمّ هذه الأسطر حتى ينتهيَ الأمرُ ويُكْتَبَ في صحيفة أعمالِك أنّكِ، بخلاف الأمّهاتِ،

Twitter: @ketab_n

لم تلديني مرّةً فحسبُ ولكن، مرّاتٍ، وكلّ مرّة بعمر وكلّ مرّة لحياةٍ جديدة.

•

تُريدُ الشائعةُ أنَّ وراء ما بَيْننا، ووراء «الفضيحة» المرادفة اسمي التي يَتَفكَّه الناسُ في بلدينا بتراويها فصولاً معظمها من نسج الخيال، ـ تُريدُ أنّ وراءَ ذلك عِشْقي، أنا الشيخ الوقور، إيّاكِ، ووقوعي في غرامِكِ حَدَّ «التضحية» بكلّ شيء في سبيلك. وإذ يكفي العِشقُ البعضَ تفسيراً لسلوكي «الشائن»، يُصِرُّ بعضٌ آخَرُ على أنّ «للأمرِ أبعاداً» وعلى أنّني إنّما أستحقُّ أن يُرثى لحالي باعتباري «ضحية غبيّة لمؤامرة كبيرة متواصلة» استهدفت ما أُمَثِّلُ، لا شخصي الحقير، وعلى أنّك أداة هذه المؤامرة وإنّما أُرسلتِ لكي تُغَرّري بي ونجحتِ في المهمة الموكلة إليكِ. أمّا أنّني أحببتك وأحبك وتمتّعت بعشقكِ ولمّا أزل، فلا مِرْية في ذلك ولا شك، وأمّا أنّني «ضحيّة» حبّي إيّاك وعشقي فنِعْمَ «الضحيةُ» لو كان كذلك إلّا أنّه ليس.

للخلقِ القليل المُهْتَمّ بَغْدُ بقصتنا أن يَسْهَرَ جرّاها ويختصم ولي أن أتنفّس الصُّعداء وقد أوشكتُ أن أقضي

Twitter: @ketab_n

ما يُقضى من دَيْنٍ لكِ عندي. ففي هذا الصباح الباكر يُواتيني عفوَ الخاطر، لا عن إقدامٍ ولا عن شجاعة، أن أخطَّ بلا تَرَدُّدٍ ألبتة، لا على مفكرتي الشخصية ولكن برسم النشر على الملأ، أنّني أحببتكِ وعشقتكِ مُسارقةً يوم كُنْتُ سادناً لبيت الله ذاك، وأنّني اليوم، حيث نعيش تحت سقفٍ واحدٍ، في بلدٍ كلانا غريبٌ فيه، وحيث لستُ سوى مدرّسٍ للغة كتاب الله، بيته الأبدي، أحبك جهاراً نهاراً وأعشقك. وإذ أفعل، ويجري قلمي خفيفاً بهذه الكلمات البسيطة، فلا أحسبُ أحداً، سواكِ وسواي، يُقدّر هذا الأمر حقَّ قدره ويُقدّر كم من موت كابدتُ لأتوصّل إلى التصريح به وكم من حياة، ويُقَدِّرُ ما يعنيه لرجلٍ مثلي، ممتلىء كلاماً في الدين والدنيا لكل المناسبات، ونصائح لكل الأجناس والأعمار، أن يُعالِنَ نفسه والآخرين بذاتِ النَّفس منه...

لَعَلّي إن أسْمَيْتُ حَضَّك العنيفَ المُحِبَّ إيّاي إلى استرداد حياتي من روايات الآخرين بنشر روايتي طبق ما أُكْتِبْتُها تقريباً، ومساعدتي في ذلك، ـ لعلّي إن أسميتُ ذلك آخِرَ ولاداتي عهداً على يَدَيك أيسِّر لمن قد يعنيه

Twitter: @ketab_n

مطالعةُ هذه الصفحات أن يُشاركني في تقدير ما يعنيه لي نشرها، وأن يشاركني في ذلك هو أن يُساعدني على النهوض بأعباء الشكر لك على كلّ ما أسديته إليّ من صنائع، سواء أسديتها على بيّنة مما تفعلين أم ارتجالاً لا تكلّف فيه ولا غرض من ورائه.

•

الصُّبح الغامر رويداً، وساعةُ الحائط إيّاها، رغم ثبات عقاربها منذ أيّام على وقتٍ ليس منّي في شيء ولا أنا منه، يشيران عليّ بأنّ أوان الاستعداد ليومِ عملٍ جديد قد آن... لكنه من حسن الحظّ الأربعاء، وحصّتي الأولى عند الحادية عشرة. لا موجب للعجلة غير أنّني في عجلة من الفراغ من هذه الفاتحة التي آليتُ على نفسي يوم سفرك أن أنجزها قبل عودتك فتكون هديّتي إليك.

أصف هذه الصفحات بـ«الفاتحة» على غير اقتناع، فهي فاتحةُ هذا الكتاب لكنها ختامُ تلك الرواية ومن ثَمّ ترددي في الإقدام عليها وإرجائي الفراغ منها ومن كتابي، كتابنا، المرّة تلو المرة طوال الأسابيع الماضية.

فمنذ أقنعتني بفكرة نشر ما أُكْتِبْتُه من يوميّات

Twitter: @ketab_n

واستطرادات(*) في تلك المحميّة التي أمضيت فيها خمسة عشر شهراً «حقناً لدمي» المهدور باسم الله ورسوله وكتابه بتُهَم، بيتُ القصيدِ (والخلافِ) هل أنْزَلَ اللّهُ بها من سلطانٍ أم لم يُنْزِل، ومنذ إنجازي مراجعة تلك اليوميّات والاستطرادات على نيّة النشر وأنا، الطارىءَ على الكتابة بصيغة المتكلم، في حَيْرةٍ ممّا أُسمّي به هذا الذي يُفترض بي أن أكتبه على سبيل التقديم لها لكأنّ القصد منّي كان الاهتداء بالتّسمية في تلمّس السبيل إلى ما أرغب بقوله، أو أقرب منه لكأنّ القصد منّي المُماطلة في إنجاز وعدي واستئخار كتابٍ هو أجَلٌ مسمّى.

الآن، بلا تسميةٍ تأخذُ بيدي، يُقْضى الأمرُ: كتابَكِ، لا فَضْلَ لي سوى أن أطعتُ هواي فكتبته، خذيه، لا أُهَديكِه، مَنْ يُهدي عاريّة(**)؟!

(*) أصِرُّ كل الإصرار على البناء للمجهولِ هنا رغم أنّني بعد صفحتين أقول خلاف ذلك!

(**) «العاريّة ما يستعار فيعار مأخوذة من التعاور وهو التداول، يُقال تعاورته الأيدي وتداولته أي أخذته هذه مرةً وهذه مرةً، والعاريّة على وزن الفعليّة بفتح العين وأصله عَوَرِيّة سُكِّنت الواو تخفيفاً وصُيّرت ألفاً لفتحة ما قبلها والعارة بدون الياء كذلك»، (استشهاد صادق).

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب المكتوب المكتوب... تقع هذه اليوميّات والاستطرادات على نحو ما تَمْثُلُ بين يدي القارىء في أربعةٍ وعشرين فصلاً وخاتمة. من بداثه الأمور أنّها لم تُكتب بهذا الترتيب على خطّةٍ موقوفةٍ سلفاً بل كتبت، لا سيّما ما استحال الفصولَ الأولى منها، مُنَجَّمَةً متفرقة. كذلك فلقد اقتضاني تصييرها كتاباً أن أجمع بعضها إلى بعضٍ لتنتظم في سلكٍ له أوّلٌ وآخر. وليتمّ انتظامها على هذا الوجه فلقد وجدتُني في مواضِعَ كثيرةٍ مسوقاً إلى الحذف أكثرَ منّي إلى الإضافة.

من الوقائع، حتى تلك التي يُذهشني اليومَ أن قد أسعفتني الكلماتُ على تسجيلها، لم أحذِف شيئاً على الإطلاق بل اقتصر الحذفُ على صفحاتٍ من الأنين المكرور استبدّ بي المللُ، أنا نفسي، عند قراءتها. ولئن

Twitter: @ketab_n

قصّرت في هذا ولم أُسْقِط كل ما ينبغي إسقاطه فليغفر لي القارئ، ولْيَمُرَّ بهذه المواضع مرور الكرامِ، بل لا عليه أنْ يأتَمَّ بحدسه وأنْ يجوزها إلى مواضع لا تُبَغِّضُه بي وتُثَقِّلُ ظلّي في ميزانه. وحيثُ إنّني لم أتهيّبِ الحذف فَرُبَّ قارئ يتساءلُ في مواضِعَ أخرى من هذا الكتاب عن داعيتي إلى الضرب صَفحاً عن فِقْرات من الوصف طويلةٍ قد تبدو له بدورها مملة أيضاً. أما هذه فلم أتعرض لها بالحذف لأنّني لم أصف من شيء، مُتَزَيّداً في ذلك أحياناً، إلّا لأنَّ ما وَصَفْتُ كانَ بمنزلةِ الاكتشاف أو... بمنزلة التجربة الأولى... وللناس في اكتشافهم للأشياء وفي تجاربهم أعمارٌ لا تُقاس بالسنين.

ثم كان حين أنجزتُ تقطيع هذه اليوميّاتِ الاستطرادات وتوصيلها وعَرَضْتُها عليك برسم الملاحظة أن اقترحتِ، احتراماً للقرّاء الموعودين والقارئات، أن أُقرّب ما يَرِدُ في سياقة النص من إشاراتٍ وإحالاتٍ ومصطلحاتٍ أُجِئتُ إليها إجاءةً أو غرفتها، عامداً أحياناً مسترسلاً أحياناً أخرى، من حياضٍ وردناها معاً وما زلنا نفعل وقد تَسْتَغْلِقُ على البعض منهم ومنهن. ترددتُ في الأخْذِ باقتراحِكِ من خَشيةِ

Twitter: @ketab_n

ألّا أُحسن التمييز بين ما يطلب التّحشية عليه من تلك الإشارات والإحالات وما لا يطلب؛ تحت إلحاحك سألتُكِ أن نتعاون على ذلك فَتُعَيّني لي أنت ما ترتئين أنّه يستلزم البيان والتوضيح وأتكفل أنا بالباقي. هكذا كان وبهذا يدين لكِ هذا الكتاب أيضاً وعن هذا أيضاً تُسألين!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١

إنّها السابعة، ساعَتُك، تدخُلُ عليَّ فآخذُ حَذَري ونَفَساً عميقاً، كَمَن يستعدّ لأمرٍ لا يُغني عن استقباله توقّع أو حُسبان.

لشهور خلتْ، وخلتْ منكِ، تُراجعني السابعةُ غَيْرَ مستأذنةٍ، ولا يلبث تخاذلي أن يُغريَها بي فتُلقيَ عصاها وتحطّ رحالها في فِنائي الضيّق، وتطول من ساعة وتتحكّم.

ضيقَ ذَرعٍ، أو لربما إمعاناً في الموت، كان منّي، صحوةَ الموت تلو الصّحْوَةِ، أن حاولتُ لها دفعاً، دفاع المستميت كما يُقال، أي دفاعاً، صَدّقي، عمّا بقي لي من أمر نفسي، حاولتُ ولكن غَلَبَتْني. وعن سابقِ عَمدٍ وتصميم، لا عن ضيق ذرع وموتٍ مقيمٍ مُخَيِّم ناشبٍ فقط، حاولتُ أيضاً بأن جمعتُ ما تحت يدي بَعْدُ من عزم ونيّة، وتشاغلتِ عنها: عبثاً.

Twitter: @ketab_n

ساعتك ولكن ما أدراكِ، إن تكن قد عادتْ عندك إلى نصابها من الوقتِ، ساعةً لا تُعزّ ولا تذلّ، ولا تُفْرح ولا تُحْزن، ولا قلباً تُخْفِقُ، فهي لمّا تزل عندي الساعةَ الساعةَ بلا منازع ولا نظير.

طوال شهور، بعدد أصابع اليدين، كانت السابعة ونواحيها موعدنا شبه اليومي، توافقنا عليه وثابرنا لا تَيَمُّناً بسحر الرقم، ولكن مراعاةً لما كُنْتُ عليه من واجباتٍ وتكاليف. وطوال شهور، كُنْتُ إلى مشاغلي وهمومي واضطرابِ حَبْلِ الأمن، وانفلاته أحياناً كثيرة، والقلاقلِ في عقر مسجدي، أنتظر السابعة لأقفَ ببابك أقرعه قرعاً خفيفاً فيُفتح لي، أمّا اليومَ فليس منّي، طيلة نهاراتي، من شيء على الإطلاق سوى انتظار دخولها وكأنّي بي، رغم خلوّي إلّا من انتظارها، أشغلُ منّي إذ ذاك!

إنّها سابعتي المائة دخلت من بعض الوقت. كعادتها: لا خلسةً ولا على حين غِرّة. كل شيء على حاله التي يفجعني كم استتبّ عليها بسرعة، كما لو أنّه مضت عليَّ في هذا المكان، هنا، ثلاثُ سنواتٍ لا ثلاثة أشهر وأيّام. عواطفي، حتّى هُنا حيثُ لا مُخَبِّرَ عنها إنْ هي تَرجمت

Twitter: @ketab_n

عن نفسها دمعةً أو زفرةً أو تنهداً صريحاً في حزنه وألمه، - عواطفي أكُمّها بما أُنشئتُ عليه من «رجولة» بائسة. أمّا خيالاتي فلا: تسرحُ بي فلا أنا أحاول الإمساك بها ولا هي ترعوي من تِلقائها. خيالاتي... أقول خيالاتي وتحدثني نفسي أن أُحاكيَ ما كنتِ تحرِصين عليه من احتياطٍ كلّما انسقتِ إلى لفظةٍ أو عبارة يُقلقكِ أن تبدوَ عليها أماراتُ المبالغة، أو راعَكِ أن يتبادر إلى سَمْع السامِعِ معناها الأقرب، فأحصر قولي بين علامتين فارقتين: «خيالاتي» ولكن لا أفعل. أَخْشى إن فَعَلتُ أن تكون القاضية. والقاضية منّي ليستِ القاضية مجازاً بل المُشلّة المُكمِّةُ حقيقةً، فليس إلّا أن أجبن عن نسبة هذه الخيالات إلى نفسي صراحة، وألّا أُقِرَّ بأنّها خيالاتي أنا لينعقد لساني وتُغَلّ يميني. فأنا نفسي لا أُصَدِّقُ أحياناً أنّه كذلك: لا أُصَدِّقُ أنّ حَدَّيَّ اللذين أترجّحُ بينهما لا يعدوان أن أجدني تارة في كلاءة هذا الذي كان بيننا دون سواه من عمري، وتارات أخرى في سجنه. وأحياناً... وأحياناً أخرى وكثيرة أُسَلِّم بأنّه كذلك حقاً وبأنّ مَيْقظي ومنامي على خيالات، وبأنّه لم يبق لي ما يُعَقِّلُني ويُسَكِّن نفسي وجسدي سوى ذاك القليل الذي يستحقّ

Twitter: @ketab_n

الذكر من أمري، والذي اتّفق أنّ جُلّه ما كان بيني وبينك برهةً لم تَعْدُ الأشهر دون سائر حياتي.

لطالما خطّأتك كلّما حانَ منك أن عزوتِ تردّدي وارتباكي إلى التواضع وخلتِني أتعمّد التطفيف من شأني، ومن نفسي. كذا الليلة: لن أملك إلّا أن أُخَطِّئك لو أمكنك بطريقة من الطرق أن تخالفي عليّ زعمي بأنّ شيئاً، خلا ما كان بيننا، يستحق الذِّكر من سائر حياتي، على ازدحامها بالوقائع والناس والمواقف.

لا يُذْهِشَنَّكِ أنْ أؤرّخ لحياتي بكِ - بلقائي بكِ فما تلاه - لا بوقائعَ عامّةٍ من مثل تلك التي انتقلت بي في غضون أشهر من إمام لمسجد متواضعٍ يرتادُه فقراء إحدى ضواحي هذه المدينة وغرباؤها، مدينتك بالولادة مدينتي بالهجرة، إلى «نجم»، كما أخذ يحلو لكِ وصفي، (مع توالي ظهوراتي العامّة منها والإعلاميّة)، إلى نكرة يلوذ بحمى «السّلطة» من عدالة يقف على ميزانها مَنْ كانوا ذات يومٍ إخواناً له في اللّه والدين. لا يُذْهِشَنَّكِ ذلكَ فلولاك، بسببك لربما، لما كان ما كان ولا كُنْتُ اليومَ مَنْ أنا. لكانت لربّما أمورٌ أخرى، ولكنتُ اليومَ رجلاً

Twitter: @ketab_n

آخر في مكانٍ آخر، فوق التراب أو تحته(*)، ولكن، حتماً، لما كُنتُ حيث أنا الآن، ولا مُشَتَّتَ الأفكار كما أنا الآن، أو لكنتُ ولا أفكار تتنازعني. أقول «أفكاراً» وبالطّبع لا أعني ما أقول، ولكن خيالاتي، المزيجَ من ذكريات وأوهام. فتلك اليد التي تُقَلِّبُ ديوانَ حياتي، والتي أتمنى لو كانت خفيّة كما كدتُ أن أصفها، تُصِرُّ على التمهُّلِ، حَدَّ التوقف، عند تلك الصفحاتِ منه المفعمةِ بتلك الخيالات فلا أراني إلّا كما لم أرني قبلك قطّ: أراني بمعيّتك مُنْكبّين على لسانِ العرب نَقصُّ أثر مادة زئبقية، أو منكبّين أحدُنا على الآخر كائنين يربآن أن يدّخرا من وصالهما شيئاً لِغَدٍ.

أيّامذاك كانت لي حياتان، أو قولي كانت حياتي موزّعة على دُنيوين اثنتين: من الصبح الباكر إلى السابعة مساءً، كنتُ «مولانا»، ومن السابعة مساءً إلى ما قبل صلاة الفجر بقليل كنتُ المولى وكنتِ مولاتي. لم يكنِ الجمعُ بين الماء

(*) إذا نلتُ منك الودَّ فالمال هيّن   وكلّ الذي فوق التراب تراب
المتنبّي

Twitter: @ketab_n

والنار في يدي يسيراً عليَّ (جَمْعَ صاحبِك الجدَّ والفهمَ(*)) ولكنّه، على ما أتبيّنُ، كان يستأثر بالشيءِ من فِكري، ويشغلني بين الحين والحين عنكِ وعن أطيافك. كان كذلك، أمّا من حين جيء بي مُشَيَّعاً بحراسة تليقُ بذوي الشأن إلى هذا المنتجع الجبلي المتنائي الذي اتّخذته السّلطة أهراءً حصينةً تخزن فيها أمثالي من أهل الاعتدال بلغة البعض، من «فقهاء السلطان عملاء النظام» بلغة البعض الآخر، ـ أمثالي مِمّن ترى فيهم ذخيرة لمّا تزل حيّة وصالحة بالتالي لأن يُزَجّ بها مجدداً في أتون المعارك المُستَتِرة أحياناً العلنية أحياناً أخرى، ـ من حين جيء بي إلى هنا لم يبقَ لي من حياتيَّ إلّا أنْ أعيشَهما القهقرى، وكفافُ أيّامي ما كُتِبَ له أن يعلقَ في الذاكرة والقلب والجسد.

لعلّك، رغم ارتيابك الفطريّ بأهواء العامّة وأبطالها، كُنْتِ تُؤْثِرين لي مصيراً أدْخَلَ في الفتوّة، وأشْبَهَ بالشعر الذي

(*) وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعب من أن أجمع الجد والفهما
المتنبّي

Twitter: @ketab_n

اَجتمعنا على مائدته ممّا أنا فيه. بَيْدَ أنّه لم يكن من مصيرٍ خلافَ هذا الذي أنا فيه إلّا أن أُسْلِمَني إلى الذبح بسكّين أحد أولئك الذين تعهّدتُ بحكم المهنة هدايتَهم إلى صراطٍ مستقيم. نَعم، يحدثُ لي أحياناً أن أندمَ على أنّني لم أدَعْني أُقْتَلُ، وأن أرى في رضائي من الغنيمة بهذه الحجرة التي أعلمُ جيّداً أنّها كائنةً ما تكونُ آمنة وما يكون مقامي فيها حرصاً عليّ، ـ التي أعْلَمُ أنّها «حجرةُ دمٍ» كما يقول أهل السجون، وشرّ من هذا جميعاً ما يَحْدُثُ لي أن أدعني له من الحمق والتخريف كقولي لنفسي معاتباً: «ما ضرَّ لو تَرَكْتَكَ تُقْتَل؟ أَوَلَمْ يكن أن تُقْتَلَ فرصتَك الأخيرة ليتغيّر وَجْهُ حياتك؟!».

لكِ أن تتساءلي عمّا يُكتبني، لا سيّما أنّ الكتابةَ بصيغة المتكلم لم تكنِ اللسان منّي يوماً ولا اللسان بيني وبينك. من حسن ظنّكِ بي قد يُخَيَّل لكِ أنّني، في ملاذي المطمئنّ هذا، إنّما يستبدّ بي داعي التأمل في هذا الذي كان، فأدّى بي إلى هنا وأهوى بآخرين، ويهوي، إلى المطامير وما تحتها، وحلّق بفريق ثالث ويحلّق إلى سُرُرٍ مرفوعة. ليس كذلك ولا يهوّن عليَّ في شيء أن أعْلَمني

Twitter: @ketab_n

مُنَعَّماً مُرَفَّهاً في جنب إخوان لي، شتّتُ أخوّتَهم أم أبيت، يُسْتَزْوَوْنَ الليلة، كرهاً، وقائع الأشهر والسنوات الماضية من أعمارهم، واقعةً واقعةً، ما عَبَرَ بهم على غفلة منهم، وما خاضوا فيه على هدى وبصيرة.

إخواني هؤلاء أرثي لحالهم رثائي لحالي، ولكنّ عفافي ليس بمكان أدّعي معه أنّني لا أغبطهم أحياناً على ما هم فيه من ضرّاء. أغبط الجَلِدَ المُحْتَسِبَ منهم ينحت صمته كلمةً يرى فيها الحقَّ مصوّراً، كما أغبط من حَلَّ عُقْدَةً من لسانه خوار عزيمته، فانزوى كسيراً بين قُنوطٍ من رَحْمة ربّه ورجاء.

كيف لا أغبطهم وعِيِّي يحول بيني وبيني، حتّى لا مِنْ حيلة أتَوَسَّلُ بها وأتوصَّل إلى مفاوضة نفسي في أمرها سوى توسيطك بيني وبينها؟

نعم يا مولاتي: أُوَسِّطك بيني وبينها، ولكن كم وكم من ساعةٍ لا أتوخّى من حيلتي هذه إلّا أن تُشعفني على الدنوّ منك لامبالياً بنفسي، تاركاً إيّاها وشأنها تتخبّط فيه ما حلا لها التخبّط.

Twitter: @ketab_n

الدنوُّ مولاتي: بالروح والجسد أطلبُ الدنوَّ منكِ. وعلى أنّك مَنْ عَلَّمني بأنّ الروحَ من جوارح الإنسان لا تَفْضُلُ أيّاً منها، دعيني أخْتَطْ من اختلاطِ الأمرِ الآنَ عليك، فأتناسى الروحَ وأدنوَ منكِ، شيئاً فشيئاً، حتّى أجدني معانقاً إيّاكِ ملتحماً بكِ. إذ ذاك، لربّما، لن أخشى أن تطلبَ روحي حصّتها من اجتماعنا.

•

ساعةَ الندم لا يبقى سوى النقمة، وأنا الساعةَ عليك ناقمٌ.

زهاء أربعين عاماً أخذتُ هذا الجسد على عاتقي، بالّتي هي أحسن أخذتُه، وبالتي هي غير ذلك، حتّى أَلِفَني وألفتُه، فلا هو عاد يتذمّر من قعودي عن تلبية حقوقه عليّ، ولا أنا عدتُ أؤاخذُه على مطالبته إيّاي تلبيةَ حقوقه تلك إلى أنْ... نعم يا مولاتي، إلى أن دخلتِ بيني وبينه، وصرتِ له يَداً لا أقدِرُ على ردّها. كيف لا أنقم عليك من بَعْد أن جرّأتِني على نفسي وعلّمتِني أن أفتنَّ بجسدي قَدْرَ افتناني بجسدِك. كيف ترينني اليوم أدجّنُهُ من بعد إذ ضَرَّيتِهِ؟

أستعرض صورة حياتي فلا يفوتُني أن أعرف لكلِّ

Twitter: @ketab_n

أحدٍ من الّذين أحسنوا الظَّنَّ بي فضلَه عليَّ وجميلَه: أهلي، أساتذتي، شيخي الكبير، وأنتهي إليكِ فلا أجدُ ما أقولُه سوى أنّ أحداً من الناس، رجالاً ونساءً، فَعَل بي ما فعلتِ، ولا غروَ، فأولئك أحسنوا إليَّ، كلّ بحكم مكانه منّي، مقايضةً، أمّا أنتِ فلأي شيء أخذت نفسكِ بإخراجي من طورٍ عشتُ قيدَه طوالَ حياتي قبلك؟ أإرضاءً لكِ ولغروركِ كلّفتِ نفسكِ بذلك أم لسببٍ يفوتني؟

في كلِّ اتّجاهٍ تذهبُ برَجُلٍ مفرد خيالاتُه، وهذا أحدها فاَعذري إن وسعك العذرُ، وإن لم يَسَعك فقرّي عيناً: هل حجّةً أبلغَ على ما فعلتِه بي من أنْ أتهوّر فأُكاشفك بذاتِ نفسي جميعاً، لا مُستثنياً ما قد يسوؤك منه؟

•

مراراً أخرجك تماديَّ في السكوت عن طورك الخَفِرِ، فَحَثَثْتِني على الإفضاءِ إليكِ بسريرتي، وكان من رِفْقِك بي أن تحيّلتِ لي في تحسين الإفضاءِ بها الحيلةَ تلوَ الحيلةِ. وإن أنسَ لا أنسَ جرَسَ صوتِكِ الآخذ بناصِيَتَي السخرية والنصيحة سواءً بسواءٍ، يوم قلتِ لي: «كفاكَ ما أنتَ فيه. مخارجُ أنفاسك تُضاهي مخارجَ حروفك ضبطاً وإتقاناً،

Twitter: @ketab_n

ولكن تَحْتَ هذا الضبط والإتقان تَلَعْثُمٌ لا يخفى، ما بكَ يا رجل؟! الكلامُ طبُّ أمثالِنا المنزليّ، إن لم ينفعْ لم يَضُرَّ، جرّب، لعلَّ وعسى...».

أخطأتَ أو لمْ بأن لم أختبر نصيحَتك بين يديْكِ، ها أنذا لا طبَّ أستعين به الآن على نفسي إلّا طبُّك المنزليُّ ذاك...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢

رُتبتي التي عَرَفْتِني بها، إمام «مسجد الغرباء»، لم أحصّلْها خلافةً أو عن إرادة مبيّتة. كل ما في الأمر أنّ فقر حال والديّ لم يدع لهما إلّا إلحاقي بمدرسة قريتنا، الأشبه بالكتّاب منها بالمدرسة. ولأسباب منها أنّني كنت الأصغر بين إخوتي، ومنها ما أبديتُه من استعداد فطري للاستزادة من المعارف، كان أن تدرّجتُ مدارج علم الفقراء، وأن انتهيت، مثلي مثل العشرات بل المئات، خرّيج كلّية الدعوة. لم أختر الالتحاق بهذه الكلّيّة إيثاراً لها على سواها ولكنّ طلّاب هذه الكلّيّة، بخلاف زملائهم في الكليّات الأخرى، كانوا يُؤْجَرون على العلم الذي يسعون في طلبه ويستفيدون دون سواهم، لا سيّما متى ما أثبتوا الكفاءة والجدّ، من مُخَصَّصات تجعلهم عيالاً على الكلّيّة ومن يتعهدها. وإذ وافق تخرجي تأميم الدين في بلدي تأميماً

Twitter: @ketab_n

كاملاً، ألفيتُني، وقد تَمَشْيَخْتُ بين ليلة وضحاها، موظفاً في وزارة «حديثة» عُهِدَ إليها بتدبير ما آل إلى مُلك الجمهورية من أوقاف ومساجد، ونيط بها السهر على ضبط إيمان أبناء البلاد الّذين وسموا، بين ليلة وضحاها، مواطنين، ـ وكانت المواطنية في هذه الجمهورية الناشئة، المؤسَّسَةِ على أنقاضٍ لا على أُسس، لقباً مُتَقَلِّبَ المعاني تَقَلُّبَ سياساتها.

لا تحضرني عن ذلك العهد ذكريات سيّئة أو جميلة، فسنوات تلمذتي لم تغيّر في شيء من زهدي في الاختلاط بِلِداتي ومن طبيعتي المنطوية، ولم تورثني إلّا ما نشأ بيني وبين قلّةٍ من شيوخي من «صداقة» كنهها الإعجاب لا المودّة. وصدّقي أو لا تصدّقي، فخروجي من حَرَم الكلّية ودخولي «الحياة العملية» موظفاً في تلك الوزارة ومُستأجِراً لشُقَيْقَةٍ لا يُشارِكُنيها أحدٌ أوْرّخ له بانقطاعي عن أداء صلاة الفجر. فأيّام الكليّة كانت صلاةُ الصبح جماعةً «كتاباً موقوتاً»(*) يَرْدَعُ المُتَخَلِّفَ عنها لمرّة عن التَّخلّف ثانيةً سجلٌّ بالٍ عملاق على كلّ طالب ألّا يُغادر المسجد دونما أن يمهره بتوقيعه إزاء اسمه وتاريخ اليوم.

(*) ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾، النساء، ١٠٣.

Twitter: @ketab_n

هل يُعقَل أنّ الصبيَّ الذي كان يصرُّ دون إخوته على مرافقة أبيه فجر كل يومٍ لأداء الصبح في مسجد القرية، والذي تعلّم الوضوء بماء يقفقف الأطراف من شدّة برودته، وتعلّم كيف يصلّي قبل أن يفك الحرف، المعتاشَ من حضِّ الناس على التمسك بالدين وأركانه وشعائره، يؤرخ لمرحلةٍ من مراحل حياته بتركه الصلاة؟! أخشى أن تسيئي فهمي وأن تتأوّلي سلوكي هذا تأويلاً بعيداً أو أن تنسبي إليّ موقفاً من «الدين» لا أدّعيه. رويدك. تركتُ الصلاة، إلّا في المناسبات، ولكن ذلك لم يغيّر من إيماني في شيء. كيف ذلك؟ أنا نفسي، الآن، لا أُحسِنُ أن أشرح الأمر بكلام واضحٍ مفهوم رغم حاجتي المِلْحاحة إلى بيانه لنفسي قبل بيانه للآخرين. للحين أمهليني وخذي ما أقوله على علّاته... ليس عندي أفضل منه ولا أقنع!

رغم انقطاعي عن أداء الصبح في المسجد القريب من سكني، لم تُغادرني عادة الاستيقاظ المبكِّر، وعليه فلقد كانت نهاراتي تبدأ مع الفجر وتنتهي قرابة منتصف الليل، تفتتحها ساعات الدراسة وتختتمها، (ذلك أنّني لم أكد أتخرج من كلية الدعوة حتى التحقت بقسم اللغة العربية

Twitter: @ketab_n

من كلّية الآداب)، وتَتَخَلّلها ساعات الوظيفة والقيلولة. كان الأمر كذلك وعلى هذه الحال عشتُ سنواتٍ لا يخلّ بنظام حياتي ما بدَّلته من سكن، ولا ما رُفِّعْتُ إليه من درجاتٍ وظيفيّة.

كيف مع هذا جميعاً، ومع ما اكتسبتُه من معارف وشهادات، كأنّي بي يوم التقيتك لم أفْعل شيئاً على الإطلاق، وأنّ حياتي قبلك لا شيء يُذْكر؟

مُثابرتي على الاستزادة، كيفما اتفق أحياناً، وحرصي على إتمام واجباتي الوظيفيّة على الوجه الأكمل، مَيّزاني عن زملائي، لا سيّما في أعين البعض من رؤسائي، إلّا أنّهما لم يجعلا منّي «موظفاً نشيطاً» بالمعنى الاصطلاحي. فالنشاط في وزارتنا، كما في سواها بالطبع، لم يكن من أسماء الموظّف الحسنى إلّا على سبيل الكناية المغنية عن الحقيقة. فالنّشيط ليس بالضرورة من يقوم بواجبات وظيفته على التمام والكمال، وإنّما من يُحسن ممالأة الرؤساء والتودّد إليهم، ومن يجيدُ التسلُّل من ولاءٍ إلى آخر، ومن يُحسنُ مُكايسةَ خَفر الجمهورية وحرّاسها ولو على دم القريب والصديق. أما أمثالي، بتواضع، وهم قِلّة، فلم يُعَدّوا شيئاً يذكر

Twitter: @ketab_n

بل لو أمكن أصحابَ الشأن الاستغناءُ عن خدماتهم لما تأخّروا، ولكنِ اتّفق أنّ المعوَّل كان تقريباً عليهم فلم يُمْكن.

لا أدّعيني وُلدتُ مفطوراً على مكارم الأخلاق، فَنَزَّهتني فطرتي هذه عن التشبّه بزُملائي، وعن محاكاتهم في ما يأخذون فيه من دجل ورياء. كلّ ما في الأمر أنّني، بحكم تربية ريفية صارمة لم تزايلني مبادئها إلى يومي هذا، ورغم «ثقافتي الدينية»، لم أحمل «الأخلاق الحميدة» على أنّها حرف مهمل يقبل سبع قراءاتٍ بل على «المروءة»، ومن ثم أوشك أن أقول إنّ وراء أنفتي من التشبه بزملائي، أصحاب الحظوة، تلك البقيّةَ من مروءة جاهلية فُطِرْتُ عليها، لا «الأخلاق» المسطورة في الكتب، ولا ما تُجْمِع شرائعُ الأرض والسّماء على الدعوة إلى اجتنابه. والأرضُ يا مولاتي، هذه الأرضُ التي يحلو للغةٍ تقاسمنا خبزها وملحها وصفها بالعريضة دون الطويلة كلّما رامت التأكيد على وَساعتها، لا تعدو عندي تلك القرية الجبليّة التي قُسِمَ لي أن أولد فيها وأترعرع إلى أوّل شبابي. أمّا السّماء فلم أنظر إليها من هناك، من تلك القرية المُتَرَبّعة ذروةً شاهقةً، كما تعلمت أن أفعل في ما بعد. كانت السّماء

Twitter: @ketab_n

عندي وعند أترابي مرجاً لا يختلف عن المروج الفسيحة المحيطة بقريتنا إلّا بألوانه الزرقاء وما يختلف على ألوانه الزرقاء هذه من دَكَنٍ وإشراق، وكانت السماء هذه، سُكّاناً وأثاثاً، أقرب من مركز المحافظة... كانت كذلك، لا أُبالغ.

على قرابة ألفي متر ارتفاعاً عن سطح البحر وعلى رحلة ساعتين مضنيتين من مركز المحافظة وُلدتُ بين قوم سُنَنُهُم في المعاش والتدبير، ومطالبهم من الدنيا، أدنى بكثير ممّا تُوجِبُ لهُم غلالهمُ المتواضعة، ولكن ليس حدّ البؤس والفاقة. هكذا أفسّر لي «بساطة أخلاقهم» وما ورثته عنهم منها، وأفسّر ألّا تستأثر الأخلاقَ بوافر من همومهم: حَسْبُهُم من دينهم لدنياهم ومن دنياهم لدنياهم ما يجب وما لا يجب. مفطوراً، أدّعي، على هذا الحدِّ الأدنى الجامع المانع من قواعد السلوك، لا أذكُر حاكَ في نفسي يوماً شعورٌ بالغَيْرة ممّا كان زملائي ينجحون في استجلابه لأنفسهم من مكاسب وترقيات، ولا طاف بي شيءٌ من الشعور بالغبن، بل على الضّدّ منه، لم يَزِدْني ذلك إلّا اعتصاماً بتعجرفي الصامت.

أمِن وحشتي بين الناس وبين زملائي كان منّي أن أزمعت على آستئناف تحصيلي الجامعيّ في قسم اللغة

Twitter: @ketab_n

العربيّة من كلية الآداب، أم إنفاذاً لمرسوم رَسَمَه علّامُ غيوبٍ، مقدِّرُ أقدارٍ، قضى بأن أتزوّدَ مِنَ المعارف ما يُدْخِلُ لقاءنا في باب الممكن والمعقول على حدٍّ سواء؟

دعيني لزعمي أنّني لا أرجّح تعليلاً على آخَرَ ولا تُجادليني في أنّني لم ألحظ احتمال اللقاء بك من وراء نيل تلك الإجازة في آداب اللغة العربية وتاريخها ـ لا تفعلي وتناسي أنّني يومذاك لم يَدُرْ في خَلَدي أنّ هذه الإجازة مفضية بي إلى أبعد من الالتحاق بسلك التعليم الذي كنت أرى في الالتحاق به مفرّاً من حكمٍ بالسّجن المؤبّد في سلكٍ ووظيفةٍ لم أخترهما، ولكن أوقِعا عليّ إيقاع العقوبة. فأنا نفسي، وليومي هذا، لا أكاد أصدق أنّ «الأبعد» الذي كان قصاراه أن أُغيّر مسمّاي الوظيفي ليس إلّا، قد أبْعَدَ بي على مشارف الأربعين إلى هذا الحدّ، وأنّني لولا تلك الإجازة لما التقيتُ بك ولما أُهدر دمي، ولما حَمَلتني المقادير إلى حيث أنا.

مرّاتٍ ومرّات سألتِني عن حياتي «الماضية»، وألحفتِ بالسؤال أحياناً، وقلّما أشبعتْ جواباتي الموجزةُ المتهربةُ فضولَك، وقلّما اقتنعتِ بصدق روايتي ومفادها أنّني طوال

Twitter: @ketab_n

سنواتٍ عشت «في الظّل»، مثلي مثل الآلاف من مواطنيّ لا يُميّزني عنهم منصبٌ أو لقبٌ أو سوى ذلك، بل لطالما ارتبتِ في روايتي هذه ودعوتني إلى حبْك روايةٍ أقلّ تواضعاً وأقرب إلى التصديق، ولطالما أهاجتْ دعوتُك تلك في نفسي شجوناً لم أجرؤ على البوح بها بل لم أر، حتى بعد إعمال الفكر، كيف يُباح بها. مقدارَ إلحاحك كان تفاقم عِيّي، ولهذا لربما عدت لا أتصوّر حياتي «الماضية»، أي ما كان من أمري قبل اللقاء بك، إلّا أشبه بصَدَفَةٍ محكمة الغلق أخشى ما أخشاه إن أنا افتضضتُها ألّا أجد بداخلها من شيء ألبتة!

لأسبابٍ، أخفُّها وطأةً داعيةُ الإحصاء التي تنتاب المرء في لحظات الشدة، لا سيّما إن كانتِ الشدة هذه خطر الموت، ها أنذا اليوم أقل تشبثاً بأنّ صَدَفَةَ حياتي «الماضية» خالية ـ أقل تشبثاً بها فكرةً ولكن أرسخ يقيناً أنّ ما بطيّها من أحداث وأسماء ملك حياةٍ (أولى أو أخيرة ما أدراني!) مضت إلى غير ما رجعة.

مضتْ، أو باشرتْ بالأحرى تمضي يوم استدعاني غداة قلاقل صَوّبت، على ما قيل، مسيرة جمهوريتنا، شيخٌ بيني وبينه، رغم علوّ سنّه عليَّ ومشيختِه بما لا يُقاس، تاريخ

Twitter: @ketab_n

طويل من الود المتبادل. ولمّا كان شيخي هذا مِمّن أصابتهم حرفةُ السياسة منذ شبابه الأوّل وتلعّبت بحياتِهِ فأدخلته السجنَ حيناً وقلّدته المناصب الرفيعة أحياناً أخرى، ولمّا كان من مؤيدي «الحركة الإصلاحية» التي تلقّفت زمام الأمور في جمهوريتنا المعذبة الحائرة من زمرة العسكريين الذين انتزعوها من أصحابها السابقين، فلم أشكّ في أنّه إنّما استدعاني لغرضٍ يمتّ إلى هذه «التطورات» بصلة. ولم يُخطىء ظنّي ولكنّه تجاوز توقعي بما لا أنتظر. بعد سلامٍ قصير خالٍ من المجاملاتِ الكاذبة بادأني شيخي بأسلوبه الحازم المَرِح المُضَيّع في آن بما استدعاني من أجله: «لولا ثقتي بأنك لن تخذلني لما طلبتك. لمرّة يَسعني القولُ مطمئناً إنّنا في أيّام دولتنا، محلّك ليس وراء مكتب في الطبقة الثانية من إدارة حكومية. أريدك أن تستعدّ لسفر عاجلٍ. لقد زكّيتك لتكون إمام مسجدنا في (...) وخطيبه ومدرّسه».

ولم يكد شيخي يُنهي كلامه حتى دُقّ الباب ودَخَلَ ضابطٌ لم أُحْسِنَ تهجّي النجوم وأنصافها المتلألئة على كتفيه فأعيّن رتبته. لحسن الحظ سارع شيخي إلى التعريف

Twitter: @ketab_n

بيننا بألقابنا ـ متعمّداً في إشارة لطيفة إلى دالّته عليّ، أن يُسميني «ابنـ[ـه] الشيخ فلاناً». بلا مقدماتٍ إلّا ابتسامة عريضة وحركة من يديه الاثنتين مفادها «الأمر لك»، أسْلَمني شيخي إلى ثالثنا العسكري.

كمن يؤدي رسالةً لا كمن يُفاوِض حواراً، هجم عليّ الضابط الذي لم يُكلِّف شيخي نفسه مؤونةَ إخطاري بإقباله على الانضمام إلينا أو بتعليل تدخّله، ـ هجم عليّ بمطالعة مسهبة مفادها بالمختصر أنّ سمعة جمهوريتنا «في الخارج» لا تقلّ شأناً عن سواها من الشؤون السياسية والاقتصادية، وأنّه نظراً إلى سلوكي الشخصي الذي لا غبار عليه، وإلى مؤهلاتي العلميّة، وبناء على تزكية شيخي، وبعد التشاور تقرّر تعييني إمام «مسجد الغرباء» وخطيبه ومُدَرّسه!

لم يغب عنّي أنّني أُزَجُّ زجّاً في أمرٍ لا ناقةَ لي فيه ولا جمل، ولا أنّني إذ يُناط بي هذا المنصبُ أخلِفُ زميلاً لي في التابعيّة والمهنة أتى ما يُسيء إلى سمعة جمهوريتنا، أو لم يأتِ شيئاً سوى أنّ أيّام دولته قد دالت. على أنّه كذلك أستقبلتُ نبأ تكليفي بانقياد ومؤاتاة لم يجذ لهما محدِّثي من تفسير، سوى ما أسمعنيه من إطراءٍ خصَّ بجزءٍ وافرٍ

Twitter: @ketab_n

منه ما وَصَفَهُ برباطةِ جأشي! كأنّه عالم سلفاً بما ينتظرني...

بالغاً ما بلغت دقّةُ التقارير المرفوعة عن شخصي المتواضع وإحاطَتُها بما يُرَجّى منها أن تُحيط به، أي كلّ شيء تقريباً، لا أظنّ هذه التقارير أفلحتْ في تصوير وحشتي وانقباضي، بل وسوداويّتي أو اهتمّت لذلك، أو لعلّي أُغالطُ نَفْسي وتَراها وجدت في أعطالي عزيز طلبها!

بتُؤدةٍ أستطردُ إلى هذا الفصل من فصولِ حياتي، المعدودةِ على فصول السنة، ـ بتُؤَدةٍ من يدخُلُ بناءً خرباً لا من يستكشفُ أرضاً بكراً، لأنّها، ثقي، أوّلُ مرّة، ولربّما الأخيرة، أفعلُ.

سادس المستحيلات لئلّا أقول سابعها أن أفسّر اليوم، بأيّة سهولةٍ ولامبالاة وافقت على تعييني إماماً لذلك المسجد الذي كنت أعرف فرادة محلّه. فإن احتججت لتلك السهولة واللامبالاة بـ«أسباب شخصيّة» لم أُصدَّق وإن قدّمت لاصطفائي هذا أسباباً «غير شخصيّة» من مثل انحيازي أيّام الدراسة إلى مواقف دون أخرى بدوت مبالغاً.

Twitter: @ketab_n

فعلى أنّ المساجد في أربعة أرجاء الأرض للّه وحده إلّا أنّها، ولربما قبل أيّ اعتبارٍ آخر، بمَنْ يؤمّها أيضاً من المؤمنين وبمن يؤمُّ مؤمنيها، و«مسجد الغرباء» لا يخرج عن هذه القاعدة. في الأصل، وفي التسمية الرسمية، هو «مسجدُ العمرين» ولكن تشييده بتبرّعاتِ المؤمنين من أبناء جاليتنا المتخذين بلدكم على مرّ العقود مُرْتَفَقاً، ومكانه في الحي المتخذيه منزلاً غَلَبا فَنُسِب إلى «الغرباء». وبحكم أنّه كذلك واقتصار روّاده في المعظم على أهل هذا الحيّ الذي توسع مع الأيام حتى استحال ضاحيةً قائمة برأسها، وبحكم أنّ خدمات المسجد توسعت بدورها فلقد جرى العُرْفُ أن يُسَمّى إمام المسجد وخطيبه بالتوافق بين «المعنيّين» في كلا البلدين.

بطبيعة الحال لم يَخْلُ أن اضطرب هذا التوافق أحياناً من جرّاء «توتر العلاقات بين البلدين»، وأن انقسمت اللجنةُ المكلفةُ إدارة هذا الوقف وأنشطته على نفسها وأن كان كلّ ما يكون في مثل هذه المواقف.

اختياري القيامَ بهذه «المسؤولية» هو الحبكة التي ما كان لحياتي أن تنعقد لولاها رواية.... على أنّه كذلك

Twitter: @ketab_n

أدع هذا الأمر للحين. أشاى منه عندي وأعجل أن أؤكّد أنّني يومذاك لم يخطر لي ببال أنّني مدين لأحدٍ بأن أُخَرِّج موافقتي على نحوٍ أسْلَم معه من أن يُظَنّ بي ممالأة أهل القوّة الجدد.

حتّى طلَبُ السلامة، وهو ما شاع من تفسيرٍ لموافقتي بين الزملاء الّذين بغتهم أن يقع الخيارُ عليَّ دون سواي لِما عُرِفْتُ به من آعتزالي جدّهم ولهوهم، - حتّى هذا كانوا هُم أسرعَ منّي إلى افتراضه ولأبسط سبب: أن لا عواقبَ خشيتُ أنا أن يعود عليّ الرفض لو أنّني رفضت الوظيفة الجديدة.

من يُصَدّق أنّني على الحضيض كنت، وأنّ الأقرب إلى «الحقيقة» هو أنّني صدرتُ في قبولي حمل هذه المسؤولية عن مزيجٍ من اللامبالاة والتشوّق معاً: من اللامبالاة لاطمئناني إلى أنّني، في سرّ نفسي، لا أدينُ لأحدٍ بتبريرٍ أو بفضلٍ، ومن التشوّق لما توسّمت في آنتقالي من هنالك إلى هناك من توسعة عليّ وتفريج عنّي ومن رفع لرتابة حياةٍ ليست دون الحياة فقط وإنّما لا مزيدَ أستزيده منها... هذا إلى الوثوق كلّ الثقة بأنّ إدارة المسجد ورعاية روّاده لن

Twitter: @ketab_n

تقتصر عليّ. فهل يُعْقلُ، على ما قلتُ في نفسي يومها، أن تَدَعَني الجمهوريةُ أرابط وحيداً على ثغر مؤمنيها ذاك؟ وفوق هذا جميعاً وقبله وبعده، ولعلّه بيتُ القصيد، أنّني لم يطفْ بي طائفٌ من شعور بالذنب أو بالارتهان، أو بالارتداد عن قناعةٍ واَعتناقِ أخرى كذباً ورياء!

Twitter: @ketab_n

٣

أستعجلُ الكتابة عنكِ كما قد يستعجلُ المرءُ موعداً عَلّقَ عليه انتظاراً طويلاً. والكتابةُ عنكِ أشياء وأشياء بعدد ما عشناه معاً، تتزاحمُ في عقلي وفي جسدي. فهل لما عشناه من إحصاء أو عدد، أو هي قلّةُ ثقتي بنفسي وباستحقاقي أن ألتقي امرأة مثلَك تسوقُني، المرّةَ تلو المرّة، إلى الشكّ بأنْ كان بيني وبينك ما كان، فلا أجدُ لي ما أطردُ به الشكّ سوى أن أستروبني، المرّة تلو المرّة، بالتفصيل المملّ، قصّتَنا من ألفها إلى الياء.

أُريدَ لي أن أكونَ إماماً لذلك المسجد، فأردتُ، وأخذتُ أرعى شؤونَ أُمّتي الصغيرة الصغيرةَ، بما أملك من علمٍ قليلٍ وجَلَدٍ طويل، سرعانَ ما تبيّنتُ أنْ لا حاجة للمرء إلى سواهما ليفي بواجبات هذه الوظيفة. فالمعظم من روّاد مسجدي، بيتِ اللّه ذاك، كانوا يدخلونه لطرح أثقالِ

Twitter: @ketab_n

ما يعصي عليهم أمره من تكاليف الحياة الدنيا، أكثر منهم لتعظيم آسمه كما يليقُ بهم أن يفعلوا. وما أراني مبالغاً: فلو تسنّى لكِ الاستماعُ إلى شكاياتهم لعلمتِ أيّ كنيفٍ كانت أذني، وأيّة همومٍ كُنتُ أتنفّس، ولفهمتِ نَشْوتي وآضطرابي حين أقبلتِ عليَّ تدعينني بعفوية، لم أتبيّن إلّا بعد حين كم أنّها منك بمنزلة الطّبع، وبلغةٍ لا عهدَ لي ببساطتها ووضوحها وحزمها، إلى همومٍ أخرى ألصق بهمومي وأورى لحماستي من تلك التي كُنتُ غريقَ طوفانها.

بعد قليلٍ يُعاودني الشّكُّ في «حقيقة» ما كان بيننا وفي أنّه كانَ حقّاً، وما إن أقهرُ تنّين الشكّ هذا حتى يخرج عليَّ آخَرُ متنكراً هذه المرة بلبوس فكرةٍ عنصرها أنّ هذا الّذي كان بيننا إنّما تفتّق عن صُدفةٍ محضٍ، أو اتّفاق عابر، وكان يمكنُ ألّا يكون قطُّ وأنّه لهذا السبب، ومهما جَمّلته في عيني، عُرضةٌ للطعن فيه. لا أجدُ ما أردُّ به على هذا العيب الأصلي الذي يَسِمُ ما بيننا بِوَسْمِهِ سوى أنّني، لولا ما نشأ بيننا لبقيت رهينَ محبسيَّ: مسجدي وذلك الحيِّ المطبوع بطابع سكّانه الطارئين عليه، لغةً وروائحَ وجَلَبَة، والّذي استحال شيئاً فشيئاً قصبةً متشرنقةً

Twitter: @ketab_n

على نفسها لا ينقصها غيرُ مئذنةٍ طويلةٍ، ليفهمَ الداخِلُ إليها أنّ عليه أن يخلع نعليه قبل آجتياز عتباتها.

يُعذّبني أنّني حتّى الآن، وقد أصبح ما بيننا في خبر كان، أي في ذمّة ما تجري عليه الروايةُ ولا يدخل عليه تعديلٌ أو تنقيحٌ، ـ يُعذّبني أنّني ما زلتُ ألتمسُ له ضرورةً تُوجب عندي أنّه كانَ لِعِلّة وجيهة، ولم يسنح، كما تسنحُ الفرص فقط.

هل تفهمينَ الآن، وأنا حيث لا تعرفين، لماذا خذلتك أحياناً إذ أهَبْتِ بي أن أُحَدّق في عُريك وأن أَشْبَعَ منه، وكم كان يقتضيني وما، وأنا ناشبٌ فيكِ أخلّل أصابعي في شَعرِك، أن أرفع رأسي لتأخُذ عيناي عينيكِ لحظةَ اللّذة، ويخاطبَ البؤبؤُ البؤبؤ، وفيمَ كان الخرسُ نصيبي تحتَ سطوة آنتشائك، وفيمَ كُنْتُ أوكِلُ إلى كفّيّ، مغمضَ العينين، أن يُمَسّدا جسدَك من أقصاه إلى أقصاه؟... من أين كان لي أن أجرؤ على أن أفتح عينيّ أو أن أدع شفتيّ تنبسان بنأمَةٍ، وأنا امرؤ بينه وبين الحياة تاريخٌ مديدٌ من الجهل بها ومن تجاهلها... ومن أين كان لكِ أن تعرفي؟!

•

Twitter: @ketab_n

لم يبدُ لي، إثر حديثنا الهاتفيّ المقتضَبِ الأوّل أنّ بينك وبين أمثالي معاطاة. أكّدني في ذلك ما وَشَت به نبرات صوتك من تهيّب في غير محلّه، وما اَستعنتِ به لمخاطبتي من ألقاب فضفاضةٍ لا عهد لي بأن تتقدَّم اَسمي إلّا في المناسبات أو مطبوعةً على الدعوات التي تردُني، أو في بعض النشرات الموسمية المعنية بشؤون الجالية. وأكّدني في ذلك أيضاً مرآكِ يومَ جئتِ لزيارتي بناءً على موعدِنا الهاتفيّ، ولا سيّما قلّة مهارتك في عقد المِنديل الّذي أوْكَلْتِ إليه أن يحجبَ شَعرَك عنّي، وأيضاً ما تمثّل لي أنّه خَيْبَتُك من زيّيَ «العصريّ» وسلوكي الّذي وصفتِه ذات يومٍ إذ كُنّا نتذاكر وقائع هذا اللقاء الأوّل بـ«السَّمح»!

كانت تلك، على ما حَدّثتِني في ما بَعْدُ، أوّل مرّة تدخلين فيها إلى مسجد ـ واستدركتِ: «إلى مكان من هذا القبيل». فما تصالحنا على تسميته مسجدي كان في واقع الحال جزيرة مُسَوّرة تقوم عليها ثلاثة أبنية مستقلة: واحدٌ مستطيل واثنان مربعان، تصل بينها ممرات مُبَلَّطة بارتجال ظاهر تقي المتنقل بينها الخوض في الوحل شتاء.

Twitter: @ketab_n

المستطيلُ منها، الأشبهُ بمرآب ضخم رغم بابه ذي الأضلاع المذهبة، كان المسجد بذاته، وأمّا المربع المتواري خلفه عن أعين الداخلين إلى مستعمرتنا من مدخلها الرئيسي فبناء قليل المساحة، قليل الارتفاع حتى لبناء من طابق واحد (ولكن لم يمكن غير ذلك لئلّا يعلو على المئذنة). بخلاف هذا البناء الذي يشغل خادم المسجد غرفَتَيْ طابقه الأرضي وأنا غرفَتَيْ طابقه الأوحد لا يتوارى البناء المربع الآخر بل يحاذي المسجد ولا يطمح إلى الارتفاع، فغايةُ الأمر من إنشائه كانت تزويد المسجد بقاعة تصلح لـ«النشاطات الثقافية والاجتماعية».

بعد لأي تم إنجاز البناء ولكن لم يتوفر المال الكافي لتجهيز القاعة وتأثيثها فبقيت على حالها إلى حين وصولي حيث اقتطعت منها أمتاراً عند مدخلها اتخذتها مكتباً لي، وجعلت في زاوية منها بضعة كراسٍ رفعت هذه الزاويةَ إلى مرتبة «قاعة اجتماعات» في حين تحولت المساحة الباقية إلى مخزن برسم المحظوظين برضى خادم المسجد عليهم من الجيران وأصحاب الدكاكين المجاورة!

حرصُك على وقتي خوّلك التحكّم بوتيرة لقائنا هذا.

Twitter: @ketab_n

فبعد شكري على آستقبالك، رغم ما آفترضتِه من كثير مشاغلي والتنويه بِمَنْ زكّاني عندك، بسطتِ لي سبب زيارتك بإيجاز، ثمَّ أخرجتِ من حقيبتك إضبارة أنيقة، قلتِ إنّ فيها عَرْضاً موسَّعاً لما شرحته لي. وإذ آنتهى إلينا في مكتبي، حيثُ آستقبلتُك، النداءُ إلى الصلاة الطالع متمطياً، لكثرة ما رُفِعَ، من ذلك الببغاء الآلي المسند بحرصٍ إلى المنبر، سارعتِ إلى الاستئذان بالانصراف وبمهاتفتي في الأيّام المقبلة للوقوف على رأيي في «المشروع».

بكلمات متعثّرة حاولتُ أن أقولَ لكِ إنّه لا بأس علينا من متابعة حديثنا، رغم الدعوة إلى إقامة الصلاة، ولكنّني لم أُفلح؛ لعلَّك ظننتِ أنّ دعوتي من باب المجاملةِ الخجولة. على هذا فلقد آنتهزتُ الدقائق الّتي قضيناها وقوفاً عَقِبَ آستئذانك بالانصراف لأعبّر لكِ عن كبير آهتمامي بـ«المشروع»، وعن استعدادي لوضع معارفي المتواضعة بتصرّفه. لم يَغْدُ ما قلتُه لك ساعتَذاك عباراتٍ جاهزةً تصلُح لأيٍّ كان ولأيّ «مشروع»، ولكنّني تعمّدتُ الإطالة لأؤكّد لكِ بأنّني كُنتُ جادّاً في دعوتي إيّاك إلى متابعة حديثنا. وكأنّي بكِ وصلتْكِ فحواء رسالتي فقطعتِ عليَّ

Twitter: @ketab_n

برفقٍ حبلَ مطالعتي بسؤالي متى أسْتَنْسِبُ أن تُعاودي مهاتفتي، وهل إنّ اللقاء خارج حرم المسجد، أي «عندك»، كما تَمْتَمْتِ، بالأمر الممكن. عند هذا الحدّ، ومن بعدِ أن تركتُ لكِ أن تختاري المكانَ والزمانَ المناسبين، لم يَبْقَ لنلتقي ثانية، في أقلّ مهلة، سوى أن تُسارعي إلى الانصراف... وهكذا كان.

بصعوبةٍ مضتِ البقيةُ الباقيةُ من ذلك اليوم الّذي أُخصّصه عادةً لاَستقبال النساء الطالبات النصيحة والمشورة، أو الطالبات في الأغلب تدخّلي الشخصيّ لدى أزواجهن، بما ينسبنه إليّ من سلطةٍ معنوية لنهيهم عن إيذائهنّ، أو عن تبديد القليل الذي يكسِبْنَه على ملاهيهم. لحسن الحظّ أنّ زائراتي ذلك اليوم اَقتصرنَ على ثلاثٍ، وأنّ إحداهنّ جاءت للشكر على مسعىً نجح، في حين عهدت إلى الأخ المسؤول عن الشؤون المُسماة اجتماعية أن ينظر في ما أجاء كلّاً من الأخريين إلى طرق باب المسجد. لم تُجهدني زائراتي ولا كان يومي شاقاً غير أنّني لم أتنفّسِ الصعداء إلّا عند اَنسحابي إلى غرفتي بعد الطلب الصريح إلى خادم المسجد عدم إزعاجي إلّا لأمرٍ جلل.

Twitter: @ketab_n

أشبه شيءٍ كانت تلك الليلة بلياليّ هنا: مُمَدّداً على فراشي، متوسِّداً كفّيّ المشبوكتين، أخذتُ أسترجعُ، مغمض العينين، تَحْتَ سلطان خَدَرٍ لذيذ، وقائع لقائي الخاطف بكِ، تماماً كما يحدث لي أن أفعل هنا إذ أسترجعُ وقائع ما كان بيننا، وجِدٌّ ما يُدهشني أنّ ما كان بيننا، طوالَ شهور، يبدو لي مذ عدتُ لا أمْلِك إلّا أن أقصّه على نفسي، خاطفاً وبرقيّاً كمثل لقائنا الأوّل ذاك.

على نبرات صوتك التي زايلها تلبّك محادثتنا الهاتفية الأولى الرشيقة تَشرحينَ أنّ المتنبّي، وإن لم يكنِ الشاعرَ العربيّ الأوحدَ الّذي يستأهل أن تُجَرّد في سبيله حملةٌ علميّةٌ تَستقصي عوالِمَهُ وتُحصيها وتُبوِّبُها، على أن تُودع نتائجُها كتاباً موسوعةً، فهو حتماً صاحبُ الشِّعر والسيرة الأجذَبَيْن، ـ على نبراته أطبقتُ تلك الليلة جفنيّ لا حاسباً لغدٍ أو لشيء حساباً...

Twitter: @ketab_n

٤

إن كان نوماً ما أخذني ليلتي تلك، فحاصلُه أنّني لم أعرفِ النومَ قبلاً، وإن لم يكن نوماً، فأنّني أمضيتُ شُطوراً من حياتي نائماً. أسيرَ هذه الخاطرة وأخواتٍ لها لا يتدانَيْنَ عنها سَفْسَطَةً في الشكل، حقيقةً في المضمون، قضيتُ ساعاتٍ من بعدِ فريضةِ الفجر الّتي كدتُ أفوّتها لولا إصرار خادم المسجد على قرعِ بابي. تحاشياً لتطفّله عليّ مجدّداً مع اقتراب الثامنةِ صباحاً، سارعتُ إلى إشعاره بأنّ توعّكاً عرض لي في الساعات الماضية يضطرني إلى لزوم حجرتي، سائلاً إيّاه ألّا يُراجعَني إلّا في أمر طارىء، وألّا يُحيلَ إليّ من الاتصالات الهاتفيّة إلّا... وأذكرُ جيّداً أنّني لم أُتِمَّ جملتي هذه بل استدرتُ وعُذتُ أعقابي إلى غرفتي، مفترضاً أنّ محدّثي سوف ينسبُ تلعثمي وتشتّتَ أفكاري إلى توعّكي المزعوم.

Twitter: @ketab_n

ولكن هل كان مَخضَ زعمِ توعُّكي هذا؟ أسوأُ ما في الأمر لربّما أنّني، على مدى الأيّام الّتي فصلت بين لقائِنا وبينَ اتّصالك الهاتفيّ التالي، أقمتُ يُشَبّه لي أنّني مريض رغم استيفائي سائر شروط المرض، ولو أنّ العيبَ في مرضي كان، ولمّا يزل، تعطُّله من اسم يُعَرِّفه ويُعَرّفني.
هناك، في غرفتي، تلبّسني السّؤالُ: «إلّا...؟ إلّا...؟»، كنوبةِ سُعال خانقة. جرّبتُ كلَّ ما حَضَرَني من جواباتٍ، وبطبيعة الحال لم يكن بينَها من جوابٍ واحدٍ مُقْنعٍ أو وافٍ بالغرض. لم أُرِدْ سوى استثنائك، ولكن كيف؟ أو كيف أستثني «لقاءً عابراً» بامرأة لا تشبه في شيءٍ زائراتي المعهودات، وبأيّ اسمٍ أفعل؟

أين أنتِ الآن يا مولاتي وكيف أنتِ؟ أبصُحبة أبي الطيِّب الّذي جاء بكِ إليَّ؟ والذي ما سمعتك تأتين على ذكرِه إلّا باسمه أحمد، فعجبت عجباً مكتوماً لشابّةٍ ترفع الكلفة بينها وبين هذا القدر الهائل من الشِّعر والعربيّة والتّاريخ والغموض.

في ما بعدُ، لمّا عقد المتنبّي ما بين هوايَ وهواك، انقلبَ عَجَبي إلى ما يشبه الغَيْرة، ومن أين لي أن أقول

Twitter: @ketab_n

غَيْرةً فحسب، وأنا أغارُ من ميّتٍ لا أعرف أحداً أحيا منه.

•

حتماً لم تدري أيَّ مَوْجعٍ أصَبْتِ إذ جئت تقترحين عليّ المشاركة في ذلك المشروع. فَمِنْ أعراض «شيخوختي المبكرة»، التي لم أحتج إلى طبيب لتشخيصها انصرافُ شهيتي، مع تقطّع آمالي الصغيرة تحت وطأة الرتابة، عن كُتُبٍ أسهرتني قراءتها الليالي الطوال ومنها ديوان صاحبك... المتنبّي أحمد. ولا فَضْلَ لي في أن قضيت ساعات طوالاً بصحبته ولكن الفضل له، ومن خشية المبالغة، أو ظنّك بي المُمالقة، أتردّد في أن أقول لكِ غير ذلك مما بيني وبين صاحبك: أنَّ ديوانه من الكتب التي لم أكتف بقراءتها بل ألزمت نفسي نسخها بقلمي إمعاناً في الاحتفال بها. وأكثر: أنّني في مقاومتي العفويّة ما شعرتُ به يتولاني من شيخوخةٍ مبكرة كان ديوان المتنبّي أحد الكتب القلائل التي جدّدت اقتناءها هنا، أوّل عهدي بمنصبي الجديد الذي عوّلت عليه أن يُهيّىء لي مخرجاً من بؤسي المطمئن الذي وجدتني على غفلةٍ مني، وعلى الرغم من نوبات قلقي العابرة، أرفل فيه.

Twitter: @ketab_n

إنْ أدَع نَفسي للترّهات ـ تُرّهاتِ النظرة الأولى واللقاء الأوّل والصُّدَف التي لا مواعيدَ تُضاهيها، لا أثِقْ ألّا ينتهي بي الأمر إلى إهانةِ المتنبّي بمسخه خاطبةً تُقَرِّب بيني وبينك ليس إلّا.

لا أدَعْني لمثل هذا ولكن، بيني وبيني، كمثل ما بيني وبينك، لا حيلة لي الساعة، للتقرب مِنكِ، سواه!

لم أكُ على نيّة الاستفتاح(*) ساعةَ وَمَض في خاطري أنْ أستحضرَك من طريق المتنبّي نفسه ولكنني عن غير قَصْدٍ وجدتني أفعل!

تناولتُ ديوانه ذا الجزأين الرابضَيْن منذُ اقتنيتهما مُسَطَّحين لقلّة اَرتفاع رفوف مكتبتي الصغيرة عن إيوائهما وُقوفاً، وفتحتُ الجزء الأوّلَ منهما جُزافاً (كَمَنْ يضرِبُ في كتاب ليستفتح لا ليقرأ!).

لو كان كتاباً طالعتُ فيه مراراً وتكراراً فَطَبَعَتْ قراءاتي فيه قَوامَهُ بحيث باتَ ينفتح من تلقاء نفسه على صفحاتٍ دون أخرى، على غرار كتاب يكثر المرء من مطالعة

(*) الاستفتاح: «استطلاع الغيب من المصحف أو الرمل أو القرعة»، (استشهاد صادق).

Twitter: @ketab_n

صفحات معينة فيه فَيَشي بصاحبه إن وَقَعَ في يَدِ سواه، - لو كان كذلك لاتّهمتني بالغشّ ولكنّه لم يكن.

أقولُ: لم أكُ على نيّةِ الاستفتاح، ولكن ماذا يَسَعُ من كان في مثل الّذي كُنتُ فيه، أسيرَ طيفك، إذ يُفاجئه المتنبّي، وهو من هو في التعزُّز والتبجح والتباهي، بأبياتٍ كأنّها لسان حاله حتى لا يحتاج إلى تأوّلها:

أرى لي بِقُرْبي منك عَيْناً قَريرةً
وإنْ كانَ قُرباً بالبِعادِ يُشابُ

وهل نافعي أنْ تُرْفَعَ الحُجْبُ بينَنا
ودونَ الّذي أمَّلْتُ منك حجابُ؟

أُقِلُّ سلامي حُبَّ ما خَفّ عَنْكُمُ
وأسْكُتُ كَيْما لا يَكونَ جوابُ

وفي النّفسِ حاجاتٌ وفيك فَطانةٌ
سُكوتي بيانٌ عِنْدَها وخِطابُ(*)

على مقتضى حالي، لا مبالياً بأنّ هذه الأبيات في

(*) من قصيدته في مدح كافور (التي «لم يلقه بعدها»):

مُنىً كُنَّ لي أنّ البياضَ خِضابُ فيخفى بتبييض القرون شبابُ

Twitter: @ketab_n

خطابِ «مُذَكَّر»(!)، تأولتها الأبيات كما لو كنتُ تأوّلت أيّةَ أبياتٍ أُخرى وقعتُ عليها، ولكنّها ما ٱتّفق...

كُنْتُ كلّما قرأتُ بيتاً أحسستُ به يتلاشى وترتسمُ محلّه ملامحُك، كما حَسُنَ في عينِ خيالي أن أتَصَوَّرها، وكلّما جدّدتُ قراءة أبياتٍ بَدَوْتِ لي أُخرى، وهكذا دواليك ٱنقضت سحابةُ نهاري، لم يعكِّرها إلّا ما ٱنتهى إليّ عقبَ فريضة العشاء من أصداءِ النقاش الدائر في صحن المسجد.

رغم ٱنشغالي بالمطالعة، وبكِ، كُنْتُ أميّزُ الأصواتَ الواردة عليّ، وأكادُ أستبق على كلِّ ذي صوتٍ يُنْمى إليّ ما سيتفتّق عنه من رأيٍ أو حجّة، بصرف النّظر عن الموضوع الذي يقف وراء احتدام النقاش بينهم. لطالما أدهشتني نخوتُهم على السّجال... ولطالما أدهشني تلذذهم بتكرار الحجج إيّاها وضرب الأمثلة إيّاها، ولطالما ٱستغلقَ عليهم فُتوري فعدّوه حكمةً ورزانة!

حَذَرَ أن تنقلب أُمّةُ المصلّينَ الصغيرةُ أُمّةَ عُوّادٍ إنْ طال غيابي عنها، جمعتُ أمري، وأنا أغلقُ الديوان وعيني على آخر صورةٍ صوّرتُك بها، مُصمّماً أن أعرِّض نفسي نهارَ الغد

Twitter: @ketab_n

لفضولِ أبناء رعيّتي الّذين لم أشكّ في أنّهم لن يتأخروا عن الرَّجم في غيبي إنْ احتجبتُ عنهم يوماً آخر.

لم أنتَظر أن يُدوّي أذان الصبح من الببغاء إيّاه عبر مكبّري الصوت لأغادر غرفتي، بل سبقت عليه إلى المسجد، متعمداً أن أصله قبل الجميع، أو بالأحرى متعمّداً أن يوافق دخول روّاد المسجد انشغالي بتأدية ركعتي سنّة صلاة الصبح. أطَلْتُ في هاتين الركعتين ما حلا لي، ثمّ قمتُ أُصلّي بالجماعة المعدودة المثابرة على أداء هذه الفريضة في المسجد، وأنا عالِمٌ أنْ لا صلاةَ لهم ورائي ولا صلاة لي. شرٌّ من غياب النيّة(*) انصرافها إلى تساؤل لم يغادرني من يومها كلما وجدتني مضطراً أقومُ إلى الصلاة: لا صلاةَ لحاقِنٍ(**) فكيف لمن

(*) «النية هي العزم على فعل العبادة تقرباً إلى الله تعالى، ولا تصح الصلاة بدونها» (استشهاد صادق).

(**) «لا خلاف بين الفقهاء في كراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين لما روت عائشة، رضي الله تعالى عنها، أنّ النبي صلعم قال "لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافع الأخبثين". ويسمى مدافع البول حاقناً، ومدافع الغائط حاقباً.

وألحق الشافعية والحنابلة بذلك من تاقت نفسه إلى طعام أو شراب لأنّه في معناه. قالوا: فيبدأ بالخلاء ليزيل ما يدافعه من بول أو غائط أو ريح، ويبدأ بما تاق إليه من طعام أو شراب، ولو فاتته الجماعة، لما روى البخاري: كان ابن عمر يوضع له الطعام، وتقام الصلاة فلا يأتيها حتى يفرغ، وأنّه ليسمع قراءة الإمام» (استشهاد صادق).

Twitter: @ketab_n

تَتَقَمَّمُ في خاطره أفكارٌ وخيالاتٌ أخبث مما في أحشائه من نجاسات، ثم هذه نجاسات لها من الجسم مصارفُ معروفةٌ لا تكادُ تُسَدُّ حتى يعتلّ الجسم، أما تلك الأفكار والخيالات فماذا يَسَعُ صاحبها أن يفعل وكيف يستنجي منها؟

كلُّ ما أذكره أنّني بعدما سلَّمْتُ(*)، ومضى كلٌّ إلى

(*) نزولاً عِنْدَ إلحاحك أُضيف هذه الحاشية، «المراد بالصلوات المفروضة، الصلوات الخمس التي تؤدى كل يوم وليلة (...)» والصلوات الخمس هذه هي «آكد الفروض وأفضلها بعد الشهادتين وهي الركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة»... «والصلاة أول عبادة فرضت في الإسلام، أوجبها الله ليلة الإسراء والمعراج، والذي يتركها يكون مخالفاً لصريح آيات القرآن، وأحاديث رسول الله، وإجماع المسلمين».

«وقد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير من ترك الصلاة متعمداً (...) وذهب غيرهم إلى فسق تارك الصلاة عمداً من غير جحود لفريضتها، وأوجب تعزيره وحبسه إلى أن يصلي حتى لا يكون قدوة سيئة للناس...».

«وقد ثبت عدد ركعات كل صلاة من هذه الصلوات بسنّة رسول الله صلعم قولاً وفعلاً وبالإجماع (...) لأنّه ليس في كتاب الله عدد ركعات الصلوات...».

تتفاوت هذه الصلوات إذاً من حيث عدد ركعاتها وما يرافقها من سنن؛ فصلاة الصبح ركعتان وسنتها ركعتان قبل الفرض، والظهر أربع ركعات وسنتها ركعتان قبل الفرض وركعتان بعده، والعصر أربع ركعات وسنتها ركعتان قبل الفرض، والمغرب ثلاث ركعات وسنتها ركعتان بعد الفرض، والعشاء أربع ركعات وسنتها ركعتان قبل الفرض وركعتان بعده.

في ما يلي وصف عام جدّاً، يتجاوز عن الكثير من التفاصيل الخلافية، لصلاة ثنائية على نحو ما يصليها أهل السنّة:

Twitter: @ketab_n

سبيله، لم أبرح موضعي إلّا وقد طالعتُ جميعَ ما تصوّرتُك عليه أمسِ من صور.

• يقف المسلم مستقبلاً القبلة وينوي الصلاة ويكون رافعاً يديه بجانب أُذنيه قائلاً: الله أكبر، وتُسمى هذه تكبيرة الإحرام.

• يضع يده اليمنى في يده اليسرى عند السرة ويتلو دعاء الاستفتاح: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين». أو يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك».

• ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقرأ الفاتحة، ويقرأ بعدها سورة أو ثلاث آيات على الأقل ثم يكبّر قائلاً: «الله أكبر».

• يركع ويضع يديه على ركبتيه ويقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» ثلاث مرات.

• ثم يعتدل قائلاً: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد».

• ثم يهوي ساجداً إلى الأرض قائلاً: «الله أكبر» بحيث تلامس جبهته وأنفه الأرض ويقول: «سبحان ربي الأعلى» ثلاث مرات.

• ثم يرفع رأسه مكبراً ويجلس.

• ثم يسجد ثانية مكبراً ويقول ثلاثاً: «سبحان ربي الأعلى»، وبعد الانتهاء من السجدة الثانية ينهض قائماً ويقول: «الله أكبر» وبهذا تتم الركعة الأولى.

ويفعل في الركعة الثانية ما فعله في الركعة الأولى، حتى إذا سجد للمرة الثانية كبّر وجلس على رجله اليسرى، ونصب اليمنى، وقرأ التحيات والتشهد: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

Twitter: @ketab_n

اللّهُ أعلمُ كذلك هل بلغَ بي الاستهتارُ ذلك اليوم أن ردَّدْتُ في سرّي أنّ مصائبَ قومٍ عند قومٍ... بل أن حمدتُ الله على أنّ ما جرى قد جرى وشغلني عنك وعن انتظارك. فما هي أن حلّتِ الثامنةُ، وقد مضت عليَّ ساعاتٌ أتخبّطُ في إعداد خطبة الجمعة المقبل الّتي كان لا بُدّ لها أن تدورَ، بمناسبة ذكرى الإصلاح الأولى، على حبِّ الأوطان، ـ ما هي حتّى تعالتْ من وراء سور

• بعد قراءته للتحيات، ووصوله للتشهد، يرفع سبابته اليمنى ويقول: «أشهد أن لا إله إلّا الله» وينزلها ويتابع التشهد: «وأشهد أنّ محمداً رسول الله».

• ثم يقرأ الصلاة الإبراهيمية: «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنّك حميد مجيد».

• ثم يدعو بأي دعاءٍ ورد عن الرسول صلعم وأشهره: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنّك أنت الوهاب».

• بعد الانتهاء من التحيات والصلاة الإبراهيمية، يلتفت يميناً، ويقول: «السلام عليكم ورحمة الله»، ويلتفت يساراً ويقول: «السلام عليكم ورحمة الله». وبهذا تتم صلاة ركعتين.

أما إذا كانت صلاته أكثر من ذلك، قام بعد التشهد مكبّراً، وقرأ الفاتحة وأتم صلاته وسلم.

جميع الاستشهادات الواردة في هذه الحاشية صادقة.

Twitter: @ketab_n

المسجد جلبةٌ أعقبها قرعُ أكفٍّ لجوج على الباب المعدنيّ السميك. أصابني ما أصاب خادمَ المسجد الستينيّ من ارتباك جرّاء القرعِ فَخِلْتُهُ يتسارع. كذلك غادرتُ مكتبي هرولة في اتجاه الباب إلى حيث كان هو قد سبقني مستطلعاً جليّة الأمر. وإذ لم أكن قد وصلتُ إلى الباب بعد، كانت يدُ الخادم ترتجف مترددة في تحريك المزلاج يساراً. كان القرعُ أشبه بالوعيد منه بالإشارة إلى أنّ بالبابِ طارقاً. لثوان أقلّ من معدودات تماسَكَ الخادِمُ وصمد للوعيد، ثم لم يلبث مصراعا الباب أن تشرعا، بل أنِ انداحا، ووجدتني بإزاء جمع مائجٍ أيديه يدٌ، والأصواتُ المُتعالية من حناجر أفراده ضجيج فحسب. لم تُفْلح محاولتي الخجولة التراجع: كان الجمعُ أسبق وأعتى. كموجة غمرني وكموجة تراجع بي إلى الساحة الدائرية الصغيرة المقابلة لباب المسجد، والّتي لا يفصلُ بينها وبينَه سوى شارع ضيِّق...

بما يشبهُ الخُطوةَ الواحدةَ حملني الجمع المُحْدِقُ بي إلى السّاحة، وهناك أخذَ يتفرّق عنّي ليُعيدَ تأليفَ نفسه من خلْفي أهلّة من سلاسل بشرية يُساير تَلازمُ حلقاتِ كلٍّ

Twitter: @ketab_n

سلسلة منها ٱنحناءَ دائريةِ السّاحةِ الهندسيّ. في هذه الأثناء، وإذ كان الجمع يَشتَتِمُّ الانتظامَ، بدا لي وكأنَّ الجمهرةَ المتصايحةَ المتشاتمةَ، المتدافعةَ بالمناكب والقبضات، الّتي كان معظمُ أفرادها من الأحداث والشبّان دون أن تخلو من بعض الكهول ـ بدا لي وكأنّها تنشطر شطرين متساويين، أخذ أحدُهما ذاتَ اليمين منّي مرتصّاً كبنيان، وكذلك فعل الآخرُ آخذاً ذاتَ اليسار. لم يكن من عدوٍّ أمامي، ولكن خلاءٌ، ولم يكن من بحرٍ ورائي ولكن متفرّجون، أمّا عن يميني وعن يساري فإخوةٌ أعداء.

مع ٱرتسام المشهد على هذا النحو تدنَّتْ حدّةُ الجلبة من تلقائها، وٱستحالت لغطاً لم يلبث بدوره أن هَمَدَ. عندها برز من حيث لا أدري أحدُ رجالات الحيّ المشتهرين بهيبتهم ووقارهم وعدالتهم، وتقدّم نحوي خطواتٍ حتّى صار بإزائي، وصار صوتُه على مسمع من الفريقين المتنازعين، وأخذ يروي أسباب المشادّة: باكراً هذا الصباحَ تبلّغتْ عائلةُ فلانٍ نبأ ٱعتقاله فورَ وصوله إلى المطار، وهي تشكّ بأنّ وراء ٱعتقاله وشايةً، وأنّ الواشي هو ٱبنُ فلان. قبلَ أن يرفع يدَه ليوجِّه سبّابته نحو المتّهم

Twitter: @ketab_n

بالوشاية المتصدِّر أحد البنيانين، قطعتُ عليه حديثَه من خشية أن تُضرم حركةُ يدِه العراكَ ثانيةً، ودعوتُ وجوهَ العائلتين، بلهجة الزجر، إلى أن يُفرّق كلٌّ صحبَه، وإلى مرافقتي، فضلاً عن بعض أعيان الحيّ، إلى حرم المسجد للتداول في الأمر.

على مضضٍ من كلا الفريقين كان لي ما طلبتُ، وإذ اَطمأننتُ حدّاً ما إلى أنّ العراك لن يُستأنف، دخلنا باحة المسجد ودلفنا منها إلى تلك الزاوية التي نصرٌّ على تسميتها «قاعة الاجتماعات»، وتدبّرت، بمساعدة سعاة الخير، إجلاسَ هؤلاء وأولئك على نحوٍ يُقَرّبُ بينهم، ولكن لا يثير ثائرة أحدٍ منهم، محتفظاً لي ولسُعاة الخير أولئك بالصدارة. ولئلّا يكون لفريق منهما الأوّليّةُ في الكلام بادأتهم بعد البَسْمَلة والصلاة على محمّد، بالتأنيب على اَنجرارهم وراء رُعونة الشبّان من عائلتيهما، وإذ اَستشعرتُ أنّ التأنيب قد نال من غُلَوائهم، وأنّ تمييزي إيّاهم عن الشبّان قد سوّى بينهم، أردفْتُ بالثناء على ما يشتركون فيه من مآثر، وختمتُ متوجِّهاً إلى آل المعتقل بـ﴿إن جاءَكُم فاسِقٌ بنَبَأ فتبيّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم

Twitter: @ketab_n

نادمين﴾(*) وإلى آل الظنين بـ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإنّ الله كان عفوّاً قديرا﴾(**) وإلى كلا الاثنين بحديثين قريبين على الأفهام مفاد الأول أن «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، والثاني أن «المرء كثيرٌ بأخيه»، وبالدعاء إلى اللّه تعالى أن يُفرِّج عن سائر المعتقلين الأبرياء، دون أن تفوتني الإشارةُ إلى أنّنا ضيوف في هذا البلد، نسترزق بكدّنا من خيره ورِفدِه، وأن لا مصلحة لنا، أفراداً وجماعةً، أن نلطّخ بأيدينا سمعتَنا كجاليةٍ، أو سمعةَ البلد الّذي نأتي منه. ولم أزد على ذلك شيئاً لإحساسي بأنَّ القومَ قد امتلؤوا من حديثي، وبأنّ الأوان قد آن لأدع لهم الكلام من بعد أن وجّهته هذه الوجهة، وفوق ذلك، لئلّا أسرف فأتفوّه بما قد يتأوّله أحد الفريقين حجّة على الآخر. كان كبيرُ آلِ الظنين الأسرع إلى أنتهاز سَكتي، فسارع، بعد الدعاء لي بطول العمر، إلى أغلظ الأيمان يُقسم بها أنّ ابنهم بريء ممّا يُنْسَب إليه في هذه القضية خصوصاً، ومن تهمة «التعامل مع الأجهزة» عموماً.

(*) الحجرات: ٦.

(**) النساء: ١٤٩.

Twitter: @ketab_n

ومن خشية أن يبدو قَسَمُه باللّهِ وبالرسول زَبَداً كلامياً محضاً، ثَنّى عليه بشتم الحكومة وأجهزة أمنِها شتماً مُثْخِناً، وكأنّ الشتم هذا أبلَغُ حجّة على صِدقه من القَسَم بآسم الجلالة والرسول!

مطالعتي ثمّ سيلُ الشتائم بحقّ الحكومة وأجهزة أمنها الّذي سال به المتكلم، غلبا آل المعتقل على أمرهم، فانبرى كبيرُهم يلعن الشيطان وساعته، وعلى سبيل حسن التخلُّص جرى بالحديث مجرىً أعمّ فتحَ شهيةَ الحاضرين فراحوا يتناقلون آخر ما تناهى من أخبار البلد، من بطش أجهزة الأمن إلى ارتفاع أسعار السلع وفقدان الأدوية، متسابقين إلى تبادل آخر الشائعات والتوقّعات.

على دعوةٍ حارّةٍ منّي إلى معالجة الأمور بالحُسنى، وإلى تجنّب أن يتكرّر ما حَصَل في الصباح لأنّ «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول»، وَوَعْدٍ بأن أولي الموضوع اهتمامي الشخصي للوقوف على تفاصيله، آنفضّ مجلسُنا بعد نحو ساعتين، وغادر القوم المسجد إلّا آثنين من سُعاة الخير آرتأيا أنّ للحديث صلةً فآثرا البقاء.

حقُّهم يا مولاتي، فهذا بيت اللّهِ، أي بيتُ الجميع

Twitter: @ketab_n

ساعةَ تضيقُ عليهم بيوتُهم أو تقلق، سوايَ أنا ولهذا لربّما: أن لا بيتَ لي ألوذُ به، سواه!

بالّتي هي أعتذرتُ بمشقّةٍ إلى ساعيَي الخير عن أستكمال الحديث للتوّ، وأنسحبتُ إلى غرفتي تاركاً لهما أن يتباحثا في شؤون الأمّة عموماً وفي ما كان هذا الصباح خصوصاً، واضعاً نفسي رهنَ إشارتهما.

•

كما تَوَقّعتُ يوم اقتُرح عليّ أن أحرس هذا الثغر من ثغور جمهوريتنا ووافقت، لم أحتج بعيد وصولي إلّا لأيّام معدودات لأتبيّن أنّني لست الحارسَ الوحيدَ، وأنّ من أعضاء لجنة الوقف كما من أبناء الرعيّة نفسها من يُشاركني هذه المهمة لحساب من لا أعرف على وجه التحديد. ولحسن الحظّ أنّ هذا الذي ظهر لي ولم يُفاجئني كان معروفاً لأهل الحي، ورغم أنّه كان مدعاة بعض المتشاوفين إلى إسماعي بأنّ الإمامَ هنا يملك ولا يحكم، فلقد نَصَبني في أعين الآخرين من عامة الرعيّة وسيطاً بينهم وبين هؤلاء المتشاوفين القادرين على النفع والضر.

قد لا يروق وضع كهذا لطالب سُلطةٍ حريص على ألّا

Twitter: @ketab_n

يشاطره امتيازاته أحدٌ، أما أنا، فكان في الإجمال يُريحني وإن لم يَرُقْ لي على الدوام. ولعلّ إعراضي عن منافحة المتطفّلين على صلاحياتي وتركهم وشأنهم في غير مبالاةٍ من أن يُظِلَّ تطفّلهم مقامي ومنصبي ـ لعلّ هذا السلوك المتعالي هو ما أضفى عليّ، من أوّل نزولي بينهم، وعلى مَحَلّي منهم ومن عامّة الرعية، هيبة غامضة المأتى كانوا هم أول حسّادي عليها.

بغير دعوة كان مجلسُ حربي هذا ينعقد في المُلِمّات وعشية المناسبات الكبرى، وهو ما كان ذلك اليوم. قبل صلاة المغرب بقليل، على غير عادة وكأنّما استجابةً لدعوة لا تُرَدُّ، أخذ عدد من هؤلاء يتوافد على المسجد. صلّينا الفريضة المذكورة ثمّ استأذنتُ من في المَسْجد من مصلّين ينتظرون الفريضة التالية، الانسحاب داعياً من أعرف أنّه تنبغي دعوتهم إلى موافاتي في قاعة الاجتماعات. لم أحتج إلى افتتاح الجلسة بأيّ شكل من أشكال السؤال أو الاستدراج، فكلنا يعلم جيّداً سبب لقائنا الطارىء. كذلك وجدتني أبادر أصحابي بالمفيد من الكلام: «أنتم أدرى منّي بأنّ بين آل فلان وآل فلان دماً قديماً

Twitter: @ketab_n

حملوه في أمتعتهم يوم جاؤوا من بلدنا وأحيوه هنا ولم يبرد هذا الدم إلّا بعد جهدٍ جهيد وفي أعقاب مصالحة شاقّة كان بعضكم ساعياً فيها خيراً وبعضكم شاهداً عليها. وأخشى ما أخشاه بعد ما كان صباح اليوم ومع ما تعلمونه من ولاء مُستجدٍّ لكثيرٍ من شبّان آل فلان وكهولهم تَشي به اللحى المرخيّة والأثواب المُقَصَّرة، ـ أخشى ما أخشاه أن يحمى هذا الدمُ ثانية... بل أن يشتعل وليس تحت عنوان النعرة العائلية فقط... فأشيروا عليّ».

لم أنتظر من أحدٍ منهم أن يُشير عليَّ حقّاً، لعلمي أنّ كلَّ واحدٍ من شركائي السّرّيين هؤلاء في حراسة الرعية إنّما جاء به طلبُ الاستماع إلى ما عندي لرفعه إلى مولاه ووصيّه ـ ولو أنّ ما عندي من تفاصيل الواقعة، وما قبلها، أقلُّ بكثير مِمّا عند كل واحدٍ منهم. وصدق ظنّي فكان إجماع على أنّ ما حدثَ يُنذرُ بالأسوأ، وإجماع على الحَيْرَة في ما يتعيّن عمله لتدارك الأسوأ هذا!

رَفَعَ النداءُ المنتظرُ إلى الصلاة جلستنا، فقمنا متثاقلين لموافاة من في المَسجِدِ من مُصلّين. متقاعِسَ

Twitter: @ketab_n

الهمّة، مشوّش الفكرِ، أمَمْتُ الجماعة الصغيرة مسارعاً فور انتهاء الصلاة إلى الاستئذانِ والعودة إلى غرفتي.

•

أقلُّ ما يُقال أنّني في حاجةٍ ماسّةٍ كنت إلى الاختلاء بنفسي. إن لم يكن لشيء، فلكي أحصي وأرتب كلَّ هذا الذي شهدته في نفسي وفي أُمتي الصغيرة. لا أذكر أنّني قَويتُ على ما اختليتُ بنفسي في سبيله، والأرجح أنّني ما كدتُ أخلع حذائي وأحلّ حزامي حتى استغرقتُ في نومٍ أبْعد ما يكون عن النوم لما تناوب عليّ في أثنائه من الأحلام والكوابيس. فلو كان نوماً تعترضه الكوابيس فقط لقلتُ ليلة وتمضي، ولو كان نوماً في حضن الأحلام لتمنيتُ ألّا أستيقظ منه، أما أن يتزاحم كلُّ هذا معاً، فلا أكاد أنصرفُ بهناء إلى مراجعةِ لقائنا جملةً وتفصيلاً حتى يُخيّل إليّ أنّ قبضاتٍ كالمطارق تنهالُ على بوّابة المسجدِ، ففوق الطاقةِ منّي... أو هكذا، ليلتي تلك، وَهِمْت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٥

لا أظنّني أختلف في شيء عن سائر بني البشر إذ أبوّب الذكريات على ثلاثة أبواب: الجميل منها الّذي نتوخّى الاحتفاظ به حاضراً على الدوام، والسيِّىء الّذي نتمنّى أنْ لم يكن قطّ، والمُحرج، وهذا الأخير هو الأصعب على التدبّر والمعالجة لما قد يأخذُه من كلا الآخرين: فمن الذكريات الجميلة يأخذ متعة التحويم حولها ومن السيئة ما نطلبه لها من نسيان قاطع.

حديثُنا الهاتفيُّ الّذي تلا لقاءنا الأوّل من هذا القبيل. أحاذر تذكُّره ... هيهات. بغير أدنى جهد أو إرادة على الإطلاق أنتَقَشَ في ذاكرتي، بما تلعثمته خلاله ضمناً، وليس أيّ انتقاش. لا تسلي كيف ولا لماذا. طيلة تلك الأيّام كُنت حابساً نفسي على أنتظار ظهورك عليّ، ولو بالصوت، بفارغ الصبر، أو قولي لم أكن من شيء سوى

Twitter: @ketab_n

آنتظار ظهورك، أو قولي كُنتُ كلّي آنتظارَ ظهورك. كيف مع هذا جميعاً إذاً لا أضطرب ولا أتلعثم وقد سألتني، «بصراحة» على حدّ قولك، إن كان يوافقُني أن أوافيكِ تمامَ السابعة من مساء الغد إلى عنوان أمليته عليّ، وآكتفيتِ من صفته بأنّه «عندك». وكأنّي بكِ كنتِ تسألين: «هل يُحرجُك أيُّها الشيخُ الموفي على الأربعين أن تغادِرَ دار إسلامِكَ لتزورَ آمرأة في دارها على ما بين الدارين من نفرةٍ، إن لم يكن من حربٍ مُقَدَّرة؟».

بصعوبةٍ حِزتُ جواباً أو ما يُشبهُ الجواب، ولحسن الحظّ أنّ عبارةً مثلَ «إن شاء اللّه»، وإن كانت كما وَصَفها شاعرك عشية مقتله «كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب أتيّاً»(*)، ـ لحسن الحظ أنّها، في مثلِ هذه المواضع، جوابٌ لا يُرَد.

(*) «كنا كتبنا إلى أبي نصر محمد بن المبارك الجَبُّلي نسأله شرح ذلك، وهذا الرجل من وجوه التُنّاء، (ج تانىء، المقيم بالبلدة في أرض العجم وأصله منها)، بهذه الناحية، وله أدب وحرمة، فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول فيه:

"وأما ما سألتما عنه، (يتوجّه إلى الخالديين)، من خبر مقتل أبي الطيب المتنبي رحمه الله، فأنا أنسقه لكما وأشرحه شرحاً بيّناً،

Twitter: @ketab_n

في الطريق من المسجد إلى «عندك» حاولتُ جهدي

اعلما أنّ مسيره كان من واسط في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة، وقتل ببيزع(؟)، ضيعة بقرب من دير العاقول، في يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة. والذي تولى قتله وقتل ابنه وغلامه رجلٌ من بني أسد يقال له، فاتك بن أبي الجَهل بن فراس بن بَداد، وكان من قوله لما قتله وهو منعفر: قبحاً لهذه اللحية يا سبّاب! وذلك أنّ فاتكاً هذا قرابة لوالدة ضبّة بن يزيد العينيّ الذي هجاه المتنبّي بقوله:

ما أنصف القوم ضبّه وأمُّه الطُّرطُبّه

ويقال: إنّ فاتكاً خال ضَبّة، وإنّ الحميّة داخلته لما سمع ذكرها بالقبيح في الشعر، وما للمتنبّي شعر أسخف من هذا الشعر ولا أوهى كلاماً، فكان على سخافته وركاكته، سبب قتله وقتل ابنه، وذهاب ماله.

وأما شرح الخبر، فإنّ فاتكاً كان صديقاً لي، وكان كما سُمّي فاتكاً، لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال، فلما سمع الشعر الذي هُجي به ضبّة أحفظه ذلك واشتد عليه، ورجع على ضبّة باللّوم وقال له، قد كان يجب أن لا تجعل لشاعرٍ عليك سبيلاً وأضمر غير ما أظهر، واتّصل به انصرافُ المتنبّي من بلاد فارس إلى العراق، وأنّ اجتيازه بجبُّل ودير العاقول. فلم يكن ينزل عن فرسه، وجماعة معه من بني عمه رأيهم في المتنبّي مثل رأيه، في طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد. وكان فاتك يتحرّق خوفاً أن يفوته، وكان كثيراً ما يجيئني وينزل عندي، فقلت له يوماً وقد جاءني، وهو يسأل قوماً مجتازين عنه: قد أكثرت المسألة عن هذا الرجل، فأيُّ شيء عزمك أن تفعله به متى لقيته؟ قال: ما عزمي إلّا الجميل، وأن أعذله على ما أفحش فيه من الهجاء. فقلت: هذا الأليق بأخلاقك والأشبه بأفعالك. فتضاحك ثم قال: يا أبا نصر، والله لئن اكتحلت

Twitter: @ketab_n

ألّا أستبقَ عَلامَ أنا مقبلٌ، بل قَصَرْتُ همّي على إعداد

عيني به، أو جمعتني وإيّاه بقعة، لأسفكنّ دمه، ولأمحقنّ حياته، إلّا أن يُحال بيني وبينه. فقلت له: كُفّ، عافاك الله، عن هذا القول، وارجع إلى الله، وأزِل هذا الرأي عن قلبك، فإنّ الرجل شهير الاسم بعيدُ الصوت، وقتلك إيّاه في شعر قاله لا يحسن، وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام، فما علمنا أنّ شاعراً قتل بهجاء، وقد قال الشاعر:

هَجَوْتُ زُهيراً ثم إنّي مَدَحتُه　　وما زالت الأشرافُ تُهجى وتُمدحُ

ولم يبلغ جرمه ما يوجب قتله! فقال: يفعل الله ما يشاء! وانصرف، فلم يمض لهذا القول إلّا ثلاثة أيام حتى وافى المتنبي ومعه بغال مُوقرةٌ بكل شيء من الذهب والفضة والثياب والطيب والجوهر والآلة، لأنّه كان إذا سافر لم يخلّف في منزله درهماً ولا ديناراً ولا ثوباً ولا شيئاً يساوي درهماً واحداً فما فوقه، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره، لأنّه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً. قال: فتلقيته وأنزلته داري وساءلته عن أخباره؟ وعمن لقي؟ وكيف وجد من قصده؟ فعرفني من ذاك ما سررت به، وأقبل يصف لي ابن العميد وفضله وأدبه وعلمه وكرمه، وسماحة الملك فنّا خسرو ورغبته في الأدب وميله إلى أهله. فلما أمسينا قلت له: على أيّ شيء أنت مُجمعٌ؟ قال: على أن أتخذ الليل جملاً، فإنّ السير فيه يخفّ عليّ. قلت: هذا هو الصواب ـ رجاءَ أن يخفيه الليل ولا يصبح إلّا وقد قطع بلداً بعيداً ـ والوجه أن يكون معك من رجالة هذه المدينة الذين يخبرون الطريق ويعرفون المواضع المخوفة فيه، جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد، فقطّب وقال: ولم قلت هذا القول؟ قلت: تستأنس بهم! قال: أمّا والجُرازُ في عنقي، فما بي حاجة إلى مؤنس غيره. قلت: الأمر كما تقول، والرأي في الذي أشرت به عليك. فقال: تلويحك هذا ينبىء عن تعريض، وتعريضك يخبر عن تصريح، فعرّفني الأمر وبيّن لي الخطب. قلت: إن هذا الجاهل فاتكاً الأسديّ، كان عندي منذ ثلاثة أيام، وهو مُحفَظٌ عليك لأنّك هجوت ابن أخته، وقد تكلم بأشياء تتوجب الاحتراس والتيقظ، ومعه أيضاً نحو

Twitter: @ketab_n

نفسي للمثول بين يدي امرأة لها أن تُقرِّرَ هل أملِكُ من المؤهِّلاتِ ما يقتضيه مشروعُها أو لا.

حاولتُ أن أستقرىء أثاث الغرفة الّتي استقبلتِني فيها، أيُّ مكان هو «عِنْدَكِ» هذا، بَيْدَ أنّي كُنْتُ كلّما رجّحْتُ أنّه محلٌّ للعمل، واستطراداً للسّكن، طالعني ما يحملُني على إثبات العكس. ليس فضولاً منّي ولا تشاغلاً أنْ مكثتُ متردِّداً بينَ هذين القولين غيرَ لاوٍ على شيء طيلة الدقائق الّتي غبتِ فيها لإعداد الشاي، ولكنّه قلّة عهدي بالأماكن «الخاصّة»، فكيف به «عندك» هذا وقد

العشرين فارساً من بني عمّه قولهم مثل قوله. قال غلامه، وكان عاقلاً لبيباً فارساً يسمع كلامنا ـ فقال: الصواب ما رآه أبو نصر، خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد. فاغتاظ غيظاً شديداً وشتم الغلام شتماً قبيحاً، وقال: والله لا تُحَدِّث عني أنّي سرت في خفارة أحد غير سيفي. قلت: يا هذا، فأنا أوجّه قوماً من قبلي في حاجة يسيرون بمسيرك ويكونون في خفارتك. قال: والله لا فعلت شيئاً من هذا. ثم قال: يا أبا نصر، أبخروُ الطير تُخَشِّيني، ومن عبيد العصا تخاف عليّ، والله لو أنّ مخصرتي هذه ملقاة على شاطىء الفرات وبنو أسد مُعْطشون لخمس، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيّات، ما جَسَر لهم خفٌّ ولا ظلفٌ أن يَرِدَه! حاش لله من فكر أشغله بهم لحظة العين! فقلت له: قل إن شاء الله. فقال: كلمة مقولة لا تدفع مقضياً، ولا تستجلب آتياً! ثم ركب فكان آخر العهد به"».

ترجمة المتنبي من كتاب بغية الطلب لابن العديم في: محمود محمد شاكر، المتنبي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٧، السفر الثاني، ص ٣٠٤/٣٠٧.

Twitter: @ketab_n

جَمَعَ في أمتار مربّعة قليلة من الأثاثِ والتقنيات المكتبية واللغاتِ والمحسّنات البصرية ما بدا لي معه جُزماً صغيراً ينطوي فيه عالمٌ شتّى يسهر عليه، يوماً بعد يومٍ، مدبّرٌ ذو أناقةٍ وحيلة.

كاد الحياء، وأنت تحاولين تسكين اضطرابي الّذي لم تَخْفَ عليكِ لوائحُهُ، أن يغلبَكَ أنتِ أيضاً ـ كاد لولا أنْ بادرتِ إلى التقمّص تلميذاً يُخاطبُ معلّمه، ودعوتِني إلى تبوُّؤ أحد ثلاثةِ مقاعد (وثيرة رُغم هيئتها الغريبة عليّ)، تحيطُ بطاولةٍ دائرية تنهض على ساقٍ مربّعةٍ واحدةٍ دُوِّرت زواياها القائمة، وينمّ خشبُها المتراص المتين عن منبتٍ كريم ويوحي بأنّها من جذع واحدٍ قُدّت.

إلى منضدة مجاورةٍ أقلَّ ارتفاعاً نقلتِ آلة الشاي التي جئتِ بها على طبقٍ نحاسي حَرَصْتِ على إبعاده، لا أدري أين، عن متناول أبصارنا. منقبضاً في مقعدي، حاصياً على رئتيّ أنفاسهما، كُنتُ أُتابع حركاتك والسكناتِ، محاذراً أن يندَّ عن عينيّ ما يمكن أن تتأوّليه نظرةً مُقْتَحِمَة. أمّا عندما اضطرَّكِ صبُّ الشاي إلى الانحناء بعضَ الشيء وإلى إمالةِ رأسكِ المُكلل بمنديلٍ رمزيٍّ يشد وثاق خُصُلاتِ

Twitter: @ketab_n

شَعرِكِ الفاحمة السّواد ولا يحجبها تماماً ـ إلى إمالته ذاتَ اليمين بحيثُ عَسَتْ عيونُنا أن تلتقي لو حانت مِنْكِ، سهواً أو عمداً، التفاتةٌ إليّ. عندها أشحتُ بنظري عنك كلَّ الإشاحة، وأمَلْتُ بدوري الرأسَ منّي ذاتَ اليمين أيضاً، مُتظاهراً التدقيقَ في عناوين الكتب المُسَطّحة بانتظام فوق بعضها البعض إلى يساري، ملتزماً هيئتي هذه إلى أن قرّبتِ لي كوبي من الشاي. ولعلّ «تفضّل» التي أرفقتِها بضيافتك، و«شكراً» الّتي رددتُ بها، كانتا أوّل كلمتين تبادلناهُما بعدَ السلام الّذي تَعَمّدتُه تحيّةَ المساءِ الشائعةَ لا تحيّة المسلمين...

أخذتِ مجلسَكِ عن يميني، أي حيثُ توقعتُ بسبب كتابٍ تتدلّى من بين صفحاته وريقاتٌ مُحَلّاةٌ بملاحظاتٍ كُتبتْ بخطٍّ منمنم، وكرّاسة متوسطة القَطْع أنيقة التجليد، ومجموعة من الأقلام المختلفة. من أخصر الطرق التففتِ على الصّمت المخيّم بينَنا بأنْ حثثتني على تناول كوبي من الشاي قبل أنْ يبردَ، وثنّيتِ على دعوتك، تشجيعاً لي، كما قدّرتُ، على مغادرة صمتي وانقباضي، شارحةً بأنَّ إهمالَكِ تخييري بين الشاي والقهوة مردّه إلى افتراضِك

Twitter: @ketab_n

إيثاري الأوّلَ، على ما لاحظتِ بمناسبة زيارتك إيّاي في المسجد. أيّدتُ ملاحظَتك. ولمّا كُنّا في طَلَب أيٍّ حديث يفكّ عُقَدَ لسانَيْنا ويَرفَعُ حياء كلِيْنا مِن صوتِ الآخر ومن النّظر إليه، فلقدْ خُضْنا لدقائقَ في المفاضلة بين الشّرابين، وإذ أخذنا كفايتنا من هذه الرياضةِ الّتي لم يكن منها بُدٌّ، عَطَفْتِ على ما دار بيننا خلالَ لقائنا الأوّلِ من حديثٍ، مستفسرةً إيّاي هل سمحت لي مشاغلي بفُسحةٍ من الوقتِ طالعتُ خلالها خطّة «المشروع».

لم تنتظري جوابي، بل تناولتِ الكرّاسة وفتحتها على صفحتين متناظرتين خُطِّطَتْ عليهما، باْعتناءٍ هندسيٍّ مُتَكَلّفٍ، صفوفٌ من الخانات، بعضُها ما زال فارغاً في حين اْمتلأ بعضُها الآخرُ بكتابة دقيقة بالخطّ المنمنم إيّاه، وعلى رأس كلٍّ مجموعة منها عنوانٌ بالخطِّ نفسِهِ، ولكن أعرض قليلاً، وبلونٍ أحمَرَ رُسمتْ بين الخاناتِ سُهَيْماتٌ تجري في مختلف الاتجاهات.

لم أتمالكني، إذ اْنبسطت تحت ناظري هاتان الصفحتان، أن علّقتُ مستذكراً ذلك البيت من قصيدة المتنبّي التي قالها غداة فراره من مصر كافور «ويلمّها

Twitter: @ketab_n

خطّة»(*)، غير أنّك لم تستجيبي، ولو على سبيل المجاملة، لِما خلتُه فُكاهة، بل تحوّلتِ على الفور، بجديّة لا تخلو من مبالغةٍ، إلى بيت القصيد: «بحسب ما طالعتك بإيجازٍ أثناء لقائنا الأوّل، وعلى ما أتمنى أن يكون قد أُتيح لك أن تتبيّن من الملف الذي أودعتُك نسخة منه، فـ"كشّاف المتنبّي" يرمي إلى أن يكون الحلقة الأولى في سلسلة من الكتب الموسوعيّة تُحصي عوالم آباء الثقافة العربية. وما أقومُ به حالياً لحساب المنظمة الإقليمية راعية المشروع، كما زملاء لي في بلدان أخرى، هو الاتصالُ بمن نتوسم أنّ نجاح المشروع يطلب مشاركتهم فيه للوقوف على رأيهم في المشروع بالإجمال، وعلى مدى استعدادهم للمشاركة فيه».

ما وَسِعَني تحاشَيْتُ أن يثبُتَ نظري عليك إذ كنتِ تتحدثين، واحتلتُ لذلك بأن أدَمْتُ الإيماء برأسي بعلامة الإيجاب، متعمداً إطباقَ جفنيّ كلّما أحْنَيته إلى الأمام. وأذكُرُ، بخجل، أنَّ ثواني معدودات فَصَلَتْ بين توقُّفك عن

(*) وَتلْثُمها خُطّةً ويلْثَمُ قابلها لمثلها خلق المهريّة القودُ

Twitter: @ketab_n

الحديث وبين توقفي عن الإيماء برأسي... وعوضَ أن أسْتَجْمِعَ قواي لأُحسنَ التَّخلّص من هَفْوَتي أحْسَستُ بها تخور ويَتَمَلَّكني ما يُشْبِهُ العياء... وإذ أحسب أنّ وجنتيَّ احمرّتا أيضاً لا أستبعد أن يكون وجهي قد طَفَحَ بعلائم خجلٍ أخرى. اقترحتِ عليَّ مزيداً من الشاي، وقبل أن يأتيك جوابي قمتِ عن كرسيّك وتعهدتِ كوبي ببطء، كأن لتدعي لي أن أستردّ قواي وتماسكي. لست أدري كم بالغتُ يومذاك وفي سواه من أيّامنا بأن تأوّلتُ حركاتٍ منك وسكناتٍ على مقتضى حالي ومراعاتها، ولكنّه ما كان، ولا أملك الحين إلّا الإقرار بذلك لعلّ إقراري أن يخفِّف عنّي.

وصلتِ حبلَ الكلام بأن سألتني عن رأيي في المشروع وعن استعدادي للمشاركة فيه. هل كنتِ حقّاً تتوقّعين منّي أن أُجيب على نحو مرضٍ بل أن أُجيب على الإطلاق؟ انخذلتُ إلى بلاغتي الفطرية، تلك التي أكسبتنيها مهنتي فأطريت عليه بكلام عامٍّ يوافق سؤالك وأيّ سؤال آخر، خاتماً أنّني على أتم الاستعداد للقيام بما ترينني أهلاً له.

عن رأفةٍ بي، أو عن خيبةٍ من جوابي، أحسستُ بك

Twitter: @ketab_n

تستعيدين خَفَرَ لقائنا الأول ملوّناً هذه المرة بشيء من اللامبالاة والاستعلاء يسّرا لك أن تبادئيني بـ«عفواً، عساني لم أتجاوزِ الحدّ في الاستئثار بوقتِك» آذنتْ عندي أنّي مَنْ تجاوزَ الحدّ، وترجمتها في نفسي: «قمْ يا هذا وارحل. لستَ منّي ولا ممّا أنا فيه».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٦

إستأذنتُك، أذِنتِ، آستقبَلَتْني أضواءُ المدينةِ الباردةِ، فلمْ أُبالِ بها ولا بما تُحاول آفتعالَه من حياة، وخَفَفْتُ السّير لأصل بأقصى سرعة إلى موقف الحافلات، ومنه إلى مخدَعي المتواضع، ملاذي الوحيد ومخبئي الآمن من أعين الجميع ومن نفسي. أكذِبُ، ولا أبالغ فقط، لو قلتُ إنّني، في الطريق من عندك إلى عندي، مشياً على الأقدام أو مستقلاً الحافلة، ـ لو قلتُ إنّني كنت أفكر. نعم كانت أفكار ما تعتمل في رأسي، تضجّ، تَتَناهبني، تهزأ بي، وما شئت ممّا يُمكنُ أفكاراً أن تفتك بإنسان... أمّا أنّني كُنتُ أفكّر هذه الأفكار فلا، حتماً لا.

منتهى ما أدّعيه أنّني كنت حانقاً على نفسي وعليك وعلى العالمين، دونما استثناء. وكنتُ مذهولاً، ولولا ذلك لما فاتني أنّ الساعة لم تتجاوزِ التاسعة إلّا بدقائق،

Twitter: @ketab_n

ولتنبّهت على أنّ باب حرم المسجد مردودٌ فقط لا مغلقٌ، ولما حاوَلْتُ أن أدُسّ المفتاح في القفل فتبوء محاولتي بالفشل مع انزياح المصراع ذي القُفل فأزداد على نفسي حنقاً على حنق. لم تستوقفني الأصواتُ المتناهيةُ إليّ من جوف المسجد، بل ألقيت على أصحابها سلاماً عابراً وآنسللتُ برشاقة الهارب إلى غرفتي حيثُ سارعتُ إلى خَلْع ملابسي وأخذ مَضجَعي، مسارعةَ آمرىء قضى نهاره في كدح متّصل. غنيٌّ عن القول أنّ ليلتي تلك لم تمرّ بسلامٍ لما طفق يُغير عليّ من أطيافك، ولا هي أورثتني الراحةَ المنشودة بعدَ أمسيَ المضني، ولعلّ خوفي من أن يدهمني موعدُ صلاة الفجر متلبّساً بكِ لا شخصَ الإمام الرزين، بكّر في إيقاظي. وكأمس، مبالغةً في التمويه، آستبقتُ خادم المسجد إلى تشريع أبوابه وقعدتُ مُسنداً ظهري إلى المنبر أُظهِرُ المطالعة، مُستعجلاً في سرّي الوقتَ أن يأتيَ بروّاد الصبح القلائل فأؤمّ صلاتَهم، لأعود إلى غرفتي وإلى فراشي أُعارك نفسي وتُعاركني.

لا يدهشْك منّي هذا السلوكُ الصبيانيُّ، أنا الموشِك على الأربعين، المحترف دعوةَ الناس إلى سواء السبيل. بل

Twitter: @ketab_n

أيَّ سلوك سواه تتوقّعينَ من امرىء فاتَ أطوارَ حياته جميعاً ليجد نفسه، بدون مقدمات، على غفلةٍ منه بل غصباً عنه، «رجلاً» لم يعشق رغم علمه الكثير (!)، ولم يدرِ قبلك ما الهوى فهو ـ على رأي إمام من أولئك الذين عاد الإسلام لا يأتي بمثلهم ـ فهو «وعَيْرٌ بالفلاة سواء»(*).

•

منذ قدومي إلى هنا، إلى بَلدِك، لم يحدث أن ساورني الندم على ما كان منّي من موافقة عجلى، ولكن تلك الليلة حدث، أو قولي لأول مرّة انقشع لي أنّ للإقامة في بلدكم ثمناً يدفعه المقيم من نفسه لا ممّا تحت يده. ومردُّ ذلك لا إليّ ولا إليك ولكن إلى ما بين بلدينا وما ليس بينهما.

فاشتراك بلدينا في الدين واللسان والإقليم لم يحل دون أن يفترق مآلُهما خلال العقود الماضية، وأن تمّحي مظاهِرُ ما يشتركانِ فيه حَدَّ أن يُخيَّل لمن ينتقلُ من

(*) إذا أنتَ لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى فأنت وعَيْرٌ بالفلاةِ سواء
عامر الشعبي

Twitter: @ketab_n

أحدهما إلى الآخر أنّه من قارّةٍ إلى أُخرى يَعْبُرُ، وليس من بلد إلى بلد، وعلى أنّ كلا البلدين كانَ يُظْهِرُ، بلسان القيّمين عليه، رضاهُ بمآله وتمسّكه به، فالأمْرُ لم يكنْ كذلك حقّاً، لا في غُرَفِ أولياء الحلِّ والربط في بلدكم، الّذين لطالما توجّسوا شرّاً من سياسات زملائهم المتعاقبين على بلدنا، ولا في وَهْم الكثرة الكاثرة من ناس بلدنا الناظرين إلى بلدِكم الثريِّ المستقرّ المنفتح، مورِدِ رزقهم، بعين الغَيْرةِ بل الحَسَد. كُلُّ هذا وكُلُّ هؤلاء الناس في قهرهم، ونظراتهم الجَوْعى، واستغرابهم مثلاً أن تقوم امرأة على زمامِ أمورها وتقطن بمفردها، ـ كلُّ هذا وكلُّ هؤلاء، أنا أيضاً، ـ أنا وإن كان ما جئتُ من أجله وما أنشطُ له وبأسمه يقتضيان منّي أن أخرُجَ على أُمّتي الصغرى، وعليكِ وعلى سائر مَنْ ألتقي، بصفةِ المُجَرِّبِ المجرَّب الّذي يَسَعُ علمُه وحِلْمُهُ وطولُ أناته شتّى ما يعرِض له.

إقتصادي الفطريُّ في مخالطة الناس، وإيثاري الانطواءَ على نفسي ما أمكنني ذلك، حَفِظاني من أن تبدو عليَّ في عيونِ أهل المسجد اليوميّين، الخادم والأخوة المسؤولين عن الشؤون المالية والاجتماعية والإدارية، فضلاً

Twitter: @ketab_n

عن بعضِ المصلّين المثابرين، أيّةُ ملامحَ حادِثَةٍ تشي بما يتأجّجُ في عقلي وقلبي وجسدي من نيران. كذلك فلم يَغْدُ فضولُ هؤلاء الاطمئنانَ إلى إبلالي من التوعّكِ الّذي ادّعيتُه لتبرير غيابي غداةَ زيارتكِ إيّاي في المسجد، ولم يَغْدُ جوابي حمدَ اللّه، وكان جواباً مفحماً...

مِنْ أوّل عهدنا كانت عِصْمَةُ ما بَيْنَنا في يَدِكِ. لا أزعُمُ أن كان ذلك عندي بوضوحِ ما أراهُ اليوم، ولكنّ حدسي بأنّ الأمر لكِ وبأنّ «ثِنياه في اليدِ» منك(*)، تستدنينني وتستقصينني على هواكِ، أملى عليّ نوعاً من التسليم لم يكن منه بُدٌّ، أو أتواكل عن الاضطلاع بالمسؤوليات المعهودة إليّ، وأقضي أيّامي صحبة ديوان المتنبّي في انتظار أن يخطر لكِ استدعائي، وقد لا يخطر بتاتاً ويقال جُنّ الشيخ!

لم أدَعْ لأحَدٍ، ولا لكِ، أن ينسِبَني إلى الجنون. في الحقيقة لا فَخرَ. أرى في أمري هذا أحياناً فأتحقّق أنّ الجنون كان منّي قاب قوسين أو أدنى، بل إنّه كان في متناول يدي، ليس إلّا أن أمدّها لأقطفه ثمرة يانعة. أتظاهر

(*) لعمرك إنّ الموت ما أخطأ الفتى لكالطِّوَلِ المُرخى وثنياه باليد
طرفة بن العبد

Twitter: @ketab_n

أحياناً أخرى بأنّني جاهدتُ نفسي وضعفي للحيلولة بيني وبينه وأنّني صاحِبُ الفضل في أن لم أُجَنَّ. اليوم، أعترف بأنّ الجنون كان فرصةً أُزلفت لي من حيثُ لم أتوقّع، وكعادتي أحجمتُ عن اَنتهازها... جبناً أحجمت.

... ولكن جبني عن الجنون بك لم يُعَفِّفْني عن انتهاز دعوةٍ أكلَها الغبارُ إلى المشاركة خطيباً في الذكرى السنوية لتأسيس جمعيّة ترعى شؤون أبناء جاليتنا في إقليمٍ على يومِ سفرٍ من العاصمة. تداركتُ تقصيري عن إهمال الدعوة وأصحابها برسالة برقيّة حشدتُ فيها ما تيسّر لي من عبارات الاعتذار والتهنئة بالمناسبة، مؤكداً حضوري مبدياً اَستعدادي لقضاء بضعة أيّام قبلَ موعد الذكرى في تفقّد أبناء الجالية والاطلاع على أوضاعهم واحتياجاتهم والإجابة عن أسئلتهم الفقهيّة والشرعيّة.

لا تَسلي شَيخك الحييَّ كيف لمعتْ في ذهنِه هذه الفكرة الّتي بدتْ له، على سذاجتها، الخدعة الأمكر باَمتياز للفرار من مسجده، أي من اَنتظارِ ظهوركِ عليه عبر أسلاكِ الهاتف الّتي ظلّت، إلى حينٍ، تَسْعى بصوتِك في اَتّجاهٍ واحِدٍ: منكِ إليهِ. (وحَسَناً فعلتِ بأنْ لم تأمنيني على رقم

Twitter: @ketab_n

هاتفِك، فلقد رفعتِ عنّي بذلك حملاً لا أتصوّر حتّى اليوم، كيفَ كنت سأنوءُ تحتَه لأنّه لا شكّ عندي كم كانت ستخونُني الشجاعةُ كلّما رمتُ مهاتفتَك، ولا شك عندي كم كُنتُ ساجِدُ على نفسي وعلى من بيده نفسي لما ألحقه بي قضاؤُه وقدرُه من ظُلْمٍ تستغلقُ عليَّ الحكمةُ من ورائه).

إنطلت حيلتي أو ما شُبِّه لي أنّه حيلةٌ، وورد عليَّ الجوابُ بالتّرحيب، فأشعرتُ إخواني في المسجد بسفرتي الطارئة، وحزمتُ أمتعتي الّتي تبيّنتُ يومَها أنّها لا زادت عمّا كانت عليه عندَ وُصولي ولا نقصت، بل أمعنتُ في الارتثاث، وتوجّهتُ إلى المحطّة مُجمِعاً أمري على أن أستقلّ أيّما حافلة تُقرّبني من الوُجهة الّتي أقصِد إليها، وإنْ لم تُبْلِغْنيها توّاً.

•

ليلةٌ من السّفر ولكن كأنّني لم أغادر مسجدي وحيّي، مع هذا من الفارق أنّ الحيّ هناك شارعٌ خلفيٌّ بكلّ ما للكلمة من معانٍ، بموازاة الجادة السياحيّة المطلة على البحر، وأنّ المسجد مُصَلّى في الطبقة الأولى من بناء هرمٍ

Twitter: @ketab_n

رغم جدّة بنائه، ككل أبنية هذا الشارع. أمّا الناسُ فهم هم، وجوهٌ بلهاء، وآذانٌ صاغية من صممها، وحناجر مكبوتةٌ تترصّد أدنى برهة صمت يصمتها الخطيبُ لتُفرّج عن نفسها بالتكبير والصلوات. الأسئلة والاستفتاءات كذلك هي هي هناك وهنالك، تبدأ عامّةً ضبابيّةً متعالمةً أحياناً إلى أن يتبرّعَ أحدُهم فيقدّمَ لسؤاله بشيءٍ من قبيل: «يا مولانا، لا حياءَ في الدين...»، فأُدرك على الفور أنّ مدارَ السؤال على مسألةٍ من مسائل النّكاح أو الطّهارة، فأستنفر جأشي كلّه لأردّ عنّي ما تُثيره أسئلتُهم لا سيّما الجنسيّةُ منها، والّتي غالباً ما لاحَ لي أنّ مأتاها من جُزُر الحور العين الّتي يُبحرونَ إليها على متنِ أحلام يقظتهم والمنام ومشاهداتهم المتلفزة لا من مضاجعهم الزوجيّة.

نعم، على أنّني أجبتُ عن معظمها مرّاتٍ عديدةً، وعلى أنّ العُهْدَةَ في ذلك كانت عن شيخي، عن شيخه، عن كُتُب الأوّلين، لم أُفلح يوماً في التطرّق إليها تَطَرُّقي إلى سواها من أحكام العبادات والمعاملات. وذلك اليوم اشتدّت عليّ السؤالاتُ والاستفتاءاتُ كما لم أعهد من ذي قبل، وألفيتُني أبذلُ أضعافَ ما كنتُ أبذلُه

Twitter: @ketab_n

من جهد لألقي على أسماعهم ما أحفظُه من إجاباتٍ جاهزة تُرضي خيالاتِهم، من غيرِ أن أتلعثمَ أو أن يُرْتَجَ عليّ. ومع كلّ سؤال كان يتفتّق عنه أحدُهم كنتُ أردّد في سرّي: «مَنْ حفر حفرةً لأخيه وقع فيها»، وألْعَنُ الساعة الّتي تذاكيتُ فيها على أنتظارِكِ، وأستحثُّ فريضة العشاء أن يدنو موعدُها فأتذرّع بها لأقوّض مجلسنا بحجّة القيام للوضوء وأؤمّ صلاتَهم، وأذهبَ في حال سبيلي.

كَشَفَتْني ذلك المساء سؤالاتُ أولئك «الرجال» وأستفتاءاتُهم، وأبدتْ لي عَياناً بؤسَ ما أنا فيه، وهشاشةَ ما أتحصّنُ وراءه من لَقَبٍ لا فضلَ لي من شخصي في ما يضفيه عليّ من أحترامٍ ومكانة. فيمَ أختلفُ عن هؤلاء «الرجالِ» سوى في أنّني أحيا منهم وأخجل؟ امرأتي اسمٌ لا أشجع على التلفّظ به، بل أستعيضُ به كُلّما أُلجئتُ إلى النداء: «سيدتي»، وأسماءٌ وأوصافٌ حُسنى أتنقّلُ بينها وأتعاطاها مُقَطّعة خيفةَ ألّا أليقَ بها.

•

مبالغةً في الحفاوة والتكريم ارتأى مُضيفيّ إسكاني في أحد فنادق الجادّة السياحية. لم يكن الأفخم بين فنادق

Twitter: @ketab_n

الجادة ولا أشرفها موقعاً ولكنه، مع ذلك، باعتراف النجوم الثلاث المتلألئات على مدخله تحت الاسم، كان له من الفندق الاسم على الأقل، وكان لي أن أعرف لمضيفيّ جميل مبادرتهم.

في موكب قوامه أعضاء الجمعية زُفِفْتُ سيراً وئيداً على الأقدام إلى فندقي المتواضع. واجبُ اللطف والمجاملة وما أملاه عليَّ من مشاركة بين الحين والآخر في حديثهم الصاخب عن تفاصيل الاحتفال (الذي جعلنا مراراً محطّ أنظار السابلة) لم يستغرقني حدَّ صرفي عن همومي وعن استطلاع المكان وأرجائه. كان واضحاً أن الجادّة هي الواجهةُ المحترمةُ لمنطقة سياحيّة تؤوي كلّ ألوان اللهو «البريء» منها والأقل براءة! وكان واضحاً أنّ ما لا يليق بالجادة اتسعت له الأزقة المتفرعة عنها والسكك. فما عبرنا بإحدى تلك المتفرعات إلّا وانتهى إليَّ مشهد دمية مضاءة تَهْدي السّاري إلى مربع ليليٍّ أو ما أشبه، ولا غادرنا رصيفاً إلى آخر إلّا وطالعتني في الزوايا المعتمة أطياف نساء متسنّدات بتكاسُلٍ مُتعمّدٍ، مَنْ إلى جدار ومَنْ إلى شارة مرور ومَنْ إلى سيارة. وبدا لي، ولا إخالني واهماً، أنّ ثرثرة

Twitter: @ketab_n

أفراد موكبي كانت تعلو فجأة، في ما يُشبه الإجماع، وتتسارع كلّما أوشكنا على محاذاة فَمِ إحدى تلك المتفرعات كأنّما الحديثُ عن الجمعية والاحتفال بذكرى تأسيسها يَغُضُّ أبصارنا ويحمينا من أن نُلقي بالاً إلى ما حولنا...

لم يراودني أيّما فضول إلى استكشافِ غرفتي التي كانت حقيبتي قد سبقتني إليها، ولا عنى لي أن أفكّ أسر ملابسي الموضّبة في تلك الحقيبة الصغيرة بغير عناية فأُعفيها، هي البالية أصلاً، من أن يورثها طول الحَزْمِ تجاعيد إضافية كرمى احتفال الغد.

«لكلِّ امرىءٍ من دهره ما تعوّدَ». ومن دهري ومن قلّة الخليل تعوّدتُ أيضاً أن ألوذ بالفراش كلّما ضاقت بي الدنيا لسبب من الأسباب، فكيف بي وهي الليلة تَضيقُ عليَّ، لألف سببٍ لا لسبب واحدٍ. كان ينتهي بي الأمر، بعد مبارزةٍ تطول أو تقصر، بأن أغيبَ عن نفسي في ما يشبه النوم، وكان رهاني الليلةَ تلك أن يبلغ تخبّطي تمامه على هذا النحو، فلا ألبث أن أجدني بعد قليل أو كثير في غدٍ من أمري ومن الوقت. وحتى شهوة النساءِ

Twitter: @ketab_n

التي انعقدت في نفسي وفي جوارحي لـمرأى ذلك الكمّ من النسوة الـمستعرضاتِ أبناءَ السبيل مفاتنهنّ، قلت لي، أكسرها بيدي. وفعلتُ أو في الحقيقة بالكاد فعلت، فما كاد جفناي ينطبقان على صورة امرأة اَحترتُ أيَّ وَجْهٍ أركّب لها، وما كادت يداي تلمسان ذكري الـممتلىء رغبةً، ومن قبل أن أبلغ النشوة في خيالي، نبع سائلٌ كثيفٌ عشَّشَ بين أصابعي فيما انتشرت قطرات أخرى أسفل البطنِ بين السّرّة والعانة. نعم يا سيّدتي: إلى هذا الحدّ كنت مستخفّاً بنفسي وجسدي وآدميتي، وبهذه البساطة كنت أقتل نوازعي. ككلّ مرّة حسبتُني ربحتُ الجولة، أو في الحقيقة لم أحسب شيئاً على الإطلاق بل أوكلتُ أمري إلى غَيْبوبةِ الحواسّ التي عَهِدتُني أستغرقُ فيها كلما قَضَيْتُ شَهوتي بيدي. وزيادةً في الرِّياء، وحذر تأنيب العقل لا تأنيب الضمير، وَجَّهتُ عقلي إلى التفكير في الخطاب الذي يَتَعَيّن عليّ إلقاؤه بعد ظهر الغدِ بمناسبة احتفال الجمعية بذكرى تأسيسها، فلم يُخالفني ولا شتَّ إلى حيثُ لا أرغب. على صفتي تلك، تَمَثَّلتُني خطيباً وتسارعتْ في خاطري بِضعة جملٍ واستشهادات

Twitter: @ketab_n

لا بأس بها. «لا تُضيّع المناسبة يا هذا. قم وابحث لك عن ورقةٍ وقلم ودوِّن ما انفتح عليكِ قبل فواته». لهذا كان لا بدَّ أن أنهضَ من الفراشِ، وأن أُصلحَ الجزءَ السُّفليّ منّي وأن أغسل بماءٍ ما علق بأصابعي من مائي. بسرعةٍ فائقةٍ فعلتُ كلّ هذا، وبأسرعَ منه أخرجتُ من حقيبتي قلماً وورقة ودوّنت ما بقي في البال من جملٍ مقطعة ورؤوس استشهادات، ولم يُفاجئني أن عاجل النسيانُ أكثرها ولكن فاجأني أن أخذت شهوة النساء تراجعني بمزيد إلحاح. وما أدراكِ ما شهوةُ النساءِ تتلبَّسُ رجلاً فكيف رجلاً أعزلَ مثلي؟ دعْكِ منّي، من هذري وثرثرتي ورغائي، وظَنّي بي الظنون وأنّني أفّاك خرّاص سرّاج مرّاج، ألا يَصُحُّ عندك ما يفسّره مجاهد وابن عباس وسواهما من كلام ربّ العالمين؟ افتحي إحياء علوم الدين على «آداب النكاح» واقرئي ما ينقله الإمام حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي: «قال قتادة في معنى قوله تعالى ﴿ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقة لنا به﴾(*) هو الغلمة. وعن

(*) البقرة: ٢٨٦.

Twitter: @ketab_n

عكرمة ومجاهد أنّهما قالا في معنى قوله تعالى ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾(*) أنه لا يصبر عن النساء، وقال فياض ابن نجيح: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله. وبعضهم يقول: ذهب ثلث دينه. وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَب﴾(**) قال قيام الذكر، وهذه بليّة غالبة إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين، وهي مع أنّها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين (...) فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم، وإليه أشار عليه السلام بقوله "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكن" وإنّما ذلك لهيجان الشهوة. وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه: "اللهم إنّي أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وشر منيّي"، وقال: "أسألك أن تطهِّر قلبي وتحفظ فرجي" فما يستعيذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجوز التساهل فيه لغيره؟»(***). هل تفهمين الآن أكثر لماذا

(*) النساء: ٢٨.

(**) الفلق: ٣.

(***) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص ٢٨.

Twitter: @ketab_n

لم أملك تلك الليلة أن أحبس شهوتي بل وجدتني أُطلِقُ لها ولنفسي عنان التهتك وأقول لي: «ما دام لحاجتك قضاء مُسَمّى، وبما أنّ المقادير رمتْ بك إلى هنا حيث لا يعرفك أحد، وإن شُبِّهتَ له فستراه يُسَبِّح الله الذي يخلُق من الشبه أربعين وأكثر، ما بالك لا تلجأ إلى خدمات إحدى أولئك النسوة الممتهناتِ قضاء حاجات الرجال من أمثالك بأجرٍ معلوم».

لا تسليني أيّ شيطان سلّط عليّ مقاديره فأبدلني بتردّدي الفطري عزماً ماضياً وبتلكّئي همّة، وأخذ بيدي من غرفتي إلى موظف الاستقبال أودعته مفتاحها إلى باب الفندق المتراجع عن الجادة بعض الشيء، إلى الجادة، إلى متفرعاتها الأعتم، إلى مدخل البناء ذاك حيث كانت تقف مُتَسَنِّدَةً إليه، وقفة أصحابها في الصور، أي على قَدَمٍ والأخرى مثنيّةٌ عند الركبة إلى خلفٍ، امرأةٌ في مقتبل العمر. أبطأتُ الخطو عند مروري أمامها فدعتني إلى ما عندها: إليها، بنداء خفيّ. استدرتُ نحوها وكانت استدارتي بداية مفاوضةٍ انتهت على عجلٍ، حيث همستْ برقْمٍ وأومأتُ برأسي إيجاباً، فولجتِ المدخل إلى دهليز

Twitter: @ketab_n

طويل وأنا وراءها حتى بلغنا باباً ظننته موصداً فإذا به ينفتح تحت دفعة خفيفة منها، فدلفنا تتقدمني هي إلى غرفة قليلة الإضاءة، ثم لم يلبثِ الباب أن ارتدّ من تلقائه.

ساءني أن توكل حماية خَلوتنا إلى باب بغير مزلاج ولا مفتاح ولكن لا حول ولا قوّة.

بخلافي، لم يكن عليها الكثيرُ مِمّا تتخفّف منه ولا كان التخفُّف من ملابسها في محضر رجلٍ أجنبي بالأمر الخطير. برشاقة وانضباطٍ تعرّت وأخذت موضعها في السرير الضيّق متشاغلةً عن تخبّطي في خلع ملابسي بتدخين لفافةٍ. هل كانت تستطلع أيّ صنف من الرجال أنا؟ أكاد أجزم بأنّه كذلك وبأنّها تأوّلت تخبّطي ذاك قلّة مراس، فاستعجلتني بابتذالٍ أن أوافيها. كان لها ما أرادت ودنوت من السرير حاملاً عريي كحملٍ ثقيلٍ، واثقاً أنّها كفيلةٌ بإدارة المراحل التالية من خلوتنا. لم يخب ظنّي. بخبرة، إن لم يكن بمهارة، تَعَهَّدتْ ذكريَ المنتصب بكفّيها المضمخين بمادة لزجة وإذ اطمأنت إلى انتصابه أوعبته في واقٍ كانت قد أعدته، وبحركة بهلوانية استلقت على ظهرها

Twitter: @ketab_n

وجذبتني إليها جذبة كان من شأنها أن أقعدتني منها مقعد مباشرة الرجل للمرأة.

بيني وبين تلك المرأة التي اكتريتُ لدقائق جسدها وصِفَةَ المرأة منها، لم يكن شيء يُذكر، فلقد عاشرتها كمن يُعاشر نفسه بل أقلّ. أمّا بيني وبيني فحدّثي ولا حرج...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٧

مُقَطَّعَ الأوصالِ أُبْتُ إلى فندقي القريب نهاراً من مقر الجمعية المضيفة وليلاً من حيّ البغايا. اغتسلتُ غسلاً عنيفاً لا ذكر له في أيّ من كتب الطهارة من كتب الفقه. بعدها اَنكببتُ على تحبير خطابٍ يسايرُ المناسبةَ الّتي كانت وراء دعوتي، عاقداً العَزْمَ على التذرّع، صباحَ اليوم التالي، بطارىء وَرَدَ عليَّ نبؤُه، يحتّم عليَّ العودة فوراً من حيث أتيت، تخلّصاً من مشاركة مضيفيَّ اَحتفالهم، وهكذا بمشقّة كان. لم أُحاول طوال السّاعات الّتي قضيتها في الحافلة أن أتظاهر بمطالعة كتاب أو تصفّح جريدة، ثنياً لأيٍّ كان من جيراني عن اَفتعال محادثةٍ تُخَفّف من مشقّة الرّحلة وطولها. لمرّة أنِسْتُ من نفسي قدرةً غريبةً على ردع أيٍّ كانَ عن الاقتراب منّي، ولو بالنّظر أو بالصّوتِ أو حتّى بالابتسامة. كُنتُ في همٍّ من أن أفهم كيف يتيسّر لي أن أتمالكَ نفسي رُغمَ كلٍّ

Twitter: @ketab_n

ما يَسْتَنْقِعُ فيَّ من صورٍ وخيالاتٍ وأحاسيس. وأخشى ما خشيتُه، إذ كنت مستغرقاً في همّي ذاك، أن تكون قوّتي على الاحتمال فوق حُسْباني، وها أنذا اليومَ مسوقٌ إلى الاعتراف بأنّ خشيتي تلك كانت في محلِّها.

•

حداديَ البادي الذي قرأ فيه عامّة إخواني من أهل المسجد وَعْثاءَ سَفرٍ، وانتهزه متعالمٌ من بينهم مناسبة ليعرض ما يحفظه من أحاديث نبوية عن السفر، ـ حدادي حال بينهم وبين الإلحاح عليَّ لمشاركتهم سُفرة العشاء المتواضعة الّتي كانوا مُتَحَلّقين حولَها، ونعم ما حلا لهم أن يذهبوا إليه من تفسير، لأنّ حاجتي تلك الليلة أيضاً، وككل ليلة، إلى الانفراد بنفسي، في غرفتي وليس في أيِّ مكانٍ آخر، كانت حاجة جسديّة ماسّة وملحّة لا بُدَّ من تلبيتها للتوِّ، أكثر منها حاجةً معنويّة يُمكن السكوتُ عنها أو مُجالدتها برياضة نفسيّة ما.

•

لذَّ لي ليلتي تلك وَجَعي، أو قولي كانت تلك أوّل مرّةٍ في عُمْرِ جسدي أشعُرُ به فيها مِرْجَلاً على نار متّقدة

Twitter: @ketab_n

تتصاعد منه اللّذة تصاعدَ البخار حارّاً رطْباً يَغشى معه البصَرُ، وتنقشع البصيرة. من وجعٍ كان ذلك، ولكن ما همّ عندي مأتاه في عين ما كنت أختبره. وليس هذا، ولهذا فقط، بل لأنّ وجعي لم يكن ألماً بعينه يعذّب عضواً بعينه من أعضائي أو جارحة بعينها من جوارحي، بلْ ألماً موزّعاً بالعدل والقسطاس عليّ أجمع، من قمّةِ الرأس، كما يُقال، إلى أخمص القدمين.

بين يَدَيْ ألمٍ عميمٍ ومُتساوٍ كهذا لا يملك بعض الجسد أن يَقِفَ من بعضه الآخرِ موقفَ المتفرِّج الحاني، كما عندما يعرو ألمٌ عضواً بعينه أو جارحةً بعينها. بين يَدَيْ ألَمٍ كهذا تُقِرُّ النَّفْسُ للجسد أنّها منه، ضالعةٌ فيه، يُصيبها ما يصيبه، ويرى الجسَدُ بينه وبيْن نفسه وَحْدَةَ حالٍ لا لُحمةً أو صلة قربى فقط. فما بالُكِ إن كان هذا الجَسَدُ قد أمضى سِني عُمرهِ مُكابراً ذاته ولذّاته وآلامَه، لا يجرؤ على الانفراد بنفسه، حتّى عندما يستعين بيده على لذّة عابرة، وما بالك كانت هذه النفس تُعامِلُ هذا الجسد معاملةَ مسكينٍ يعبر من وقتٍ إلى آخر سبيلَها فيحرّك فيها مشاعر الشفقة والأسى.

Twitter: @ketab_n

كمخمورٍ دارت بيَ الدنيا، وزادَ من دَوْختي أنّني، لسنوات خلت، لم تَدْرِ بي، بل لم أهِمْ، رغم ما أسْفَرَتْ لي عنه بين الحينِ والآخر من وجوهٍ، إلّا على وَجْهِيَ المُحَجَّبِ بألف حجاب ـ ألف حجاب لم يخطر لي يوماً خاطرُ المساس بأيّها، هيهات رفعه أو محاولة رفعه. سمّيه كشفاً، سمّيه ما تشائين، كلُّ ما في الأمر أنّني، بليلتي تلك، أؤرِّخ أوّلَ وضوء حقٍّ توضّأته. وعلى أنّ الأيّام أبدت لي أنّه كان وضوئيَ الأصغرَ فلقد خلتُه ليلتَها الوضوءَ لا وضوء بعدَه.

•

لا أدري هل إنَّ للأعراض الّتي وصفتُ اسماً جامعاً متعارَفاً عليه، إن كان لها، ولما رافَقَها من عارضٍ، اسم، فلا تثليب، وإن لم يكن فلا فخرَ على الإطلاق لعلمي علم اليقين أنّني لست من مَعدِنِ الّذين يؤثّر فيهم فَتْحٌ أو رؤيا، فيستحيلونَ بين ليلةٍ وضُحاها أولياء وقدّيسين. قضيتُ الفجر مع إخواني وعدتُ إلى فراشي فغلبني، دون مقاومة تُذكرُ، نومٌ عميقٌ، أو ما يُسمّى كذلك، استيقظتُ منه متأخّراً.

أدهشني بعضَ الشيء أنّني لم أعتَبْ على نفسي لاستغراقي في النوم، كما عهدتُني أفعل منذ التحقتُ

Twitter: @ketab_n

بالجامعة وأدركتني لوثةُ توسيع معارفي، وصرتُ أرتِّب على نفسي كمِّيَّة من المطالعة شهرياً لم يكن بالوُسْعِ الاضطلاعُ بها إلّا بإحياء الليل في سهر طويلٍ يتعسّر معه الاستيقاظُ المبكر. ولأن أعتب على نفسي سببٌ واحدٌ في الأقل هو أنّني رغم ما أعفيته نفسي، شيئاً شيئاً، من مُتابعة خطّةِ القراءة الّتي كنتُ قد رسمت، لم أتخلّص من هاجس الاستيقاظ المبكر، ولو أنّه لا أمر عاجلاً يستدعي ذلك.

من ثَمّ، أن أبدأ نهاري بأن أغفر لي بضع سُويعاتٍ إضافيّة من النومِ، لا مخاصِماً نفسي ولا واجداً عليها، كان أوّلَ مفاجآت ذلك اليوم في التسلسل، إنْ لم يكن في الشأن والأهمّية.

•

البريدُ عندي حوالةٌ أُرسلها إلى البكر من أشقّائي في وقتٍ معلومٍ من كلِّ شهر، وما يرِدُ على المسجد من مراسلاتٍ إداريّة ومطبوعات ودَعَوات. كذلك فلقد أثار فضولي، إذ كنتُ أفضُّ بريدَ الأيّام الماضية، بلامبالاة من لم يَأتِهِ البريدُ بالأخبار يوماً، مغلّفٌ مستطيلٌ صغيرٌ يحملُ اسمي مكتوباً بتأنٍّ طفوليٍ وخطٍّ منمنم. مَنِ الطّارقُ،

Twitter: @ketab_n

تساءلتُ، وبخلافِ سائر المغلّفات الأُخرى الّتي كنت، لمعرفتي سلفاً بمحتواها، أفضّها بِغِلْظَةٍ، بل أمزّقها تمزيقاً إن أبدت أدنى مقاومة، ـ بخلافها تناولتُ ذلك المغلّف الّذي يُملي حجمُهُ ألّا يُعامَل إلّا بمزيد من الرّفق، وشَقَقْتُ أعلاه بضربة واحدةٍ مِنْ يُمناي القابضة على سكّينٍ مكتبيٍّ وبمثله مِن الرفق اَستخرجتُ بطاقةً من ورق مقوّىً، ناصعةَ البياض، إلى أعلى اليمين منها اَسمُكِ مصوّراً بالخطّ الفارسيِّ المَمْشوقِ وتحته بصيغة المخاطبة العبارة التاليةُ: «حاوَلَتِ الاتّصالَ بكُم هاتفياً فقيلَ لها مسافر. تتمنّى لكم عَوداً موفَّقاً راجيةً أن تسمع منكم في القريب العاجل»، يليها هلالان بينهما رقم هاتفك، وتحته إلى اليسار أحرف اَسمِكِ الأولى. كانَ فرحاً ما انتابني ولكن فرحاً هادئاً دفيناً لم يُتَرْجِمْ عن نفسه بانفعالٍ ظاهِرٍ. ودِدْتُ، ثقي، أن أفرح أكثر، بل كثيراً، كما يليقُ بما أفردته لكِ من محلٍّ في نفسي وخاطري، ولكن كيف بعد ليلةِ الأمس؟

لم أَهُبَّ إلى مهاتفتك في الحال، ولا أسْلَمْتُني إلى ما كدتُ أضعفُ أمامه من تفسيرات لعجالتك البرقية ولبعض ما وردَ فيها («في القريب العاجل» مثلاً)، ومن

Twitter: @ketab_n

أسئلة مُحَيّرة من مثل هل إنّك على ٱنتظار مكالمتي الهاتفيّة على معنى الحقيقة أو المجاز؟ بل ٱنصرفتُ إلى شؤوني «الدنيويّة» فٱستفسرتُ عمّا جَدَّ بين العائلتين الحزبين، وعن الموقوف هل أُطلق سراحه، وٱستمعتُ من الإخوة إلى جديد أخبار الحيّ والبلد، وأمَمْتُ صلواتِ الجماعة. وحين فرغتُ من ذلك جميعاً وقضيتُ حقوقَ اللّه وأُمّتي الصغيرة عليَّ، دخلتُ غرفتي وأحكمتُ، بعد غَلْقِ بابها، إيصادَه بإدارة المفتاح في القفل مرّتين، على يقيني بأنْ لا داعيةَ من أمنٍ إلى ذلك.

ملايينُ البشر يديرونَ في كُلِّ وَقْتٍ ملايينَ المفاتيح في ملايينِ الأقفال مرّتين، بيد أنّني لست منهم، أو هكذا زيّنْتُ لنفسي، مذ أضحى إيصادُ الباب على هذا النحو إحدى عاداتي، أي مذ ألزمتْني تناسي كيف كان منّي أن ٱكتسبتُ هذه العادة وٱستجابةً لأيّ هاجس. تُذَكّرني بهذه الواقعة، بل تفضحها عندي، لائحةُ تدابير السَّلامة المعلّقة على الباب التي تُطالعني الآن، كأنّما لأوّلِ مرّةٍ، إذ أسرح ببصري في أرجاء «حجرة الدَّم» هذه.

•

Twitter: @ketab_n

أوّل ما جيء بي إلى هنا، إلى هذه القرية المزعومة سياحيةً، القلعة الحصينة رغم ما فيها من أسباب الرفاه، لم أُفرد بجناح خاص بل أودِعتُ، باسم الأمن وضروراته، في المبنى المركزي الذي كان قد سبقني إليه على مدار الأشهر الماضية عددٌ من الصحافيين وسواهم من أصحاب الرأي والقلم المُهَدّدين في حياتهم، لمقالات كتبوها أو مواقف جهروا بها. لم يكن في لباسي أو في سيمائي ما يشي بمهنتي ولا حتى اللحية. فمذ غادرتُ الكلّية، حيث كان إرخاء اللحية وسيلة إلى إرضاء المتشددين من مشايخنا، والتحقتُ بالوظيفة، بادرتُ إلى تقصير لحيتي إلى الحدّ الأدنى وداومتُ على ذلك، لا أدعها تطول عن ذلك الحدّ أو تقصُر، بحيث استحالت بعضاً من صورتي. هو كذلك ولكنّ صيتي سبقني، وهكذا وجدتُني أسير نظرة الآخرين إلى «رجل دين» وأسير خطابهم إياي بهذه الصفة، وشرّ من هذا وذاك أسير لغة وسلوك لم أزاولهما في حياتي أجمع مقدار ما اضطُررت أن أفعل خلال الأسابيع الأولى من إقامتي هنا، أي قبل أن تَدَبَّر قريني، وليُّ أمري، ملاكي الحارس (سمّيه ما شئت)، إجابة سؤالي الملحّ بأن

Twitter: @ketab_n

أُخَصّ بأحد الأجنحة المشيدة حول البناء المركزي والاستحصال على الموافقات الضرورية لذلك.

في عداد تدابير السلامة المنصوص عليها في اللائحة تلك ضرورة إحكام إيصاد الباب من الداخل بالمزاليج الثلاثة، وعدم محاولة فتحه لأيٍّ سبب ولأيٍّ كان، إلّا بناء على إشارة ضابط الأمن المناوب. بابُ غرفتي الخشبيُّ كان حسبي أن أدير المفتاح في قُفله مرّتين لأطمئنّ إلى وحدتي واستقلالي بنفسي وجسدي وانفعالاتي عن عالم على مبعدة خطوات قليلة. أمّا هذا الباب المشكوك في صلابته، رغم صفيحه المضاد للدروع، كما قيل لي، ومزاليجه الداخلية الثلاثة وشتى الحراسات البشرية والآلية التي تعترض أصلاً الوصول إليه، فلا يوحي إليَّ بالثقة ولا بالأمن ولا بالوحدة. هل لأنّه بابٌ لا أملك أمره ولا مفتاحه وليس وراءه إلّا انتظارٌ لا أفق له؟ على الأرجح. (ولأنّ الشيء بالشيء يُذكر، دعيني أُسِرّ إليكِ، ولو متأخّراً، بأنّني لم أستَسِغ يوماً تلك القراءات الّتي سَنَنْتِ لنا ذاتَ حينٍ، وكان مدارها على أبوابٍ تُفضي إلى أبواب، إلخ... وبأنّ استطرادي إلى الترجيح بين هذا الباب وذاك لا ينظر

Twitter: @ketab_n

من قريبٍ أو بعيدٍ إلى تلك الأبواب؛ كذلك فكلامي على البابين على معنى الحقيقة لا المجاز!).

•

رقم هاتفك مطبوعٌ في ذاكرتي، هذا ما تبيَّنتُه عندما أخذتُ أُعِدُّ العُدّة ونفسي لمهاتفتك، مؤجِّلاً ٱستخراجَ بطاقتك من مغلَّفها والمغلّف من جيب سترتي. «لا جدوى من المُماطلة إذاً، وما عليكَ سوى أن ترفع سمّاعة الهاتف وأن تُدير القرص، وأن تنتظِر بضع ثوانٍ». ولكنَّ هاتفاً آخر، من نفسي هذه المرّة، كان يُشَوِّش عليَّ هامساً لي أشياء من قبيل: «أيّةَ تحيّة ستلقي عليها؟ وكيف ستُعَرِّف عن نفسكَ إن فاتها تَعَرُّفُ صوتِكَ في الحال؟ وكيف ستتحاشى الارتباك أو أن يعروَ صوتَك تهدّجٌ»؟ كان كذلك وأكثرُ منه: كان أن تمنّيتُ، ساعة حزمتُ أمري ورفعتُ السمّاعة وأدرت القرص، أن يطول ٱنتظاري على وقعِ الرنّاتِ سُدىً، فأخلُص من ذلك أن لا مُجيبَ، وأُرجىء هذه الكأسَ إلى الغد، مطمئنَّ النفس إلى ما أبليتُ من محاولة.

تَعَرُّفُك السريع على صوتي رفع عنّي مؤونةً، أمّا طلاقَتُكِ

Twitter: @ketab_n

العفويةُ فلم تَدَعْ لي أن أتَرَدَّدَ أو أرْتَبِك. لم يكن ما دارَ بيننا حواراً، وأنّى له أن يكون: فأنْ تَتَوَجَّهي بالحديث إلى رَجُلٍ «أجنبيٍّ»، على ما نتسامَعُ، أهْلَ الفِقه، هذه اللفظة وعلى ما توحي به عامّةً، أمرٌ أليفٌ عندك. أمّا عندي فأنْ أتوجَّه بالحديث إلى امرأةٍ «أجنبيَّة» وفوق ذلك أتمنّاها مُنىً وأشتهيها شهوات فشأنٌ ذو قبلٍ وبعدٍ وشجون. على هذا، وعلى أنّك كنتِ السبّاقة إلى السؤال عن صحّتي ونشاطي وسَفْرتي، بحيثُ وقّعَتْ سؤالاتُك ما دار بيننا في غضون تينِك الدَّقيقتين، لم أجد على نفسي عَقِبَ محادثتنا مأخذاً من تَلَعْثُمٍ أوْ تهدُّجٍ بادٍ آخذُهُ، كما كُنْتُ أخشى، وإنْ لم يَخْفَ عليَّ أنّني لم أُحسنِ التّخلُّص من استفساراتك، أي الإجابة عليها، إلّا متوسِّلاً بعبارات جاهزة مُنَضَّدة تَصْلُحُ لكلِّ مقامٍ، وفي كلِّ سياقة.

•

بإيناس ورضا أقبلتُ على البقيّة من نهاري فَبَشَشْتُ لزوّاري، وتباسطتُ مع إخواني في شؤونٍ تخصّ الجالية أؤجّل البحث فيها منذ أسابيع، وحتى الصلوات أممتها وأقمتها بخفة ونشاط أدهشاني، بل، أزيد، بصدق نية

Twitter: @ketab_n

ولو أنّ صدق النية وإخلاصها مما يصعب إقامة الدليل عليه.

لا أحسَبُ أنّ موعدنا الذي تواعدنا في غدٍ أثّر فيكِ وفي طباعِكِ وسلوكك كما أثّر فيّ وفي طباعي وسلوكي، وهنا بيت القصيد أو إن شئتِ ملاذه! أنتِ من أنتِ في السرّ والعَلَن، أمّا أنا فَسِرٌّ وعَلَنٌ لا سلامَ يُرَجّى بينهما.

موعدنا غداً حَقَّقَ لي أنّك لم تقطعي الأمل منّي، ولا طردتني من ملكوتك إلى غير رجعةٍ كما تَوَجّست. وفرحي المجرّدُ المُنَزّهُ لم يُنسني أنّني رجلٌ على موعدٍ مع امرأة وأنّ من حقوق موعد كهذا عليه أن يستعِدَّ له قلباً وقالباً. أمّا قَلباً فلا إخالني قصّرتُ من أوّل تعارفنا: إلى ديوان المتنبّي أحجّ مرّاتٍ في اليوم الواحِدِ، وإلى الديوان أغنيتُ مكتبتي الصغيرة بكتابين عن أحمدك أوشك على الفراغ من قراءة أحدهما. أما قالباً فلقد سَلَّمْتُ، بلا جدال، أنّها مسألة شائكة: «ماذا يَسَعُكَ يا هذا أن تُحسِّن من هيئَتِك وقيافتِكَ وهندامِكَ؟ ثم ماذا لو أنّك أسات التقدير فبالغت في التأنّق بحيث تبدو مُتَنَكّراً أكثر منك مُتَقيّفاً أو مُتَهَنْدِماً»؟ كذلك قَرّ قراري أنْ أكتفيَ من التجمّل بالمرور على المزيّن.

Twitter: @ketab_n

من أشراط من كان مثلي وفي مثل حالي أن يتوهَّم سكناته وحركاته كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الآخرون، الأقربون والأبعدون، ما يجول في خاطره ويعتمل في سرّه ويَنْعَقِدُ من نواياه. في الطريق القصير إلى دكان جارنا المُزَيّن تَسَلَّط عليَّ هذا التوهُّمُ حتى كاد أن يُعيدني أدراجي: «كيف عساهُ أنْ يتأوَّلَ حرصي على تهذيب شعري مرّتين في غضون شهر واحدٍ في حين أنّ عادتي التي دَرَجْتُ عليها هي اللجوء إلى خدماته مرّة واحدة في الشهر؟». «دَعْكَ من المزيّن على طول لسانه وافترض الأسوأ: ماذا لو استوقفَ أحداً من خاصّتك تَذَبْذُبُ سلوكك وطباعِك في الآونة الأخيرة، واستشهدَ على ذلك بسوداويتك خلال الأيام التي سبقت سفرك المفاجىء، فعودتك المُتَسَرِّعة، فانقلاب أطوارك في الساعات الأخيرة حَدّ الاهتمام بإصلاح شعرك، إلى ما أنت مُقْبِلٌ عليه مساء الغد الخميس من الاعتذار لإخوانك ورعاياك عن حضور ناديهم الأسبوعي، ـ ماذا لو ضمَّ أحدهم هذه الوقائع إلى بعضها البعض وخَلص إلى أنَّ شيئاً لا سابق له قد عرا مولانا؟».

قطعتْ عليَّ تحيّاتُ بعض أهل الحي حبل مخاوفي

Twitter: @ketab_n

وأفكاري فَحَثَثْتُ الخطو كيلا يفضحني تثاقلي. في دكّان المزيّن تتوالى الشعائرُ بترتيبٍ لا مُبَدِّل له: بعد عبارات المجاملةِ وبعد أن دعاني إلى تبوّؤ كرسيّه المتحرك، وجلّلني ببرنس خَلِقٍ كالح اللّون ورَفَعَ الكرسي بحيث صار رأسي بمتناوله ومتناول آلاته، ـ بعد هذا جميعاً سارع من تلقائه، بالنيابة عنّي أو قراءةً في أفكاري، يتمحّل تفسيراً لزيارتي إيّاه مرّتين خلال شهر واحد: «هذه الشعيرات التي تغطي مؤخّر الرقبة لا تطاق في الحرّ». شجّعتني نظريته على أن أُضيف بشيء من الخفر «وأن تأخذ من عامّة شعر رأسي قد يُخَفِّف من وطأة الحر أيضاً». تلقَّف ملاحظتي بالموافقة وبـ«فليكن» مُتَذَلِّلة لا تكاد تواري غبطته بأن خلّيتُ بينه وبين شعري يحرث فيه كما يشاء.

مطمئناً إلى أنَّ مقامي في دكّانه سيطولُ إلى حَدٍّ ما، لم يجدْ جاري المزين غضاضةً، طالما كان يُعالج شعر الرأس، في الانهماك بشؤون الحيّ الصغرى، كأنّما اللحظة المناسبة للخوض في الشؤون المصيرية لم تحن بعدُ. وصَدَقَ ظنّي، فما هي أن وضع كفّه الأيسر على يافوخي وأن حنيتُ رأسي إلى الأمام فلامَسَ طرفُ الذقن منّي

Twitter: @ketab_n

التَّـزْقُـوَةَ وكُـمَّ فـمـي، واشـتَـلَّ مـن حيـثُ لا أدري مـوسـى عاجيّة المقبض، حتى تنحنح كمن يتأهَّب لقول ثقيل أو لأمرٍ خطير.

لا أذكـر مـن أيّ الاثـنـين أخـذتـنـي الـرعـدة، أو بـالأحـرى سبقت إليّ: أمـمّا حسبته وخز الشفرة الـماضية الباردة في اللحم الحي، ولم يكن في واقع الحال سوى تثبيت الـمزيّن سنان الـموسى طرفة عين في موضعٍ من الرقبة ارتأى بعلمه أن تبدأ عنده نزهتها في أرجاء رقبتي، ـ أمن هذا أم من مبادرته إياي بنبرة هي أدنى إلى التأنيب منها إلى العتب الرقيق: «يا مولانا، لا أنا منهم ولا هم من دلّني إلى المسجد وعلّمني التقوى والصلاة والصيام... لَستُ منهم ولكن ما يشهده البلدُ من تصرفات الحكومة وأجهزتها باسم إشاعة الأمن، وما بدأنا نُعاني منه هنا، لا يحتمل الدفاع عنه...». بدا لي أن جملته لم تتمّ بعدُ. ولم يخطىء توقّعي، إذ ما لبث بعد صمتٍ قصير جدّاً سَنَّ خلاله شفرة موساه، أن استهلّ جملة ثانية بلهجة أحزم من الأولى: «بصراحة، قال، لستُ موافقاً على ما جاء في خطبتكم يوم الجُمُعة الماضي...». وإذ استكثر على نفسه أن يَنْسِبَ إليها وحدها رأيه هذا، استدرك: «ولستُ الوحيد في

Twitter: @ketab_n

ذلك، فالعديد من الأهل والإخوان أدهشهم ألّا تعدلوا في حديثكم عن الفريقين. فلقد عدّدتم مساوىء الجماعة فلم تبقوا ولم تذروا، أما الحكومةُ فتغاضيتم كل التغاضي عنها وعمّا يتكشّف اليوم بعد اليوم من فضائحها، وما لا يجرؤ الناس على ذكره إلّا تلميحاً من ارتكابات أجهزتها ومن تدخّلها في كل شاردة وواردة هنا وهنالك».

عن سهوٍ، أو عن آسترسالٍ في الحديث مُتَعَمّدٍ، لم تَرِمْ كفّ المزّين اليسرى تضغطُ على يافوخي، حانيةً الرأس منّي وكامّةً الفَمَ، فآكتفيتُ بهَيْنَمَةٍ لم أُرِدْ منها سوى التعبيرِ عن إصغائي لما تقدّم به أما هو فسمعها على معنى «هيه»، أو لعلّه لم يلقِ إليها سمعاً، فاستطرد إلى ما كان، صباح ذلك اليوم، من مشادّة بين العائلتين. لم يفتهُ الثناءُ على ما وصفه بحكمتي التي «حالت دون تفاقم المشادّة» ولكنه لم يلك ألفاظه في تعبيره عن مخاوفه من أن يتكرّر ما جرى.

هل تراه راجع نفسه فهمستْ إليه أنّه قد بالغ في إسكاتي وتقريعي باسم تلك الشعيرات؟ أم هي يسراه أتعبها الضغط بحزم ورفقٍ معاً على يافوخي؟ تحوّله فجأة إلى

Twitter: @ketab_n

استفساري عن صحّة فلانٍ، جارنا مقدار ما هو جاره إن لم يكن أكثر، أشعرني بأنّ جلسة التعذيب هذه توشك على الانتهاء، وبأنّه لا يُريد لها أن تنتهي حيث بدأت. على مهل أحسستُ بيسراه التي أوكل إليها لَيّ عنقي ترتفع وبفرشاة تطرد عن رقبتي وما دونها إلى حدود الفِقْرة الأولى ما التصق بجلدي من شعيراتٍ لم يَقْوَ على الحيلولة دون التصاقها نَفْخُهُ عليها بين الحين والآخر، إذ كان يُمِرُّ شفرة موساه.

كان من قِلّة الأدب ألّا أُعَلّق ولو بكلامٍ عامٍّ على كلّ ما جاء به وجاد، لا سيّما خطبةُ الجُمعة الماضية التي انتهى إليّ ما أثارته من لَغَطٍ، ولكنّني لم أشأ أن أفوّت عليّ هذه اللحيظات من الدغدغة المثيرة التي طالما تمنّيت أن تطول، فافتعلتُ السهوم.

بخلافي، كان على ما يبدو في عجلة من جوابي، فأنبهني إلى أنّه قد فرغ بأن رَبَتَ على كتفي ربتتين أرفقَهُما بالدّعاء لي ألّا آتيه في المرّة المقبلةِ إلّا عريساً، ووقف ينتظرُ ما يكون منّي.

لم ألحظ، إذ اَسترقتُ إلى المرآة نظرةً، من فارقٍ يُذْكر

Twitter: @ketab_n

بين ما كنت عليه قبل أن عهدتُ إلى المزيّن تهذيبَ شعري وبعده، غيرَ أنّني لم أيأس من أن تكونَ أنامله وأمشاطُهُ وأدواتُهُ الحادّة قد حَسَّنت من هيئتي، ونَسَبْتُ إلى الاستراق ما لم ألحظهُ من فارِقٍ بين قبل وبعد.

كالعادة حاول أن يَتَمَنَّع بدايةً عندما دسستُ يدي في جيب قميصِه لأنقدَه أجرَه، ولكنّي قطعتُ عليه تمنُّعَهُ بأن عدتُ بنا إلى حديث عَتَبهِ، فأسفتُ أن تكونَ خُطْبتي قد أُسيءَ فَهْمُها حتّى بَدَتْ ممالئةً لفريقٍ، متحاملةً على آخر. ولئلّا يتوسَّم من قولي هذا تهرُّباً، عاجَلْتُهُ بالتوضيح أنّني لم أبرىء ساحةَ أيّ من الفريقين، ولكن أنّني، مع هذا، عند قوله صلّى الله عليه وسلم «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنّه مَنْ فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية»، وعند الرأي القائل بأنّه لا يُصْلِحُ الناسَ تفشّي الأُمراءِ بينهم وإنّما خضوعهم لإمارةٍ واحدةٍ برّة أو فاجرة وبأنَّ غداً، على أيّة حالٍ، لناظرِه قريب.

Twitter: @ketab_n

٨

لناظره الغَدُ قريبٌ، أمّا لـمن كان بينهُ وبينَ غده مثلُ ما كان بيني وبينَه، فلا أبْعَدَ من الغد عنده، بل يوشكُ أن يُسْقِطَهُ من حُسبانه، ولو كان جُمُعةً.

مع اقتراب موعدنا الثالث، أخذتِ البشاشة تُزايلني وتُخلي مكانها لـمزيج غريبٍ عجيب من الشعور بالفرح والجزع معاً. لـم يدهشني ما تَغَيّر من حالي ولكنَّ توجّسي الـمتصل من أن يكون للآخرين عيونٌ لا أراها دعاني إلى الاحتياط ولزوم غرفتي، رغم أنّ النية منّي كانت معقودة على قضاء الـمغرب في الـمسجد مع إخواني، ثـمّ التسلل إلى عندكِ. لا جدوى من الـمكابرة في الانتظار. ثمّ إنّ ذلك الـمزيج من الشعور بالفرح والجزع معاً، أخذ يَشْرى شيئاً فشيئاً، مقدارَ ما يتقدّم الوقت، وتضيق بي غرفتي الصغيرةُ وبـه.

مُتَقَلِّصَ النَّفْسِ مُتَمَدِّدَها، غادرتُ الـمسجد قبل ساعةٍ

Twitter: @ketab_n

ونصف الساعة من موعدنا، متأبِّطاً حقيبةً صغيرةً نفضتُ عنها الغبار للمناسبة، وبالجهد اتّسَعتْ لمجلّدَيْ ديوان المتنبّي، وعزمتُ أن أقْطَعَ المسافةَ الطويلة إلى «عندك»، أو بعضاً منها على الأقل، سيراً على الأقدام. وحسناً فعلتُ لأنّي كلما عبرتُ شارعاً إلى آخر رحت أتيقّنُ مِن أنّ أحداً لا يقرأ أفكاري وعواطفي، أو يُبالي بأن يَسْتَطلِعَ دخيلتي أو داعيتي إلى التوجُّه شطر حيّكِ. ولولا هذا الاطمئنانُ المُكْتَسَبُ إلى أنّني، وأنّ شجوني، لا تستوقف أحداً لتخاذلْتُ حتماً عن ٱبتياع باقةِ الزهور المتواضعة، ولولا تلك الخفّةُ اليائسةُ الّتي خرجت بها من جحيم الأيّام الماضية لَرَمَيْتُ باقةَ الزهور في أوّل صندوقِ قُمامةٍ اعترضني، خوفَ ألّا أُحسِنَ تقديمَها إليكِ، فتلك، كما تقدّرين، كانت أوّلَ باقةِ زهرٍ أبتاعُها لأُقدِّمها إلى ٱمرأة.

لم أصبِر على الدقائق العشر الأخيرة قبل السابعة، فَدَقَقْتُ بابكِ معتذراً عن تبكيري. كالمعهود، ولو أنّه لم يكن معهوداً بعد، أسْعفني حُسْنُ وفادتك، وأسئلتُك العفويةُ الّتي حاولتُ المستطاع أن أوفّيها حقّها من الجواب بجُملٍ مستفيضة، لا بعباراتي الحاضرة غِبّ الطلب سلفاً.

Twitter: @ketab_n

بُرهةُ شكٍّ كادت أن تغلبني: تلك الّتي قضيتِها في المطبخ في إعداد الشاي، وفي توزيع الباقة على آنيتين كما تبيّنْتُ لاحقاً. بُرهتَذاك عَنَّ لي أن أتَكَهَّنَ بما يدور في خاطرِك، فَتَمَثَّل لي أنّك تهزئين منّي ومن زُهوري وتتساءلين: «والآنَ ما العَمَلُ به؟ بل كيف العمل بشيخٍ تولّاه الغرامُ من أوّل نظرة؟». وخلتُكِ تُهَدِّئين مخاوفَك الساخرة بشيء من قبيل هذا: «صحيحٌ أنّها المرّة الأولى يهواني فيها شيخ ولكنّ صَدَّ شيخٍ مولّهٍ لَيسَ بالضرورة أصعبَ من صَدِّ مولَّهٍ يَمْتَهِنُ التعليم أو التجارة، أو لا مهنة له على الإطلاق!».

أسعفتِني ثانيةً بأن عُدْتِ بهديّتي وقد طَبَغْتِها بخاتَمك، إذ وزّعتِها على آنيتين ممشوقتين تَمَثّل لي أنّهما لغير الزهور استعمالهما الأصلي، عوض الاكتفاءِ بِوَضْعِها، كما جئتُ بها، في واحدةٍ عادية. فتحيَّنْتُ دُخولَك للنهوضِ من مجلسي، ولم أُجِب دعوتك إيّاي أن ألزَمَ مَقعدي، بل ظَلَلْتُ واقفاً أنتظرُ عودتك ثانيةً بآلة الشاي، ولكيلا يبدوَ وُقوفي اَفتعالاً محضاً دنوتُ من إحدى خزائن الكتب الّتي تُواري معظمَ جدرانِ الغرفة، ورُحْتُ أُجيلُ على العناوين

Twitter: @ketab_n

المتنوّعة اللغاتِ بَصَراً لم يَحُلْ شروده دون أنْ يتبيّن لي أنّ ثراءَ هذه المكتبة وتنوّعَها مدينانِ لجيلين على الأقلّ من القرّاء، أو لربّما ثلاثة، وليس لكِ وحدَك، الأمرُ الّذي لم تتأخري في تأكيده، حين عدتِ بآلة الشاي، لكأنّك كنتِ تقرئين أفكاري، موضِحَةً، بشيءٍ من الإفاضةِ توسَّمْتُ فيها ما يُشبهُ الاعتذار عن امتلاكِكِ هذا المقدار من الكتب، أنّها تَركةٌ عائلية لا فضلَ لكِ إلّا المحافظةُ عليها رغم ما تدُسّينه في رفوفها بين الفَينة والأخرى من ثمرات المطابع.

سألتِني عن مكتبةِ المسجد وما فيها، فأجبتُك أنّنا نعمل على تنظيمها لما حَزَّ في نفسي أن أُظْهِرَكِ عليه من حقيقة أمرها، وأنّ جُماعها بضعةُ مصاحِفَ من القَطْع الجوامعي، فاخرةِ التجليد والتّذهيب حدَّ الابتذال، يُعاملُها روّادُ المسجد معاملةَ الأوثانِ، ومجموعةٌ من كتب الحديث لا إخالُها حظيت يوماً بفضولِ أحدٍ. لم تطلبي المزيد من التفاصيل، بل آستأذنتِني الاستفسار عن رحلتي. انتهزتُ المناسبة لأختبرَ ما لَحِقَني من عَدوى طلاقَتِك. لا يحضرني ما سردْتُه عليكِ. بالطبع، لم أُحدّثك بحديث سَفْرَتي على حقيقته: ما حداني إليها وإلى اختصارها، فضلاً

Twitter: @ketab_n

عمّا تخلّلها، بلِ ٱرتجلتُ للمناسبة سفرة تلقّطتُ تفاصيلَها من هُنا وهناك، وبَهّرتها بما تيسَّر من بنات الخيال. لم يكن ذلك منّي حياءَ الحقيقة فقط ولكن لأنّ «الحقيقة» في هذا الموقف، الآن، بين يديك، كانت آخر همّي، وهمِّك أنت أيضاً، بل لا جدوى منها ولا طائل تحتها ولا فائدة منها ترجى ولا شيء على الإطلاق! فالحقيقةُ ليست «الحقيقة» أو لا يبقى لي من حجّة لأقبل دعوتَكِ إيّاي إلى متابعة حديثنا! لا أغالِطُ نفسي فلا تُغالطيني: لم يكن بيننا من حديث ألبتّة وإنما أجاءني اليومَ إلى عندِكِ أنّك أردت ذلك لغاية في نفسك. كلّ ما يعنيني الآن أن تُفَكَّ العقدة من لساني وأن أخاطِبَكِ خطاب الندّ للندّ: هذا ما كنتُ عليه، همّاً وعزماً على حدّ سواء، ولا أحسَبُني أُبالغُ أن نسبتني إلى النجاح.

مقدار ما أفرحني أن يتداعى تطارحنا الكلام على غير هدى ولا نظام، حَيَّرني بعض الشيء، فلم أدرِ هل أترك لكِ أن تعودي بنا إلى موضوع المتنبّي وكشافه، أم أُبادر أنا نفسي إلى ذلك. وكان تحت حَيْرتي هذه حَيْرَةٌ وتساؤل أصعب وأشقُّ: هل إنَّ ما نحن آخذون فيه من سَمَرٍ على هامش داعيتي «الرسمية» إلى زيارتك مُعَلَّقٌ

Twitter: @ketab_n

بفراغنا من شرب الشاي، أم إنّها بواكيرُ أُلفةٍ تَتَلَمَّسُ أسبابَ تَفَتُّحها؟

لم أشأ أنْ تفوتَني سانحةُ الطلاقة، فسألتُك، بلُغَتي، أي مضمِّناً سؤالي «إن شاء اللّه» نافلةً، هل من جديدٍ بخصوص «المشروع» - وإن كان في نفسي ألّا أقْصُرَ آستفساري على ذلك.

أجبتِ بأن لا جديد سوى ما يعترض أيّ مشروع في هذه البلاد، بَدْءاً من قلّة العمّال الّذين يجمعونَ الكفاءة إلى التواضع، وصولاً إلى التزاحم على لقب «المشرف العام»، وما دونه، حتى قبل أن يَتَحَصَّل للمشروع ما يُشْرَفُ عليه، مروراً بروائح فساد بدأت تفوح من صناديقه بطاقات سفرٍ وفواتير فنادق.

لستُ أدري من أين كُنْتِ تغرفينَ الصُّوَرَ البيانيّة الّتي مثّلتِ بها على ما أوجزتهِ من حديثِك، ولا كيف كان يتيسر لك الجمعُ بين نظرة إلى الأمور باردة مُقْنِطَة وبين الإبقاء على حماستك متّقدة.

بعينيَّ كنتُ أستمعُ إليكِ أيضاً، وإذ بدا لي أنّ مشهدَك تتحدّثين فتتحدّث جوارحُك جميعاً يكادُ أن يستأثر بي،

Twitter: @ketab_n

لم أملك ألّا أعترضَ تدفُّقك بسؤال نافر فضفاض: «والعمل سيّدتي؟».

كان لا بدّ لي أن أستكشف الشفتين منك والعينين واليدين والنهدين، أي كلّ ما كان يتنفّس منك، ويذكّرني بأنَّك لَستِ مجرّد اَسم يؤلّف مُسَمّاه خياليَ المراهق، بل اَمرأة نفسُها وجسدُها ملكُ يمينها، تفعلُ بهما وبهما ما تشاء.

إستفزّك سؤالي كما لو أنّك تعرّفت فيه سخريةً ما، فبادلتِني بمثل ذلك: «لا عمل ولا من يحزنون، نُحاول ملكاً أو...» غير أنّكِ، من قبل أن تُتمّي جملتك هذه، أو توحي بأنّها تمّت عند هذا الحدّ، أخذ صوتُك على حين غرّة منّي، نبرةً غير تلك التي كان عليها: «عموماً ليس لهذا لقاؤنا اليوم ولستُ أدري إن كنتُ في ما سأقترح عليك، أتوجّه إلى الشخص المناسب. قصّتي طويلة ولكن سأحاول الاختصار. لقد عَزّ عليّ ما استبان لي في أعقاب دراستي الجامعية من قطيعةٍ بيني وبين اللغة العربية وآدابها، وهو ما ألحقني، إلى عملي الاستشاري في المؤسسة راعية "المشروع"، بالجامعة ثانية لا لنيل شهادة إضافية بل لإرضاء نفسي ولربما غروري!

Twitter: @ketab_n

حاصله... لطالما اشتهيتُ أن أقرأ بعض كتب العربيّة على متمرّس بهذه اللغة... هل لديكَ الاستعدادُ والوقتُ لمساعدتي؟ أو في الأقل لنحاول، وما دمنا ندين للمتنبّي بتعارفنا، ماذا لو عمدْنا إلى ديوانه فقرأناه معاً من الألِفِ إلى الياء؟».

كان في صوتِكِ ما يَشي بأنَّكِ أخيراً «وجدتِهِ» - وَجدتِ الـبابَ الّذي لا يعرفُ مَنْ يَجوز عتبته إلى أين يُفضي به. لم أسمع في صوتِكِ يومَذاك ما أسمعُه الآنَ، ولا تراءى لي أنّه أحَدُ تلك الأبوابِ العزيزةِ عليكِ. مُنتهى أمري أنّني اَشتققتُ من اَقتراحِكِ دعوةً لأن تَتَتالى لقاءاتنا دونما اَعتبارٍ لِما سيؤولُ إليه «المشروع».

•

هذا ما كانَ بالإيجاز من بداية أمرِنا. أستعيدُ الرواية بحذافيرها، من البداية إلى النهاية وبالعكس، فلا تُقنعُني. أتّهمني بالغفلة والنسيان، بحجّة أنّ هذه البدايةَ لا تليق بما كان بيننا، علاوةً بالطبع على أنَّ أحداً لن يُصَدِّقَ أنّ رجلاً واَمرأةً لا ما يقضي لهما أن يلتقيا أو يُقَدِّر، اَلتقيا يوماً على مائدة المتنبّي أحمد، وكان بينَهما ما سَنّت الطبيعةُ

Twitter: @ketab_n

أن يكونَ بين رجل وآمرأة، وأوفى على ذلك لربّما، ولم يَبْقَ من لقائِهِما من شيءٍ على الإطلاق، ولا حتّى خَبَرٌ بين الزَّعْمِ والحقيقةِ مَفادُه أنَّ فلاناً قد أحبَّ فُلانةً!

كأنّي يا مولاتي، بما كان بيننا، عاريّةٌ أُعِرناها ولمّا حان الحينُ... آسْتُرِدَّتْ.

هكذا صار أحمدُ المتنبّي كلمةَ سرِّنا، وصارتِ السابعةُ الساعةَ، لا قبلَ ولا بعدَ. أمّا أهلُ المسجد، خاصّتي، الذين أحترس من زعم هذا أو ذاك منهم «فُتِنَ الشيخ» فتعوّدوا، شيئاً فشيئاً، على غياباتي وما إلى ذلك مما لا أحسبُهُ خَفِيَ عنهم من سَلَسٍ طارىء على طباعي ومن لِيان في خُلُقي. لم يُكَلِّفني الكثيرَ أن أُفسِّرَ غياباتي. صحيح أنّ هِمّتي للمشاركة في المناسبات العامة، بل وللقيام بالواجبات الاجتماعية لم تكن مَضْرِب مثل في البعد والعلوّ، ولكن هل كثير على من كان مثلي، في مثل هذه الظروف، مُتَعَهِّداً أُمّة ولو صغيرة بأمّها وأبيها، أن يرتبط بمواعيد! احتياطاً كان منّي أيضاً أن أخذتُ أُلبّي مزيداً من الدعوات إلى مناسباتٍ عامّةٍ، واحتياطاً أيضاً توسّعتُ مراراً في الحديث على مسمعٍ من روّاد المسجد عن «مشروع المتنبّي»، ومراراً ضَرَبْتُهُ مثلاً

Twitter: @ketab_n

على «المبادرات الحضارية» التي لا تخلو منها بلادنا «رغم كل شيء». وبطبيعة الحال فلقد كنتُ أتحدث عن «المشروع» كما لو أنّه يسير إلى نجاحٍ مُحَقَّق. ولمّا صارت غياباتي تطولُ وعودتي إلى المسجد تتأخر أضفتُ إلى جدول أعمالي الوهمي اجتماعاتٍ ولقاءاتٍ خارجَ المدينة!

المرّة تلو المرة فَتَر إقبالُ أصحابي على أحاديثي الوقائية التي عَهِدتُ إليها أن تردّ عنّي فضولهم. وفي واقع الحال لم يكن ذلك اعتراضاً على صدقها ولكن، على ما تبدّى لي شيئاً فشيئاً، من قلّةِ اهتمامٍ بما آتي ما دام ما آتيه لا يغيّر في حياتهم شيئاً. بل كم كانت دهشتي كبيرة حينما أدركتُ أنّ مغادرتي المسجد مرّاتٍ معيَّنةً في الأسبوع، مُتَأبّطاً حقيبتي، أثارت فضول أصحاب الدكاكين من الجيران الذين راحوا يستطلعون الخبر عند خادم المَسْجِد أكثر منها فضول خاصّتي ومحلّ همّي.

سابعةً تلو سابعةٍ، تعوّدتِ عليَّ وتعوّدتُ عليكِ: لم يألف واحدنا الآخر بيُسْر وسرعة، ولا ارتسمت أمام ناظرينا صورةٌ ولو غمّاء عمّا يُمكن لما أخذ ينعقد بيننا أن يؤول إليه أو أن ينتهي. عَنَّ لي مرّات، تارةً بعد أحلامِ يقظَةٍ،

Twitter: @ketab_n

وتارةً بعد أحلام المنام، أن أُفاتِحَكِ في الأمرِ، وأعددتُ سؤالي وتمرّنتُ عليه في انتظارِ فرصةٍ مؤاتية آخذك فيها على حين غِرَّة بـ«وبعدُ، سيّدتي!» وتخيّلتُك تفتعلين السذاجة وتردّين لي السُّؤال بـ«وبَعْدُ ماذا؟» ويتتابَعُ حوارنا تلميحاً، ويَضَعُ أوزاره بأن تتناولي ديوان أحمد الّذي نحّيته في ما بين ذلك جانباً، وتفتحيه فينفتح على الأبيات الأخيرة من مديحه لسيف الدولة «أجاب دمعي...» فتقترحي أن أُساعِدَك على استظهار بَيْتَيْه «القياسيَّين» أحرفاً وأرقاماً كما أتوقّعك تصفينهما:

أقِلْ أنِلْ أَنْ صُنِ اَحمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ

زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اَغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

عِشِ اَبْقَ اَسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ اَنْهَ رَهْ فِهْ أسْرِ نَلْ

غظِ اَرْمِ صِبِ اَحْمِ اَغْزُ اَسْبِ رُعْ زَعْ دِهْ لِهْ اَثْنِ بِلِ

فأفهم أن «فلنعدْ إلى حيث كُنّا، وليَعُدْ كلٌّ منّا إلى قواعده».

ولكنّني لم أجرؤ يوماً على ذلك، ـ على مفاتحتك بأنّني يُزيّن لي خيالي أنْ أتوهَّمَنا معاً حتّى آخر ما يمكن أن

Twitter: @ketab_n

تَبلُغَ إليه مَعِيّة رَجُلٍ وآمرأة، ولكن ردّني على الدوامِ أنّني كلّما شبّهتك بالنّساء، على قلّة معرفتي بهنّ، بدر منكِ ما يُفاجئُني ويعيدُ إليّ بعضَ صوابي، ويُنَبِّهني على أنّك لست آمرأة منتهى أمرها من رجلٍ أن تقول له خذني فيسمع لها ويُطيع.

إرثي لي: حتّى اليوم، هنا، رهينُ حجرة الدم هذه، حيث لا صُدْفَة أُرجّي، ولا رحمة أرض أو سماء أنتظر، ولا من جارٍ نمّام أتقي، وحيث لم يبقَ من أمرنا إلّا هذا الذي أتبلّغ به من آجتراري إيّاه آجتراراً مريضاً، لا أجد إلّا أن أكنّي عمّا أصطلحُ على وصفه بحدّ المعيّة الأقصى بين رَجلٍ وآمرأة. ولو سألتني اليومَ ماذا تحت مصطلحي وكنايتي هذين لألفيتني، كما لأشهر مضت، عَييّاً عن الجواب، وإن كانَ العِيّان لا يتشابهان. فهاتيك الأيّام كان العِيُّ من خوفي أن أُستَلَبَ مكاني عندَكِ وهو اليوم من إضماريَ اليأسَ من أن يتّسِعَ لي بعدُ مكانٌ عندك. وتجاوزي عن هذا، أنّ كنايتي، من أول الأمر، مكتفيةٌ بنفسِها، لا تُكنّي في الحقيقة عن شيء ألبتّة، وأشبهُ ما تكون بتلك الهلاميّات البحرية الّتي ما إنْ تُخْرَج من عنصرها حتى تذوي وتتلاشى ويجري

Twitter: @ketab_n

عليها فناء لا نشور بعده أو منه، حتّى لكأنّها حالة من حالات العنصر الّذي تسبحُ فيه وتتغذّى منه ويقومُ بأودها، لا حيٌّ قائمٌ برأسِه له مُسْكَةٌ من نفسه وقوام. كذا كنايتي: عنصرها مناماتي وخيالاتي وأضغاث أوهامي، متى ما غادرتُها إلى ساحل التصريح والعبارة، قَسراً أو عن يدٍ، عَفَتْ ولم يبق منها ما يُخَبِّر عنها.

•

لم أحسب أنّ شيئاً أكتبه كفيلٌ بأن يسير بي إلى ضائقةٍ دون الخروج منها ثلاثة أيّام متواليةٍ من الكدّ، بل من مبارزةٍ منهكةٍ بيني وبيني، لا وقتَ مرسوماً لها، ولا حَكَم يُحَكِّمُها، ولا قانون يَتَقَيَّد به طرفاها. ولكن هذا ما كان... وأن أستأنِفَ اليوم سرديَ المملَّ، ليس بدليلٍ كاف على انتهاء المُبارزة بظهور أحد الطرفين على الآخر وعلى أنّها لن تُستأنف.

بدأتْ محنةُ الأيّام الثلاثة بأن تَذَكَّرْتُكِ. هل يُعقل! هل يُعْقَل أن أتذكّركِ، وأنتِ الحاضرةُ، بلا استئذان ولا انقطاع، كجمع غفير، لا كفردٍ! يُعقلُ يا سيدتي متى ما سَلَّمْتِ بأنّ التذكُّرَ ليس بالضّرورة استعادةً أمينةً لأشياء كانت بل

Twitter: @ketab_n

إنّه أحياناً، وأحياناً كثيرة، إعادةٌ لها رغم فارِقِ المناسبة والمكان والزمان. أرَدْتُ بقولي «حدّ المعيّة الأقصى» أن أصْرِفَ نَفسي وتفكيري عن كل تلك الساعات الممتعة الجميلة التي صرفناها نتحادثُ أو نتحابّ، أو نتحادثُ ونتحابّ، - أردتُ أن أهربَ على مَتْنِ تلك العبارةِ من حنيني الطِّفلِ إليك، واشتهائي النّهم إيّاك فأخطأتُ المركَبَ أو أسأت توجيهه، أو الاثنين معاً. ألم يكن من الأولى بي أن أُقِرَّ بأنّني، نفساً وحواسَّ، مشتاقٌ؟ وهل كان لا بُدّ لي من كل هذا اللف والدوران الذي لففته ودرته مُسْتقصياً متعمقاً لأتبيّن أنّني كنتُ كمن يحاول الغوص ولكن في مياه ضحلةٍ، وكُنْتُ كلما ارتطمتُ بالقاع اتّهمني بِقلّةِ المهارة في الغوص مُبَرئاً مغاصي من الضحالة وقلّة العمق!

مُسَجّى على فراشي الضّيِّق كجثمان فُرِغَ من غسله وتكفينه، شاخصاً إلى سقف الحجرة، كانت ترتسِمُ تحتَ ناظري تلك العبارة «حَدُّ المعيّة الأقصى بين رَجُلٍ وامرأة» فأقرأها برويّة أحياناً، خطفاً أحياناً أخرى، ثُمّ أُغْلق عينيّ فتمّحي، وما أكاد أفتحهما حتّى ترتسِمَ ثانيةً وهكذا

Twitter: @ketab_n

دواليك. وبين ذلك، بين غمضةِ عينٍ وأختها، أستشيط غضباً مكتوماً من عجزي عن تخليص أدنى معنىً من هذه العبارة، وأيضاً من رميي بنفسي في هذه التهلكة.

في تلك الساعاتِ التي لا وصفَ أصْدَق عليها من «العصيبة» كنتُ شوقاً مصفّىً إليك، ولكن أيضاً إلى ساعاتٍ أُخَرَ لم يجفّ حبرُها بَعْدُ، أنفقتها أدوّن خاطراتي على هذا الدفتر وأسْتَرِدُّ بالجملة حياتي من رواياتِ الآخرين، ولو أنّ اَستردادها، الآن، على هذا النّحو، لا يقدّمُ ولا يؤخّر، ولا يُغيّر شيئاً ممّا جرى به القلم ويجري.

خلتُني إن غادرتُ بحثي عن معنى المعيّة أعود إلى استرداد حياتي، بروايتها على نحو ما كنتُ آخذاً فيه، كأنّ شيئاً لم يكن؛ غادرته، بحثي، وبعثتني من موتي الصغير الذي قدّرته على نفسي، غير عامِدٍ، ولا مدركاً العواقب، فإذ بي أكتشف أنّ العودة إلى روايتي، إلى رواية روايتي، ليست بالمطلب السّهل ولا على طرف الثُّمام.

مجدداً يتولّاني عِيٌّ يسدُّ بيني وبين أنْ أُتابعَ روايتي، وصنو العِيّ الخوفُ من أن يُعْجِلَني الوقتُ، لسببٍ ما، عن استتمامها، روايتي التي لا أريد شاهداً سواها على حياتي،

Twitter: @ketab_n

كُتِبَت لـيَ الـحياةُ، أو على قبري، متى يحين الأجل. في ما بين ذلك أنا هنا، في حجرة الدَّمِ الحصينة هذه التي مثلُها مثلُ سائر المواضع التي حَطَطتُ فيها رحالي منذ غادرتُ القرية إلى عاصمة بلدي، إلى بلدِكُم، إلى يومي هذا: لا سَكَنٌ هي آوي إليه، ولا مُسْتَقَرٌّ أطمئنُّ فيه. على أنّه، لا تُغدَم هذه الحجرة، الآن وهنا، أن تَفْضُلَهنّ جميعاً. ففيها، لأوّل مرّة على الإطلاق، يَسَعُني أن أحيا بالسرعة والوتيرة اللّتين تحلوان لي، في منأى من الرقباء والمحتسبين، ـ أن أحيا ما عشتُه طوال الأربعين الماضية وأن أمخض الأربعين هذه، مخض البخيلةِ، وأن أخلّص زبدتها(*).

... كسواها من الأمور التي لا أقطعُ فيها، لستُ أدري هل إنّ الكنايةَ عن معيّتنا الّتي شَرِقْتُ بها حتّى كِدْتُ إلى آخرِهِ، على قَوْلِ شاعِرِك(**)، كانَتْ بيتَ القصيدِ حقّاً أو مناسبةً لذرِّ الخلاف، بيني وبيني، ثانية، ولا عادَ يعنيني أن

(*) حتى إذا مَخَضَ اللهُ السنينَ لها   مَخْضَ البخيلة كانت زبدة الحقب
أبو تمام

(**) ....   شَرِقْتُ بالدّمع حتى كاد يشرق بي

Twitter: @ketab_n

أدري. فمِنْ هذه المحنةِ التي أزعُمُ أنّني خرجتُ منها حيّاً أُرزق خَرَجْتُ أيضاً بيقينٍ ما بَعْدَهُ يقين: إنّما برّحت بي تلك العبارة لإصراري على الإبعاد في اكتناه جليّتها والتّعمّق فيه ومن ثُمَّ، أو بالأحرى من قبلُ، على افتراض كُنْهٍ لها في قُمقُمٍ مختومٍ في بحرٍ مُتلاطم. ولكن ماذا لو أنّ كلَّ ما في الأمرِ خوفي من أن ينتقصَ ردُّ العبارة إلى الحقيقة من سحرها؟ ري، مولاتي، رأيي - بأنّه كذلك وبأنّ خوفاً من هذا القبيل يستأهِلُ أن يموتَ المرء منهُ ثلاثةَ أربعةَ أيّامٍ، وأنْ يُؤنِّبَه ضميرُهُ، إذ يُبْعَث، لأنّه لم يَمُتْ أكثر!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٩

تحت جنح الظلام والمتنبّي باتَ تَسَلُّلي من مسجدي إلى «عندك» موعداً، بدأ أسبوعيّاً ثُمّ سرعان ما تَحَلَّلَ من دَوْريّتِهِ هذه، وصارَ ما استطعتُ إليه.

على هذا، وعلى مدى تلك الأسابيع الّتي اَلتقينا خلالها خمسَ ليالٍ من سبعٍ، من السابعة إلى ما قبل طلوع الفجر، لم نَخُنْ عَهْدَ المتنبّي، ولا أجّلنا قصيدة يومِنا إلى غدٍ. نعم، كان يحدث أن يستبدَّ بِكِ التَّعَبُ والضيقُ أحياناً من شوارد شاعرك، غير أنّك لم تجهري بتأفُّفِكِ يوماً. وإن أنسَ لا أنسَ تلك الليلة حيثُ كنّا نقرأ مدحه لأبي عليٍّ هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب(*)، فَثَقُلَ لسانُك وكَثُرَ لحنُك، وكابرتِ ما وسعَتْكِ المكابرة، وتحيّرتُ من أمري كيف أُقيلُكِ برفق، دونَما أن أخدِشَ كبرياءَكِ، من

(*) أمِنَ ازديارَك في الدجى الرقباءُ إذ حيثُ كنتَ من الظلامِ ضياءُ

Twitter: @ketab_n

قراءةٍ هي بالتعذيب أشبه، ولم تري لنا من تخبُّطِنا مخرجاً سوى أن تقترحي، باسم الجوعِ المُلِمِّ، أن نؤجّل «عَمَلَ» اليوم إلى الغد...

كان آقتراحاً على طريقة كن، وهي طريقتك عندما يُلحُّ عليكِ أمرٌ ما. كذلك لم تَدَعي لي أن أوافِقَ أو أعترض، بل قُمْتِ إلى مطبخك من حيثُ أخذتْ تتناهى إليَّ أصواتٌ، تميَّزتُ ما كان معروفاً عندي منها كجريان الماء وقرقعةِ أوانٍ زجاجيّة وأخرى معدِنيّة، وأثار فضولي ما كان مجهولاً منها لَدَيَّ كمثل ذلك الصفير المتقطِّع ثُمَّ المتّصل، وتلك الدقّاتِ المَهْموسَةِ الأشبهِ بدقّاتِ أجهزة توقيت العبواتِ الناسفة... كما تُمثَّل في الأفلام...

ليلةَ الأوراجيِّ الكاتب تلك، كانتْ حدودُ «عندك» ما تزالُ تنقطع عند باب ذلك المكتب، حيثُ آستقبلتِني أوّل مرّة. بطبيعةِ الحال كان من تردّدي المتكرِّر أن ألِفْتُه وألِفَني، وتعرّفتُ تفاصيله وصِرتُ على شيء من الدراية بشعاب خزانة الكتب، كما آكتسبت حركتي في أرجائه خفّةً سوّلت لي أحياناً، مِنْ طربي بما كنت تقرئينه علينا، أن أغادر ذلك الكرسيّ الّذي صار كرسيّي، وأن أتمشّى

Twitter: @ketab_n

مرّاتِ الخطواتِ التّسع، عرض الغرفة. كان الأمرُ بيننا ما يزالُ كذلك بعدُ، ومن ثَمَّ لم أُجب داعي الفضولِ إلى اللّحاقِ بِكِ، وٱكتفيتُ بأنْ رحتُ أتحزّر ماذا عساك تُعدّين لنا. كفاني تَدَلُّلاً: صريعُكِ أنا، وعَجَبي مِمّا يؤلِّفُ بينَك وبينَ المتنبّي، وممّا نذرتِه على نفسك من الوقوفِ على دقائق العربيّة، لا يضاهيه إلّا فتنتي بشخصك وقالَبِكِ؛ أفلا تكفيك هذه الصفاتُ لتضيفي إليها مهارةَ الطَّهْوِ...؟ أم أنّك تتعمّدين إحراجي؟

«تفضّل، وليمتي متواضعة ولكنّها لا تخشى الامتحان؛ هل يزعجُك أن تُشاركني عاداتي أيضاً فنتعشّى في المطبخ كما من عادتي أن أفعل؟». وتقدّمتِني مُعتذرةً لتُهديني الطريق. خطوات قليلة سِرْنا ولكن بَدَتْ لي رحلةً: أليْسَ ترخيصُكِ لي بأن أتوغَّلَ في عالَمِكِ، على كَثَبٍ ما بين هنا وهناك، دليلاً على ٱستحقاقٍ وأهليّة وعلى ما تظنّين بي من خير؟

المائدةُ المربّعةُ الصغيرةُ مرتّبة كما في الصور، أو كما يتخيّل المرءُ، مائدة أعدّها خُدّامُ فانوس سحريّ. الحساء متقن، كذلك السمك المشويُّ المزيّن بالخضار على فراش

Twitter: @ketab_n

وثير من الأرزّ البسماتيّ. أمّا مِسكُ الختام فحلوى، لا أعرف لها اسماً، تَمَيَّزتْ في تركيبها مذاقَ سكّرٍ ولوزٍ وجوزٍ وماءِ وردٍ وزعفران. سألتُك عنها فضحكتِ، وبَدَلَ الجواب ملأتِ لي منها طبقي مجدَّداً ناصحةً إليَّ أن أُرجِىء السؤال. قُلْتُ: أفْعَلُ شريطةَ أن تكتبي الجوابَ عليك وعداً. وافقتِ بغُنج وكان ذلكَ، على ما أذكُرُ، الوَعْدَ الوحيدَ الّذي حالفتْني الشجاعَةُ أن أستقطعكِ إيّاه!

دعوتني أن أسبقَك إلى المكتب ريثما تُعدّين لنا شيئاً من القهوة. استسمحتك أن أبقى مكاني وتبرَّعْتُ أنْ أغسل الصحون. «إن كان يطيبُ لك أن تبقى فلا مانعَ عندي، أمّا غَسلُ الصحون فلا عليك منه، هذا العبدُ الآليُّ، وأشرتِ إلى مكعّبٍ أبيضَ أصمَّ إلى جوار الفرن، يُعفينا مؤونة ذلك». ساد صمتٌ قصير تهيّأ لي خلاله أنّ كلّاً منّا يستجمع أفكاره ليخرج على صاحبهِ بما يحفظ على حبل كلامنا وتيرتَه وتسلسلَه، وعلى غرار ما يُتَّفَقُ في مثل هذه الحالات لم أهمَّ بـ«الوَعْدَ سيّدتي»، حتّى كنتِ تهمّين بالاعتذار لأخذك في إعداد القهوة البيضاء قبل استفساري هل أفضّلها على الشّاي حقّاً. وعلى غرار ما يتَّفق أيضاً

Twitter: @ketab_n

استقبل كلٌّ منا الآخر بٱبتسامةٍ وترك لَهُ أن يقرأ فيها ما يشاء، ويُقَدِّر ما يحلو له.

ليسَ من شيءٍ يُذْكَرُ هذا الّذي دار بيننا في مطبخك إن زِنْتِه بميزان القصائد الّتي أنفقنا الساعات الطوال نقرأها ولكنّه، بيني وبينك، بعضُ الأمرِ كلِّه أو يكاد.

ها إنّ ماءَ الوردِ ٱلّذي ٱنتشى منه حلقي لدقائق خَلَتْ فَوحٌ يملأ علينا الجوَّ، أو هكذا أتوهّم، ويثيرُ في كلينا رغبةَ تَعاطيه خالصاً، بدون أسئلة وأجوبةٍ أو أيّ لونٍ من ألوان الحديث. أخذتِ مجلسَكِ على أريكة واطئةٍ قليلةِ العرض تُحاذي خزانة الكتب التي في أقصى الغرفة. كان ظنّي أنّ النمارق الثلاث المُلقاة أمام الأريكة للزينة فقط. أخطأ ظنّي... فما لبثتِ أن تناولتِ إحداها وجعلتِها خلف ظهرك لتحجزَ بينه وبين خزانة الكتب. لعلك ٱنتظرتِ أن أحذوَ حذوك ولربما دُهشْتِ أن لم أفعل، بل تسمّرتُ مكاني على أُهبة أن آخذ الكرسي الذي كنتُ بجانبه إلى الخلف استعداداً للجلوس عليه.

أنظرتِني دقائق مُسَمَّراً مكاني ذاك، قبل أن حَثَثْتِني بصوت خفيضٍ، مراعاةً لحُرمة صمتِنا، أن «خُذْ لك

Twitter: @ketab_n

مجلساً»، وأرفقتِ دعوتَكِ بأن تناولتِ نُمْرُقة عن يمينك وطرحتِها ذات الشمال.

اقترحتِ أن نُتابع الأخبار على التلفاز. جهازُ التحكم من بُعدٍ يُعفيكِ مَشَقّة القيام. في هذه الساعةِ تتنافَسُ محطّتان على تقديم نشرة أخبار مفصّلة. لم تُرَجّحي إحداهما على الأخرى بل تنقّلتِ بنا بينهما معفية إيّانا الفواصِلَ الإعلانية الطويلة. حصاد اليومِ من الأخبار قليل؛ فلان استقبل فلاناً وفلان اجتمع بفلان. الأمر الوحيد الذي لفت اهتمامي بيانٌ صادِرٌ عن قيادة حرس حدودكم مفاده أنّ دوريّاتٍ منها تعقّبت، بالتعاون مع زميلاتٍ لها في الجهة الأخرى، مجموعةً من «الأشرار» كانوا يحاولون التّسَلُّل وفي حَوْزَتهم أسلحة وموادّ أخرى ممنوعة، وقَضَتْ عليها. لم أكن في وارد التعليق لولا أن سُقْتِني إليه سوقاً: «إلى متى يُصرّون على استغباء الناس؟ أشرارا... طوال أشهر افتُرِض بنا أن نُصَدّق بأنّ ما يجري على حدود بلدينا حربٌ على التهريب والمهرّبين ثمّ، إذ تبيّن أنّ هؤلاءِ المهربين المزعومين من طراز خاص، وأنّهم، إلى الأسلحة، يهرّبون كتباً وأشرطة مسجّلة وأفكاراً، اعتُمِدَتْ لوصفهم لفظةُ "أشرار"... بودّي

Twitter: @ketab_n

حقّاً لو يتاحُ لي أن ألتقيَ العبقريَّ الذي وقع اختياره على هذه اللفظة لأستفسِرَه ماذا ينتظرُ من الناس أن يفهموا منها... ألا ترى مثلي أنَّ هذه الحربَ اليومية الصغيرة توغِلُ في التجريد بمقدار ما تتواصل؟».

الصور على الشاشة تتوالى منذ هنيهات، ـ منذُ أخرست التلفاز، بصمت. بصمتٍ أيضاً استمعتُ إلى مقالك وإذ ردّني حيائي عن النَّظر إليك مع الاستماع، لم يَرُدَّني، عندما ملأتِ الشاشةَ مذيعةٌ شقراء مبالغة في زينتها وفي إبداء مفاتنها، عن إلقاء نظرةٍ ماجنةٍ إليها ـ شأني شأنُ الآلاف من المشاهدين. تعليقُكِ المنفعلُ على البيانِ محلّ اهتمامي كادَ أن يَغلب تحفّظي اليقظ من الخوض في شؤون حياتي العملية وشجونها، وهو تحفّظ أردت منه أن أُنسيَكِ مَنْ أنا عندما لا أكون في ضيافتك ومِنْ أين آتي كلّما جئتُ، وإلى أين أذهب كُلّما غادرت. كاد... لا سيّما أنّ في فمي ماءً كثيراً... اكتفيتُ من الجواب بالرّثاء لما يجري ولمن يُقتلون ولما يصيب البلادَ، بلدكم وبلدنا، من جرّاء العُنْفِ المُطّرد. وإمعاناً في صرفنا عن الموضوع بصوره وأعيانه، وفي حياطةِ نفسي من الإخلال بواجب

Twitter: @ketab_n

التحفظ الذي أُلزِم به نفسي، توقّفت مطوّلاً عند ملاحظتك الأخيرة كيف أنّ «هذه الحرب اليومية الصغيرة» تنحو نحو التجريد، مضيفاً أنّ هذا التجريد هو انتصارٌ لأولئك الخارجين، إلى أنّه يُوَسِّع من دائرة تلك الحرب ومن دائرة المعنيين بها. فيوم كان أولئك الخارجون مُهَرّبين لم يكن قتالهم ليحتاج إلى مسوّغات، أمّا اليوم وقد نجحوا في نزع صفة المهرّبين عنهم، واضطُرّوا خصومهم إلى هذا التراجع وإلى وصفهم بـ«الأشرار»، فقتالهم بات يَطلُبُ «فلسفة» لا تقوى عليها نصوصُ القوانين التي تُعاقب على اجتياز الحدود خلسةً وعلى اقتناء السلاح والقتل إلخ... فهذه القوانين لا تُعاقب أحداً على كونه شريراً ما لم يَقْتَرِنْ شَرُّهُ بقولٍ تلحظ حظره أو فعل!

بالطبع لم يَدُرْ في خَلَدي، إذ كنت أقولُ ما أقول، بأنّ الأحداث مُقبلةٌ أن تتسارع وأنّني مُقبلٌ، في تسلسلٍ لها لا أجزمُ اليومَ إلى مَ أنسِبُه، إلى المنطق أم إلى الصدفة والاتفاق، ـ مُقْبِلٌ أن أجدني في خِضَمِّها، داعياً من دُعاةِ «الخير» ومُنَظِّراً من مُنَظّري «العنف الضروري» الذي تواجه به السُّلطة «الأشرار» وشرّهم. هل هي حيلتي تَمَّت عليكِ

Twitter: @ketab_n

أم أدركتِ غرضي من المرور على التفاصيل مرور الكرام فجاريتني في ما ذهبتُ إليه؟

في هذا أيضاً لا أجزِمُ. كلُّ ما أذكره أنَّكِ نَهَضْتِ من مَقْعدك، ويمَّمْتِ شَطْرَ رفٍّ بعينه، وتناولت منه كتاباً بلغةٍ أجنبيّة وقلّبتِ صفحاته الأخيرة التي اشتبهتُ أنّها فهرسٌ تحليليٌّ لمضمونه، ثمّ فتحتِه على صفحة معينةٍ ورُحتِ تقرئين بصوتٍ عال. لم أجرؤ على مقاطعتِك وإشعارِكِ بأنّني لا أفهم ممّا تقرئين سوى كلماتٍ متفرقة لا تُغني عن معنى النّص إلا أنّ مداره على الدين والحرب. ولكن ما هي أن رفعتِ رأسَكِ عن الكتاب ناظرةً إليّ حتّى تبيّنْتِ ذلك من تِلقائك، فتعثّرتِ الكلماتُ على لسانكِ إذ حاولتِ الاعتذار، وعلى لساني إذ جمجمتُ، إقالةً لك من الإحراج، أن تابعي بحجّة أنّني أفقه المعنى الإجمالي... أسعفَتكِ البديهة فلم تلقي بالاً إلى كذبتي البيضاء، بل وضعتِ الكتاب على الطاولة وانحنيت لتتناولي من رفٍّ سفليٍّ مجلّة ذاتَ قَطْعٍ غريب قلّبت صفحاتها بأناة قبل أن حَمَلْتِ مجدداً: «اعذِرني على الـ... (ولم تفوهي على ما) لقد حَضَرَني الآن أنّ هذا النّص منشور في ترجمة لا بأس بها

Twitter: @ketab_n

في هذا العدد الثالثِ والأخير من هذه المجلّة المشاغبةِ التي لم يُكتب لها من العمر إلّا أقلّه».

عُدْتِ إلى محلّك من الأريكة الواطئة وأخذت تقرئين سائلةً إيّاي أن ألفتك مصوِّباً إن لَحَنْتِ. كان مفاد النصّ المغرق في السخرية أنّ اختلافَ جماعة من الناس على مسائل لاهوتيةٍ، وأخذَهم بتقتيل بعضهمِ البعضَ تحت عنوان هذا الاختلاف إنّما يُعَبّر عن درجة رقيّ علياا كان في الأمر، عندي على الأقلّ، ما يدعو إلى التأمل أكثر منه إلى التعقيب، ولكن هيهاتِ منّي التأملُ الساعة. تناولتُ المجلّة من حيث وضعتها بيننا، وتظاهرتُ بالبحث في صفحاتها عن النصّ المُسمّى، وإذ وقعتُ عليه تظاهرتُ بتجديد قراءته. أمّا أنتِ، فتشاغلتِ بالسياحة بين المحطات، وعندما استَوقَفك على إحداها مشهد نقاش محتدم فرفعتِ صوت التلفاز قليلاً أراحني أنّ النقاش بلغة لا أسمع منها شيئاً، فانهمكتُ مجدداً في المجلّة، عيناً على ما أقرأ وأخرى عليك.

لا شيء يذكر أن يتباسَطَ رَجُلٌ وامرأة الحديث بين أربعة جدران، ولا شيء خارقاً أن يتقاسما أريكة وأن يكون

Twitter: @ketab_n

أحدهما مُلْتَهياً بمشاهدة التلفاز والآخَرُ منصرفاً إلى القراءة، بَيْدَ أنّني رجلٌ يعتاشُ على القول بحرمة الخلوة بين رجل وامرأة أجنبيّين، رافعاً قولي إلى حيثُ لا يَرقى إليه شكّ وعلى الدعوة إلى غير ذلك ممّا لو فَرَشْتُ لكِ لم آمن أن تتّهميني بالجنون أو النِّفاق. لا لذلك كُنْتُ على قلق بل أكاد أقول: لو كان لذلك لهانَ الأمر ولوجدتُ ما أدفع به هذه التهمة أو تلك وليس علمي بحرمة الخلوة بين رَجُلٍ وامرأة أجنبيّين ما عَكَّرَ عليَّ سويعاتنا تلك الليلة، وإنّما اضطرابي الذي كانت تُضاعف منه خفّتك وبساطتك في محادثتي ومعاملتي. كان يَمْنَعُ بيننا ما يُفْتَرَضُ أن يجمع ولكنني كنت أنظر إليكِ بعينَيِ الرَّجل الطامعِ الذي يُعميه الطَّمَعُ فيعودُ لا يرى!

تثاؤبُك الخجولُ لم يُشعرني بضرورة الاستئذان للمغادرة، فَتغاضيتُ عن ذلك، مواصِلاً القراءة في المجلّة إيّاها. لا تَسَليني من أين استمددتُ وقاحتي المفاجئة هذه. رغم ارتباكي أو بالأحرى هاجسي المتصل من أن يبدو عليّ الارتباك، كنتُ سعيداً بجوارك لا أرى سبباً وجيهاً لأن أُفسد عليّ سعادتي هذه، بل مَرّت عليّ برهةٌ لا أذكر كم

Twitter: @ketab_n

طالت، نسيتُ معها أين أنا ومن بجانبي، واستغرقتُ في القراءة كأنّني عندي لا عندك.

محاولتي إصلاح موضِعِ النُّمرقة التي تحجز بين ظهري وبين الخزانة أنبهني أنّ ملائكة السُّبات قد أطافت بك وحملتك على بساطِ ريحٍ إلى عالم آخر، ودِدْتُ أن يكون لي تحت شمسه مكان. كانت الساعةُ منتصف الليل. حتى طلوع الفجر متّسع من الوقت فلمَ العجلة... ثمّ هبيني أردتُ إيقاظك، هل تظنّين كنت لأجرؤ على أن أمدّ إلى كتفك يداً فأربِّت عليها، أو أنحني عليك وأُسرّ إليكِ أن تُصبحين على خير، أنا ذاهب. جهلي بطباعك نائمة لم يُخَلِّ بيني وبين المراهنة على أنّ غفوتك على هذا السّمت غير المريح لن تطول... وفي أسوأ الأحوال، إن طالَتْ وحَمَّت الحاجةُ بي إلى الذهاب، آتِ حركة أو أتنحنخ نحنحة عالية تخرجُك من غفوتك. في ما بين ذلك أنتِ لي أتملّى منكِ ما أشاء.

لستِ من الشقراء المذيعة التي اختلستُ إليها النَّظر في شيء. لا شعرك أشقر ولا عيناك خضراوان، ولا الشفتان دعوة صريحة إلى العضِّ عليهما بالنواجذ، ولا

Twitter: @ketab_n

الصّدر عارمٌ لا تكاد تتسع له الشاشة ـ، لَسْتِ منها ومن جمالها السائر كالأمثال في شيء، ولكنك جميلةٌ بنفسك لا بمقاييسي ومشاهداتي النسائية المتواضعة.

جميلةٌ بنفسك لأنَّ جمالك كان يتأبّى على الناظِرِ إليك من الوهلة الأولى. لهذا لربما، وعلى الرغم من فتكك بي من أوّل لقاء، كيلا أقول من أوّل نظرة، احترتُ في أمركِ طويلاً وشككتُ أحياناً في جمالك. بل لقد اقتضاني أن تُبيحي لي غرفة نومك، وأن أقرأ الإهداءين على صورتين لكِ بعدسة مصوّر ذائع الصيت بتوقيعه، لأفُكَّ هذا اللغز من ألغازك. كان في الإهداءين كلامٌ على سِحرك الذي يَقَعُ المرءُ تحتَ سُلطانه فلا يقوى معهُ على تفصيلك وحسابك. لا أظنُّ أن مصوِّرَك ذاك وَقَعَ تَحْتَ سِحْرِك بأدنى مِمّا وقعت، فلماذا تيسّر له أن يقولَ فيك جازماً وامتنع عليّ؟ ولماذا تابَعْتُه في ما قالَ وأتابِعُهُ حتى يومي هذا وكلّي ثقةٌ بأنّني أدرى بك منه؟ إن يُعْضِلْكِ الجوابُ لا يُعضلْني: بيني وبين أن أَصفَك وأُثبت جمالك كلَّ ما بيني وبينك. أُفسّر الماء بالماء؟ أقلّ لربما... ولكنها الحقيقة والحقيقة مخيبة أحياناً لهُزالها لا لمرارتها

Twitter: @ketab_n

فقط. تحتَ سِحْرِكَ أنا ولكنّني رجُلٌ شأنه أن يرفع القَوْلَ ويعنعنه(*) ويسنده لا أن يقول!

•

لم أتزحزح عن مكاني على يسارك ولا عقدتُ العزم على إيقاظك بحركة مفتعلة أو بنحنحة عالية. على مضضٍ منّي تَكَفّلْتِ أنت بذلك عند محاولتك الانقلاب ذات اليسار وارتطامك بجسم غريبٍ كان أنا. لا أدري أيَّ الاثنين بغتك عندها: أن تفتحي عَيْنيكِ عليَّ بجوارك أم هو الضوء الباهر؟

سألتِ عن الوقت... تمتمتُ تمتماتٍ خَلَطْتُ فيها بين الوقتِ والاستئذان بالمغادرة وعدم رغبتي بإيقاظك. كلّ ذلك وأنتِ تُشَيّعينني متحاملة إلى الباب.

لعلّك بعد إيصاد الباب ورائي يَمّمْتِ فوراً شطر غرفة نومك وارتميت على الفراشِ كما أنتِ، غير أنّ هذا التصور، رغم رُجحانه على سواه، ما كان ليرضيني. كذلك لم أتمالكني في الطريق إلى عندي أن تَسْرح بي خيالاتي

(*) هاروتُ يُعَنْعِنُ فَنَّ السِّحـ ـرِ إلى عَيْنَيْكِ ويُسْنِدُهُ
نجم الدين القمراوي

Twitter: @ketab_n

فأراك تتخففين من ملابسك وتأوين إلى سرير رحب، تتمرّغين فيه تمرّغ طفل في الطين وقد اكتشفه لتوّه، ولا وَسِعَني أن أسترضيني وأن أُسَكِّنَ سورة غضبي كلّما تَقَاصَرَتِ المسافةُ الفاصلةُ بيني وبين مسجدي ـ مسجدي الذي أزداد شعوراً بأنّني ذِمّيُّه لا صاحب الأمر فيه ولا إمامه!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٠

لا أذكُرُ كم مَضى علينا من الألُفة قبل أن آندرجتْ أخبارُ المسجِدِ والأمّتين، الكبرى والصغرى، على جدولِ أحاديثنا المعتادَة. لم يُدهشْني الأمرُ بدايةً إذِ آفترضتُ أنّ مهنتي لا تعنيك، ولا أخبارُ أولئك القومِ الموكول إليّ أن أقوم على شؤونِ دينهم ودنياهم ما أقْدِرُ عليه، وتخوّلني مسؤوليّتي أن أتدخّل فيه. كان كذلك بدايةً، غير أنّ توطُّدَ ما بيننا، ووقوفي شيئاً فشيئاً على تطرّق فضولك إلى مواضيعَ شتّى، بَعْضُها لا يَبْعُدُ عمّا يشغلني، ألزمني المراجعةَ وأن أُخمّن وراءَ تجنّبِكِ الخوضَ في هذا الموضوع دون سواه حذرك من أن أحمل آهتمامَكِ به على محمل التّطفّل. والحقُّ أنّ لُطْفَكِ بي هذا اللُّطْفَ لم يَسُؤْني قطُّ. فشئنا أم أبينا لم يكن من بُدٍّ، فيما لو جئنا إلى حديث مسجدي وأُمّتي الصغيرة، أن ينتهيَ بنا الحديث من طريقٍ ما إليّ،

Twitter: @ketab_n

وهذا ما لم أكنْ في سَعَةٍ من الخوض فيه بكلام مُبَيّن ومَفْهوم. لهذا اَجتهدتُ ألّا تفلت منّي أيّةُ كلمةٍ أو إشارةٍ يمكن أن تفتح علينا هذا الباب، وتضطرُّني إلى بثِّك ما في نفسي منه. ولكِ أن تَحْكُمي هل أفلحتُ حقّاً، تلك الأسابيعَ، في طيّ ما كان يورِثُني مسجدي من همومٍ، أم أنَّ ما بَذَلْتُ في هذا السبيل أيضاً كان غيرَ ذي جدوى، وأنَّ مؤامرة الصَّمْت التي حسبتُنا نتآمرها معاً كانت في واقع الحال مؤامرةً حكْتِها وَخدَكِ رِفقاً بي، فلمّا أنِسْتِني اَخْشَوْشَنْتُ نَقَضْتِ ما حكْتِ؟

كأنّي بكِ تلك الليلة أردتِ امتحان اخشيشاني: سعة ذرعي على أن أحتَمِلَ في آنٍ معاً مَخْضَرَك ساكنةً متحرِّكةً، وطيفَ أخمَدِكِ، وصراحتك! لم تخطئي الهدفَ ولا التوقيت. اقترحتِ أن نقرأ «جامعة الشكوى» كما أسميتها، قصيدَتَه الّتي يصف فيها الحمّى ويذمّ كافوراً: «ملومكما يجلّ عن الملام...» ولكننا لم نفرغ من تَفْلِيَتِها، على طولها، حتّى بدا لكِ أن نَدَعَ لوقتنا هذا ما اَعتَدْنا عليه من اَختيارِ أبياتٍ للاستظهار من كلّ قصيدة نقرأها، وأن نقومَ على إعداد مقطوعته في هجاء كافور أيضاً «من أيّة الطرق يأتي مثلك الكرم...» للقراءة، أي وفق

Twitter: @ketab_n

النظام الصارم الّذي اَصطنعته منهاجاً، والقاضي بأن نُعِدَّ قائمةً بما تتضمّنُه القصيدةُ المعنيّةُ من مفرداتٍ أهْلٍ لأنْ تُتَّخذَ مداخِلَ مستقلّةً إذا كُتِبَ لكشّاف المتنبّي يوماً أن يرى النور.

عِنْدَ البيتِ الثّالث(*) وَهَنَ صوتُك دَفعةً، كأنّما فاجأك ما يَسَعُ أحْمَدَك أن يهجر في القول، وكأنّما تحرّجْتِ من أن تملئي فَمَكِ بألفاظِ هذا البيت، وأن تفيها حَقَّها من النُّطْقِ، فلم أملك سوى أن أُشيحَ بِبَصَري عنكِ، وأن أمدّه لا إلى قَصْدٍ ريثما يَسْتَعيدُ صَوْتُكِ جأشه.

شأن مَنْ يتحرّى عن طريقه في العتمِ، بارتياب قرأتِ البيت التالي، وما كدتِ تجتازينه بسلامٍ وتعبرين إلى الّذي بعده:

أغايَةُ الّدينِ أنْ تُحفوا شَوارِبَكُمْ
يا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِها الأُمَمُ

حتّى ندَّ مِنْكِ تَنَهُّدٌ عميق هو التأفُّف بعينه، واَنطلقتِ في مطالعةٍ بدأتِها بالتوجّه إليّ على سبيل المخاطبة: «مولانا،

(*) لا شيءَ أقبحُ من فَحْلٍ له ذكرٌ
تقودُهُ أمَةٌ ليستْ لها رَحِمُ

Twitter: @ketab_n

إنه يتحدّثُ بلسان حالنا، شكواه شكوانا، ونقدُه نقدُنا، وتشخيصُه تشخيصنا...»، ثمّ لم تلبثي، مستقويةً به وقد عادَك، لربّما، أنّني، بحكم مهنتي، من القوم الّذين يُفترض أن يُصيبهم قبل سواهم تهكُّمُ المتنبّي، أن طردتني مِنْ حزب مَنْ يتحدّث المتنبّي بلسان حالهِم، وألحقتني بعداد الحزب الآخَر: «إلى متى يا مولانا زعمُكم أنّ حَفّ الشوارب والعفّ عن اللّحى هو الحلّ والبديل؟ وإلى مَ تغاضيكم عن العالم وانصرافُكم إلى أصولٍ وفروعٍ لا خيرَ فيها ولا نفعَ منها يُرتجى؟ ألا يخجلكم ما نحن فيه من قصورٍ وتخلّفٍ وإدمانٍ على التكاذب، وتلذُّذٍ بالقتل؟ لا تؤاخذني إنِ اعترفتُ لكَ بأنّ النظافة عندي ماءٌ وصابونٌ وفرشاةُ أسنانٍ، لا بابٌ من أبواب الإيمان...»(*).

(*) «الحقيقة أنّه لا يوجد دين في الدنيا عُني بالنظافة كعناية الدين الإسلامي، ولا توجد أمّة أيضاً عنيت بالنظافة كالمسلمين... الإسلام عُني بالنظافة حتى إنّ أول ما يدرسه الطالب المسلم في علم الفقه شيء اسمه كتاب الطهارة، الطهارة يعني النظافة، لأنّ الطهارة هي مفتاح الصلاة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الطهور"... يعني الطهارة... الطهارة يعني النظافة، ولذلك من شروط صحة الصلاة: طهارة البدن، بدن المصلي يجب أن يكون طاهراً من الأقذار، وطهارة الثوب، وطهارة المكان، فالذي يدخل إلى الصلاة لا بدّ أن يكون بدنه طاهراً نظيفاً وثوبه نظيفاً

Twitter: @ketab_n

أحرجني خروجكِ المفاجىء عن طورك في هذا الشأن الّذي سكتنا عنه مذ تعارفنا، لا لاعتراضي على فحوى ما تقولين، ولكن لما تُضطرينني إليه من تعليق فوريٍّ كي لا تَحسَبي صمتي، فيما لو صَمَتُّ، آيةً على ٱستخفافٍ بما قلتِه أو على قطيعةٍ بيننا. عزمي هذا لم يُهَوِّنِ الأمْرَ عليّ. فَحَيْرَتُكِ من أيِّ الحزبين أنا إنذارٌ لي أن أختار محلّي من أحدهما دون الآخر، وأن أبني على خياري مقتضاه، فأُزايدَ عليكِ في ما تقولين، (وعندي فوقَ ما عندك بكثير)، أو أقف ممّا تقدّمت به موقفَ الرافِضِ له جملةً وتفصيلاً، مُكتفياً من الجواب بأنّ اللّه يهدي مَنْ يشاء إلى ما يشاء، فعسى أن يهديكِ إلى ما فيه مرضاته دنيا وآخرة، إنّه على كلّ شيء قدير، إلخ...

ولكن ماذا يا مولاتي لو أنّني، لا باختياري ولكن بحكم الأمر الواقع، من كلا الحزبين؟ وبأيٍّ كلامٍ أقول لكِ إنَّ بيتَ المتنبّي ذاك لا ينطِق بلسان حاليَ فقط، ولا

والمكان الذي يصلي فيه نظيفاً، ومن أوائل التوجيهات القرآنية، ﴿وثيابك فطهر﴾ (...) فهذا التطهير أو التنظيف هو من التوجيهات الإسلامية الأولى...»، (استشهاد تلفزيوني صادق).

Twitter: @ketab_n

هو منّي الضميرُ الناطقُ فَحَسْب، ولكنّه يأخُذُ لِي بثأرٍ قديم متجددٍ كل يوم، لا مِنْ أشخاص مُتَخَيَّلين غايةُ إسلامهمِ التبشيرُ بإحفاءِ الشوارب، والعفُّ عن اللِّحى، وتقديم الإيمانِ على النظافةِ مع حضور الماء والصابون وفراشي الأسنان، ولكن من أشخاصِ ذوي أسماءٍ ومناصِبَ ألتقي بهم فنتذاكر في شؤون الأُمّة، ولا أخرجُ من لقائهم إلّا واجداً مُخْنَقاً مَغيظاً لجُبني عن مخاصمتهم، أو قولي عن مخاصمتهم إلى ذلك البيت، الأقلِّ شعراً بالجملة ممّا قاله أحمدُك المتنبّي! أم هل أُقَزِّزُك بأن أصِفَ لكِ ما يَطْرَحُهُ في مسجدي رجالُ أُمّتي ونساؤها من أثقالِ الروحِ؟ أم ترينَني آخُذُ أخْصَرَ الطُّرقِ إطلاقاً، وأُسِرُّ إليكِ مثلاً بأنّ صلاة الجُمُعَةِ صارت عندي أشبهَ بالكابوس الأسبوعيّ لما بات يتخللها، بافتعال سافر، من مُشادّات سببها تارة توزيع منشور ظاهره الحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وباطنه الّذي لا يكادُ يَخفى مرافعةٌ عن آرتكاباتِ الدّم الّتي تَلِغ فيها جماعات «الأشرار»، وتارة أخرى إصرار بعض الشبان على اعتراض المصلّين عند خروجهم بغية جمع التبرعاتِ لمجاهدين في بلاد بعيدة، وتارة ثالثة

Twitter: @ketab_n

التعريض بفلانٍ أو فلانٍ من المصلين واتهامه بارتياد المَسْجَدِ للتجسس لا لذكر الله.

بدوري احترتُ في أمري: هل أقصّ عليك من هذه التفاصيل فَتَطْمئنّي إليَّ وتقرّي عيناً من أيّ الطّائفتين أنا...؟ أمْسَكَني عن ذلك أن تَظُنّي بي التّزَلّفَ إليك ومماﻷتك، وأمسكني أيضاً ضيقي من الخوض في نقاشاتٍ فضفاضة عن الإسلام والمسلمين، أعْرِفُ، عن تجربة، أنّها في واقع الحالِ لا تَتَطَرّقُ إلى العاجِلِ والأهم.

أحياناً، عندما أغادِرُ المدينة السفلية، حيّي وجواره، وأتوغّل في المدينة الأخرى التي يُعَدُّ الحيُّ حيث تسكنين واسطةَ العقد منها، يخطُرُ لي أن أستوقف بعض من ألتقي بهم ويثيرني مرآهم من سَيّداتٍ وسادةٍ وأن أسألهم: هل تعرفون ماذا ينتظركم؟ هل تَظُنّون هذه الحصون الضخمة المنيفة التي تسكنون فيها مانعتكم؟ وهؤلاء الشّبّان المسلحون ذوو الملامح الفلاحيّة القاسية المرابطون حولها ـ هل تظنّون بأن مجرّد تسميتهم رجالَ أمنٍ يُبْلِغُهُم مَبْلغَ الرجال ويُثبّت مبايَعَتَهُم عَلَمَ بلدهم على الموت في سبيله وبردّهم عن الافتتان برايات أخرى؟ وما تسمعون به من

Twitter: @ketab_n

إخلال بالأمن هنا وهناك وعلى الحدود ألا يُحَرّك فضولكم إن لم يُحرّك مخاوفكم؟ أمْ أنّني الرَّجل الخائِفُ الوحيدُ في هذه المدينة؟

•

أكلي من مال السلطان، بصفتي إمامَ مسجد العمرين وخطيبه ومدرّسه، لم يُلزمني، من حين تَقَلَّدْتُ هذه الوظيفة، أن أضرب بِسيفِهِ أو أنْ أسْتَقْوي به، ولا ادّعاء في ذلك ولا عنجهية مُتَنَفِّجة بل «سِياسةٌ»، وافقني عليها شيخي المتعاظم النفوذ ومن معه وتحت إمرته، قوامها النأي بالمسجدِ عن الصِّراع العلني بين السُّلطةِ وخصومها، حؤولاً دون تكرار ما سبق أن شهده. ومُعْتَبِراً بتجربةِ سَلَفي وما كان من أمره قبل عهد «الإصلاح» نأيتُ بنفسي أيضاً عن الإفراط في إظهار الولاء للسُّلطةِ بأشخاص القابضين على مقاليدها أو عن إبداء العداوة لخصومها بأشخاص أعلامها، مرجحاً الدفاع عن «الدّين القَيّم» مُثُلاً عُليا تَحْظى بالإجماع. ولَعلَّ اعتصامي بهذه السياسة، رغم العديد من المواقف «الدقيقة» التي عبرتُ بها والتي أحسنتُ التملص منها فلم أُلجأ بمناسبتها إلى الجهر بصداقاتي وعداواتي، هو

Twitter: @ketab_n

الذي أغرى القوم، أوائِلَ الأمر، بمفاوضتي على تسليمهم مَسْجدي بالحُسنى، بل قولي على بَيعِهِ الصَّريح منهم، ذلك أنّ أحد آخر العروض التي عرضوها عليَّ، وكان أوقحها، اشتمل، إلى التكفل بإخراجي من البلاد والقيام بما يلزم لتسهيل استقراري في بلدٍ ثالث مضيافٍ بحكم تاريخه وثقافته، ـ اشتمل، تحت عنوان توفير العيش الكريم لي، بنداً ماليّاً عبارةً عن حساب مصرفي بالنقد النادر! بالطّبع خذلتهم ورددتهم على أعقابهم خائبين. لماذا «بالطبع»؟ دعي ما بِتّ تعرفينه عنّي دون سواكِ من الناس، ودعي ما تقدّم من ضجري وتأففي المكتومين وما تأخّر، ودعي تركي الصلاة أحياناً كثيرة، فهذا جميعاً في كِفّة والتنحّي بالترهيب أو الترغيب في كفّة أخرى.

بصرف النَّظَر عن حقيقة إيماني أخْرجني رفضي، في عُرف القوم وحُكمهم، من فريق المحايدين وكتبني في الأعداء. أقولُ أنا وأعني أنا ومسجدي. كان يُدهشني أنّ بعض إخواني، حتّى من أثِقُ بنباهتهم، يصرّون على اعتبار أنّ ما يأتيه أولئك الشّبّان لا وراء له، وأنّهم إنّما يثابرون عليه تحت إملاء الحماسة وتلبيةً لرغبة المحاكاة ولذلك

Twitter: @ketab_n

فلا خوفَ منه الآنَ ولا في مقبل الأيّام. أمّا أنا، لا هرّةً تَتَحَسّس الزلازل قبل وقوعها ولا زرقاءَ اليمامة، فلقد كنتُ على يقينٍ بأن مشاغبات الجمُعة طليعة «الأسوأ»، وأنّ القومَ حزموا أمرهم على «فتح» مسجدي وضمّه، عنوةً إن اقتضى الأمرُ، إلى قائمة المساجدِ «المحررة».

من أوّل أمري هنا كان العهدُ بشرطة المرور أن تنتدب كلّ جُمُعةٍ اثنين من أفرادها لتنظيم حركة السيارات، أمام المسجد وفي الشوارع المحيطة به، وبطبيعة الحال، وتعظيماً ليوم الجُمُعة، لم يكن في صلاحيّات رجلي الشرطة هذين ردع أصحاب السيّارات عن إيقافها في المواضع الممنوعة عليهم، بل تنظيم تعدّي السّيّارات على الأرصفة ووقوفها في تلك المواضع. مع الأيّام، وما جاءت به الأيّامُ وجادَتْ، أخذَ عَدَدُ الشُّرَطِ الموكلين بأمرِ الجُمُعة يَزْداد، وأخذت هيئاتهم وأزياؤهم وأعتدتهم تتبدّل. فبعد أن كانوا اثنين عَدّاً، كلّ سلاح أحدهم هراوة رمزية تتدلّى على جانبه يستعين بها، إن استعان، ليراه سائقو السيّارات في الزحام، صار الحيُّ يستيقظ صباح كلّ جُمُعة على رتل من أربع سيّاراتٍ عسكرية تتمركز اثنتان منها في الساحة

Twitter: @ketab_n

المقابلة لمدخل المسجد، وتقطع الاثنتان الأخريان الطريقين المؤديتين إليه أمام حركة السّيّارات. أمّا الرّجال الذين كانت تحملهم هذه المركبات العبوسة المتشابهة على مرّ الأسابيع، فغنيٌّ عن الإشارة إلى أنّهم كانوا لا يشبهون في شيء شُرَطِيَّي المرور الخمسينيين الوديعين. فهؤلاء الرّجالُ كانوا شبّاناً يعتمرون الخوذات، بأيدي البعض منهم بنادق رشاشة، وبأيدي البعض الآخر دروعٌ عملاقةٌ وهراواتٌ مُتَفَنِّنَةٌ، بصعوبةٍ يرفعُ المرء نسبها إلى العصا. وفوق هذا جميعاً، وبخلاف رجلي شرطة المرور اللذين ألفهما أهلُ الحيّ صغاراً وكباراً، وبخلافِ أفراد نقطة الشرطة الذين كسرتْ من شوكتهم إقامتُهم بين ظهراني أهل الحيّ دونما تبديل منذ سنواتٍ، حتى باتت مناداتهم بكناهم لا برتبهم أو بسواها من شارات الاحترام هي القاعدةَ لا الاستثناء، كانت نَظَراتُ هؤلاء الشُّبانِ الرّجالِ قاسيةً، ومعاملتهم الناس من حولهم، بمن فيهم الصغار المفتونون بمرأى تلك المركبات والبنادق والدروع، غايةً في الحذر، قريبةً من الفظاظة، ـ إلى هذا أنّ أيّاً منهم لم يُشاهَد في الحيّ مرّتين.

Twitter: @ketab_n

لم يُفاجئني ولا فاجأ أحداً من سُكان الحيّ أن أصبحتِ الجُمُعةُ مناسبةً أسبوعيّة لهذا الانتشار. فَمُنْذُ أصبحت البياناتُ التي تَتَحَدَّثُ عن اشتباكات بين رجال الأمن و«الأشرار» في مناطقَ بعيدةٍ خبراً يومياً في نشراتِ الأخبار، صارَ تطويقُ المساجدِ، لا سيّما في الجُمُعاتِ، تدبيراً عادياً لا من يسألُ عن موجبه، كأنّما الجميعُ، ضمناً، على بيّنةٍ مِمّا يوجب ذلك. لم تكن كلّ المساجِدِ تُطَوّقُ بالطريقة نفسها. فتلك القائمة في الأحياء السكنية الراقية، والتي باتَ بعضُ المسؤولين يرى من واجبه ارتيادها صُحْبَةَ عدسات التلفزة، كان أمنها عبارة عن سَيّاراتٍ لا تَخْدَعُ «مَدَنِيَّتُها» أحداً ولا يُخطىء أحدٌ في تعيين من على متنها، تُرابط على المفارق المؤدية إلى تلك المساجد، وشبّانٍ في المساجد وحولها باللباس المدنيّ ونظّاراتٍ لا يحتاجون معها إلى النظر حولهم من أطراف خفيّة. أمّا مساجدُ الأحياء الأخرى، حيث لا عدسات تلفزة تشهد أو تُخَبّر، فلم تكنِ السلطة في همٍّ من أن تُمَوِّه تدابير أمنها أو تُخْفيها ـ مسجدي مثلاً!

•

قلتُ: صارتِ الجُمُعة عندي أشبه بالكابوس. لا بُدَّ لي

Twitter: @ketab_n

من أن أضيف: أشبه بالكابوس الذي أنتظر وأستَعِدُّ لاستقباله عياءَ عدّة أعدّها له. رُبَّما ربطاً لِجأشي، رُبَّما لِصفو مزاجي ذلك اليوم، بيد على غير عادةٍ في أيّة حال، كان منّي، صبيحةَ الجُمُعة التي سَبَقَتْ عشيتنا تلك، أن أخذتُ في ممازحة خاصتي. بين الجدّ واللّعب رحتُ أُحَزِّرهم الواحدَ تلو الآخر: «ما قولك يا هذا...؟ ماذا في جعبتهم هذا الأسبوع»؟ فَمَنْ أجاب: «... وهلْ يملكون سوى الوقوع في سمعة الناس وكراماتهم؟» علّقت على جوابه بسؤاله: «وبمن تتوقّع أن يُعَرِّضوا هذا الأسبوع؟». ومن أجاب: «... بَل سيجمعون التبرعات»، وكان حَلْوياً، وَعَدْتُهُ بطبقٍ من الحلوى إن أصابَ في تعيين لمن سيجمعونها... لـ«مجاهدي» أيّ دغلٍ أو أيّة جزيرة نائية. وإذ أعاد أحدهم السؤال إليّ بـ«وأنت يا مولانا، أيّ الرأيين تُرَجّح؟»، كان جوابي أنّ فلاناً وفلاناً، (قاصداً الاثنين اللذين انطلت عليهما دعابتي فاجتهدا)، يُفتيان في هذه المسألة بغير عِلْم، وأنّني أميلُ إلى اعتزال الفتوى فيها مُسَلِّماً بأنّ «الله أعلم» ـ وكان جواباً في محلّه.

•

Twitter: @ketab_n

كالعادة كانوا السّبّاقين إلى المسجد. لِحاهُم وجَلابيبهم تدُلُّ عليهم، وغير المتجلبب منهم تعرفه إن أنت أَصَخْتَ السَّمْع إلى التحيّة يبادلونه إيّاها. فمن حظي بعد «السّلام عليكم» بـ«ورَحْمَةُ اللّه وبركاته» فهو من الفرقة الناجية، أمّا من كان حظّهُ السلام فقط فليس منها. قلّما يأتون زرافات ولكن ما إن يصل رائدُهُم حتى يبدؤون، لحكمة لا تخفى، يتوافدون الواحد تلو الآخر بانتظامٍ عجيب. وما إن يؤدّي واحدهم ركعتي تحيّة المسجد وسواهما من ركعات التطوّع التي يحافظون عليها هم وقلة سواهم من رواد المسجد حتى يلتحقَ بأصحابه. ذلك اليوم انتحوا من المسجد مكاناً قَصياً بجوار الباب، بل أَخْبَرَني من أثقُ به أنّه لاحظ أنّ أفراداً منهم يبسطون حصيراً في الباحة، عند باب المسجد مباشرةً، ويصطفّون عليه رغم اتساع المسجد لهم ولسواهم، ـ غير أنّه لم يولِ ما رأى مزيد اهتمام.

واقع الحال أن سيّينِ كان لو أنّ الأمْرَ أثار فضوله فأشعرني بما يجري أو لم يَرَ شيئاً أو رأى ولم يتحرك فضوله، فالخطّةُ كانت مُحكمة: بعد دقائق من رفع أذان الظُّهر، وإذ كان الأذانُ الثاني يُرْفع، (وشأنُ هذا الأذان الذي

Twitter: @ketab_n

يسبق الخطبة الأولى تنبيه جماعة المؤمنين على أنّ الخطيب يوشك أن يبدأ بها)، رقيت المنبر وجلستُ أنتظر، لم ألحظ ما يُنبي بأنّ القومَ قد بيّتوا أمراً فرياً. كلّ شيء على حاله وهم، كعهدي بهم، الأكثر انضباطاً. ولكن ما هي أن انتهيَ من التأذين ووقفتُ لأباشر خطبتي حتى لَغلَعَ من حيث لم أتبيّن على الفور صوتٌ سبقني إلى البسملة وإلى الصلاة على النبي وأصحابِهِ، وإلى: «إنّ الحمد لله نحمَدُه ونستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهْدِه الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله...» تماماً كمن يبدأ خطبة. لا أظنُّ أنْ مِنْ خطيب مَسْجِدٍ مَرَّ عليه مثل هذا من ذي قبل... نعم حدث أن أُنزلَ أئمّة عن منابرهم وأن أُهينوا وأن أُوذوا، أمّا أن يتصدّر إمامٌ للخطبة فيزاحِمهُ عليها آخرُ لا يراه فهذا لعمري ممّا لم أسمع به ولا سمع به أحدٌ من قبل. لا أدّعي أنّ البديهة أسعفتني بالسُّرعة المرجوة، بل أكاد أقول إنّها تباطأت، ولو أنّ المهلة بين بداية الغارة عليّ وشروعي باسترداد المُبادرة لم تتجاوزِ الدقيقة أو لربّما أقل. دقيقة طويلة أقلّ

Twitter: @ketab_n

ما يُقال أنّني اختبرتُ خلالها من مشاعر الغضب والتسفيه ما لا أتمنّى لأحدٍ، ولو عدوّاً، أن يختبره. الخطيبُ الخفيُّ يتابعُ خطبته والمصلّون المشدوهون على رؤوسهم الطيرُ، وأنا، كالمسحور، أحاول أن أُحيطَ بما يجري من حولي وأن أكتم انفعال جوارحي. كنتُ أفكّر في هذا الذي يجري وكان الأولى بي أن أستمع، ففي أذني التمعتِ الفكرةُ لا في عقلي. فور تمييزي مَنْ صاحبُ الصوت الذي تَبُثُّهُ آلةُ التسجيل التي أبرح القومُ الخفاء عنها حين تمّت خُطّتهم عليّ وعلى المصلّين، وأنّه الشيخُ الفلانيُّ الذي تُنوقل لأيّام خلت أنّه بين السجن وبين الإقامة الجبرية، وإمساكي بخيوط ما يجري، أخذتُ أصْرخ بالبسملةِ بأعلى صوتي على نحو ما يفعلُ خطيبٌ يُريدُ أن يُهَدِّىء غَمْراً من الناس هائجين وأن يُسمعهم صوته. هَبَّ أحدُ الإخوان لنجدتي وناولني المذياعَ المُتَّصِل بمكبّر الصوت المركزي بعد أن نفخ فيه ليتحقق من حسن تلبيته نفخةً صورِيّة(*) تردَّد صداها في أرجاء المسجد. أشعرني قبضي على المذياع بشيء من

(*) ﴿يوم ينفخ في الصور﴾، النبأ: ١٨، وآيات أخرى.

Twitter: @ketab_n

القوة بَشمَلْتُ معها وصَلَّيتُ على «الحبيب محمّدٍ» وسلّمت بهدوء حازم، لا نسبةَ بينه وبين ما كنتُ عليه، وانطلقتُ في خطبةٍ لم أك، بعدَ ما حدث، في الخيار من موضوعها ولا من اللهجة الشديدة الواثقة بل العنيفة الزاجرة التي عليَّ أن أعتمدها. وكمن يقرأ في كتاب مفتوح، استرسلتُ في الحديث عن المتاجرين بالله واسمه وشرعه وكلمته، لا مقيمين حرمة لبيوته... إلى آخره ممّا فُتِحَ عليّ. لا أذكر أنّني في اللحظةِ التي تناولتُ فيها المذياع وشرعتُ بالكلامِ آمرتُ نفسي أو رسمتُ لي أن أسير بخطبتي إلى نهاية معلومةٍ. كنت معرضاً عمّن حولي مقبلاً على غريمي الطالع عليَّ بصوته الساحر الرخيم من آلة التسجيل طلوع مارد من قمقم. كلّ ما أذكره أنّ الأشجع من أفراد جمهوري راحوا يتعمّدون إسنادي بالهيلَلَة كلّما بَلَغتُ ريقي، لئلّا يدعوا لغريمي أن يستأثر بالمكان، مرفقين نداء التوحيد بتصويب نظرات شزراتٍ إلى آلة التسجيل والشبان المحيطين بها. لم تَفُتْني الملاحظةُ أنّ أصحاب الحناجر تلك، أنصاري صراحة، قلّة وأنّ الخوف، إذ لا سبب سواه، هو الذي يُمْسِكُ الآخرين عن الجهرِ عالياً بالشهادتين.

Twitter: @ketab_n

ثم كان لا بُدّ لهذه المهزلةِ أن تنتهيَ بأن يغلب أحد الخطيبين الآخر، فانتهزتُ «لا إله إلّا الله» أطلقها أحدهم ورحتُ أوَبّخ المُصَلّين المُستنكفين عن مُجاراته بألذع ما أوتيت من عبارات التوبيخ. وعلى وقعِ استنكاري المتكرر بعصبية مُزْغيةٍ مُزبدة تُضاعفها عبر مكبر الصوت أضعافاً «سُبحانك اللهمّ، كيف مسلمون ولا يجرؤون على توحيدك»، انطلقتِ الحناجرُ وامتلأ المكانُ بالتكبير والهَيْلَلَة، وغاب في الضوضاء صوتُ غريمي. أدرك المغيرون أنّ الكلمة العليا تحوّلت من يَدهم إلى يدي فرأيتهم، خلل الرؤوس، يتداعون بالغمز والإشارة إلى الانسحاب، وهو ما فعلوه مصطحبين عتادهم اللَّجب على قلّته.

لا أدْري هل كانَ انقلابُ الأمور على هذا النحوِ ممّا توقّعوه، غير أنّ انكفاءهم في الزحمة وَرَّطَني في أمرٍ أعترفُ أنّني لم أتحسّب له إذ أشعلتُ حماسة المُصَلّين. فلقد كانت النّية منّي أن أختم خطبتي الأولى عند هذا الحد، وأن أردفها بعد هنيهاتٍ بالثانية، على أن تقتصر هذه على دُعاءٍ قصير من وحي المناسبة لا مبالياً بما قد يتأتى عند انتهاء الصلاة وانتشار المؤمنين، بمن فيهم المُغيرون.

Twitter: @ketab_n

انسحابهمُ المفاجىء عَدَلني عن رأيي في طول الخطبة الثانية. عوض التقصير أخذت على نفسي أن أطوّل وأستبحر وأن أدع لهم أن ينسحبوا ويبتعدوا فأحولَ بذلك دون أن يلتقي أحدٌ من أصحابي بأحد منهم فتبدر من أحد الاثنين كلمة تقع في أذن موتورة فتنقلب الكلمة تلاسناً والتلاسن تدافعاً، وينتهي التدافع إلى ما لا تُحْمَد عقباه. لَعَلّي كنتُ مُبالغاً في مخاوفي ولكنّها، كما أكّدتني في ذلك شهاداتٌ لاحقةٌ، كانت مخاوف مشروعة لا سيّما أنّ رجال الأمن المُنتشرين حول المسجد كانوا في ما بين ذلك قد رفعوا، بأمْر آمِرٍ، من درجة تأهبهم، واستعدّوا لأمْرٍ طارىء...

تَعَدَّدَ زواري جمعتذاك، على غير عادةٍ، وتَنَوَّعَتْ تعليقاتهم... أطرفها على الإطلاق ما تفتق عنه خاطر ذلك السبعيني من جيران المسجد المواظب على تأدية صلواته فيه: «انسَ ما أشْكو منه من صمم جزئي ولكنك يا مولانا، بما تتمسك به من عدم استخدام مكبّر الصوت من سَوّل لهم هذه الحيلة للمشاغبة عليكم. لو كان العهد منكم استخدام مكبّر الصوت - كسائر أئمّة المساجد كاد أن

Twitter: @ketab_n

يقول ـ لما دار في خلدهم أصلاً أن يرفعوا صوتهم». وكان يقصِدُ بالطبع صوتَ الآلةِ المتطورةِ المُجَلْجِلَ التي استعانوا بها لبثٍّ ما بثّوه من خطبة شيخهم!

سائر الإخوان الذين قصدوني مؤازرين مهنئين على ما أسموه شجاعتي عادوا على الأرجح من لقائي خائبين. فعوض مجاراتهم في تصوير العاقبة انتصاراً لنا عليهم، كما بلغت نخوة الوصف ببعضهم، خالفتُ عليهم بلين ولطف قصر نظرهم وتفاؤلهم الساذج، وحاولت إفهامهم، محاذراً ما أمكنني الحطّ من هممهم ومستوحياً ما كانوا في وارده من تشابيه عسكرية، أنّ ما جرى لم يكن حرباً ولكن إعلان حرب، وأنّ الأولى بنا أن نخاف خوف العقلاء مما هو آت، لا أن نفور، فوران مُشجّعي فريق كرة قدم لهدف أصابه في الدقائق الأولى من الشوط الأول، مُستكينين إلى انتصار مزعوم ـ كان موسمُ المباريات في أوجه...

Twitter: @ketab_n

١١

على ذكر شيءٍ من هذا جميعاً لم آتِ تلك اللّيلةَ، بل أخذتُ عليكِ برفقٍ وحنوٍّ أنّ ما تقولينه يفتقد إلى الدِّقَّة من حيث إنّه يُحَمِّلُ الإسلامَ أوزار المسلمين ويُحَمِّلُ المسلمين قاطبةً أوزار جماعاتٍ بعينها. وكما تعلمين: ﴿لا تزر وازرة وِزر أخرى﴾(*)، وكما تعلمين أيضاً فإنّ المسلمين، للأسف الشديد، كسواهم من الجماعات، ليسوا، من حيث رِفْعَةُ الأخلاق وحُسنُ السلوك واتّساع العقل، سواسيةً كأسنان المشط. أمّا العالمُ والعصرُ ومحلُّ الإسلام وموقِفُهُ منهما فأنتِ أدرى كم هي شائكة هذه المسألة، وبكم من الأخذِ والرّدِّ على مدار العالم الإسلاميّ وبلغاته المختلفة تحظى...

لم أكن في شكٍّ من أنّ تعقيبيَ الضبابيَّ الفاترَ أقلُّ

(*) الأنعام: ١٦٤.

Twitter: @ketab_n

من أنْ يُرضيَكِ، لهذا على الأقلّ أنّك كنتِ تعنين بحديثك مسلمين بعينهم، مسلمي هذه المدينة، مواطنين ومهاجرين، قدامى ومحدثين، في حين جاء كلامي عامّاً يصلُحُ لهذه المناسبة وغيرها. على أنَّ جوابي لم يتجاوز ما تقدم، وأنّه لم يُفِدْك بالشيء الكثير عنّي، فلقد أظهرك في الأقل أن لا مواضيعَ مُحَرَّمةً بيننا، وعادَ بنا إلى مكانٍ وَسَطٍ أمكنكِ مَعَهُ، دونما اَفتعالٍ، أن تقترحي عليَّ أن نتابع حديثنا في المطبخ وأنتِ تَستكملينَ إعداد وجبة عشائنا.

في المطبخ، محاكاةً لكِ وتضامناً، لم أشأ الجلوسَ، غير أنّك أَلححتِ عليَّ، وتجريداً لي من أيّة حجّةٍ تناولتِ من رفٍّ مُنْزَوٍ كتاباً وضعتِه بين يديَّ وقُلتِ بلهجةٍ آمرة: «اقرأ» تاركة لي أن أُقَدِّر تتمّة الجملة: «... ريثما أنتهي من إعداد الطعام وتجهيز المائدة». أخذني أمرُك بغتة، فَمَوْضِعُ الكتاب على ذلك الرّفّ لم يَدَعْ لي مجالاً للشكّ في أنّ مكانه في المطبخ ليس من قبيل الصدفة وفي أنّه من كتب الطّبخ. «لا، ليس لإلهائِكَ وضعي هذا الكتابَ بين يديك ولكن برّاً بالوعد الّذي اَستقطعْتَني... أن أُطلعك على سرِّ الحلوى الّتي أعددتُ في المرّة الماضية...». قلّبتُ الصفحاتِ الأولى من

Twitter: @ketab_n

الكتاب المجلَّد تجليداً أنيقاً، يحتمل على أناقته، كما وضّحتِ لي، أن يُمْسَحَ عليه بعدَ الاستعمال بخرقة رطبةٍ، فإذا بين يديّ كتابُ الطبخ لابن سيّار الورّاق، في طبعة محقَّقةٍ بتوقيع مستشرقٍ من بلدٍ لا يغيب عنه الثلج. كالعديد من الكتب «التراث» كانت معرفتي بهذا الكتاب تقف عند عنوانه واسم مؤلفه، والأرجح أنّه ما كان ليقع بين يدي لولا أن دخلتُ بيتك وَوَثقتِ بي فأدخلتني من بيتك مطبخه... تركتِني لدهشتي وانصرفتِ إلى إعداد وجبة عشائنا.

حروفُ الكتاب الدقيقةُ وشحوبُ الإضاءة ردّاني عن التملّي من المتن، فاكتفيتُ من النصوص بالعناوين. والحقيقةُ أنّه كان لعزوفي عن محاولةِ القراءة، أو إظهار المحاولة، سببٌ آخَرُ لا مناسبةَ بينهما وبين دقّة الحروفِ وشحوب الإضاءة رغم أنّهما كانا كذلك: مرتاحاً على كرسيٍّ تَنْبَسِطُ تحت أنظار الجالس عليهِ أرجاءُ مطبخٍ مستطيل الهيئة، كنتِ تولينني ظهرك ولكنّها كانت أوّلَ مرّةٍ يُكتبُ لي فيها أن أُطالِعَ قوامَك كاملاً، وأن أرى إليه يتحرَّك بحُكم ما كان إعدادُ أصناف وجبتنا يضطرّكِ إليه من التراجعِ خطواتٍ

Twitter: @ketab_n

والانحناءِ لتناول طبقٍ من خِزانة تحت السّماط الرخام ذي العروق الخضراء الداكنة، مسرح عملياتك، أو التقدّمِ حتى يُماسَّ حرفُ السّماط المُذَبَّبُ ما أقدّره تحت السرّة ثُمَّ الوقوفِ على رؤوس أصابعك لتناول آنيةٍ ما من خزانة على شيء من الارتفاع، أو الانفتالِ ذات اليمين لتفقّدِ مقلاةٍ تُنْضِجين ما فيها على نارٍ هَدّأتِها حتّى بدت وكأنّها تبذل قصارى جهدها لئلّا تنطفىء، أو ذات اليسارِ لتأليف مزيج من ملح وزيت وخلٍّ وأفاويه مختلفة الألوان، أو أقصى اليسار حيث حوضٌ معدِنيٌّ مقسَّمٌ إلى مربّعين، لتزيلي عن سكّين مسَّتِ الحاجةُ إليه آثارَ آستعمالٍ سابق.

أوّل الأمر كُنتُ أُلقي نظرةً عَجلى إلى الصفحة التي أقلب، ثمّ أرفَعُ عينيَّ عنها وأرسلهما نحوك وأدَعُ إبهامي والسّبّابةَ يستأنيان في البحث عن الزاوية أسفل يسار الصفحة لطيّها. شيئاً فشيئاً، مع تأكّدي من آنهماكِكِ في ما كنتِ فيه، ومن أنّني خارج متناول نظرك مهما آنفتلْتِ ذات اليمين وذات اليسار، ما عدتُ أتكلّف أن أخفض عينيّ لإلقاء تلك النظرة العجلى، فَتَصَوَّبتا نحوك لا همَّ لهما إلّا إحصاءُ أنفاس قَوامِك، فيما الإبهام والسّبّابة يتابعان من

Twitter: @ketab_n

تلقائهما تقليب الصفحات. كان، لحسن الحظِّ، كتاباً من بضع مئاتٍ من الصفحات وكانتِ الوجبةُ الّتي اَنتخبتِها لنا عشاءَ ذلك المساء أعندَ من أن تُطهى بعصاً سحرية.

تلك الليلة، خالداً بكل ما للكلمة من معنى في فراشي، لم يُراجِعْني أيُّ شعورٍ بالمؤاخذة أو بالذنب لما استرقتُهُ من النَّظَرِ إليك، أو قولي لِما لم أغضّه من بصري. بل أكثر من ذلك: لم تكن نفسي مطمئنّةً فقط إلى أنّها لم تقترف ما يُوجِبُ عليّ مُخاصَمَتها أو الاقتصاص منها، بل كانت لاهيةً أيضاً. فمن حيث لا أدري طفا على وجه ذاكرتي قولٌ لأعرابيٍّ سُئِلَ عن أجملِ النَّظَرِ وأمتعِه فأجاب: «نَظَرُ الخِلْسَةِ». لا يحضرني من كم قرأتُ هذا القول ولا في أيّ كتابٍ ولا أظنّه دَغْدَغَ يومذاك منّي حاسّةً يقظةً أو موضِعَ سرٍّ، ومتأكِّدٌ أنا من أنّني لم آبه له حَدَّ تسجيله على إحدى صفحاتِ ذلك الدفتر المرتثّ الآن، الذي كنتُ أودعه منتخباتٍ من قراءاتي، ومتأكِّدٌ مِنْ أنّني نسيته توَّ قراءتي إيّاه كأبلغ ما يكون النسيان. رُبَّ قائلٍ أن ليس في الأمر ما يدهشُ ولا أشُكُّ في أنّ أدنى هاوٍ من هواةِ تنبيش الأنفس عن مطويّاتها كفيلٌ بأن يُعَلِّلَ تذكُّري ذلك القول

Twitter: @ketab_n

تلك الليلة تعليلاً لا يُبقي على شيءٍ من جميلِ ما داخلني ولا يذر. أوليس أقلّ ما يذهب إليه المفسِّرُ، راسِخاً في علمه أو هاوياً، أنّني أردت من تَحسيني نَظَرَ الخلسة بإسنادٍ رفيعٍ أن أبرىء ساحتي، نافياً أن يكون نظري قد ذهب بي إلى أبعد من لذّة العين؟ لا أُثبتُ هذا التفسيرَ بالكامِلِ ولا أردّه جملةً. واقِعُ الحالِ أنّني عدوتُ لذّة العين هذه من قبل أن عادني ذلك القولُ ـ عَدَوْتُها، إلى شهوة النّفس، طيلة الساعتين اللتين قضيناهما في عشاء لعلّه كان الأطول في حياتي، وطيلة ساعتين أُخريين قضيناهما نستزيد من قهوتك البيضاء ونتذاكر في أمر محاضرة دُعيتُ لإلقائها، وتُرك لي أن أختار موضوعها. فبأسلوبك الماكر الظريف صرفتني عن إبداء إعجابي، نيابةً عن ابن سيّار الوراق، بإحيائك وصفاته، (ولو أنّه إحياءٌ لا أجر عليهِ إلّا الإقبالُ على وجباتك بنهمٍ) ـ صرفتني عن ذلك إلى إبداء إعجابي بالمستشرق الذي قضى سنواتٍ يُحَقِّقُ هذا الكتاب.

تَلَمُّسُكِ الصِّدقَ في عباراتِ الإعجاب التي كنت أقطع بها حديثَك عن ذلك المستشرق وما له من أيادٍ بيضٍ

Twitter: @ketab_n

على أشعار بعض العباسيين المغمورين، فضلاً عن مأثرته في تحقيق الكتاب الذي أجاءنا إلى ذكره والإشادة به، مَهَّدَ لكِ ولنا سبيل العودة إلى ما كنّا فيه من حديث الإسلام والمسلمين: «اعذر لي ما كان من انفعالي ومن حدَّة عبارتي وتسرُّعها. فمن نافل القول أنّني لم أقصد شخصك بقولي "أنتم" ... لو كان كذلك لما كُنّا الآن، هنا، وجهاً لوجه... بصراحة: أشْعُرُ بي عاريةً أمامك، فأنتَ تعرفُ عنّي الكثير لمجرّد دخولك مطبخي وإن كنت لا تعرفُ إلّا القليل القليل عن حاضري وماضيَّ، أمّا أنا فأوشك ألّا أعرف عنك شيئاً على الإطلاق... لا، لا يعنيني أن تُخبرني أطرافاً من سيرتك، ولا كيف صرت رجل دين، ولا كيف وصلت إلى مدينتنا، وسوى ذلك من تفاصيل حياتك، ولكنّ بي فضولاً، إن لم يكن أكثر، للوقوفِ على أمرك: كيف يتسنّى لكَ أن تجمع بين مكانِك في الناسِ، إماماً لذلك المسجد وبين...» وتردّدتِ ثواني قبل أن استأنفت حديثك بـ«... فلنقل صداقتنا...». «أحاول أحياناً، عندما أكون وحدي بالطبع، أنْ أتصنّع مناداتك باسمك، كما يليقُ بصديقين أن يتناديا، فلا أفلح ولا تفتأ "مولانا" تعترض

Twitter: @ketab_n

بيني وبين اسمك... أوّل تعارفنا لم تخطر لي هذه الأمور ببال... دعني أعترف لك بأن قيافتك "المدنيّة" يَسَّرَتْ لي أن أُغفل "المهنةَ"، إن جازتِ العبارة، التي تتعاطى، وألّا أتكلَّفَ في معاملتك... دعني أعترف لكَ أيضاً بأنّني احترتُ طويلاً قبل زيارتك الأولى هل أُغطّي شعري أم لا، ثمّ تساءلت: "ما دام قد وافق على تلبية دعوتي، فهو إذاً يُوافِقُ على أن يُعَرِّض نفسه للمدينة، بمن فيها من نساءٍ سافرات، وإن أنا إلّا إحداهنَّ"... فاكتفيت بمنديل رمزيٍّ... شيئاً فشيئاً راحت تهجم عليَّ أفكار لا أعرف أصائبةٌ هي أم محضُ توهّماتٍ على هيئة أفكار... أو بالأحرى صرتُ أتساءل، وما أزال: هل تُعْقَل هذه "الصداقة"؟».

لقد كنتِ دائماً أشْجَعَ منّي، وألْسَنَ. أظننتني قادراً حقّاً على مجاراتك وعلى مُعالنتك بما كان يضجُّ في نفسي وعقلي وقلبي؟ لحسن الحظّ أن لم تُلِحّي إذ عدت بنا على بدء حديثنا فأبديتُ تفهّمي لانفعالك، مطمئناً إيّاك إلى أنّني لم أحمل منه شيئاً على محمل الإساءة الشخصية «للسّبب الذي ذكرت: أنّنا هنا، في مطبخك، الآن، العاشرة ليلاً، وفوق ذلك جميعاً، نتحاوَرُ وجهاً لوجهٍ، ولسببٍ آخر هو أنّ المهنة

Twitter: @ketab_n

التي أتعاطى لا تخلو من أن تستثير الالتباس ومن أن تُلقي عليّ إحدى شبهتين في الأقل، أو الاثنتين معاً: شبهة الدّين بمعناه القدسيّ المتعالي، حتى لَيُظَنّ أنّني لستُ من هذه الدنيا، وشبهة الدنيا بمعنى التحزّب السياسي والدعوة لفريق دون فريق، حتى لَيُظَنّ أنّني لست من الدين في شيء. والحقُّ أنّ "مهنتي" تأخُذُ من الشُّبْهتين بنصيب وتزيد عليهما قَذْراً لا بأس به من "العمل الاجتماعي". فلا تنسي أنّ مسجدي، وإن يكن بيتاً من بيوت اللّه لا يُسأل الداخل إليه أعربيٌّ هو أم أعجميّ، بلديٌّ أم غريب، لا يستطيع فكاكاً من قيامه على طرف الحيِّ الأفْقَرِ من أحياء مدينتكم. وهذا الحيُّ، كما تعرفين، معظمُ سكّانه من الوافدين طلباً للعمل والرزق. هذا يا سيّدتي، وكُلٌّ ما بوسعي أن أضيفه من تفاصيل عن مهنتي ومسجدي وناسي لا يخرج عما سبق ولا يرفعُ التباس أمري عندكِ وعليّ، ولا يُفسِّرُ جمعي بين "مهنتي" على ما تتصوّرينها وعلى ما هي حقيقة و"صداقتنا"... هل لي، تهويناً عليكِ وعليّ، أن أسألك التوسّع والتّسمُّح في معنى لفظة "مهنة" بحيث لا تضيقُ عمّا أنشط له ويستحوذ بالأوفر من وقتي وجهدي؟».

Twitter: @ketab_n

هذا تقريباً ما أفْلَحْتُ في العبارة عنه، مُسْتَكَلَّ اللسان أحياناً، مُرْسَلَهُ أحياناً أخرى. والأرجح عندي أنّه لم يُرضك ولا شفى غليلك.

كان مطلبك أن تعرفي كيف أُحِلّ لنفسي، أنا المؤتمن بحكم مهنتي، على حلال هذا الدين وحرامه، وأدنى حرامه أن يختلي رجل بامرأة أجنبية، ـ كيف أُحِلُّ لي أن أزورك وأُجالسك وأُقارئك وأؤاكلك وأشاربك وأشاطرك ساعاتٍ طويلةً من ليلك، ولربما بعبارة أصرح وأوقح أن تعرفي هل أكذب وعلى من: على نفسي؟ عليك؟ على الآخرين؟ حقّك. منطقيّاً، لا يَستقيمُ أن أدّعي الصّدقَ الكامل، بل الصِّدْقُ، كلُّ الصّدقِ، أن أعترف بأنّني كاذبٌ جزئياً! كلامٌ سليم ولكن بشرط... بِشَرط أن يثبت المرءُ أنّ المنطقَ هو القضاءُ الصالحُ للنظرِ في القضايا المتعلقة بالسلوك البشري وهو ما لستُ على ثقة منهُ ولا على اطمئنان. لم تكوني وحدَكِ في شكٍّ من أمري وريبة من صدقي، فمع احتدام الصراع على المسجد ومعه حملات التجريح بشخصي المتواضع لم يتأخر أحَدُ البيانات عن وصفي بأنّني من الذين ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب

Twitter: @ketab_n

أليم بما كانوا يكذبون﴾(*). صباح ذلك اليوم حيث أتاني خادِمُ المسجد مكفهراً، يُقدِّم رِجلاً ويؤخِّر أخرى، بنسخ من هذا البيان، موضِحاً أنّه وجدها في الباحة، وأنّه يُقَدِّر أنّ أحدهم ألقاها من فوق السور إلخ... ـ صباحذاك استقبلتُ شتمي والإزراء عليّ بهدوء ولامبالاةٍ بدوا للخادِم المتوجِّس قلقاً من أن تكون نُسَخٌ من البيان تملأ الشوارع، في غير مَحَلِّهما، ولدى سؤاله إيّاي إن كنت أرغب بأن يقوم بجولةٍ في الحيّ للتّحري عن الأمرِ أجبته بأنّ الآثر عندي أن يُعِدَّ لي كوباً من الشاي... «أولسنا يا حاج من الذين ﴿إذا خاطبهم الجاهلونَ قالوا سلاماً﴾(**)». يقيني أن خادم المسجد، شأنه شأن ذي النجوم الذي التقيت به في مكتب شيخي، حَمَل هدوئي ولامبالاتي الظاهرين على مَحْمَلِ المُصابرة ورباطة الجأش وأنّه ما كان ليُصَدِّق، ولو أقسمت له أغلظ الأيمان، أنّني جادٌّ فيهما بل أكثر مِنْ جادّ. فبيني وبيني كان لسانُ حالي

(*) البقرة: ١٠.

(**) الفرقان: ٦٣.

Twitter: @ketab_n

أبلغ في الهزء والسخرية: «هل يحتاجون حقاً إلى شهادة الكتاب ليثبتوا أنّني مريض؟ مريضٌ في روحي وعقلي وجسمي وليس في قلبي فقط؟!».

مقول القول أنّ سلوكي، بما فيه من تَكَتُّمٍ ومن جمعٍ بين الأضداد، كان مَحَلَّ غموض والتباس يصلان إلى حَدِّ اتهامي بالرياء. وكان كذلك لديك كما لدى آخرين لا يُشبهونك في شيء ولا أنتِ تشبهينهم. وإذا كان آخِرَ هَمٍّ من همومي أن يَقِفَ هؤلاء الآخرون على «حقيقة» أمري، وعلى أنّ اجتماعَ هذه الأضداد في شخصي فضيحَتُهم أكثر منها فضيحتي وأكثر منها خللاً في «بنيتي النفسيّة»، كما ذهب إلى ذلك يوماً أحَدُ شيوخهم المتفيهقين، فلقد كنتُ في شغل مُقيمٍ ألّا يحقرني في عَيْنِكِ اجتماعها فيّ.

مثلي مثل كثيرين، لم يَصْمُد إيمانُ العجائز الريفيّ الذي كان إيمان طفولتي وحداثتي الأولى، لشبابي المديني، مع أنّني شَبَبْتُ في تلك القرية القلعة المنقطعة عن العالم وإغراءاته، والتي يتنفس «الدين» كل من فيها... وما فيها. ولا تحسبيني أُجملني بين كثيرين لأضيعَ بينهم، بل، على الضِّد منه، لأرثي لي لأنّ المهنةَ التي حَكَمَتِ الظروفُ أن

Twitter: @ketab_n

أتعلّم أصولها وفروعها وأن أمتهنها أفسدت عليَّ فرصة الضّياع هذه. فالتحوّل من إيمان العجائز إلى «إيمان آخر زمن» (كما يَصِفُهُ أحدهم ساخراً) لم يكن بعزيز على مَنْ مِنْ أمثالي التحق بالجيش أو بإدارة رسميّة أو اشتغل بحرفةٍ يدوية. و«إيمان آخر زمنٍ» أن تُصلّي الجُمُعة في المَسْجِدِ أحياناً، وأن تصومَ رمضان أو تتظاهر بذلك وأن تُعيّد العيدين، وفي ما سوى ذلك أن تجعل الدين وأحكامه دبر أذنِكَ إلّا أن تُصيبك مُصيبةٌ فتلجأ إلى اللّه بالدعاء، أو يشجر خلاف بينك وبين أخيك أو جارك فيلجأ الأهل أو الجيران إلى وجيهٍ أو شيخ ليصلح ذات بينكما. أمّا أنا فلم يكن التحوّل العلني من هذا الإيمان إلى ذاك بالأمر المتيسّر لي، أو وجب عليَّ أن أستأنف حياتي من أوّلها، وهو ما لم أُحاولهُ إلّا بعد التحاقي بالوظيفة، قبل أن جاء تعييني إماماً لمسجد الغرباء وبدّل وجهة حياتي. وزاد الطين بلّة أنّني كُنتُ مثالَ الطالب المجتهد الواعِدِ، ولأسبابٍ لا صِلَةَ لها بالوازِعِ الديني كُنْتُ أيضاً، في الظاهر بالطبع، مثال الشابِّ العفِّ المتصاون. إلى هذا: لا أذكر أنَّ استزادتي من العلم، فوق الحدِّ المطلوب، أورثتني يوماً مَشَقّة، أو لو خُيّرتُ

Twitter: @ketab_n

بينها وبين ألوان اللهو التي كان ينصرف إليها زملائي أنّني كنتُ انصرفتُ عنها. لكلٍّ هذه الأسباب وجدتني رهين تفوّقي على أقراني وثقة العديد من مشايخي بي.

وفي عالمٍ من قبيل هذا الذي قضيتُ فيه شبابي أُحَصِّل العلمَ الشرعي لا يَسَعُ المرء ولا يستقيم أن تكون له دخيلةٌ يأنسُ فيها إلى نفسهِ. ففيمَ تكون له دخيلةٌ طالما أنّه يؤدّي حقوقَ اللّه مُعَجَّلَةً، وحقوق البَشَرِ كما تقتضي اللوائحُ والقوانين؟

هذا في العنوان العريض، أمّا في العناوين الثانوية، ولمّا أنّ الناسَ شتّى مهما قيل إنّهم سواسية - شتى ولو ألّف بينهم طَلَبُ علم غايته أن يَهدي العالمين إلى صراط مستقيم لا يُقبل منهم أن يسيروا على سواه، فلم يَخْلُ أكثرنا أن كان له من نفسه شركاء، وعلى العلم الذي يتعلّمه رقباء، وأن كان هؤلاء الشركاء الرقباء، في معظم الأحيان، ذوي لحى وطرقٍ ومذاهب. غير أنَّ الدَّخيلة التي يَفتَرِضُ المرءُ أن يأوي إليها هذا الشريكُ الرقيب قلّما كانت من مخبّآتِ الصُّدور أو مِمّا تطويه الضمائرُ عن الألسنة. ولعلّ هذا ما ميّزني عنهم أو عن الأكثر منهم.

Twitter: @ketab_n

فعلى حين كانت دخائل زملائي أدراناً باديةً للعيان يكادون ينوؤون تحتها، كانت دخيلتي اسماً على مسمّى. فالسّالِكُ منهم في طريقةٍ صوفيّة كان يجهر بصوفيته، والمشوقُ إلى عهودٍ كان الإسلامُ فيها، ولو في بلادٍ أخرى، يفتح الفتوح ويأتي بالمعجزات كان يجهر بذلك، أما أنا فلا طُرُقُ التصوف أغوتني ولا وجدتُ ضالّتي في «الإسلام الحركي» الذي كان لي، بالصدفة، تجرِبةٌ قصيرةٌ جداً في صفوف إحدى فرقهِ. حاصِلُ ما كان أنّني سرعان ما آستبنتُ أية طريق قد ارتُسِمَت لي - أعني: سرعان ما استبنتُ أنَّ إسلامي، رغم كلّ ما تعلّمته من علومه وكلّ ما تضيق به ذاكرتي من أحاديث نبوية وسلاسل رواةٍ وقواعد شرعية، حنينٌ إلى طُفولةٍ مضت إلى غير رجعة، وأنّ الإسلام، دينُ هذه البلادِ والكثرة الكاثرة من أهلها، دنياي ومعيشتي وأنّه من فأل الرأي وخطله أن أطلب منه لنفسي المزيد، وأقلُّ المزيد طوبى النفس وسكينتها. ولكنّ دنياي، هناك ومن بعدُ هنا، لم تَتّسِع، ومعيشتي، رغم ما اختلف عليها، ضنكاً كانت ولمّا تزل. من ثَمَّ لواذي بلا تَرَدُّد، وفي كل مناسبة، بدخيلتي، كهفي الذي أعيشُ فيه كلّ ما لا أعيشه

Twitter: @ketab_n

بين الناس، وأرفع صوتي فيه بكلّ ما لا أجهر به على ملأ من الناس ومن نفسي. كان كهفي هذا مكاناً آمناً لكنّ الأمن ليس بالضّرورة مدعاةَ بِشرٍ وفرحٍ، والأمنُ لا يُغني عن المرء كل حاجاته ومطالبه من الحياة الدنيا.

هل كان الزواجُ مثلاً ـ نصفُ الدين! ـ زواجي من إحدى تلك الفتياتِ اللواتي اقترحتهن عليّ الوالدة تباعاً كُلّما زرتُ القرية، ليُحَصّنني وليجعلَ منّي، في ما خَصّ ذكورتي الطبيعية على الأقلّ، رجلاً سوياً (والويل كل الويل أن تَتَبدّى فتاتي الساذجة ولوداً هاويةَ أمومة!)؟ لست من ذلك على يقين ولا أقطعُ به... وفي أيّة حال، فما لي بعدُ وهذه المسائل الافتراضية: لا عندَ إلحاح أُمّي نَزَلْتُ، ولا نصيحةَ الرسولِ إلى الشباب اتبعت(*)، بل رَكِبْتُ رأسي مؤثراً العزوبة في كهفي على تكاليف الزواج من فتاة ساذجة لا ألتمس عندها إلّا أن أردّ ما في نفسي من شهوة النساء(**)... مُخِلّاً

(*) «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنّه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وِجاء».

(**) «إذا أحدكم أعجبته المرأةُ فوقعت في قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها، فإنّ ذلك يردُّ ما في نفسه»، حديث.

Twitter: @ketab_n

بها، أحياناً قليلة، دونما عائِد من لذة تذكر، في مواخير قصيّة.

بيتُكِ نقيض الكهف بامتياز، وخيرُ شهادة على ذلك وأبلغها أنّكِ باطمئنانٍ شَرّعتِ لي أبوابه ودعوتني إلى الدخول إليه دعوةَ اللّهِ الصالحين من عباده إلى دخول الجنة(*) ومعذورةٌ أنتِ في ذلك فمن أين لأهل البيوت أن يعلموا ماذا عند أهل الكهوف، ماذا عندهم من القُدْرَة على أن يمسخوا البيوت التي يدخلونها كهوفاً على صورتهم...

على صورتي وصورة كهفي زيّنت لي زياراتي المتكررةُ أن أرى بيتك أحياناً، وأن ألتمس فيه الأمان ولكن ليَصُحّ مُلْتَمَسي، كان لا بُدّ أن أتعرّى... أن أتعرّى من صمتي... كان مطلباً عزيز المنال دونه خرط القتاد أو ما يُعادله!

(*) ﴿فادخلوها بسلامٍ آمنين﴾، الحجر، ٤٦.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٢

بالرِّضا والتَّسليم عشنا ما كان بيننا طيَّ الكتمان. لم نتحدث في ذلك، ولا تواطأنا عليه آخذَيْن واحدنا على الآخر العهود والمواثيق. لستُ أدري هل إنَّكِ أظهرتِ أحداً من خاصَّتِكِ على أمرنا، فأعانتك النجوى على قبوله وعقله إذْ كُنّا نعيشُهُ ويجري لربما إلى غير رجعةٍ، أمّا أنا، وإن لم يكن إلّا لهذين: قلّةِ الخليل الثقة والحياءِ المعيي، فلم أفعل، وها إنّني اليومَ، هنا، وقد مضى ما كان بيننا لقاءاتٍ وأحاديثَ وساعاتِ تواجد ووصال، ـ ها أنا في معتركه أحاول أن أفيه حقّه، وأوّلُ حقِّهِ عليَّ أن أجهر به، بيني وبيني، وأعترفَ بما كان له من يدٍ خَفِيَتْ عليَّ في تَوْجيهي ذلك المُتَوَجَّه الذي انتهى بي إلى حيثُ أنا الآن.

وماذا لعلّك تقولين فيَّ، لو أسررت إليكِ بذاتِ النّفس الآن منّي؟ لو أفضيتُ إليكِ أنّني، رغمَ كلّ شيء كما

Twitter: @ketab_n

يقولون، لستُ نادماً قطُّ على ما كان من قلّة الخليل الثقة، ومن الحياء المُغيي، لولاهما لكنت أهْدَرْتُ أمرنا بأن شاطرته أحداً من النّاسِ على سبيل البثّ، أي على سبيل الرواية شبه الفوريّة. بالضدّ منه، سعيدٌ أنا، أكاد أقول، أنّني احتفظتُ به لنفسي وحدها، ولو أنّ احتفاظي به لنفسي لم يكن من باب الأثرة، وسعيد بأنّ آدّخاري إيّاه لم يُشَتّتْه أشتاتاً برسم التّذكّر العابر، بل أبقى عليه حياةً برسم أن أحياها مجدّداً على نحو ما أفْعَلُ الآنَ. هكذا أيضاً أفيكِ حقّك: أن أقِفَ ساعاتِ الطمأنينة والصّحوِ هذه على آجترارِ وقائعِ ما كان بيننا وحيثياته، وعلى تقصّي ما أتوسّم أنّ هذه الوقائع المُسْتَتِرَة عن العيان كانت وراءَه من أمري دون سواها من الشواغل والهموم التي يُفْتَرَضُ بها أن كانت مستولية عليّ. وهل يُقَوّي من حجّتي أن أُضيف إلى ما تقدَّمَ أنّ قلّة عهدي بالحياةِ على وجهِ العموم تُخوِجُني أصلاً إلى مراجعةِ ما عشته في كنفك وخبرتُه، مرّاتٍ ومرّات، مراجعةَ تلميذ مجتهد، لأدّعي أنّني وعيته...

•

آذنت عودتنا من المطبخ إلى المكتب مزوّدين إبريقاً

Twitter: @ketab_n

من القهوة البيضاء، بتحوّلنا عمّا كُنّا فيه إلى اختيار موضوعٍ المحاضرة التي وجّهت لي رابطةُ طلّاب في إحدى جامعات العاصمة الدعوة إلى إلقائها. لأوّل مرّة ليلتذاك أحسستُ بأنّ هذا الذي يؤلِّف بيننا ولا اسم له يخوّلني أن أُبادئك بالسؤال على سبيل الاستشارة، رافعاً بذلك الكلفة بينكِ وبين همومي «المهنية»، وموطّداً بسرعةٍ أركان شراكتنا. سارعتِ إلى تلقُّفِ السؤال، وكما يليقُ بكِ، إلى مفاجأتي. انتظرتُ أن تُعَدّدي بضعَة رؤوس مواضيع أضمّها إلى القائمةِ التي أنشأتها في خاطري، فإذا بكِ تسألينني، ولم أكُ قد طالعتك بعدُ بصفة الجهة الداعية: «كيف تُريدني أن أقترح عليك رؤوس مواضيع مع جهلي بطبيعة الجمهور المرشّح لأن يستهلِك خِطابك؟». أفحمني أسلوبك في صياغة السؤالِ. ليس أنّني كنتُ ضارباً عرض الحائط بطبيعة الجمهور، ولكن فطرتي حسّنت لي أن أرى إلى الأمر من باب أنّ لكل مقام مقالاً. ولعلّ سواكِ لو شاورته في أمري وأراد ما أردتِ لاكتفى بشيء من هذا القبيل: «لا بُدَّ في اختيار الموضوع من مراعاة الجمهور الذي تَتَوَجَّه إليه». لم أشأ التعليق على وَصفكِ تلقّي الجمهور

Twitter: @ketab_n

بـ«الاستهلاك»، بل كنتُ للحقيقة في غير ما سَعَة من التعليق ارتجالاً، فَلَقد وقع قولك ذلك في مَحَلٍّ أقلقَ شيئاً ما في نفسي وَعقلي على حدٍّ سواء، وأثار فيهما خواطِرَ أردت أن أدّخرها لفي ما بعد فأتملّى منها.

«أصحابُ الدعوةِ طلّاب في إحدى جامعات العاصمة. كذلك فالجمهور شَبابيٌّ و"متعلّم". تردّدتُ كثيراً قبل الموافقة على تلبية دعوتهم، حَذَرَ أن يُقالَ إنّني أتعدّى حدودَ وظيفتي ورعيّتي... أنتِ أدرى... ولكنّ تدخُّلَ مدير الجامعةِ الشخصيّ، وهو رجلٌ نافِذٌ، إلى مرتبته العلميّة، أقنعني بأنْ لا عليّ: فرابطةُ الطلّاب الداعيةُ، على ما أكّدَ لي، ليست امتداداً لأيّ تنظيم سياسيٍّ سرّيٍّ أو علنيّ، وفي مثلِ هذه الأوقاتِ العصيبة، على ما قال أيضاً، وُسْعُ الواحد منّا حدودُ وظيفته لا العكس».

«ألا ترى، سألتني، أنّ المدير المذكور الذي وصفته بالنافذ بتدخُّلِهِ الشخصيّ لتزكية رابطة الطلاب تلك، وبوصفه هذه الأوقات بالعصيبة، يهمس إليك بما يودُّ سماعك تخطُبُ به الطلّاب؟».

«لأنّه كذلك، ولاضطراري أصلاً إلى النزولِ عند تدخّله،

Twitter: @ketab_n

تريننـي محتاراً في أمري. لعلّك لمستِ أنّ قولك "الجمهور المرشّح لأن يستهلك، إلخ..." لم يقع منّي في أذن صمّاء. كنتُ على أنْ أَمُرَّ دون الإشارة إلى ذلك، لئلّا يُوهِمَكِ تعليقي عليه فوراً أنّه آذاني أو أنّني أغْضَبُ لـ"جمهوري" الوهميّ ذاك، ولكن الآن وقد بيّنتُ لكِ جليّة الأمرِ، أنتِ أدرى بما يستوقفني في ردّك "الأفكار" التي أنا مُقبلٌ على إذاعتها إلى "مادّة استهلاكيّة" برسم جمهورٍ له أن يستحسنها أو أن يزهد فيها». بكلمات متقاطعةٍ تتألّف بحذرٍ وتلعثمٍ جملاً مفيدة قلتُ ما قلت لا متوقعاً منكِ جواباً أو تعليقاً. فأن تتخلّل أحاديثنا لحظاتُ صَمْتٍ، بل فراغاتٌ، كان ممّا استتبّ بيننا وكان مما استتبّ أيضاً ألّا نُحاوِلَ مَلْءَ هذه الفراغاتِ بأي كلامٍ أو كيفما اتفق!

•

كما يكون من الواحد أن يكتسب عادةً ما، يكون من الاثنين، وكان ممّا اكتسبناه أن نجلس بعدَ العشاء، كلٌّ في محلّه المعهود، على تلك الأريكة المواجهة للتلفاز. كذلك الليلة سوى أنّ النُّعاسَ غلبنا معاً فَتَوَسَّد كلٌّ منا

Twitter: @ketab_n

كَتِفَهُ. أقوى من النعاس حَذِر كلانا من أن يُفتضح تعبه، فلم نَنَم غير تهويمة أيقظنا منها عويل مصدره سيارة نجدة من شرطة أو إسعافٍ عبرت بالمكان.

استأذنتك الانصراف، مضيفاً على غرّة منّي إلى عبارتي المعهودة، بشيء من الاستنكار لربّما، أنّ الليل قد غَدَر بنا. لم أقصِد بما أضفته سوى الملاحظة، ولكنّ نبرةَ صوتي المُنْكِرَةَ على الليل تقدّمَه أوْحت إليكِ بأنّ في ذلك ما يحرجني، فسارعتِ إلى طمأنتي بأنّ الرحلةَ من «هنا» إلى المسجد، في هذه الساعةِ حيثُ الشوارع خالية من السيّارات، لن تستغرق أكثر من ربع السّاعة. لم تحضرني حجّة أعترضُ بها على خروجك لمرافقتي في هذه الساعة من اللّيل، غير أنّني لن أعدم سيارة أجرة تقلّني إلى هناك، ولكنّ حُجّتي لم تنهض لقرارك المبرم، بل غبتِ حيث لا أدري، ثواني، عدتِ بعدها بِيمينك طبق عليه كوبان من الماء وعلى ساعدك الأيسر شال صوف، وقُلْتِ آمرةً: «اشْرب. مع دخول موسم البرد لا بُدّ من التحايل على اختلافِ درجاتِ الحرارة بين الداخِلِ والخارج». صدعتُ لأمرِكِ الودّيّ، بينما كنتِ بحركات ماهرة تتلفّعين

Twitter: @ketab_n

بالشّال. برفقٍ أغلقتِ البابَ وراءنا، وخفافاً نزلنا الدّرج الحلزوني. من سبقنا إلى دخول المبنى أو الخروج منه لم يغلق البوّابة الحديد، فلم تحتاجي إلّا إلى دفعها بعض الشيء. أعرف أنّ اللياقةَ تقتضي منّي أن أُفسِحَ لكِ المجالَ لتعبري قبلي، ولكن هناك، عند بوّابةِ البناء الذي تقطنين إحدى شققه، ـ ليلتذاك، أوّل مرّة نخرجُ فيها معاً من «عندك» ونتعرّض لامتحانِ المكان العامّ ـ لم أدرِ هل إنَّ عليَّ أن أتابِعَ مقتضياتِ اللياقةِ، أم أنْ أستجيب دعوتك الهامسة «تَفضّل». لم أدرِ في أيِّ مَوْقفٍ نحن: هل مكانكِ هُناكَ، في تلك الساعة، صُحْبَةَ رجلٍ، أمْرٌ نافِلٌ عندك لا يستحقّ أن تُؤْخَذَ له حيطةٌ من تَخَفٍّ أو عجلةٍ أم أنّه ليس كذلك وأنّك تكلّفين نفسك من أجلي فوق طاقتها. كان احتمالٌ ثالث لم ألْحظهُ من قريبٍ أو بعيدٍ: أنّنا نزنُ الأمورَ بميزانين مختلفين تمامَ الاختلاف.

•

لا أثر للقمر في سماء المدينة. أتريدينني حقاً أن أنكفىء إلى جامعي وقهري وأُمّيّتي؟ هبيني كتاباً في كتبك، ألا تُخامركِ رغبةُ تصفُّحه وتحريك حروفه المهملة؟

Twitter: @ketab_n

للمرّة الثانية في غضونِ دقائق همستِ إليّ أن «تفضّل». لم تكتفي بأن فتحتِ لي باب السّيارة بل انتظرتني أن آخُذَ مجلسي لتوصديه. درتِ حول سيّارتك الصغيرة من حيث لا أراكِ، ثُمَّ فتحتِ بابها الأيسر وأخذت بدورك مجلسك. ربطتِ حزام الأمان وسألتني أنْ أحذو حذوك. تَحَسَّستُ الحلقة المعدنية في الحزام المُتَدَلّي عن يميني، وشَدَدته نحوي ولكنني لم أتبيّن في العَتَمَةِ أين ينبغي أنْ أدسّ الحلقة تلك بَيْنَ مقعدينا. تنبّهتِ على حيرتي فتركتِ ما كنتِ على وَشْكِهِ من الانعطاف بالسّيارة يساراً لإخراجها من الرَّتْلِ المتراصّ، وحرّكْتِ مقبض السّرعات الذي كانت يمينك ما تزال قابضة عليه، وملتِ بعض الشيء نحوي وأخذتِ الحلقة المعدنيّة من يدي المتعثّرة لدسِّ طرفها حيث يجب، مرفقةً مبادرتك هذه التي لم تستغرق طرفةَ عين بـ«عفواً» عابرةٍ إذ التقت يدانا، ثُمَّ عُدتِ إلى ما كنتِ عليه مِنَ المناورة لتحرير سيّارتك من فَكّي السيّارتين اللتين تطبقان عليها من الخلفِ ومن الأمام. على أنّك، كلّ يومٍ لربّما، تقومين بمثل هذه المناورة مرّاتٍ، فلقد حسبتُ، أنّ من واجبي في هذه

Twitter: @ketab_n

اللحظات التي خلتها حرجةً أن أحبس أنفاسي. وهكذا كان إلى أن تركنا الشّارع الفرعيّ الغارق في العتمةِ واستقبلنا الطريقُ العامُّ بأضوائه.

منذ سنوات، مدينتكم سباقٌ لاهثٌ بين الأحياء «الشعبية» القائمة حكماً عند أطرافها والتي لا تفتأ تمتد وتتسع، وبين مُخططات الطرق المُسمّاة سريعة التي يُرافِعُ أصحاب الشأن عن ضرورة الاضطلاع بها، متذرعين بألف سَبَبٍ وسبب رغم ما تُضطَرُّ هذه المخططاتُ الحكومة إليه من الاستدانة بل التسوّل أحياناً. أمّا ما لا يُقالُ ولا يُؤتى له على ذكرٍ في زحمة النقاش في جدوى هذه المخططاتِ الاقتصادية وأوّليتها على سواها فأنّ هذه الطرق إذ تُشَقُّ تُطَوِّق تلك الأحياء («الشعبية») بستار محكم من الجدران الإسمنتية العالية حتى لا يكاد العابر (بسرعة) على تلك الطرق (السريعة) أن يقفو أثراً لحياةٍ وراء تلك الجدران لولا ما يلهوه بعض شبان تلك الأحياء أحياناً من رسم أسمائهم عليها وأسماء هندهم ولبناهم وليلاهم أو تصوير شعار فريق كرة القدم الذي يشجعون، شأن المساجين على جيطان زنزاناتهم! هذه الطرق السريعة كما

Twitter: @ketab_n

تسمى، الالتفافية كما لا تُسمّى، هي التي تأخذها حافلات النقل العام الأشبه بالشاحنات في سَعْيها بين المدينتين، - ومنها تلك التي تحمل الرقم ٦، حافلتي.

لم يُغْرِكِ الطريق السريع الأخصر إلى مقصدنا، أو لعلك أردت لرحلتنا أن تطول! اتفق لي في مرّات سابقةٍ غادرتك فيها متأخراً أنْ عبرتُ بين المدينتين في سيارة أجرة وأن مررت في كل الشوارع والساحات المعترضةِ بينهما، غير أنّ رحلتنا معاً من عندِك إلى مسجدي كانت مختلفةً لما أحْسَسْتُ به من ثقةٍ بالنّفس، ثقةِ من يجولُ في دار أو يتنزه في بستانٍ صُحبة أربابها لا تسللاً ولا تسوّراً، بخلاف ما كُنْتُ أشْعُرُ به في سيّارة الأجرة ولو أنّ لي من سائقها جاراً قريباً أو بعيداً أو لربّما مواطناً ابن بلد. لهذا ألفيتني أستكشف المدينة بعيني امرىء قليل الأسفار يدخلها لأوّل مرة.

هل بَهَرَني ما رأيتُ من مشهد المدينة الليلي. لا وحياتك! ما بَهَرني هو كيف أنّني لم أره من ذي قبل، ولولا قليل لقلتُ كيف لم أره بعين الغَيْرةِ والحَسَد. وللحقيقة، ولو أنّها كلمةٌ كبيرةٌ، فلقد تأجج فيّ هذا الشعور

Twitter: @ketab_n

ساعة عبرنا بساحةٍ ينتشر على أطرافها عدد من مقاهي الرصيف فأخذتِ من سرعة مركبتك على نحو ملحوظٍ، إذ مررنا بمحاذاة أحدها كأن لتستطلعي جُلّاسه أو لتتحققي من وجود أحد بعينه.

على العموم وعلى الخصوص، لم أكد أصدّق شيئاً ممّا شهدته تلك الليلة: لا أنّ مولاتي، نجيّةَ المتنبّي المهتزّة طرباً لخيله وليله وبيدائه، سائقةٌ ماهرة، يُطربها أيضاً ما تورثه السّرعة من انفعالاتٍ، ولا أنّنا نعيش في المدينة نفسها. فحيث أنتِ كالسّمكة في بحرها أشعر بي فوق السائح ودون الغريب، وحيثُ يفترض بي ألّا أستوحش أشعر بي «غريباً كصالح في ثمود»(*).

أخذتنا الطريقُ صعداً فعبرنا بحيٍّ سكنيٍّ راقٍ اسمهُ أعلى بكثير عن سطحِ البحر من ارتفاعه الحقيقي، وما كدنا نُباشر الهبوطَ حتى طفحت أماراتُ البؤس والارتثاثِ على واجهاتِ الأبنية ووجوه المارّة القليلين. ولا إخالني كنتُ

(*) أنا في أمّة، تداركها اللـ ـه غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ
المتنبّي

Twitter: @ketab_n

واهماً إذ بدا لي أنّ وتيرةَ الارتثاثِ تَتَفَشّى وتتسارعُ بمقدار هبوطنا، حتى بلغت تمامها عندما بلغنا ساحةً قليلة الإنارة، هي من تلك التي جزناها قبل تصعيدنا قبالتها تماماً، تنتشر في أرجائها مُخَلَّفاتُ سوق خضار. لم أشأ أن تتوغّلي في هذه الأحياءِ أكثر، ولكنّني لم أشَأ أيضاً أن تَخمِلي ذلك على مَحْمَلِ الصَّدِّ لكِ عن دُخولِ شوارِعَ خلفيّةٍ هي في عرفِكِ عالَمي.

على غفلةٍ منّي، أو هو الأيَسُ من قُدرَتي عن التعبير المبين، امتدّتِ يدي إلى قاع حقيبتي المُهَلْهلة تبحث سرّاً عن مفاتيحي. هل وشت بي يدي عندكِ فَسَألتِ: «والآن؟»، أم هي الطريقُ أشكلتْ عليكِ حقّاً كما سارعتِ إلى توضيح سؤالِكِ، فأجبتك أنّ اجتياز المسافةِ المتبقية سيراً على الأقدام مسألةُ دقائق. لا أشكّ في حسنِ النيّة الذي صدر عنه سؤالك إيّاي هل يُخرجني أنْ تعفيني من مشقّة المئات من الأمتار المتبقّية سيراً على الأقدام؟ ولا أشُكّ في أنّك لم تقصدي إلى تحدّيّ، غير أنّ اقتراحك إيصالي بالسّيارة كان مني أحد إحراجين، ثانيهما أن أُشاهد صحبةَ امرأة في هذه الساعة، لا مفرَّ لي من ركوب

Twitter: @ketab_n

أحدهما: «كلُّ ما أخشاه هو أن تضلّي في متيه هذه الأحياء...». وكُنتُ على أن أُتِمّ جملتي بنعتٍ أُسْنِدُهُ إلى هذه الأحياء، ولكنّ البديهة خذلتني وتراءى لكِ أمامنا مفترق شوارع فعاجلتني بـ«لا عليكَ منّي»، أتبعتها بـ«والآنَ؟» لا يحتمل تأجيلاً. كنت بالخيار بين أن أُشير عليك أن تواصلي السّير قُدُماً في الشارع العريض نوعاً ما، المضاء، الذي يتابع الاتجاه الذي كنّا فيه فلا يلبث أن يستقبلنا عن يميننا المَدْخلُ الرئيس، أو أن أوَجِّهك ذات اليمين إلى شُوَيْرِعٍ ضيّق مُظْلِم لا يلبث أن يُحاذي سور المسجد الخلفي فيتسنّى لي أَنْ أغادِرك في العَتَمَةِ بحجّة أنّ الدخول من الباب الجانبي هذا يُقرّبني من مقصدي (وهو كذلك لولا أنّ هذا البابَ الذي لم يُفتح منذ سنواتٍ آخى السّورَ من فرط بقائه مغلقاً).

غَلَبَ عليَّ الجبن فأومأتُ بيدي إلى ذاتِ اليمين، وما هي حتّى تراءى البابُ الصغير فأستوقفتُك، وفي آنٍ معاً بَرْبَرْتُ حُجّتي وشكرتُ لكِ تكبّدك عناء إيصالي وأهديتك الصّباح سَلَفاً. ترجّلتُ على عَجَلٍ، وعلى عَجَلٍ أيضاً أخذتُ جانبَ الباب الحديد، من حيثُ كرّرتُ الوداع

Twitter: @ketab_n

بإشارة خاطفة من يدي، رددتِ عليها بمثلها ولزمتُ مكاني أنتظر ابتعادك لأعودَ أدراجي وأدخلَ حَرَمَ المسجد من بابه الذي ليس له سواه.

•

لكي يُجدي طِبُّك هذا الذي أتَطَبَّب به، كان لا بُدَّ لي من رواية الفصل الأخير من رحلتنا الليليّة الأولى بحذافيره. فمِمّا لا ينِي يُدْهِشُني من تلك اللّيلة حتّى هذه، ذلكم التَّوَقُّدُ الذي لا تنفكُّ عليهِ غريزةُ البقاء عندي على تفاوتِ درجاتِ البقاء وطبقاته.

تلك الليلة، كان منتهى البقاءِ أن أُجيبك إلى ما اقْتَرَحْتِهِ مِنْ إيصالي إلى عُقْر داري، وأن يَتِمَّ لي ذلك تحت جنح الظلام والسّترة. ولا أُبالغ إن زَعَمْتُ أنّ شيئاً من بقائي، كان رَهْنَ هذا وذاك. وعلى أنّه كان كذلك فلم أغفر لي ليلتذاك، ولا غَفَرْتُ لي في ما بعدُ، تسليمي مقاليد بقائي، بل بقاءاتي إلى تلك الغريزة. ويدهشني أيضاً وأيضاً ما يقدر عليه الواحِدُ مِنّا من الجمع بين عواطِفَ يَحْسَبُ أنَّ لها الغلبة على سلوكِهِ وخياراته، وبين حساباتٍ وتعاليلَ دقيقة لا تكاد تخطر ببال. فهل تصدّقين مثلاً أنّني

Twitter: @ketab_n

في شطر الثانية الذي عزمتُ فيه أن أشير عليك بالانعطافِ يميناً إلى الشارع الضّيّق المعتم لم أُغنَ إلّا بتَوَجُّس المخاوف من أن يُبْطئك ضيقُهُ عن اَجتيازه بسرعة فيراكِ أحدهم (ولو أنّ أحداً من الذين أخشى أن يروك لا يعرفك ولا يعرف ما بيننا)، وهل تُصَدِّقين أنّني في تلك الأثناء غَرَبَ عنّي تماماً أنّك مقبلةٌ على العودةِ مِنْ حيثُ أتينا معاً بمفردك، وأنّني، عوضَ القلقِ، ولو على سبيل المجاملة، أنستُ الاطمئنان إذ تحقّقت من مراجعة خريطة المكان في ذهني أنّ مَصَبَّ الشارِعِ الضيّقِ المعتمِ الوحيدَ هو في الشارِعِ المضاء وأنَّ هذا الأخير ذو اتّجاهٍ واحِدٍ، حَسْبُكِ أن تتابعيه لتجدي نفسك ثانية، بعد إشارتين ضوئيتين أو ثلاث، بعيداً من هنا، قريباً منه، على مشارف عالمك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٣

من وراء الطاولةِ التي أعدتُ تأهيلها وتجديد طلائها بنفسي، ونظّاراتٍ أُرغمت مؤخراً على الاستعانةِ بها عند القراءة، أرعى شؤون أُمّتي الصغيرة على الوجهِ الأصلح في نظري، وأبذُلُ جُهدي للتخفيف من شجونها. شؤون أُمّتي وشجونها ليست كلّها أيّاماً مشهودةً من قبيل التي جئتُ على ذكرها آنفاً، بل إنّ معظمها رتيبٌ ليس في مواقيته فقط وإنّما في ما يأتي به من جديدٍ أيضاً.

وضاعف من الرتابة، إن جازتِ العبارة، أنّ الأحوالَ على جبهةِ المسجدِ، بعدَ ما كان من اقتحامِهِ بصوتِ ذلك «الزميل»، هدأت بعض الشيء (علماً أنّ الواقعة كما تُقَدّرين لم تنتهِ عند الحد الذي ذكرت، بل تشعّبت واستدعت أقاويل ونقاشاتٍ وتدخلاتٍ عَفَفْتُ عن سردها وقد أعود إليها).

Twitter: @ketab_n

في المختصر المفيد زامنت تلك الواقعة التي جاءت، كما يُقالُ، «في سياقٍ من التصعيد» ـ زامنت عودة كل فريقٍ، على مدار البلدين لا في حَيّي فقط، إلى قواعده يتأهب للمنازلة المقبلة.

في ما يعنيني، ترجمت هذه الهدنة، التي لم تدم طويلاً تبديلاً ملحوظاً في سياسة القوم وخططهم، كان من شأنه أن انكفؤوا عن استهداف المسجد إلى استهداف الحيّ عموماً.

أوّل الغيث كان عبارة عن ملصقٍ حِرَفيٍّ الصنعة يحضُّ على الصلاة بطريقة فظّة: «صلّي قبل أن يُصلى عليك» (!) (حرفيّاً) زُيّن برسم تقريبيٍّ لجثة مكفنة مُسجّاةٍ على مَحْمل، فتوقيع لا يخلو من الوعيد: «الحافظون لحدود الله»(*).

سكان الحيّ الذين أفاقوا على الملصق مُعَلّقاً على مداخل بيوتهم وأبواب دكاكينهم (بما في ذلك بوابة المسجد الخارجية) تفاوتت تعليقاتهم: فالبعض رأى في

(*) ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾، التوبة، ١١٢.

Twitter: @ketab_n

الملصق عملاً صبيانياً لا يستأهل التوقف عنده، وبعضٌ آخر فاته أنّ الحكمة من تقريبية الرسم الذي جاء أشبه بمومياءَ فرعونيةٍ هي تحاشي التصوير، فاسترسل في هزئه من هذه الطريقة في الوعظ، وبعضٌ ثالث اعتبر أنّ الأمرَ لا يعنيه. أمّا أنا، فاعتزلت التعليقَ مكتفياً بيني وبيني بالملاحظة أنّ مَنْ خطّ الشعار «صلّي قبل أن يُصلّى عليك» لم يقصد حتماً توجيه خطابه إلى الإناث دون الذكور!

مع الأيّام أخذ نشاط «الحافظون لحدود الله» يتّسع بأن صار لا يقتصر على تعليق الملصقاتِ الداعيةِ إلى الصلاة تارة، وإلى توخّي الحشمة في الملبس تارة أخرى، وإلى اجتناب المنكرات ثالثة، بل تجاوز ذلك إلى توجيه رسائل شخصيّة، ناصحةٍ لمن يتوسمون فيهم وفيهن استعداداً للتجاوب، ومؤنبةٍ زاجرةٍ للآخرين. فالمؤمن الذي شوهدت بيده علّاقة مفاتيح من ذهب وصلتهُ رسالةٌ لطيفة تلفته بالدليل الشرعي إلى حُرمة تحلّي الرجال بالذهب، ومن اشتهر بالمحافظة ولكن أخلّ بها بمناسبة حفل زفاف ابنته فأحياه بالغناء والرقص تلقى رسالة عَتَبٍ مشفوعة بالدعاء للعروسين بـ«الرفاء والبنين»، وأمّا تاجرُ الحبوب،

Twitter: @ketab_n

المُرابي أحياناً، فوجد تحت باب محلّه خطاباً عنيفاً ينذره بسوء العاقبة. وأمّا أنا فكان نصيبي خطاباً من هذا القبيل يأخُذُ عليّ، بصفتي قدوة للعوام، بعبارات تقارب الشتيمة، تناولي كوب الماء الذي قُدِّم إليّ في عزاء «المغفور له إن شاء الله» فلانِ الفلاني باليسرى لا باليمنى!

طوال أسابيع كانت هذه الملصقاتُ والرسائل كل ما شهده الحيُّ من أحداث. أنا نفسي لم أُحسن «تقدير الموقف»، لا في سِرّي ولا جواباً على سؤالٍ عن «رأيي في الموضوع» تقدّم به إليّ أمنيٌّ جاءني أوّل مرّة صحبةَ مستشار سفارتنا الإعلاميّ في أعقاب حادثة الاقتحام الصوتي ذاك، ودأب من ثُمّ على زيارتي. أذكُرُ قُلْتُ له يومها ساخراً: «إنَّ "الحافظون لحدود الله" لا يأتون جديداً ولا يَنِمّون عن سَعة خيال في اعتمادهم أسلوبَ المراسلة هذا، فَقَبْلَهُم بعشرات السنين، في بلدٍ شقيق، خطرت لفتى صار له في ما بعد شأن عظيم فكرة تأليف جمعية تُعنى بـ"منع المحرمات" وأنفذها واتخذ المراسلة وسيلة. ومثلُ هذه الأفكار سهلة التوارد ولا حقوق تحميها أو تُلزم بذكر مصدرها عند استعادتها. أمّا أنّ الأمْرَ يُؤبَهُ له أو لا يُؤبه

Twitter: @ketab_n

فشأنٌ، يا حضرةَ... يُفترض أنّكم أدرى به منّي وأوفر أسباباً للوقوف على جليته».

ظننته يحملُ جوابي على السخريّة والتّهرب، ولكن بالضد من ذلك كان، حيث أبدى مزيد اهتمامٍ به واستفسرني عن المرجع أو المراجع التي يمكنه أن يعود إليها لتوثيق هذه السابقة، فأفدته بما حضرني منها (دونما أن يخالجني أدنى شعور بـ«التعامل»!). فأنا نفسي، أُكرِّرُ، كنتُ في حَيْرةٍ من أمرٍ ما أشهد: أهو حريقٌ يُحاوِلُ أن يستردّ أنفاسَه أم حريقٌ يلفظُ أنفاسه الأخيرة؟ على هذا كانت مصاديقُ وأدلّةٌ وعلى ذاك ولكن لا مُرَجِّح.

لغياب المُرَجِّح، وعلى قلقٍ كبيرٍ أحياناً، انصرفتُ إلى شؤوني في انتظار ما يكون. وكان الألحّ بينها أن أجدَ الوقت الكافي لرعايتها والعناية بها في معزل من الخلافِ بين هذا وبين جيرانه أو بينه وبين زوجته، ومن رسالة الأمر بالمعروف وصلت إلى هذا والنهي عن المنكر وَصَلَتْ إلى ذاك.

•

Twitter: @ketab_n

أوّلَ تَسَلُّمي مقاليدَ المسجد وتعرّفي بالحيّ وأهْلِهِ حاوَلْتُ أن أُقيّد دخولهم عليّ بموعِدٍ سابق، وإذ فَشِلَتْ محاولتي «الإصلاحيّةُ» هذه لم أيأس، بل واخذتُني على أن ضيّقتُ عليهم كلَّ التضييق دفعةً واحدةً، فعيّنتُ ثلاثة أيّامٍ في الأسبوع أستقبلُ طوالها مَنْ يشاء، أو تشاء، دون موعِدٍ، غير أنَّ هذا السَّبيل في التوسعة عليهم لم يُؤَدِّ إلى الغاية المنشودة منه، وبقيت غرفةُ مكتبي نهباً لزياراتهم اللّجوجة الطويلة. جرياً على خجلي، بل تصديقاً له، أقمتُ ردحاً أتغاضى عن ذلك، على مَضَضٍ، مُكتفياً بأن أُوَسِّط بيني وبينهم خادم المسجد، مؤمِّلاً أن ينفع تذكيرُه المتّصلُ إيّاهم. كُنْتُ مَغيظاً من سلوكهم هذا في المبدأ أكثر منه لما يُضيِّعُهُ من وقتي الذي كان في عرفي بحكم الضائع والمهدور أصلاً. ولكن مع توطّد ما بيننا، ودخوله في نصاب مشاغلي اليوميّة، واستقلالي بشؤونٍ لا تعني أحداً سواي، (باستثنائك)، لم يَعُدْ في وسعي السكوتُ على اغتصابهم المتكرّر حُزمَةَ مكتبي ووقتي، فنبتتْ لي، من حيثُ لا أدري، أنيابٌ، وانقلب خجلي نوعاً من الغلظة. وبعدَ تفكيرٍ مليٍّ، تراءى لي أن أشْرِكَ الحاجَّ المولَج خدمة

Twitter: @ketab_n

المسجد من أوّل إنشائه، والعليمَ بأهلِ الحيِّ وباختلافهم، لمعاصرته الشيخين اللذين سبقاني في هذه الوظيفة، ـ أن أشركه في (بعض) أمري وأن أستعين به عليهم. وهكذا استسنحت دخوله عليّ لأمرٍ ما ذات صباحٍ، وقد كنتُ منكبّاً على تفلية قصيدة من قصائد المتنبّي، تواعدنا على قراءتها، لغةً وصرفاً ونحواً، فاستبقيته وأفضيت إليه بانزعاجي الشديدِ من ضرب النّاس عرض الحائط بما «عيّنّاه» لهم من مواعيد زيارة، لا سيّما مع تكاثر الأشغالِ عليّ، لا غافلاً عن إضافة «كما ترى»، وعن الإشارة إلى المجلّد الجاثم أمامي، والكتب الأخرى التي تعجّ بها الطاولة، فضلاً عن الوريقات المسوّدة بالملاحظات.

سرّه حديثي بصفة الجَمْع مقدار ما طمأنني إلى انطلاء شكواي عليه، فاستنسبتُ أن أخطوَ القهقرى خطوة تُثَبِّتُهُ في طمأنينته قبل أن أهجم إلى الأمام خطواتٍ، وأتوصّل إلى غايتي: «هم ناسنا وأهلنا، ولهم علينا أن نرعى شؤونهم ومصالحهم، ولا شكّ عندي في أنّهم لا يتقصّدون الإزعاج، ولكنَّ الأمْرَ كما ترى، ولا بُدَّ لنا مِنْ أنْ نجد صيغةً وَسَطاً لا تجرح مشاعرهم، وتَدَعُ لي بعضاً من الوقتِ أنصرف فيه

Twitter: @ketab_n

إلى هذه المشاغل الأخرى التي لا تخلو، إن شاء اللّه، أن تعود بالنفع على الجميع».

عند هذا انقبض الحاجُّ الوَرِع، ولم يبقَ له إلّا أن يُلقي بمقاليد الأمْرِ إليَّ؛ وهكذا فعل إذ تساءل بجدّ ينمُّ عن تقديره خطورة ما أشركه فيه، وما يُفوِّته على أمّة المسلمين قاطبةً استباحةُ أهل الحيّ مكتبي، وتَمَدُّدُ زياراتهم لغير ما سببٍ وجيه: «والعَمَل؟».

«علينا بالكيّ يا حاجّ. مكتبي مفتوحٌ لمن يشاء أو تشاء، طوال الأيام الثلاثة التي سَبَقَ أن عيّنّاها. وحاشا أمراً طارئاً يستدعي تدخّلِيَ العاجِلَ أُريدك، غيرَ آثمٍ، أن تَرُدّ الزوّار عنّي بما لك من دماثةٍ وحُسْنِ تصرّف، وأن تؤجّلهم إلى يوم الاستقبال التالي».

لم أجسر، بالطبع، أن أبين عن مطلبي بكلامٍ أوْضَحَ يُسمّي الأشياء بأسمائها، عوض الاقتصار على الكناية عنها، ولكنَّ الحاجَّ فاجأني بأن جَذَبَ إليه حبل الكلام كما لم أتوقّع أن يفعل، وبادرني بـ«لا عليك» مُفتياً لنفسه، من تلقاء نفسه، أن لا إثم في اختلاقِ أعذار تَخفَظُ عليَّ وقتي، طالما أنّني أُنفِقُهُ في سبيل الجماعة والصالح العامّ.

Twitter: @ketab_n

شكرتُ له تَفَهُّمَه وعَطَفْتُ على ذلك أشكرُ له سَلَفاً ما يأخذُ على نفسِهِ أن يُكبّدها، ولكنّه فاجأني للمرّة الثانية في دقائق معدوداتٍ بأن دعاني إلى الاقتصاد في شكره: «ثِقْ، وَثِقْ بي. كِلْني بهم أسبوعاً واحداً لا غير تَرَ كيف سأقلب سلوكهم رأساً على عقب، وكيف سأُعَوِّدهم على أنّ لباب مكتبك أوقاتاً يُفتح فيها لاستقبالهم، مثلما للصّلاة مواقيت معيّنة...».

مأخوذاً بما أبليته، لم أحسب الحاجّ الذي قلّدته للتوّ حجابة بابي إلّا ينطق عن هوى التزلّف إليّ، ولكنّ انضباطَ زوّارِيَ العسكريَّ في الأيّام التي تَلَتْ خلوتي الصّباحية بالحاجّ، وأخذهم مجدداً بشعائر كلفة كانت قد ارتفعت بيني وبين معظمهم أنبهاني إلى هذا: أنّني لربما تَسَرَّعت في حملي استجابته المبالَغَ فيها، وانحيازَهُ إلى صفّي وحجّتي، على مَحْمَلِ الزّلفى والتّملُّق، ولم يلبث عتبٌ رقيقٌ وَجَّهه إليَّ أحدُ أعيانِ الحيِّ على سبيل الشكوى من فظاظةِ أسلوب الحاجّ في «الحجابة» أن رجَّح كفَّةَ شكوكي، واضطرني إلى الاختلاء به ثانيةً، لإقناعه بالتخفيف من حماسته عند قيامه بالحجابة على بابي...

Twitter: @ketab_n

ما عدتُ أذكُرُ على أيِّ وجه تتالت هذه الوقائعُ، وهل كان إيصالُكِ إيّايَ إلى المسجد قبل تقليدي الحاجَّ وظيفة الحجابة تلك، أو في غضون الأسبوعين اللذين حكم فيهما على زوّاري من أهل الحيّ باسمي، ولكن بأمره، أو بعدهما. على أيِّ حالٍ فلا عبرة تُستفادُ من ترتيب هذه الوقائع الصغيرة وفق تسلسلها الزمني، بل العبرةُ في أنّها تتالت، خلال مدّةٍ قصيرةٍ وأنّها، وسواها مِمّا هو أخطر شأناً، لولاكِ ما كانت لتقع.

يُحَمِّلُكِ قولي «لولاك» مسؤوليةً لا شهودَ عدولاً عليها، ولا مِصداقَ من الوقائع... ما يُنْزِلُهُ، قولي، منزلةَ «الخبر الغريب»(*) وكيف لا يكون كذلك والواحدُ المُخَبِّر أنا! وإذ أُصِرُّ على خبري وعلى «أنّها لولاكِ ما كانت لتقع» فليس من بابِ الافتراء عليك وغسل يديّ ممّا أتتاه، أو بالأحرى تلويث يديك به باعتباركِ شريكةً فيه بالتحريض عليه، وإنّما اعترافاً بفضلكِ عَلَيَّ أن أتَيْتُه مطمئناً وعلى بيّنة من أمري، وليس بفضلك عليَّ فقط ولكن «عليهم» هُم أيضاً، أولئك

(*) «هو ما ينفرد بروايته راوٍ واحد. وقد يكون صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً»، (استشهاد صادق).

Twitter: @ketab_n

الذين لصقت بي تهمةُ التعامل معهم و«تحريف الإسلام» إرضاءً لهم وخدمةً لسياساتهم.

أحدهم، أثقلهم ظلّاً، أفهمني عشية الإتيان بي إلى هنا بأنّ زياراتي المتكررة إلى عندك موثّقة في سجلاتهم بالساعة والدقيقة. لو كان أقلّ غباءً أو أخفَّ ظلّاً لأفهمته بدوري أنّ ما يعرفونه عمّا بيني وبينك لا يتجاوز ما يَسَعُ خيالهم أن يصوِّر لهم ما يمكن بين رجلٍ وامرأة أن يكون، وأنّهم، لِحُسْنِ الحظ، خيالهم ضيّق ومعرفتهم، إذاً، قليلة. ولقلتُ له لربما أكثر: لقلت له، ولو على سبيل المشاكسةِ، إنّك أنتِ من أقنعني بإطلاق العنانِ للساني حرباً على «الأشرار» ومن حَسَّنَ لي المشاركة في هذه الفتنة الموسمية الصغرى، ولحَيَّرته في أمري!

•

لستُ نادماً قطُّ على أنّني اخترتُ الانفراد بنفسي في هذا البويت من هذا المكان المنقطع أصلاً. غير أنّه لا وَجْه شبهٍ بين هذا الانفراد وبين ما يُمكن المرءَ أن يَحياهُ من وحدةٍ وسطَ النّاس. الوقتُ، وسْط الناس حاضِرٌ باستمرار، إن غفلتَ عنه ذكّرك بنفسه، قرع باب أو رنين

Twitter: @ketab_n

جرس هاتف أو، في مسجد، رفع الأذان. أمّا هنا فالوقت مريضٌ عاجزٌ كسيحٌ مشلول لا بُدّ من حمله على الراحات والطواف به حول نقطة دائرة وهمية ليمضي ويمرّ. لا أكتشف البارودَ ولعلّ سوايَ، كثيرين أو قليلين، يعيشون الآن ما أعيش، ولعل سواي مِمّن خَبِرَ هذا الموقفَ أجاد في وصفه كما لا أعرف أن أفعلَ ولا أستَطيع، ولكن لا هذا ولا أنّني فيه منذ شهور، يُطفّفان من وطأته. أقول وطأته وأعني غير ذلك ولكنّ اللسانَ أسبق: يُطفّفان ممّا يستشعره المرء من تحفّز الأشياء الدائم إلى الخروج من أنصِبَتها وقيامها في معزل عنهُ وعن إرادته.

لا تحسبيني ألُقي الكلام جُزافاً، أو أحدّث بما لا علم لي به أو أتوهم حالات لا حقيقة لها، - أبداً ليس كذلك وبالطّبع لا أحبّ لكِ أن تُجرّبي لِتُصَدّقي. ولكن ما الذي يدفع المرء إلى بذل الجهد بلا حساب إبقاء للوقتِ في مداره وإبقاء لنفسه في مدار من الوقت؟ لا جواب عندي تُؤيّده الأدلة والبراهين... لا جواب سوى التسليم بأنّ الحياةَ غريزة تُفَتّقُ الحِيَلَ لصاحِبِها وتَشْحَنُه بالبأس على المصابرة.

تناسَيْ ما أنا فيه: ألم يأتِكِ مرّاتٍ حديثُ هذا أو ذاك

Twitter: @ketab_n

من الناسِ تاه في رُبْعٍ من الأرضِ خالٍ وتفنَّنتِ الطبيعةُ في اختبار قدراته على الحرّ والبرد، فجاهد نفسَهُ وَجَهَدها وعاد مِنْ حيث لا يتوقع له أحدٌ أن يعود، وإذْ سُئِلَ باستهجانٍ كيف صَنَع، كان منتهى جوابِهِ أنّه شَدَّ من عزيمته اعتذارٌ عن خيانةٍ صغيرةٍ يدين به لامرأة أحبّها ذات يومٍ، أو وردة على شرفة منزله استعظم ألّا تجد من يسقيها بعد؟ هذا شأنُ من عاد، أمّا من لم يَعُدْ فثقي أنّ الطبيعةَ براء من دمه: ذنبه أن لا امرأةَ في نفسه شيء منها أو لها، ولا أُصَّ ورد على شرفته. غريزة الحياةِ سيدتي شيء من هذا القبيل لا الحياةُ بنفسها!

أوّل الإتيان بي إلى هنا كنتُ بعدُ ممتلئاً ممّا عشته وعشناه. كانت سبيلي إلى الإبقاء على هذا الامتلاء أن أهتمّ بما يحدث في «الخارج» كما لم أهتمّ من ذي قبل. كذلك فلم أكن أدع جريدةً من الجرائد التي أُوافى بها تَغْتَبُ عليّ، ولا عَفَفْتُ عن نشرة أخبارٍ إذاعيّة أو متلفزة. وكان كل شيء على ما يُرام: كُنْتُ في الوقتِ. ثمّ، ذات يومٍ، جاءني قريني، ضابطُ «الأمن السياسي» الموكول بي بحجّة زيارتي والتأكّد من أنني، و«كل شيء» (كل شيء؟!)،

Twitter: @ketab_n

على ما يُرام، وبَعْدَ أن تداولنا في الأوضاع وجُلنا في الآفاقِ، وناقشنا الاحتمالاتِ وتفقّد حاجاتي، وحمّلته سلاماتٍ حارّة كاذبة إلى فلانٍ وفلان من رؤسائه، وأشعر مرافقيه بأنّه على وشك المغادرة، انتفض في حركة مسرحيّة متذكراً بأنّ لي في ذِمّته أمانة، وأخرج من محفظته ظرفاً بنّياً مختوماً معنوناً باسمي. جدّد الاستئذان ومضى في حال سبيله واعداً بألّا تطول غيبته، مشدّداً عليّ ألّا أتردد في الاتصال به «لأيّ غرض يلزم».

أنّني لم أتلقَّ أيّ بريد مذ أنا هنا لم يُعَجِّلْني إلى الظرف أفضّه وأستكشف محتوياته. كعادتي في مثل هذا الوقت تسقّطتُ أخبار البلاد من التّلفزة، ثمّ أعددتُ لي كوباً من الشاي وجلست إلى المكتب أتصفّح بعض المجلّات التي حملها إليّ قريني. كان الظَّرفُ، وهو آخر ما أخرجه من محفظته، قد استقرّ فوقها. تناولته وبفظاظة فتحته فإذا بداخله ظرف آخرُ صغير مُعَنْون اسمي عليه بخطٍّ كفاني مرآهُ لأنْقَلِبَ من حالٍ إلى حال، وليستحيلَ فتوري به انفعالاً أدنى ما يكون إلى المسّ منه إلى أي شيء آخر. لا حاجة بي أن أصف بأي رفقٍ وحيطةٍ وأناة وتَوَتُّرٍ عالجتُ الظرف المستطيل

Twitter: @ketab_n

الأبيض الذي عرفت أنّ بطيّه إحدى تلك البطاقات إياها الموسومة باسمك، وكم عميقاً كان النَّفَسُ الذي أخذته قبل أن تشجعتُ على قراءة الكلماتِ المعدودة التي تضمنتها.

كالعادة كانت رسالةً برقيةً مصوغةً بصيغة الغائبة، وكان كل مفادها «لم يَدَعْ لها الغباءُ سوى أن تخزِمَ أمرها وحقائبها. فَعَلَتْ. عليك بنفسك. نلتقي».

لا أعرف أيّ الشعورين سبق إلى نفسي: الاطمِئنانُ إلى أنّك بتِّ في مأمَنٍ من صُدَفِ الموتِ اليوميِّ التي تُفَرِّج بها الحياةُ عن ضيق هذه البلاد بأهلها، أم بـ«الخذلان». لكنّني أُقِرُّ بأنّ الثاني غلب على تفكيري واستبدّ بي. وإذا الشُّعورُ بالاطمئنانِ تحصيل حاصل فذاك بـ«الخذلان» مُفْتَقِدٌ إلى ما يُبَرِّرُه أصلاً، لا سيما، وأنّكِ حيثُ أنتِ، وأنا حيثُ أنا، لَيسَ لأحَدٍ أن يَمُدَّ إلى صاحبه يداً، فكيف يَدَ عونٍ ... يومها كان بيني وبين هذا المنطِقِ السليم بُعْدُ المشرقين، فلا تَعجبي من مبالغتي ومن وصفي ذلك الشعور لبرهة بـ«الخذلان» فهل أنا أولاً وآخراً، رغم مشيختي، إلّا رجلٌ عَلِقَ امرأةً ويَعِزُّ عليه أن تغادره، ولو مضطرةً، إلى حياة أُخرى ولربما إلى رجلٍ آخر؟

Twitter: @ketab_n

لو كنتُ زيرَ نساء وكنتِ امرأةً في حريمي لاكتفيتُ بالأسَفِ، وعَلَّلْتُ النفس بأن «سلام عليها ما أحبّت سلامنا»، ولكن لا يغيبنّ عن بالِكِ أنّك امرأتي الوحيدة، ومَعْقدُ كل الآمال التي لم أجرؤ يوماً على ترتيب أسماء لها. كيف لم يخطر لي مع متابعتي اليوميّة نشراتِ الأخبار التي كان في عداد ما تورده بين الحين والآخر تكذيب من هنا أو هناك لأعداد المغادرين، ـ كيف لم يخطر لي أنّك قد تكونين منهم بل كيف لم يخطر لي أنّ اتفاقاتِ الحياة قد تكون يسّرت لكِ أن تلتقي برَجُلٍ آخَرَ سوايَ راقَ لكِ ورُقْتِ له؟

بلا مقدّماتٍ، اللّهم غفلتي، هَجَمَت عليَّ هذه الأفكار والتساؤلات لا مُنَضَّدَةً متسلسلةً على نحو ما أوردها ولكن كالرؤيا تَهولُ مَنْ يراها ويَفْظَعُ بها.

بعد استلامي رسالتك تلك تخبرينني فيها عن هجرتك إلى اليوم الذي عَقَدْتُ فيه النّية على الأخذ بتسجيل هذه الاستطرادات لم يكن شيء على الإطلاق، وكان كل شيء: أمّا الأول فلأنّني، فضلاً عن انقطاعي عن العالمين، انقطعتُ عن أخبارهم التي كنت أتابعها بقراءة الجرائد

Twitter: @ketab_n

والاستماع إلى نشراتِ الأخبار، وظننتني بإعراضي هذا أتفرّغ لهمّي، ولم أدرِ أنّني إنّما أخْلَعُني من الوقت، ولم أقدّر خطورة اعتكافي إلّا عندما حاولت الالتحاق بالوقتِ مجدداً. وأمّا الثاني فلأنّني في غضون هذه الأسابيع التي قَضَيتُ مُعْظَمها لا آتي شيئاً في الظاهر، مدّعياً التوعّك أحياناً، حيلتي المفضّلة لقمع فضول من حولي، دُرْتُ على نفسي مرّاتٍ واستعرضتُ حياتي من أوّلها إلى آخرها مرات، طرداً وعكساً، طولاً وعرضاً، جملةً وبالتفصيل. من أيِّ الجهاتِ طرقتها وعلى أي حرف قرأتها كانت حياتي تبدو لي خطأً كبيراً. أمّا أنه خطأٌ مُبْرَمٌ لا عودةَ عنه ولا رجوع، أو خطأ قابل للتصحيح، فذلك ما لم أتوصّل إلى الفصل فيه، ومن ثمّ ترجّحي المُتّصِل بين الأمل واليأس وعلوّ الهِمّة وسقوطها.

كُنْتُ أحياناً أقوم من بين الأموات وآخُذُ بأسباب الحياة المتوفرة لي في هذا المكان، فأعِدُّ لي كوباً من الشاي وأنصرفُ إلى الجرائِدِ أطالعها وإلى نشرات الأخبار أتابعها محاولاً استدراك ما فاتني من «تطوراتٍ» و«أحداث» بما في ذلك كم من سيّارة مفخخة انفجرت وأين، وكم من

Twitter: @ketab_n

قتيل أوقعت، وكم من عبوةٍ أُبطلت قبل انفجارها، وغير ذلك من شؤون الحياة الدنيا. وكنت أحياناً أخرى أموتُ فأجدني في فراشي معتصماً بـ«بِمَ التعلل...» وبأنّه لا أمَلَ ولا جدوى، وعبثٌ سعيي، ومُحال أن يطلع الصباح على معجزة تخرجني من هنا طالما أنَّ حياتي، في أحسنِ الأحوال، باستثناء خروجك منها، لن تكون إلّا نسخةً طبق الأصل عن أشياء سَبَقَ لي أن عشْتُها. أعْرِفُ، لمرّة أعْرِفُ يا لسعادتي، أنّ ما كان من وقع رسالتك عليّ قد يبدو لأيّ أحَدٍ، بِمَنْ في ذلك أنتِ، مُبالَغاً فيه، أو شيئاً من قبيل تَطَفُّل الغيب في شؤون البشر. إلّا أنّه لا غَيْبَ ولا تَطَفُّل ولا من يحزنون. أعودُ إلى حديث الغريزة: أليس من صفاتها أنها عمياء؟ يومذاك فقط أدركت لماذا، وأدركت أنّ العمى صِفَتُها الحُسْنى، وأنّها متى أبصرتْ أخذت على يد صاحبها وقصّرت خطاه وثنته عن عزمه. فمتى أبصرتْ تَدَبّرتْ وجمعتْ وطرحتْ وقدّرتْ وعمِلتْ عمل العقل وقدّمت الرأي على الشجاعة، والرأي، كما تعلمين، قلّما أعاد قارظيّاً ليسقي ورودَ شرفته! أوّلَ ما أيقظت رسالتُكِ القليلةُ الكلماتِ غريزةَ الحياةِ منّي تبيّنْتُ أنَّ هذا الذي

Twitter: @ketab_n

بيننا، ولو موثقاً باليوم والساعة في سجلّات أولئك الأغبياء، أثرٌ بعد عينٍ طالما أن ليس مني أو منك ما يشهد عليه؛ وهل لنا ما نُشهده على ما بيننا، أو يُشهده الواحد منا ويحمله في حلّه وترحاله، سوى ذكرياتٍ آيلة للنسيان إن لم تُدوّن؟

جدرانُ بَيْتِكِ إن حَكَتْ ورَوَتْ عنّا لَحَدَّثت بأنّها سَمِعَتْنا نقرأ أشعاراً ونتذاكر فيها، وسمعتنا نخوض في شؤون البلاد والعباد وأحياناً شؤون مسجدي... أمّا عنّا، عمّا كان بيننا، فأجزم أن ليس عندها، لا حتّى جُدرانُ مخدعك، ما ترويه. ثرثارَيْن كُنّا، أمّا قصّتنا فصامتة. لا أستهجن أنّنا لم نتَسارّ يوماً ولا تَغازلنا ولكنْ لا أصدّق، أو أكاد، أنّ أحداً منا لم ينبّه صاحبه إذ كان كل ذلك ينعقد أنّ في الغد، لربّما، أمراً... أمراً ليس في الحسبان... وإن أعذرْ لك ذلك بحجّة أنّ عِلْمَك بما يجري لا يعدو ما تتناقله الصحف وسواها من وسائل الإعلام فكيف أغفر لي وأنا أرى الخَطَرَ، رأيَ العين، يقترب مني شيئاً فشيئاً ويُحيق بي ويَقْطَعُ عليّ السُّبُلَ الواحد تلو الآخر، ـ كيف أغفِر لي أنْ لم أُشْعِرْكِ، ولو تلميحاً، بأنَّ غداً لربما، أو على الأرجح، يومٌ جديد. بل ما كان ضَرَّ لو طالعتك

Twitter: @ketab_n

بمخاوفي وأفضيتُ إليكِ بأنّ أمامي أحد اثنين لا ثالث لهما: أنْ أكابِرَ على بيّنة من أنَّ الحكم عليّ بالموتِ الذي لم تلبث أن وثّقته فتوى شرعية لا مراجعة له، أو أن أوكِلَ سَلامتي إلى من لا أثِقُ بحرصه عليها عارفاً أنّني أمحو بذلك من صحيفة أعمالي كلّ «المواقف الشجاعة» التي وقفتها خلال الأشهر الأخيرة من «حياتي المهنية»، ومن أنّني لن أُحاسَبَ من بعدُ، في عيون الأصدقاء والأعداء سواء بسواء، إلّا على اختياريَ السلامةَ ورضائي من الغنيمة بالإياب!

ما كان ضَرَّ لو طالعتك بذلك جميعاً وبأنّني، كُرمى ما بيننا، وطَمَعاً بأنْ نَستأنفه، لا أعرف كيف وأين ومتى، أميلُ، لا رغبةً في البقاء على قَيْد الحياة كيفما اتفق فقط، إلى ثاني الخيارين وأنّني أريدك شريكةً لي فيه، وأن تَنْتَظريني... ولكن هل كان بوسعي أن أفْعَل؟ ألم أطلبْ عندكِ دوماً ما لا أطلبه عند نفسي ووجدت؟ فيمَ الدهشةُ إذاً من اتهامي إيّاك بخِذلاني عوض اتهام نفسي بالتقصير، بل بخِذلانك؟

لا أدري كيف خطرت لي، وأنا في تلك اللُّجة، هذه

Twitter: @ketab_n

الفكرة الشيطانية، أن آخُذَ لكِ بثأرِكِ منّي ومن عِيّي وثقَلِ لساني وبطئه وكلالته، مُتَوَسِّلاً إلى ذلك بتسجيل هذه اليوميّات، شهادةً ولربما وَصِيّة. هكذا كانت البدايةُ لا أكثر ولا أقلّ ولا خُطَّةَ واضحةَ المعالم بل خبط عشواء، ولكن شيئاً فشيئاً اتَّضح لي أنّ «الكتابة»، ولو تسجيلاً ليوميّات، ليست أن أتخذَني وسيطاً بين أمورٍ أعرفها ووقائع عشتها وبين «الكتابة»، ولكن أن أترقّى بالحيوان الأعجم مني، كرهاً وقهراً رغم أنفه وسواه من معاطسه، في مدارج النّطق. أمّا أنّ هذا الحيوانَ كان عصيّاً شموساً أصمّ، وأنّ تليين مقادته كان ضرباً من تعذيب النفس فلا حاجة إلى الذكر أو الإشارة وكذلك أنّ النّطق مني، شئتُ أم أبيت، عادة مكتسبة لا طبع راكز ومن ثَمّ يتّفق له، بدوره، أن يخذِلني، كما تُعاوِدُ التأتأةُ صاحِبَها، بمناسبةٍ أحياناً وبغير مناسبةٍ مفهومةٍ أحياناً أخرى. هل رُضْتُ حيواني على النُّطْقِ حقّاً أم رُضْتُه على بابٍ من أبوابِهِ فقط هو «الكتابة»؟ هذا أيضاً ممّا لا أقطع فيه، بل أنا في شكٍّ من أنّني أجسر على الاستماعِ إليّ أقولُ بصوتٍ ولو هامِسٍ ما يَجْري به قلمي حبراً على ورق.

Twitter: @ketab_n

مسألةٌ أخرى لستُ منها على يقين منذ أصبح تسجيل هذه اليوميّاتِ ومستطرداتها شغليَ الشاغل: هل إنَّ روايةَ حياتي ما يُحَلّي ليَ الكتابة والانصراف إليها، أم هي الكتابةُ بنفسها، وبما تُقَلِّدني إياه من سلطانٍ على حياتي وروايتها ما يغريني ويُشَوِّقني إلى الاستزادة منهما؟

زيدي على ذلك: الكتابة، كما خبرتها، أن أحيا بسرعةٍ ما - سرعة مهما بطؤت أو بدت بطيئة في جنب الوقت الذي يجري هناك، ما وراءَ أسوار هذه القرية؛ بل الأرجح أنّها بطيئة في جنب أيّ وقتٍ قيست به. ولكن دَعْكِ من هذا القياس الذي لا يُقَرِّب ولا يؤخّر، وخُذي بالأولى في تأمُّل الهَلَع الذي تولّاني قبل اكتشافي «الكتابة» حيث كنت أشهدني، اليومَ تلو اليومِ، أتناقص وأتضاءل. أليس تناقصاً وتضاؤلاً أن تطّرد وتيرة النهاراتِ بلياليها يقضيها رجل، بين الصحو والمنام، على فراشه الضيق، حابساً أنفاسه، محاذراً أن يأتي حركةً، شأنه شأن من أطبق عليه مطاردوه الحصار، وعاد لا يرجو فراراً من قبضتهم إلّا بأن يتظاهر أنّه ليس؟ مِن هذا الموت كنتُ أحاول القيامة. أقومُ، وأضعَفُ الحياةِ كُلّما قمت أن أُسارع

Twitter: @ketab_n

موتـيَ الـمقبلَ إلى دليلٍ أستوثـقُ بِهِ أنّ حياتي ليست موتاً كلّها!

أوّل أمري بهذه اليوميّات لم أحرِص على تسجيل تاريخ اليوم الذي أكتب فيه، ولـمّا كُنْتُ أوْهَنَ من أن أستجمعني كلّ يومٍ، وأن أكتب، ابتدعتُ لي بدعةً تَوَسَّمْتُ فيها رادعاً لي عن مطاوعة موتـيَ السريريِّ: أخذتُ أُسَجِّلُ اسم اليوم وتاريخه، وحتى في الأيام التي لم أكتب فيها سَجّلتُ هاتين المعلومتين وخلّيْتُ تحتهما عدداً معلوماً من الأسطر البيضاء.

بداية، إذ كانت هذه الفراغات لم تحتلَّ بعدُ سوى بضع صفحات من دفتري السميك، كان مرآها يُغيظني ولكن ليس إلى حَدّ إثارة حنقي وإلى تأليبي على نفسي. ولحسن الحظّ أنّ غيظي، المكتومَ طبعاً، لم يُغْرني بالتخلّي عن هذا الذي وظفتُني عليه. أو هو العكس لربما: القليل الذي كنتُ أكتبه والكثير الذي كان بودّي أن أكتبه أمسكاني عن الغش وعن مغالطة نفسي. بل لو كان غضبي عن عجز كاملٍ عن النطق كتابةً، لما كان لي في مكافحة تلك الفراغات رجاء، أما أنّه لم يكن كذلك فلقد تحوّل، شيئاً فشيئاً، وَخزَ ضمير ومؤاخذة مُجْديين.

Twitter: @ketab_n

هذا، غيرَ أنّ مرض الموت الذي أزعم أنّ الكتابة شفتني منه لم يغادرني وأُغادره كأن لم يكن ودونما آثارٍ تُذكّرني به وتُؤرّخ له، فصبراً مولاتي ورفقاً، وبعضاً من التّصديق أيضاً. دعيني أنتهز ما بي بَعْدُ من أثر موتي ذاك لأعترفَ لي ولكِ أنّني، مَهْما مَدَحْتُ «الكتابة» وتَشَوَّقْتُ إليها، يُصيبني أحياناً ألّا أكتب وإنّما أن أكتب لكِ، وشتّانَ ما بين الكتابتين، وأنْ أكتبَ لكِ، هو أن أجدني، ولو لاجئاً وعلى قلقٍ وخطر، بعيداً عنك. ألا بُدّ من كُلِّ هذا البُعْدِ لتستقيم كتابةٌ؟ كأنّه نعم. أو كأنَّ ما عندي لكِ من قولٍ ينقى مقدارَ ما ينأى بيننا ما لا يبلغه الصّوتُ الحيّ. ليتك تعرفين كم من مرّةٍ وثالثنا أحمدك، أو متعانقين لا ثالث بيننا ألبتة سوى التصاقنا أحدنا بالآخر، جزعتُ إذ هجس في صدري أنّكِ على وشك أن تُسِرّي لي بذات نفسك فافتعلتُ، أنا، ما عطّل علينا لغة الكلام التي لا تستقيم مَعِيّةٌ بدونها. أقولُ أنا ولا أستعيذُ، فأنا ليس أنا، ليس «الرَّجُلَ» الحييّ، المرتبك فطرةً ونشأة، الذي اصطفيتِه ذاتَ حينٍ على سواه من معارفك من الرجالِ، وآويتِه واتخذتِه صاحباً وخدناً، ولم تضنّي عليه بصبرك

Twitter: @ketab_n

فشجّعه اصطفاؤك إيّاه على الخروجِ من الخلاء الذي كان له بيتاً إلى الملأ الرَّحب. أنا يا مولاتي تلك البقايا منّي قبلك، وأحياناً قبلي، ـ تلك البقايا التي امتنعت عليكِ وعليَّ، فحالت بيننا أيّام تدانينا وها هي حتى الآن، وبعد كل ما كان وعلى الرغم منه، تَنْهَضُ من سباتها أحياناً، وتحولُ بيني وبيني. أوَتريدينني أن أُقذع أكثر في إهانةِ نفسي فأقول مثلاً إنّ الحيوان الناطق حصّتك منّي، والأعجم حصّتي؟ أم هل جاءَكِ الآنَ ما عنيته بما تقدّم من حديثي عن السُّرعةِ التي أنشد أن أحيا على وتيرتها، مهما تباطأت هذه الوتيرة هنا بلحاظِ سرعة الحياةِ هناك، وفي سائر المواضع والمواقف، ما عَرَفْتُ منها بنفسي وما وَقَفَ عِلْمي بها عند التخمين. ليته يكون فتغفري لي قعودي عن محاولة الكتابة إليكِ بسرعة الصوتِ الحيِّ، راضياً بالكتابة إليك بسرعة الكتابةِ، أي ببطء.

•

إذاً، لا قِسطَ للعُلى أؤدّيه ولكن لكِ: كلّ كلمةٍ، كلّ جملةٍ أفلحُ في انتزاعها منّي وأودعها هذه الأوراق بعضُ هذا القِسْط، أقلُّهُ لأنّ الكتابة إليكِ عندي لا رجعةَ عنها: لا

Twitter: @ketab_n

رجعةَ (لي) من حيثُ تُؤدّي بي، ولأنّه كذلك فحقّي، الّذي عدتُ لا أملك سواه أن أضطرب وأتردّد عن المضيّ قدماً.

لا يُذهِشْك أن أجعل الكتابة إليكِ في هذه المرتبة، مرتبة الحياةِ، ولا يُريبنّك ذلك. حَسْبُكِ أن تتذكّري ما كان بيننا، كيف تسلسل وكيف انعقد، لِتَرَيْ بوضوحٍ ما بَعْدَه وضوحٌ، أيَّ تواردٍ ما بين الاثنين وأيَّ تناسب. ما هَمَّ أن كانت مَشْيَخَتي الحائرة وشيخوختي المبكرة وراء تلعثمك وتلعثمي، فكذلك كان ما كان بيننا لا رادَّ له ولا مراجعة، وهكذا يَسَعني اليومَ أن أكتب.

أُحصي ذكرياتي: من دخولي بيتك أوّل مرّة زائراً لم يَدَعْ حيطةً إلّا واَحتاطها، حَذَرَ أن يُسيء التّصرف، إلى حين صار فراشُك الوثيرُ فراشنا، وصار لكلٍّ واحدٍ جهةٌ منهُ على المِنْضَدَةِ الّتي بجوارها أغراضه ومطالعاته. وإنْ أنسَ لا أنسَ تلك الليلة التي فتحتُ فيها باب بيتك بالمفتاح الّذي ائتمنتني عليه، ـ لا أنسَ ما حَرَصْتُه خشية إيقاظك، مِن رفق في إغلاقِ الباب وفي خلع نعليّ، وفي التسلُّل على رؤوس أصابعي إلى مخدعنا، ولا أنس، وقد نبّهك بَغضَ

Twitter: @ketab_n

التنبيه أخْذِي جهتي من فراشنا، سؤالَك إيّاي: «هل مضى على عودتك وقتٌ طويل؟».

أحصي ذكرياتي: من دخولي بيتك أوّل مرّةٍ زائراً، إلى خروجي منه آخر مرّة عشية انتقالي إلى حجرة الدم هذه، وقد صارَ معادي لا مزاري، فلا يحضرني ٱستثناء لما أرى من توارد بين ما عَبَرَتْ به حياتنا القصيرة من نقلاتٍ، وبين عبوريَ اليومَ، وحيداً، مضائق الكتابةِ إليك. تذكّري أوّل رحلةٍ لنا بسيّارتك من عندِك إلى مسجدي: لَيسَ ذلك اليوم ولكن روايتي وقائِعَ تلك الليلةِ: مضى على ذلك موتي الذي لا أعرف كم دام، وقيامتي وأخذي نفسي على عاتقي من جديدٍ، وإقراريَ الصريح بأنّني أروي لنفسي، ولكن أكتب لكِ وما إلى ذلكَ ممّا آمُلُ ألّا يُزَهِّدَكِ تلعثمي عن المضي في قراءته: مضى كلّ ذلك وما زلتُ هناك، قرب الباب الحديد ذي القفل الصدىء، أنتظر أن تنطلقي بسيّارتك لأعود أدراجي، تحت جنح الظلام، إلى المدخل الآخرِ والوحيدِ ألجُ منه إلى عندي، بيت العنكبوت المُعَشّش في بيت ٱللّه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٤

راتبيَ الغثُّ الذي لا تقوم قدرته الشرائية لتكاليف الحياة في بلدنا فكيف في بلدكم، والذي يصلني، لحكمة لا أعرفها، منتصفَ كل شهر، (شمسيٌّ بالطبع)، على حسابٍ في مصرفٍ ربويٍّ(١) أشطره شَطرين: واحداً أتكفّف به، والآخرَ أُعيده إلى بلد المنشأ ليُستعان به في طِبابة الوالد الذي يفتِك به مرض عضال.

منذ أشهر، تُفيدني الرسالة المقتضبة التي يُشعرني بها أخي بحسن وصول حوالتي إلى طرفه عن تدهور مطّرد في صحّة الوالد.

لم يستفض أخي يوماً في بيان هذا التدهور أو ما يبذله الطبّ للجمه، غير أن رجوعَ العبارة إيّاها، رسالةً بعد رسالة، لم يدع لي إلّا أن أستنتج بأنّ الأسوأ قد شارف على الوقوع، وبأن ساعيَ البريد لن يتأخر في أن يحمل إليّ البرقية التي

Twitter: @ketab_n

سوف يُستشار عند تحبيرها الراسخون في أدب الوفيات والتي سوف يجتمع أمرهم على أن يأتي نصّها شيئاً من مثل «حالة الوالد تبعث على القلق الشديد. الرجاء الحضور على جناح السرعة...».

والحال أنّ ساعيَ البريد المزوّدَ بالخبر السيىء لم يتأخر في تأديته إليّ ذاتَ صباح، لم تنذر بانفراده عن سائر الصباحاتِ أشراطٌ أو علائم.

كما توقعت لم تُصَرّحِ البرقية بأنّ الوفاة حصلت وبأنّ الأمرَ قد قُضي. ولكنّ دعوتي، حرفيّاً، إلى «الحضور على جناح السرعة» كانت كافية لأتيقن من ذلك.

للوهلةِ الأولى بدا ليَ الخبر داهماً أكثر منه مُحزناً، فجناحُ السُّرعة الذي يُرَغِبُ إليَّ أن أحضر على متنه ليس بالمركب السهل، لا سيّما لامرىء مثلي يؤثر الإقامة ولم يُسافر في حياته إلّا لضرورة. تذكرة السفر، فالاتفاق مع أصحاب الدعوة إلى المحاضرة على إرجاء موعدها، فالاتصال بكِ وإعلامك بتغيبي لنحو أسبوع، فالاجتماع بالإخوان في المَسجد إلخ... عموماً وكما في مرّات سابقة، سارت الأمور بيُسْر وبساطة لا مناسبة بينهما وبين ارتباك

Twitter: @ketab_n

الوهلة الأولى، ووجدتني مساء اليوم نفسه أستقلّ الطائرة وأيـمِّـم عـائـداً، لأوّل مـرّة مـنـذ عـامـين، إلى بَـلَـدٍ غـادرتـه بالصّدفة، كما اتفق لي يوماً أن ولدت فيه بالصّدفة.

طيلةَ نهاري كان موتُ أبي خبراً أبني على مُقتضاه، وأكاد أَغْفَل كلّ الغفلةِ عن جلاله. ولجلاله، رغم أنّ أبي رجلٌ متواضِعٌ أقلُّ من أن يُذكر بخير أو سوء، سببٌ واحدٌ على الأقل، هو أنّ الموت حَدَثٌ فذّ فريدٌ لا يلحقُ بالمرء سوى مرّةٍ واحدة!

في الطائرة المخترقة الأجواءَ والظلامَ، وكانت أوّل خَلوة لي بنفسي منذ الصباح، بدأتُ أشمُّ رائحةَ الموتِ المنبعث من «وفاة الوالد»، وهي العبارة التي صَرَّفتها بشتّى الصيغ عشرات المرات هذا اليوم. بعد قليلٍ تحطّ بي الطائرة فَيتَلقّفني الأهل ويُؤذِن وصولي باشتعال منافسة في ما بينهم على سرد وقائع الساعاتِ الأخيرة بالتفصيل المُمِلّ والدقيقة والثانية. سيكون ذلك ولكنّ أحداً منهم لن يدور له في خَلَدٍ أنّ أبي، الآن مات، لا ساعةَ لَفَظَ أنفاسه الأخيرة، ولا ساعةَ تلقيت الرسالة البرقية. والآن، في هذا الوعاء الطّائر، على ارتفاع آلاف الأقدام، أتبيّن بنفسي، مرّة

Twitter: @ketab_n

جديدة، دون كبير عناء، ولكن كأنّما لأوّل مرّة، أنَّ «الموت، كل مَوْتٍ، ضربٌ من القتل»(*) ويَخضرني بيتا المعرّي - أشجعُ بيتين خاطب بهما بَشَرٌ اللّه في مسألة الموت(**) حتى قيل في صاحبهما «مجنونٌ معتوه» - ولا أجِدُ لي من ثأرٍ أو عزاء سوى أن أذهَبَ إلى أبعد من ذلك فأرى الموت ليس أيَّ ضرب من القتل على يدي مَلَكَيْن مرسلين ولكن أشنع القتل طرّاً. وهل أشنع من قتلٍ يتقدم عليه عذابُ «القتيل» ويليه التمثيل به؟ وإلّا فكيف أُفسِّر عجزيَ الكامل عن استحضار صورة جامعةٍ أرى فيها أبي؟ وكيف أُفسّر أنّ كلّ ما أعود به من تَجوالي في مختَلِف أقاليم الذاكرة لا يَغدو الأشلاء - أشلاء رَجُلٍ كان أبي؟

(*) إذا ما تأمّلْتَ الزمانَ وصَرْفَه تيقَّنْتَ أنّ الموتَ ضربٌ من القَتْلِ
المتنبّي

(**) «ونهيتَ عن قَتْلِ النّفوسِ تَعَمُّداً وَبَعَثْتَ أنتَ لِقَتْلِها مَلَكَيْنِ
وزَعَمْتَ أنّ لنا معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالينِ

وهذا كلامُ مجنونٍ معتوه يعتقد أنّ القتل كالموتِ والموت كالقتل...».

ياقوت، معجم الأدباء، «أحمد بن عبد الله بن سليمان» (أبو العلاء المعري)، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، دون تاريخ، ج ٣، ص ١٧٤.

Twitter: @ketab_n

لا أدري من أين يستمد المرء في بعض المواقف، ومنها الموت، القوّة الجسديّة على الصمود سهراً وثبات جَنان وطول أناة. لحسن الحظّ أنّه كذلك وأنّ الجسد يُحْسِنُ، كُلما دعتِ الحاجةُ، تدبير شؤونه في معزل عن صاحبه. تلك الليلةَ كانت الحاجة تدعو!

إنسي يا سيدتي المناسبة الكئيبة التي جئت لأجلها وأنّه ليلٌ دامِسٌ وأنّنا، إخوتي الثلاثة وقريبَيْنِ وأنا، بصعوبة تَتّسعُ لنا السيّارة الصغيرة التي تُقِلُّنا إلى القرية، وبصعوبة تتقدَّم لاهثة في طرقاتٍ تزداد وعورة بمقدار ما نقتربُ من غايتنا، وأنّني في وجوميَ الصادق أجاهد تَشَتُّت أفكاري لأؤلّف فكرةً تقريبيةً عن المشهد الذي أنا مُقبِلٌ على الالتحاقِ به، والمفترَضُ بي أصيلاً فيه رغم غيابي عنه منذ سنوات، فلا أرتكب زلّة أو حماقة. أقول: إنسي كلّ ذلك وخذي فقط في أنّها أوّل مرّة أنتقل فيها مثل هذه النَّقلة الشّاسعة والسّريعة في آن، ولو أنّها «عودة» إلى مكانٍ يُريد السّائدُ المُتعارفُ عليه أن أُكِنَّ له من العاطفة ما يُحنِّنُني إليه. هل تُصدّقين أنَّ هجرتي إلى بلدكم كانت أهونَ عليَّ من عودتي هذه؟ هجرتي تَدَرَّجَتْ في المكان

Twitter: @ketab_n

والزمان، واقتضتني الرِّحلةُ من قريتي إلى ضاحية عاصمتكم نحواً من خمسةٍ وثلاثين عاماً عرّجت في أثنائها على مدنٍ وأشباه مدن، أمّا عودتي، ولو قصيرةً ومؤقّتَّةً، فأقل ما يُقال فيها أنّها لا تُراعي أدنى شروط السلامة. من يُخرجُ غطّاساً من قاعٍ سحيقٍ إلى سطح الماء دفعةً واحدة؟ كان عزائيَ الوحيدَ عن هذه المشقة، في ما منّيتُ به النّفس وكان، أنّها المرّة الأخيرة التي أعودُ فيها. فبعد أمّيَ التي توفيت عشيّة هجرتي، هذا أجَلُ أبي قد انقضى، ومع انقضائه تنفك العروة الأخيرة التي تربط بيني وبين هذا العالم.

في أوّل لقاءٍ لنا بعدَ رجوعي من عودتي هذه إلى عَمَلي (وإليكِ) أدهشك في مَعْرِضِ استفسارك عن تفاصيل رحلتي (وكانت أوّل مرّة نأتي فيها على أمور عائلية)، ـ أدهشك أن تتبيّني كم واهية صِلةُ الرحِم بيني وبين إخوتي وأخواتي، وأنّنا لا نتكاتب إلّا في المناسبات، وأنّني أُخَمِّن عدد أولاد كلٍّ منهم ومنهن تخميناً ولا أجزِم، إلخ. بالطبع كان يُمكنني أن أحافظ على صِلاتٍ عائلية أوثق، وأن أستمرّ في سُكْنى القرية ولو دون الإقامة

Twitter: @ketab_n

فيها وفي الانتساب إليهم ولو من بُعْدٍ، ولكنَّ الاحتمالَ الآخَرَ لم يكن أقلّ حظوظاً. ولعلّ أحَدَ مفاتيح حياتي أنّني من أوّلِ الأمرِ، أي منذ غادرت القرية والتحقتُ بالمدينة والكليّة، آثرتُ التباعد والقطيعة بمعروف. أضعفُ الإيمان ألّا أتمنى لهم سوى الأفضلِ، ولكن، أن أتمنى لهم ذلك من بعيدٍ شيءٌ، وأن لا أُطيق مثلاً الجلوس إليهم والاستماع إلى أحاديثهم والاهتمام بهمومهم شيء آخر لم أُفلح في إرغامي عليه، رغم محاولاتي المتكررة. أمَرَدُّ ذلك في آخر الأمر (في أوّله بالأحرى!) أنّني كنت الأضعف بنيةً بينهم، وأنّني بسببٍ من ذلك بدوت على الدوام طارئاً عليهم وعلى لِداتهم في ألعابهمِ العنيفة، وبعد ذلك أُعفيت للسبب نفسه من المشاركة في سدانة الأرض، مورد رزقنا، واختير لي أن أُنظَم في السلك الوحيد لربما الذي يصلح لاستقبال من سُدَّت في وَجْهه سُبُل «الحياة الطبيعية». لعلّي الأولى بين أخوتي بأن أترحَّم على أبينا وأن أستنزل له شآبيب الرحمة، فإخوتي وَرَّثهم أرضاً يطلب استدرارُ رِفدها الكثيرَ من المشقة والتعب، أمّا أنا ـ بحدسه أو عياء تدبير آخَرَ ـ فجعلني عيالاً على اللّه

Twitter: @ketab_n

والأوصياء على دينه. والحق أن لو سألتِني اليومَ هل يُرضيني ما اختاره لي أبي أم كان الآثرَ عندي أن يدعني عيالاً على إخواتي لما ترددتُ في الجواب أنّه يُرضيني وأكثر. من أين كان لي أن ألتقي بكِ لولا ذلك؟!

مع اقترابنا البطيء من مقصدنا عادَ الحديثُ الذي كان قد انصَرَف عن المناسبة التي تجمعنا إليها، فأعلمني أخي البكرُ بأنّ الجثمان قد نُقل بعد ظهر اليوم من براد مستشفى المحافظة إلى البيت حيث غُسِّل وكُفِّن، وأنّ الدفن غداً بعد صلاة الظهر؛ إلى تفاصيل أخرى عن موقع القبر ومكانه من قبر الوالدة ومن قبر العم الفلاني.

حتى مراسِمُ الموتِ، والموتُ هو الوَقْفُ بامتياز، يصح أن يُقالَ فيها: سارت على ما يُرام أو لم تسر كذلك! من سوء حظِّ أبي أنّ مراسم دفنه لم تسر على ما يرام بل كان أكثر؛ بل كان ما لا يتوقعه أحد: على غفلةٍ منه (ومني!) انقلب دفنه مُشادة عائلية يُستنصر فيها بالأدلّة الشرعية. فمن تقاليد الدفن عندنا، ولربما في أماكن أخرى، أن يؤخذ من تحت رأس الميت بعد تَدْلِيَتِهِ في القبر وتسجيته فيه بعضُ التراب ثم يُجبلَ هذا التراب بماء حتى

Twitter: @ketab_n

يصير طيناً ثُمّ يوضعَ هذا الطين من حَيْثُ أُخِذَ التراب، أي تحت رأس الميت.

لا يحتاج المرء إلى عِلمٍ كثير ليتبيَّن في هذه العادة مُحاكاةً من قبلِ البشر الأحياء، بين يدي الموت، لِفِعْلِ الخلق الأوّل كما تتمثله أساطيرهم ولِيَشُكَّ في أنّها مِنْ أحكام «الدين» في شيء ـ شأنُها في ذلك شأنُ الكثير من العادات والتقاليد.

بعد الصلاةِ على ميتنا، والفراغ من تدليته في القبر، حيث تولّى إنزالَهُ فيه أحد أشقائي، أصرّ شقيقُهُ الأوحدُ الباقي على قيد الحياة، عَمُّنا، أن يُوَسَّدَ طينةً، كما تريد العادة. غير أنّ شقيقي الذي كان ما يزال في القبر رفض ذلك بحدّة شاهراً الحجةَ الحاسمَةَ الجدالِ، القاطعةَ الرقابِ أحياناً، أنّ هذه العادة المرذولة «بدعةٌ» وكل بدعة ضلالةٌ وكل ضلالة في النار، إلخ... كُنْتُ أعرف عن شقيقي هذا ميلَهُ إلى التدين ولكنني لم اكتشف أنَّ تَدَيّنَه السّاذجَ قد استحال مع الأيام «التزاماً» إلّا على شفير قبر أبينا المفتوح بَعْدُ في انتظار أنْ تعلوَ كلمةٌ على أخرى. حسبتُني أقْدَرَ على أخي منّي على عمّي، فانحنيتُ إليه محاولاً أن أُسِرّ إليه

Twitter: @ketab_n

بما فحواه أنّ كل هذا الصياح الذي يَصيحه والذي يستدعي من العمِّ ردّاً بالمثل لا يليقُ بما نحن فيه. لم يأبه بما حاولتُ أن أقوله له بل انتهز مكاني بمتناول ذراعيه المفتولين، وجذبني إليه بقوة لو لم يتلقّني بمثلها لفقدتُ توازني ووقعت على الجثة. ثلاثةً صرنا في القبر: أبي وأخي وأنا، وكلٌّ لغاية في نفسِهِ أو في نفس سواه. كان همّي أن أُصْلِحَ بين أخي وعمي، وأن ينغلق القبرُ على ساكِنِه، وأن تَنْفَضَّ الجنازةُ بسلام، ولو أنّني كنت موقناً بعدَ ما سَمِعْتُهُ من حُجَجِ المُتصايحين، أنّه سلامُ ساعةٍ أو أقلّ. لم يبقَ لتنطبقَ المصيدةُ عليَّ سوى أن يُبادر أخي إلى ما كنت واثقاً أنّه عليه من استفتائي عن رأي الشرع في مسألة الطينة، وكان استفتاءً مُحرجاً، فالشّرع الذي أنا، هنا بين القبور، لسانُه، يوافق أخي رأيه بأنّ الطينةَ بدعةٌ؛ أمّا أنا، ابن صاحبِ الجثةِ موضوعِ النّزاع، شقيق هذا وابن أخي ذاك الذي لا يرى راحةً لِنَفسِ أخيه ما لم يُوَسَّدَ رأسُهُ تلكَ الطينةَ اللعينةَ ـ أمّا أنا فَسِيّان عندي الطينة أو عدمها. أيساً من إقناع أخي سعيتُ إلى التّملص مِنْ ذراعه للخروج من القبر ومفاوضة العمّ لعلّي أُفلِحُ في إقناعه لا بِبِدْعيّة الطينة،

Twitter: @ketab_n

ولكن بأنَّ ما يجري بينه وبين أخي مُعيب. لسوء الحظّ أنّ أحدهم، عن حسن نية على الأرجح، عاجلني بالسؤال الذي كُنْتُ أتهجّاهُ على شفتي أخي الراجفتين.

باستثناء أخي وبعض إخوانه «الملتزمين» المتعالمين، والعم وأنصاره القلائل، بدا لي أن جمهور المشيعين المتفرجين ينتظر بفارغ الصبر أن أُحَكِّم هذا النزاع العائلي الديني، وكان أصعب ما في التحكيم بين الفريقين أنّ الجمهورَ إياه لم يكن من قبيلٍ تَنْفَعُ معه الخطب وتشفي غليله بل كان جمهور ملاعب يترقب العاقبة. واقع الحال أنّه كان مُصيباً في ترقبه وكذلك أبي الذي أقدر أنّه كان في عجلة من أن يُهالَ التراب عليه ويُتركَ وشأنه ليرتاح من عناء موته البطيء.

الفضيحةُ، في عرفي على الأقل، كانت قد وقعت، وعاد لا يُرجى تدارُكها أو إطفاء نارها، فَدَعَوْتُ أخويَّ الآخرين والعمَّ بإشارة من يدي إلى الإقبال عليّ، وإذ لم يستجب هذا الأخيرُ لدعوتي اكتفيتُ بمن حضر وتوجَّهتُ إلى إخوتي بكلام حازم مفاده: «أنا أخوكم وابنُ أبيكم هذا وحقّي في الرأي صنو حقّكم ولكنّني أرفضُ المشاركة في هذه

Twitter: @ketab_n

المهزلة لا بالقول ولا بالفعل»، ووثبتُ وثبة واحدةً خارج القبر وانصرفتُ وسط استغرابِ المشيعين المتفرجين.

تلك العشية، على تلك المصطبة التي أرّختْ درجاتُها الثلاث المُفْضِيَةُ إلى الحديقة الصغيرة القائمة أمام المنزل لخروجنا إخوتي وأخواتي ثم أنا منْ طور الحَبْوِ إلى طور المشي - عشيتذاك كان آخِرَ همّي تَسَقُّطُ التعليقاتِ المتناهية من جوف البيت حيث كان إخوتي يتسامرون مع بقايا المعزّين. فلقد كنت في غير شكٍّ أنّني غداً أو بعده مغادِرٌ هذه القريةَ، مسقط رأسي، لآخِر مرّةٍ وأنّني لن أعود إليها بعد ذلك لا على قدمي بإرادتي ولا على آلةٍ حدباء محمولاً. وكأيّ أحَدٍ يُغادِرُ مَوْضعاً يُضْمِرُ اليأسَ من العودة إليه، ولو مَوْضعاً ساقت إليه الصُّدْفة، كنت مُسْتغرقاً في التملّي منه بحواسيَ الخمسِ أو هذا ما ظننتُني مستغرقاً فيه. فإلى جانب حواسي الخمس، في الحقيقة الثلاثِ العاملة إذّاك، التي كانت تُحاول أن تحصيَ كل ما تَتَوَصّل إليه من منظر أو مُسْتَرَقٍ أو شميم، أو يَتَوَصّلَ إليها من تلقائه، كان عقلي يرسم خطَطَ الساعاتِ والأيام المقبلة متأمّلاً بين الفَيْنة وأختها في ما كانَ في غضون الساعاتِ

Twitter: @ketab_n

الماضية لا مُصَدِّقاً أنّ «إسلامهم» قد أفلح في التَّسلُّل حتى إلى هنا، وأنّ التمييز بين السُّنن والبِدَع بات بعضاً من تديّن أخي الذي لا يكاد يفك الحرف.

غداً، عَقِب صلاة الفجر التي سأذهب لتأديتها في مسجد القرية والتي قد أُضطر إلى إمامتها، أزور قبر الوالد، لا سائلاً عن اعتراضاتِ أخي، ثمّ أتدبّر سيّارة تُقِلّني بعد الظهر إلى مركز المحافظة من حَيثُ تنطلق الحافلاتُ إلى العاصمة، صارفاً ما تبقّى لي من ساعات في ما بين ذلك صُحبةَ الأهلِ رغم أنّ الأحبَّ إليّ أن أقضيها وحيداً متفقداً مرابع الصِّبا هذه التي أشعر بأنّ لها عليَّ من واجب الوداع أكثر ممّا للأهل والأقرباء.

لم يَخلُ عزمي على المغادرة من مفاجأة هؤلاء الذين كانوا ينتظرون أن أبقى لأسبوع على الأقل، والذين كان البعض منهم قد شرع في مسعى مصالحة «بيننا» وبين العم الذي اعتزلَ، على إثر ما كان في الجبّانة، مجلسَـ«نا» واستقلّ يتقبّل تعازي المعزين إيّاهم في منزله الذي لا يبعُد سوى عشرات الأمتار عن منزل العائلة. أعرف أنّ تصرّفي هذا كان ينافي أبسط قواعِدِ اللياقة، وأنّ فيه من

Twitter: @ketab_n

الإهانةِ لصاحِبِ المناسبة أكثر مما فيه للأحياء ولكن لا هذا ولا أنَّ خبر مغادرتي السريعة سَيؤجّج حديث النميمة عمّا كان بين آل فلانٍ أمسكاني أو جعلاني أتردد. لربما ليصِحَّ المثل الذي يُريد ممن ينوي على هجرة مكانٍ أن يُشرِف في القبائح!

•

شوقاً إليكِ وإلى حياتي في بلدكم كانت مُسارعتي إلى العاصمة للقاء شيخي الذي أدين له بتزكيتي لمنصب إمام مسجد العمرين وخطيبه ومدرّسه، أي الذي أدين له على نحوٍ ما بلقائي بك! ولم يكن طلبي لقاءه لمجرّد التحيّة وسؤال الخاطر والتداول العابر في وقائع حالٍ لا شك في أنّه أدرى منّي بمطوياتها وتفاصيلها. كان عندي أن أستشيره باعتباره أباً وباعتباره وليَّ نعمتي في اقتراحٍ حَمَلَهُ إليَّ قبل أيّامٍ قليلةٍ ساعٍ ثقة، هو دعوةٌ إلى تقديم حِصّةٍ دينية على شاشة قناة تلفزة قيد الإنشاء.

•

على عهدي بشيخيَ الستيني الذي لا أعرفُ أمكر منه، ولا أبرع، متى ما بدا له أن يخلع ثوب الوقار، في تبطين

Twitter: @ketab_n

الجدّ بالهزل والهزل بالجدّ ـ على عهدي به طلع عليّ من حيث لا أتوقع، بكل ما تحتمل هذه العبارة من معان. فإذ كُنْتُ أنتظر وحيداً في بهوٍ صغيرٍ ملاصقٍ لمكتبه أن يوافيني أحدهم ويُدْخلَني عليه، فوجئتُ بعد نحو ربع ساعة من الانتظار ببابٍ جانبيّ يُفتح ويدلُف منه شيخي يرافقه من عَرَفْتُ لاحقاً أنّه مدير مكتبه.

لا إخاله كان عارفاً بأنّ وفاةَ أبي هي الداعيةُ لي إلى زيارة البلدِ وزيارته تالياً، وحتّى عندما طالعته في معرض الاعتذار عن إلحاحي في طلب موعد سريع بأنّ ظروف الوفاة هي التي حملتني على العودة إلى البلد، اكتفى بفاتحةٍ سريعة عن روحِهِ وأفضى بنا إلى حيث يريد، كأنّ آخر لقاءٍ بيننا لم يَمْضِ عليه نحو عامين أو أكثر. كان قد أوغل في التفاصيل حين تنبّه أنّه لم يُعرّفني بمرافقه الذي قعد عن يساره ولا عرّفه بي، فقطع حديثه لهذا الغرض، وليعتذر عن استقبالي في هذا البهو لا في مكتبه بأنّ مكتبه مسرح اجتماع فهمت من إشارة يده وإيماءته برأسه أنّه اجتماعٌ مُضجرٌ لا طائل تحته. ثم، كأنَّ شيئاً لم يكن، وكأنّه استمعَ إليّ مطولاً، عاد بلهجة الواثق إلى ما كان فيه «هذه الحربُ لا حدود لها. كل

Twitter: @ketab_n

أرضٍ نحن فيها وهُم ميدان لها، وكل أرض نَحْنُ فيها وهم لا، مرشَّحَةٌ لأن ينقلوا الحرب إليها، وكلّ أرض هم فيها ونحن لا، يجب أن نُسارع إلى نقل الحرب إليها تشتيتاً لقواهم إن لم يكن استعادة لها. حيث لستَ أدرى مني بالتفاصيل فأنت لا شك أخبرُ بالمعايشة اليومية... هل تحسبهم قطعوا الأملَ من فتح مسجدك؟ حذارِ الأوهام... في أيّة حال هذا ليس الأهم وحرب المساجدِ داحس والغبراء... قل لي: هل جرى الاتصال بك من قِبَل القائمين على محطة التلفزة الجديدة للبحث معك في إمكان مشاركتك بإعداد برنامج أو سوى ذلك؟». لم يدع لي أن أُجيبه على سؤاله بل تابع حديثه السيّال: «لقد زكّيتك لديهم وأريدك فور عودتك أن تُوليَ هذا الموضوع كل اهتمامك... الأثيرُ أرضٌ لا يَتَدَنّى الدفاعُ عَنْها أهميّة عن المحافظةِ على مساجدنا في منأىً من دعواتِهم المشبوهة أو عن الضَّربِ بيد من حديد على أيدي الذين يعيثون في الأرض فساداً تحت عناوين بينها وبين الإسلام المحمدي الأصيل بُعْدُ المشرقين والمغربين».

عند هذا تبيّن للمرّة الثانية أنّه منذ بداية لقائنا لم

Twitter: @ketab_n

يَدَعْ لي أن أدُسّ كلمة واحدة، فسألني إذ كان يسترق نظرةً إلى ساعته وإذ كان يوفد مرافقه إلى المجتمعين في مكتبه يُصَبِّرهم بضع دقائق إضافية - سألني سؤال من لا ينتظر سوى جوابٍ موجزٍ عن أحوالي فبادرته وقد أصلحت جلستي على نحو الاستعداد للنهوض بأنّه في مطالعته المسهبة قد كفّى وأوفى لأنّ غرضي من لقائه، عدا القيام بالواجب، كان استفساره عن مسألة الظهور على شاشة قناة التلفزة تلك لا سيّما - وكررتُ أداة الاستثناء هذه مرّتين - لا سيّما أنّني في حكم الموظّف الحكومي وأنّ هذه القناة، الخاصّة في المبدأ، تبثّ من بَلَدٍ آخر. لم أكن أنتظر منه جواباً مستفيضاً، ولكنَّ تعقيبي حرّك انفعالاته فاندفع في مطالعةٍ ثانية لا تختلف عن الأولى إلّا في توكيدها على أنَّ تكليفنا الشرعي، يقصِد نحن رجال هذا السلك، لا يُقيم وزناً للحدود الجغرافية.

القرع الخفيفُ على الباب الجانبي فإطلالُ الشاب مدير المكتب برأسه أوقفا اندفاع شيخي فسارع إلى الوقوف وإلى عِمامته الكبيرة التي كان قد تخفّف منها يتوّج بها صلعته. ولم أُضِعْ عليه وقته الثمين فاستأذنتُ مستبقاً

Twitter: @ketab_n

دعوته المعهودة إياي إلى «البقاء على اتصال» وتعريفه بجديد أحوالي بالاعتذار عن انقطاع أخباري طيلة الفترة السابقة، مبرراً ذلك بثقتي بهداهد سليمان وحسن قيامها بواجباتها. أمّا هو فردّ التحيّة بأحسنَ منها هامساً إليّ، بين الجد والضحك، إذ كان يُشَيّعني إلى الباب رغم إلحاحي عليه ألّا يفعل: «هذه، يا صديقي، أمّةٌ حدودُ اللّه لم تَتَمَكَّن منها، فلا عليكَ من تجاوزِ الحدود إن كان في ذلك صلاحُها...».

Twitter: @ketab_n

١٥

لم أكن في حاجةٍ إلى ثلاثة أرباع الساعة التي قضيتها صُحبة شيخي في البهو الصغير المُلاصِق مكتَبَه لأتعرفني فقيهاً من فقهاء السلطان بكلّ معنى الكلمة، لا بالبعض منه الذي تقفُ الشتيمة عنده ولا تتجاوزه. فالمُعَيِّرون المرء بأنّه من فُقهاء السلطان لا يرون في السُّلطان إلّا شخصاً مادياً أو معنوياً ذا قوّة وبأس يَضُرُّ بهما وينفع. لهذا تحديداً لم يحدث في يومٍ من الأيّام أن ساءني إدراجي في عداد فقهاء السلطان أو أخَذَ من عضدي، وليس ذلك لاطمئناني إلى كفّي ونظافتها، بل لأنّ السُّلطان الذي اخترتُ طائعاً أن أوظّفَ مشيختي وعلمي الشرعيَ لخدمته لم يكن شخصاً مادياً أو معنوياً، وإنّما «مرفقاً» يبدو لي أنّه الأقْدَرُ على عِمارة الأرض وجَلب مصالح العباد. أمّا أنّ هذا «المرفق» غيرُ معصومٍ وأنّ الفسادَ

Twitter: @ketab_n

يستشري في الكثير من حناياه وأنّ العديد من المتبوئين سُدَدَه العالية لصوص قتلة - كل هذه الأمور ما كنتُ لأجهلها ولكن بين هذه الدولة الغاوية على عيوبها وعلّاتها، وبين الدولة الراشدة الواعدة بأن تملأ الأرض عدلاً وقسطاً التي ينشدون قيامها، كان خياري مبرماً لا يقبل الانثناء عنه. بل لم يكن خياراً وإنّما تسليمٌ بضرورة عقلية، تتضافَرُ الأدلة من التاريخ عليها، مفادها، ببساطةٍ(؟!)، أن لا سبيلَ إلى الجمع بين الدولة وبين الإسلام إلّا بالانتقاص من أحدهما أو بترجيح أحدهما على الأخر. وإذ يُشاد بـ«الأسلمة» كلما حمّتِ الحاجة إلى الاستقواء بالإسلام ترميماً لشرعية سياسية متداعية على أنّها بعث لعصر ذهبيّ، فما يُشبه الإجماع على السكوت والكتمان هو ما يسود كلما انتُقص من الإسلام ولو تصوّرَ هذا الانتقاص بصورة حيلة شرعية! وبين الانتقاص من الدولة أو من الإسلام كان المُقَدَّمَ عَندي الانتقاصُ، برفق وهوادة، من الإسلام على الانتقاص من الدولة!

هل كنتُ بِدعاً بين زملائي؟ بالطَّبع لا ... غير أنَّ أحَدَ التزاماتِ «الشيخ» الأجير، لدى دولة «عصرية» ليس

Twitter: @ketab_n

لها من الإسلام سوى القدر الذي يمليه عليها أنّه دينُ مواطنيها، وعلى نحوٍ ما ثقافتهم التي لا مُبَدِّل لها بقانون يُصادِق عليه مجلس شعب أو مرسومٌ جمهوري، ـ أحد التزاماتِ الشيخ الأجير هذا أمام ربّ عمله، أي هذه الدولة، ألّا يجهر بولائه لها من حيث هي «عصرية»...

على الشيخ الأجير، ليؤديَ الأدوار المطلوبة منه، أن يبقى متخلفاً عن دعوى الدولة التي لا تعدو اللحاق بركب العصر حتى في دفاعه عنها. شخصياً كان الأمرُ أيسر عليَّ بكثير من بعض الزملاء الذين كانت تنتابهم أحياناً أزمات ولاء أشبه بأزمات المراهَقَة، فلا يجدون لهم منها مخرجاً إلّا في رأيٍ شرعي يبرِّر خدمة السُّلطان الجائر، باعتبارها أقل المفسدتين، أو في سابقة تاريخية أو ما شابه. أقول كان الأمرُ أيسر عليَّ لأنّني، ولا فَضْلَ لي في ذلك، لا أذكر أنّني عانيتُ يوماً من أزمة ولاء سببها «العلم» الذي أحمِلُهُ ومُقْتضى العمل به. كيف؟ لماذا؟ لن أُكبّدك ما أحْكَمْتُ برسم العلن والعوام من نظرية في التوفيق بين مرضاةِ الله وخدمة السلطان عَلَّلت لها العلل ورَتّبت الأسباب وخرّجت الأدلة. لا أرضى لي أن أبيعك

Twitter: @ketab_n

بضاعة مغشوشة أو مُستعملةً إن لم تكن مغشوشة.

مردّ ذلك، ولو بدا غير مُقنع لأحد سواي، إلى باطنيتي التي لم يَزِدْها التّقدُّم في العمر والعلم إلّا صقلاً وتهذيباً، ولم يزدني إلّا مهارة في تَوْظيفها لتفسير العالم ـ عالمي الصغير وناسه الصغار ـ كما يحلو لي.

كلّي ثقةٌ يا سَيّدتي أنّ كل واحدٍ منا رهينُ ولادته: إن هي استقامت، حتى في البؤس والفاقة، استقامت حياته وجَرَت إلى غايتها لا يَتَخَلّلها إلّا ما يَتَخَلّل أيةَ حياةٍ من أفراح وأتراح وأوقاتِ ملل طويل؛ أما إن لم تستقم، من أوّلها، فلا أمل بتقويمها مهما أرادَ المرءُ أو بَذَلَ من جُهْد.

أنا مثلاً كان يفترض أنْ أولَدَ قويَّ البنية معتدل المزاج، فأمُرَّ بالكتّاب، كمعظم لِداتي، مرور الكرام ثمّ يُسْلمني الكُتّابُ إلى الحياة فلا أكاد أبلغ الثامنة عشرة من العمر حتى تكون الأمهاتُ قد اخترن لي الزوج المناسب، ويؤذن ذلك بأن يضمّني الآباء إلى ناديهم وهكذا دواليك.

كما تعرفين مِمّا تقدم، لم تجرِ الأمور على هذا السَّمت: عوض الهواء الطلق وفلاحة الحقول،

Twitter: @ketab_n

وجدتُني أتنقّل بين قاعاتٍ رطبة عفنة، وأفْلَحُ في كتب ذات حواشٍ. لم أكن قوي البنية إلى حدٍّ أُجاري فيه إخوتي ألعابهم العنيفة، ولكن ضعف بنيتي لم يحلْ بيني وبين الطبيعة كلّاً وعناصر متفرقة، وأن أرى فيها بأذنيّ الساذجتين المُنصِتتين إلى أحاديث «الكبار» أكثر منه بعينيّ أو بنفسي - أن أرى فيها اللّهَ الذي لم يحدث أن تجاوز، بما كان ينزله أحياناً بمحاصيلنا والمواشي، حدودَ الإنذار أو التأنيب. وإذ لم تنقطع شعرة معاوية بيننا وبينه حتّى في أحرج الأوقاتِ وأعصبها فلا بُدَّ من العرفان له بأنّه، في أحيان أخرى، كان يغدق علينا، بحسب أبي، فَوْقَ ما نستأهل ونستحق.

بالطبع لم أكن لأفقه شيئاً من أصول هذه التجارة الجارية بين البشر والله، ومن قواعِد المحاسبة التي ترعاها، غير أنّ استغلاق هذه الأصول والقواعد عليّ لم يَغدُ استغلاق مواضيع أخرى، كانَتْ شأن الكبار، لا يجوز لنا التدخّل فيها. وعندما بدأ أبي يصطحبني إلى المسجد ويعلّمني قواعدَ الوضوء والصلاة تغيّر الأمرُ واللهُ عليَّ بعض الشيء، أو في الحقيقة الشيء الكثير. ببساطة، لم

Twitter: @ketab_n

أفهم لماذا يتّخذ اللّه من هذا البناء الصغير الهاري الذي لطالما جال أبي وأعمامي وآخرون في أمر إصلاحه جولات مشهودةً، بيتاً له، في حين أنّ الدنيا برحبها ملك له، ولا رأيتُ وجهاً لكل الاحتياطاتِ التي تقتضيها الصلاة فضلاً عن اختلاط الفرائض والسنن عليّ، ولا عرفت من هو إبراهيم هذا الذي ندعو الله، بعد دعاء التشهد إلى الصلاة عليه وعلى آله. لعلّه، كنتُ أقولُ لي، لعلّه صديقُ سيّدنا محمّد، ولعلّه وآله كان لهم يَدٌ في انتصار سيدنا محمّد على أعدائه... الكلمة التي تحضرني الآن، لأصِفَ بها عجزي عن الجمع بين إله المطر والعصافير والحصى الملونة، وبين إله البناء الصغير الهاري في قدس واحد، كبيرةٌ جدّاً ولا أكاد أجرؤ على رسم حروفها... ولكن لا مفر...

من قبل أن دَخلتْ كلمةُ «الكفر» في قاموسي، ولو أنّها سَبَقَتْ إلى ظهر قلبي حيث كان استظهار أكبر قدرٍ من آياتِ القرآن وسيلتي الوحيدةَ إلى مرضاة أبي واستطراداً أمّي، - من قبل ذلك ألفيتُني في حيرةٍ لا من أمري ولكن من أمرِ الله الذي بدا لي وكأنّه يتعمّد الإيقاعَ

Twitter: @ketab_n

بي وتسفيهي، شأن إخوتي وأترابهم كلّما رضوا بي، تحت إلحاح أمي، لاعباً بينهم.

مع إخوتي وأترابهم كانتِ الوالدةُ الحكمَ الفصلَ، أشكو إليها نبذهم إياي، وألوذ بها إن هم ثأروا من نزولهم عند حكمها بضرورة إشراكي في لعبهم بالقَسْوة عليَّ فوقَ ما كانوا يقسون على بعضهم البعض، أما مع اللّه فلا حَكَمَ أشكو إليه أو أتظلّم. كان اصطحابُ أبي إيّاي إلى المسجد ومفاخرتِه الآخرين بما أحفظه من آي القرآن مدعاةَ سرور لي وتفوقٍ على إخوتي، ولكنَّ ثمن هذا السرور وهذا الإحساس بالتفوق كان الحضورَ بين يدي إلهٍ حسوبٍ متجهمٍ عبوسٍ، والتوجّه إليه بحركاتٍ وعباراتٍ من نافل القولِ أنَّ مَن يقومُ بها منذُ عشرين أو ثلاثين عاماً أبرع في أدائها ممن لم يمضِ عليه في القَضر إلّا صبحٌ وظهرٌ وعصرا لِحُسْنِ الحظ أنّ قاموسي آنذاك كان محدوداً وأنّ حيرتي بين الإله الناشط البيئي ربِّ السماوات والأرض وبين الإله نزيل المسجد المتوقف إصلاحُهُ على اتفاق أبي وأعمامي وسواهم من رُوّاده كانت حيرةً عَيّاء لا تَعْرِفُ لنفسها اسماً ولا أنا أعْرِفُ لها.

Twitter: @ketab_n

على أنّه فهذا جميعاً ليس من شيء يُذكر في جنب محنتي إبان السّنة الأولى من التحاقي بالكلّية. ففي خلال هذه السّنةِ المعدودةِ تحضيريّةً يُعَرّفُ الطّالب بمُجْمَل العلومِ التي سَيَتَوسَّع في دراستها عاماً بعد عامٍ، ومنها علم التوحيد الذي تبدأُ رحلةُ الطالب الطويلةُ فيه مع شرح الجوهرة للإمام الباجوري، وما أدراكِ ما شَرْحُ الجوهرة، يعكف عليه وعلى تفهمه واستظهاره فتى لم تبرأ وَجْنَتاه من تفاطير الشّباب وبالكادِ طُرّ شارباه.

في الكلّيةِ بُلِّغتُ تبليغ المأمور بأنّ إيمانَ طفولتي الفطريَّ الذي تعلمته في كتاب الطبيعة ذي الفصول الأربعة لا في الكتب ذات المجلدات، هو بين الحلولية ووحدة الوجود وأنّ هذه وتلك من مقالات الفِرَق الضالة! وفي الكلّيّة تبينتُ أنّ اللّه الذي شَكَوْتُ إليهِ إخوتي أحياناً وتوسَّلْتُ إليه أنْ يوقف رُعاف أنفي لئلّا يشمت بي أقراني، والذي تضرّعت إليه ألّا يسلُبَني أُمّي سلْبَه أرفق رفاقي بي أُمَّه، والذي آستبحتُ حدائقه دون أن أسمع منه كلمة زجر، ـ تبيّنتُ أنّ إله طفولتي وحداثتي الساذجَ لا وجه شبه بينه وبين اللّه الصَّعْب

Twitter: @ketab_n

العَصِيِّ على الإدراك «الواجب له الوجود والقدم

.... كذا بقاءٌ لا يُشابُ بالعَدَمْ
وأنّه لمّا يَنالُ العَدَمُ مُخالِفٌ برهانُ هذا القِدَمُ
قيامُهُ بالنَّفس وحدانيّةْ مُنَزَّهاً أوصافُهُ سَنِيّةْ»(*)

كما تبيّنتُ أنّ اللّه ليس صنو الدين الذي أتأهّل لأكون أحد حُرّاسه وسدنته. فـ«الدين الحقّ الذي لا يجوز لأحد خلافه هو اتِّباع كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنّة نبيه صلّى الله عليه وسلّم، وإجماع أمّة الإسلام. وهذه الأصول الثلاثة هي أصول الدين المعصومةُ فقط التي لا يتطرق إليها خلل مطلقاً»(**).

وفي الكلية اتضح لي أنّ الإيمان باللّه وَحده لا يُجزي عن إسلام المرءِ شيئاً، واتضح لي أنّ القرآن، كما يقول الإمام ابن حزم، «جُمَلٌ لو تُركنا وإيّاها لم ندرِ كيف نعمل بها»، وأنّ توهُّمَ العمل به وبأحكامه لهذا السّبب

(*) الأبيات ٢٣/٢٤/٢٥ من جوهرة التوحيد.

(**) استشهاد صادق.

... وغير هذا الشيء الكثير، أقلّه ما تبينته مع التقدّم في «العلم» من اختلافاتٍ جوهريّة بين أهل السّنة وأهل الشيعة!

Twitter: @ketab_n

على الأقل، لا يجزي بدوره عن إسلام المرء الشيء الكثير. وبناء على هذا وذاك فلقد كلّفني الكثير والشديد أن أروض نفسي على أنّ «السنّة النبوية معصومة بعصمة الله لنبيّه لأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو شارح القرآن ومبينه بأقواله وأفعاله وتقديره (...)» وأنّ «النبي الكريم قد أوتي القرآن ومثله، وهي سنّته وفيها من الأحكام في الحلال والحرام والوجوب والندب والتحريم مثلُ ما في القرآن من الأحكام»(*).

بإيجازٍ، مخلٌ حتماً، لكِ أن تقولي إنّني وجدتُني مع التحاقي بالكلّية لا أتدرّج في طلب علمٍ، العلم الشرعي، ولكن أتدرّج في اعتناقِ دينٍ كُنْتُ أتوهمني مفطوراً عليه، وفي اكتساب لغةٍ كُنْتُ أحسب أنّها اللسانُ منّي. وأمّا أنّ تدرجي هذا لم يَكُنِ ارتقاءً هادئاً بل وَثَباتٍ في الفراغ أحياناً، فتحصيلُ حاصِلٍ لا طائل من التمكث عند تفاصيله. أهمُّ منه أنّ واقع الحالِ هذا لم يُعَوِّقْ مسيرة تحصيليَ العلمي ولا تَقَعّدني عنها، بل أكاد أقول إنّه

(*) استشهاد صادق.

Twitter: @ketab_n

صمّمني عليها وفتّق لي من أسباب العزم ما لم يكن على البالِ منّي ولا في الخاطر، لا سيّما أنّ اللَه، إلهي، قد حباني، بشهادة أساتذتي، بفطنة سريعة وحسٍّ صادق وحافظةٍ قويّة، وجَلَدٍ على المطالعة والنشاط الذهني. أمّا قيامي آناء الليلِ فلا إخاله تتمّة لتلك المواهب الذهنية، بل الأرجحُ عندي أنّه من باب الأرقِ المَرَضِي، سوى أنّني أحْسَنْت استعماله لما فيه مزيد من التقدم السريع في الطريق التي خُطّت لي وكُتِبَ عليَّ أن أمشيَها، فَمَشَيْتُها. وبخلاف معظم زملائيَ الذين كانت آفتهم صريحةً واضحةَ المعالم، اختصرها أحد شيوخنا بعبارته «قلّة فهم مع كثرة دين» كانت آفتي خفيّةً خفاء لا أملك أن أجلوه لأحدٍ من الناس كائناً ما اتصلت المودّة بيني وبينه، أو عرفتُ عنه حفظ السّر والإمساك على ما في نفسه.

بداية لم أعبأ، أو قولي بدا لي أنّ باطنيتي (جمعي بين التفوق في العلم وبين القيام بشتى الشعائر مع بقائي في حِلٍّ من مقتضيات هذا ومما وراء تلك) ضربٌ من الثأر لطفولتي التي لم أفِها حقوقها. أليسَ، كنتُ أقول لي، «كل ذي عاهة جبّار»؟ إن صحَّ ذلك، ولمّا أنّ العبرة في عموم

Twitter: @ketab_n

اللفظ، فلا بُدَّ لي وأنا ذو العاهة أن أتجبّر. أيامها، وهذا ما لم أتبيّنه إلّا لاحقاً، كُنْتُ بَعْدُ طفلاً يلهو، يلهو في جدّه ويلهو لاهياً.

كما بِتِّ تعرفين لم يُشرق عليَّ صباحُ تخرّجي من الكلية فقيهاً من فقهاء السلطان وإنّما تخرجت منها موظفاً ذا راتب معلوم ورتبةٍ في سلسلة رتبٍ لا تميّز بين مُوَظَّفٍ في وزارة الأشغال العامّة وآخر في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية. وكان تخرّجي، ولو بتفوق، إيذاناً بانتهاء عهد اللّهو لا ليخلِفَه عَهْدٌ من الجِدّ الصرف المقطّر، وإنّما لتبدأ رحلة طويلةٌ لا تنتهي في معظم الأحيان إلّا مع بلوغ المرء سِنَّ التقاعد حيث يُقَرِّر أبناء القرى من أمثالي العودة إلى قراهم ليُخْلوا المدينة المكتظة لأبنائهم.

حتى باطنيتي التي كانت مُتَنَفَّسي أيّام الكلية ضاقت عليّ لسببين على الأقلّ: أولاً لانتفاء المنافسة، مُحَرّكي في ما سبق لبزّ أقراني الذين كانوا يدارون قلّة فهمهم بالمبالغة في إظهار التدين، وثانياً لأنّ النفاقَ كان الخلق الوحيد الكفيل بأن يُقيل العثراتِ ويُمَدِّد الإجازات ويُعَجِّل في الترقيات. وغنيٌّ عن البيان أنّه لا نسبةَ ولا وجهَ شبهٍ

Twitter: @ketab_n

بين «نفاقـ»ـي الشّرعي، المُفَصّل في الكتب(*) الضارب جذوره في سوداويتي وقلقي اللذين لم يزدني التعلم إلّا إيغالاً فيهما وبين نفاق زملائي الأشعبي. على أنّه، فلقد كان لتخرجي والتحاقي بالوظيفة حسنةٌ واحدةٌ على الأقل هي انفتاحُ الأفقِ أمامي، لأوّل مرّة في حياتي، لأنحرف بهذه الحياة، ولو قيد أنملاتٍ، عن الطريق المرسومة لها منذ ما يناهز ربع القرن. لم أكن بين خياراتٍ شتى فأحتار، ولكن بين خيارين لا ثالث لهما: أن أرضى بقسمتي أو أن أسعى إلى مهنة تُخرجني من وزارة الأوقاف وتُبقيني في الوظيفة. هنا أيضاً لم أكن بين خيارات شتّى، فالمهنة الأقرب إلى مؤهلاتي هي التعليم ومن ثمّ كان أن عزمتُ على نيل إجازة في اللغة العربية وآدابها. في هذه الأثناء رتّبتِ المقادير أن ألتقيَ في إحدى ردهات الوزارة بشيخي إيّاه، أستاذِ أصول الفقه أيامَ الكلية، ذي الذِّكْر المسافر على الألسن مع «الإصلاح» الذي أتى على البلاد، وذي اليَدِ الطولى في وزارتنا مذ ذاك بغير منصب رسمي. على طريقته

(*) «نافق الرجل إذا أظهر الإسلام لأهله وأضمر غير الإسلام وأتاه مع أهله فقد خرج منه بذلك، ومحل النفاق القلب»، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير.

Twitter: @ketab_n

الفجّة الفَكِهَة العنجهية في آن، وبعد «أين أنتَ يا رجل؟ أعياني البحث عنك في هذا المـ...» ودونما استفساري عن وجهتي، أو مبالاة بواجباتي الوظيفية، تأبّط ذراعي واقتادني شبه مخفور إلى حيثُ المِصعد الوحيد المؤدي إلى الطبقة الخامسة المحظورة إلّا على المحظوظين، لإيوائها مكتبَ الوزير ووكيلِ الوزارة وسواهما من الأركان والمستشارين.

شيخي، حيث يكون الأقوى، لا يُحسن المجاملات ولا يلوك كلماته: «أتظنني غيرَ جادٍّ بقولي إنّك أعييتني في البحث عنك في هذا المـ... (وكرر للمرّة الثانية الكلمة القبيحة التي لا أعلم أحداً سواه يُقدم على استخدامها لوصف هذه الوزارة)... أريدك بتصرفي... لا صفةَ رسميةً لي هنا ولا مُسمّى وظيفيّاً، كذلك تبقى حيث أنتَ ولكن في حكم الملحق بمكتبي... أعني بي».

لا أتخيّل ما كان يمكن أن تؤول إليه تتمّة حديثه الذي قطعه عليه أذان الظهر. في الطبقاتِ ما دونَ الخامسةِ يُرفع الأذانُ بمكبرات صوتٍ مركزية، أما في الطبقة الخامسة فلكل مكتب مذياعه الخاصُّ الذي يمكن التّحكمُ بارتفاع الصوت الذي يبثه حَدَّ كتمه. لم يُتِمّ المؤذنُ الغفل

Twitter: @ketab_n

التكبيرةَ الأولى حتى كان شيخي يُسكتُه مُتَمْتِماً بلامبالاة الشهادتين، مُمَيّلاً إلى الأمام بعض الشيء الجزء الظاهر من جثته الضخمة، معتمداً لإتمام ذلك بمَنكبيه على الطاولة التي يجلس إليها، مُستغنياً بهاتين الحركتين عن الوقوف كل الوقوف على قدميه إجلالاً لذكر الله. ألفَتَتْهُ الهدنةُ القصيرةُ التي اضطره إليها رفع الأذان إلى أنّه استعجل في تقرير مصيري من غير مشاورتي، فسألني بنبرة فيها من رفع العتب أكثرُ مما فيها من التحرّي عمّا أرسُم لي من خُططٍ ومشاريع، ثقةً منه لربما بأنّ الداخل إلى رحاب الوظيفة لا جواب لديه على هذا السؤال سوى أنّه يتأهب لعقد قِرانه أو لشراء شقة بالتقسيط. وإذ لم يأته جوابي كما كان يتوقّع سارع إلى تلقّي المفاجأةِ الصغيرة بالثناء عليّ، مؤكداً أنّ ما أُزمِعُ عليه لا يُدهشه وأنّ معرفته بي وبطموحاتي(؟!) تجعله يتفهم شعوري بالضيق وسعيي في الطلب «ولو أنّني، قال، لا أرى أنّ في امتهان التعليم منجاةً لكَ من الضّجر الذي تشكو منه ههنا». لم يَقُلْ أكثر، وعلى طريقته في الانتقال من موضوع إلى آخر، وهي طريقة لم أعرف أحداً يُحسن مجاراته فيها، رفع هامته على قدميه

Twitter: @ketab_n

فجأة وراح يُنَكّش في الأوراق والملفاتِ التي تزدحم بها طاولته إلى أن عثر على مطلبه، فَمَدّ إليّ بكراسة أنيقة ناولنيها في ما كان يهوي في كرسيه مجدداً: «هذا المؤتمر عن حقوق الإنسان في القرآن يلتئم بَعْدَ نحو شهر من الآن... بعد شهر أليسَ كذلك؟... ولا وقت لديَّ كما تقدّر لإعداد الورقة التي يُفترض بنا أن نُقَدّمها... أنت أدرى بما يجب أن يقال، وبجلائل الموضوع ودقائقه... ألست مَنْ أعدّ ذات يوم بحثاً عن الموضوع؟». حتماً لم أكن من أعدَّ بحثاً عن هذا الموضوع الذي لم يَعنني يوماً من قريب أو بعيد ولكنني لم أستحسن أن أُفشِّلَ شيخي فلم أعلّق، بل تركته يتابعُ حديثه الأقربَ إلى أبيات الشعر الملغزة منه إلى الجمل المفيدة الذي انتهى منه بأن أخرجَ من أحد مغاور جُبّته قُصاصةَ ورق هلهلها ما أعمله فيها من طيّ ونشر مدّ بها إليّ قائلاً إنّه دوّن عليها بعض الأفكار التي يُمكنني أن أستأنس بها وأن أتوفّر على توسيعها.

منذ ذلك اليوم صرتُ أحد الكتبة الأشباح الواقفين أقلامهم لخدمة شيخي المُحِبّ المنابرَ أو أيَّ حَزْنٍ من الأرضِ يقوم مقام منبر. لم تَعُدْ عليّ خدمتي الجديدةُ بنفع

Twitter: @ketab_n

ماديّ يذكر أو لا يذكر، وبخلاف ما قد يسبِقُ الوهم إليه، لم تجعل مني عميلاً سريّاً أو علنياً لأحد تلك الأجهزة المزعومة أخطبوطية، ولولا شعوريَ النابت مجدداً بالمنافسةِ بيني وبين الكتبة الأشباح الآخرين الذين لا أعرف لهم أسماء أو وجوهاً، لَقُلْتُ بأنّ شيئاً على الإطلاق لم يتغيّر في حياتي الوظيفية. ولمّا أنّ خدمتي هذه كانت لا تستدعي مني التصريح بمواقف علنية بل على الضد منه تقتضي الكتمان، ولمّا كنت في نظر زملائي مثال الإنسان الساذَجِ الحالم الذي لا يُغني عنه مَزيدُ فهمه أو علمه، بدليل مكانه بينهم ومساواتهم في الرتبة والراتب واستواء حالي وحالهم، فلم يروا ما يُقالُ في أخذي أحياناً طريق الطبقة الخامسة سوى أنّ أحَدَ المتربعين فوق قد اكتشف مواهبي وأنّه، مُؤَيّداً بما يُنسب إليّ من بساطة، يستغلها ويستغلني.

لحسن الحظّ أنّ تصوّراتهم عن سبب ارتيادي الطبقة الخامسة كانت لا تُجافي الحقيقةَ سوى في هذا: أنّني كنتُ أُشتَغَلُّ عن طوع ورضا واختيار، وأنّني كنتُ أحتسِب ليوم مُقْبل، كأن أُقرِّر الانتظام في سلك التعليم، ما أُسْديه إلى شيخي من صنائعَ صغيرة لن يَعْدَم مَنْ يؤدّيها إليه أن

Twitter: @ketab_n

يعتبر نفسه محظوظاً باختصاصه دون سواه لتأديتها. بطبيعة الحال لم يكن شيخي بغافلٍ عن ذلك، ولا فاتته الكياسة، فكان منه أن عَرَضَ عليَّ مرّة واحدةً، لم يعد إليها، بدلاً نقدياً من أتعابي مُكتفياً في المرات التالية بإبداء استعداده لقضاء أيّة حاجة تلزم ـ وكان، كلّي ثقة، صادقاً في ذلك. ولا أظنني أتبذّخ أو أنتخي إذ أجزِمُ بأنّه لم يكن بغافل أيضاً عن تَقَدّمي على أقراني وعن طلبي الإتقان في كلّ ما أرصدني له من عمل. أمّا الثقةُ التي نشأت بيننا، أو بالأحرى بينه وبيني إذ كان المبادر إلى الإخلاد إليّ بها، فَمِنَ المُعَمّيات التي لم أُفلح في استجلائها إلى يومي هذا. قد لا يكون في الأمر من شيء معمّى على الإطلاق بل قد يكون في إصراري على وصف ركونه السريع إليَّ بـ«الثقة» مبالغة من قبلي؛ لربّما، ولكن حتى ثبوت العكس يحلو لي أن أتصوّر التالي: أنّ شيخيَ الحِدّيث حدّ الثرثرة، المهيبَ الطلعة بعمامته البيضاء اللفاء المهفهفة ذات القطر الخارج عن المألوف، جاء إلى امتهان هذه المهنة بالصُّدفة، مثلي، وأنّه، وقد جلّى في العلم وبرع، لم يَرَ بأساً، وهو صاحبُ الطموحِ إلى المعالي والدرجاتِ

Twitter: @ketab_n

الرفيعة، أن يَتَسَوَّر هذه الشرفات بالجبّة والعِمامة كما يهبط إليها آخرون من عَليٍّ أنسابهم أو بالمظلّات. فماذا لو أنّه، شيخي، يرى فيَّ سرّه ويقرأ في صموتي وحيائي ومداراتي وتظاهري بالزُّهد في متاع الحياة الدنيا رغبةَ الطفل ذي العاهة في التجبّر والعتو؟

وإن أنس لا أنس ذلك الصباح حيث بكّر شيخي في استدعائي، وكان ذلك بعد أسابيع من ضمّه إياي إليه وتكليفي بإعداد محاضرته تلك عن حقوق الإنسان في القرآن. أن أقول إنّه كان يتميّز من الغيظ ويزفِر ويزمجر، قليلٌ. حسبُك أنّه كان يُعَضِّضُ شفتيه، ومن يعرف شيخي لا حاجة له إلى فَهْمٍ كثير ليُدرِكَ في أيّة حالٍ يكون إذ يُعَضِّضُهُما. لم أؤاخذه بأنْ لم يَرُدَّ عليّ التحية فلقد كان ذلك منه، في مثل الذي كان فيه، أقلَّ المتوقع. ناولني صحيفةً مفتوحةً على صفحةٍ بعينها ولم يَزِدْ على «أريدك أن تُعِدَّ ردّاً يُنْشَر غداً... هذه الشتائم لا تستهدفني شخصيّاً، وإنّما مَنْ أمثّل وما أمثّل... هل دُعينا لنُشتم ما إن نُدير ظهورنا؟». كانت المقالة المعنيةُ المنشورة في كبرى صحف الدولة الشقيقة التي دعي لإلقاء المحاضرة

Twitter: @ketab_n

فيها مُضاهاة ساخرة بين ما جاء في المحاضرة وبين «واقع» حقوق الإنسان في بلدنا. بقدرة قادر، أو لربّما تحت إملاء التبذخ والتبجح بما عندي، لم يُرفع أذان المغرب إلّا وكنت قد فرغت من كتابة الرد الذي كان أحدهم يتناوله منّي صفحة تلو صفحة لتبييضه آلياً. لم يَثُبْ إلى شيخي هدوؤه فقط عندما انتهى من قراءة ردّي المُفْحِم الذي اتخذتُ له عنواناً القول المأثور عن سيدنا عثمان، والذي مفاده أنّ الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن، بل عاودته البشاشة ورُدّت إليه روح العبث والدعابة وقال لي: «كُنْتُ أعرفك فَهِماً فطناً فإذا بي أتبيّن أنّك ذو قلبين(*) أيضاً»، وأفرط في ضحكةٍ مجلجلة.

وأذهبُ إلى أبعدَ من ذلك فلا أتمالكني منِ التساؤل هل قُيّض له، مثلَ ما قيّض لي، أن يلتقيَ يوماً بامرأةٍ أخرجته من الظلماتِ إلى النور. ولا أتمالكني كلّما خطرت لي هذه الفكرة أن أحسِدَه لأنّه لا ريب عندي كان أطلق لساناً منّي وعناناً في مبادأتها بما قَضَتِ الطبيعةُ أن

(*) ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه...﴾ (الأحزاب: ٤)، وكانت العربُ تزعم أن كلّ لبيب أريب له في جوفه قلبان!

Twitter: @ketab_n

يكون بين رجلٍ وامرأة. هل الحياةُ إذاً إلّا جملة من اللقاءات؟ في ما يعنيني أكاد أجزم بأنّه كذلك وبأنّه لا حياةَ براءً مما يتخللها من لقاءات. بناء على هذه المقدّمة أحبُّ أن يُسْمِعَ ما تقدّم من قولي أنّني لا أدين لأحدٍ باختياري دون سواي للانتقال إلى بلدكم والقيام بأعباء مسجد الغرباء وإن أدِنْ، أو كان لا بُدَّ أن أدين ليُحفظ على الأمور تسلسل منطقي، فَلِتَضافُرِ صُدَفٍ واتفاقات لا لأحدٍ بعينه من الناس ولو أنّ هذه الصدف والاتفاقات جرت على يد فلانٍ أو فلان منهم. وكذلك قولي عن لقائي بكِ، ولو اقتضاني ذلك أن أُقَدِّر تقديرات مجنونة من مثل أنّ أحمد المتنبّي لم يولد ويمت ويبعث في شعره حيّاً إلّا ليقرّب بيننا! أليس في أصحاب الاعتقادات من يزعُم أنّ الله أنشأ العالم على غفلةٍ منه، والبعض الآخر أنّه خلق السماء والأرض لاعباً، وبني البشر عبثاً؟ تعالى عمّا يزعُمون ولكن، هل تستكثرين، وللخَلْقِ في الخَلْقِ هذه الآراء والاعتقادات، أنِ التقينا أو أن كان ما كان فالتقينا؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٦

عشيّةَ اليوم السادس على وفاة أبي، عادت بي الطائرة من عودتي تلك. حقيبتي صغيرة لا أُفارقها، ولا أحتاج أن أنتظر وصولها مع منتظري أمتعتهم. وجواز سفري الخاصُّ يرغمُ شرطيّ الحدود حامل الأختام، رضوانَ جنتكم، المتثائب المتمطي - يُرغمُهُ على شيء من الوقار والرزانة لا أظنه يحافظ عليهما حينما تبدأ أفواج الواصلين بالتدافع أمام كشكه الزجاجي. في سيّارة الأجرة من المطار إلى المسجد تَحَقّقْتُ، بعد ساعاتٍ مما يُشبه الغيبوبة في الطائرة وقبل ذلك في استعجال إقلاعها، أنَّ عُطلتي عن الحياة بتوقيت هنا وهمومه قد انقضت. كمن تنبّه على موعدٍ قبل دقائق من حلوله حاولتُ أن أُرَتّب الغد وبرنامج الغد، ولكن سرعان ما بدت لِيَ المهمةُ أشقّ ممّا توقعت فعزفتُ على مضضٍ، مُسَلِّماً بأنّ دوائيَ الوحيدَ لأستعيد

Twitter: @ketab_n

بعض عافيتي نومٌ عميقٌ لساعاتٍ مديدة. لتقصير المسافة المتبقية لبلوغ المسجد أغمضت على لا شيء عينيّ، ولم أفْتَحْهما إلّا مع توالي أزيز المكابح الذي أشعرني بأنّنا باشرنا الهبوطَ إلى قاع المدينة.

بأسرعَ مما كنت أتوقّع عاودتُ الاندراجَ في أدراج حياتي هنا. ولعَلَّ وراء ذلك أنّني، ككل عائدٍ ولو من رحلةٍ قصيرة، يُكْثِرُ أوّل عودته من الاستفسارِ عمّا كان في أثناء غيابه، ويُلِحُّ في ذلك، ثم لا يلبثُ أن يثوب إلى رشده وأن يُسلِّمَ بمرارة أنّ الجديدَ تحت الشمس عُملةٌ نادرة. ساومتُ نفسي على استئخار الاتصال بكِ يومين أنصرف خلالهما إلى الفراغ من شؤون المسجد العالقة. صبرتُ ساعتين وترددت ساعة لم أمسكني بعدها مِنْ مُواعدتك السابعة. مع اقترابها أخذت بوادر التهيّب تُراجعني... كأنّني أستعد لزيارتك لأوّل مرّة. وعلى أنّها عبارةٌ سريعةٌ إلى اللسان من تلك العباراتِ التي نَقَلَها الإفراطُ في استعمالها جُزافاً من الحقيقة إلى المجاز، فَقَوْلي «كأنّني... لأوّل مرّة» هو عينُ ما أعني، وأداةُ التشبيه تُفيدُ بدقّة بالغةٍ ما كُنتُ فيه من تساؤل حائرٍ عمّا سيشتمل عليه جدول أعمال لقائنا.

Twitter: @ketab_n

فَشَلُ محاولتك تقديم العزاء لي بصيغ المجاملة المعروفة لم يُفاجئني، ولا اعتذارك عن ذلك بأنّ الموتَ عندك مُخْجِلٌ مقدار ما هو مُحِزنٌ ومُسْكِتٌ، ولا تحوّلك إلى الاستفسار عن تفاصيل رحلتي ومشاهداتي هناك - هناك من حيث يدهم الخطر بلدكم. لا أذكر بما أجبتك في بداياتِ لقائنا، بل على الأرجح أنّ جواباتي كانت من باب العموميات التي لا تُغني عن فضول، ولكنك لحسن الحظّ كنتِ قد أصبحتِ عارفةً بطباعي، عارفةً بأنّني أحتاج إلى مهلة قبل أن يجريَ الكلامُ على لساني. وفضلاً عن ذلك كنتِ طويلةَ الأناة. أمّا أنا فكنتُ أتفقّدُ ما أحْدَثْتِهِ من تبديلٍ في محتوياتِ رفوفِ الكتب الأقرب إلى الطاولة التي كنا نجلس إليها. من الأريكة الواطئة إيّاها لاحظتُ أنّ شيئاً ما في تلك الزاوية قد تبدّل، غير أنّني لم أتبيّنه إلّا بعد قليل حين نهضتِ ودخلتِ المطبخ. وتابَعْتُكِ في النهوض واَقتربتُ من الطاولة التي كان العَهْدُ منا أن نبدأ لقاءنا بالجلوس إليها. نظرةٌ واحدةٌ إلى الرّفّين اللذين كان الأعلى منهما تشغله مجموعة من الملَفّات، (تَنْفين بينها كُلّما جِئْتُكِ ما لا يخصُّ جلستنا من أوراقٍ وسواها)، وكان الأدنى منهما

Twitter: @ketab_n

يؤوي القواميسَ الأشهَر لِلُّغاتِ الثلاثِ التي تتقنينها وكتبَ قواعِدَ ودليلَ الهاتف وبعض الأدوات المكتبية، ـ نظرة واحدة إليهما وأدرَكتُ أنَّك لسبب ما وَقَفْتِهما على المتنبّي، أعْني جَمَعْت فيهما ديوان المتنبّي بطبعاته وشروحه العديدةِ المنتشرة في أرجاء المكتبة، فضلاً عن نحو عشرين كتاباً لا يخلو عنوان الواحد منها من لقب أحمدِك. بين صفَّيْن من الكتب كانت كومة من الأوراق يشي نبوّها من أعلى الزاوية اليُمنى أنَّها موزّعة على مجموعات، وأنّ كلَّ مجموعة منها مضمومةٌ إلى بعضها بمسمار معدني أو شيءٍ من هذا القبيل. لم أحتج إلى الرجم في الغيب لأستنتج أنّ هذه الأوراق، لا بُدّ، مقالات عن أبي الطّيب مصوّرةٌ عن مجلّات، ولمّا اقتربت أكثر قرأت في رأس الورقة الأولى، بخطٍّ عريضٍ منمق «الجبال والأمكنة والمياه في شعر المتنبّي» يليه اسمُ صاحب القلم ولقبه، فـ«لقد صحَّ ما جزم به أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المتنبّي المولود في الكوفة سنة ثلاثٍ وثلاثمائة حين قال:

وما الدهر إلّا من رواة قصائدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

Twitter: @ketab_n

فسار به من لا يسير مشمّراً
وغنّى به من لا يغنّي مغرّدا

فما زال شعره يستأثر باهتمام الدارسين اليوم وقد مضى على وفاته أكثرُ من عشرة قرون، كما كان يستأثر باهتمامهم في حياته. وأغلب الظّن أنّه سيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...»(*).

لأول وهلةٍ خِلْتُ أنّ وراءَ اختصاص المتنبّي بهذه الصدارة حياةً ما دبّت في أوصالِ «المشروع» الذي أجاءَكِ إلى طلبي ولم يلبث أن ألّف بيننا. تعمّدتُ البقاء في مكاني منتظراً عودتك من المطبخ لَتَتَبَيّني من تِلقائك أنّ ما أحدثتِهِ من تبديل قد ألفت انتباهي، فنغادرُ حديث رحلتي إلى حديثٍ سواه لا لانتفاء رغبتي في الخوض فيه ومراجعةِ ما كان بصوت عالٍ على مَسْمَعٍ منكِ ولكن لانتفائها الآن. توقّعتُ أن تعودي بكوبين من الشاي فإذا بكِ تعودين بكوبين من عصير قاني اللون: «عصيرُ البندورة أفتح للشهيّة من الشاي، وليقيني بأنّك لم تُغنَ بغذائك في

(*) استشهاد صادق.

Twitter: @ketab_n

الأيام الماضية. لا قراءةَ هذا المساء ولكنْ عشاء مديد».
وكنتِ على حقٍّ في الاثنين معاً.

فمنذ أسبوع، وهو أسبوع بدأ بتلقّيَّ برقيّة الأهل لم أهْنَأ بوجبة طعام تناولتها، مع التوسّع الشديد في معنى وجبة. وأما القراءةُ ولو على سبيل نفض الغبار عن عاداتنا التي بذلنا الكثيرَ لاكتسابها فلم تكن أفْضَلَ استهلالٍ لتلاقينا. كلانا لم يُصَرِّح لصاحبه بأنّ الرغبة منه هي مجالسةُ الآخر والاستماعُ إليه، تماماً كما يكون بين صديقين أو خليلين، ولكن الكلمة العليا كانت للرغبة منا. بالطبع لم أتوانَ عن استطلاعك سبب تجميع كل هذه الكتب المتعلقة بالمتنبّي بمتناول يدك. أجبتِ على مراحِلَ: بدايةً اكتفيتِ بالقول، كأنّك كنتِ تقرئين أفكاري، إنَّ داعيتك إلى ذلك لا تمتُّ بِصِلةٍ إلى «المشروع». وإذ بدا لي أنّك ميّالة إلى بثّي شكواكِ مما يورثُك عملك من شعورٍ بالقنوط والسأمِ تركتُك تفعلين وتعرّجين بنا على بعض ما شهده الأسبوع الماضي من وقائعَ تدعو بدورها إلى القنوطِ والسأم، بل «وإلى أن ينظر المرءُ في جدوى البقاء في هذه البلاد البخيلة الضيّقة الصَّدر والخيال».

Twitter: @ketab_n

للحقيقة لم أُولِ يومها قولك هذا أيَّ اهتمامٍ بل لا أظنّه استوقفني، فالشكوى في هذه البلاد ومنها على غرار أحوال الطقس في بلادٍ أخرى كلامٌ يَصْلُح لسدِّ فراغات محادثة أو لافتعالِ حوارٍ أو لأي سبب. ثم إنّه لم يستوقفني لِعِلَّةٍ أخرى أهمَّ، هي أنّه لا يقع في سَمْعي مَوقعاً يعنيني من قريبٍ أو بعيد. لو كنتُ مهندساً أو طبيباً أو تاجراً أو حتى صاحبَ حرفةٍ يدويّة لوقع الأمرُ عندي تحتَ حَدِّ المعقول ـ أمّا وأنّني شيخ لا تزيدُ بضاعتُه العلميّة على التمكن بعض الشيء من لغةٍ أثرية، وعلى حِفْظِ القرآنِ وعشراتِ الأحاديث النبوية، وعلى تدبّر المقاييس الشرعية والأحكام الفقهية، فكيف تريدين أن تخطر لي خاطرة الهجرة إلى أحد تلك البلاد التي تهوي إليها أفئدة الشيب والشبان على حَدٍّ سواء، بل يركب البعضُ منهمُ الأخطار في سبيل الوصول إلى أمان برِّها. علاوةً عليه فالأولى بي أن أخشى حَسَدَ الحسّاد: ألستُ في عرف إخوتي وزملائي السابقين مثال المهاجر المحظوظ؟ وهل حظٌّ أفلقُ من هذا، أن يُهاجر المرء إلى بلدكم ليلتحق بوظيفة تنتظره، لا ينافسه عليها أحد وفوق ذلك أن يُؤَجَرَ علىِ هجرته لا أن يدفع ثمن هجرته أشهراً

Twitter: @ketab_n

من الكدّ؟ لكلّ هذا أيضاً كان تَرَمُّلي عظيماً يوم أن أدّى إليّ قريني رسالَتكِ التي تشعرينني فيها بما لم يَخْطُرْ لي عند قراءتها أن أتذكّر معه هذه الإلماحةَ العابرةَ في حديثك تلك الليلة، ولا خَطَرَ لي أن أُسَمّيه هجرةً.

•

بعد سياحةٍ طويلةٍ في شؤون البلادِ والعبادِ استفدتُ منها، في عداد ما استفدتُ، من تنبيهك إيّاي على بعض ما يُستحقُّ الاطلاعُ عليه في صحف الأسبوع الماضي، رَجَعْتُ، على غفلةٍ مني، إلى سؤالي عن سبب حشدك تلك المجموعةَ من المؤلفات المعنيّة بالمتنبّي شعراً وسيرةً ودراساتٍ في مكان واحدٍ يوحي باستعمال متكرر.

«كما قلتُ لكَ "المشروع" يتبلّد حماره - وغشيك الضّحك - عبارة تَعَلّمتها مُؤخّراً من الواحدي(*)، كذلك فليس حشدي هذه الكتبَ والمقالاتِ لسبب مهنيٍّ. لا تَظُنَّني تكاسَلْتُ الأسبوعَ الماضي ولم أقرأ. بل لعلّي قرأتُ كما لم أفعل إلّا في أيّام الدراسة. فاتني أن أخبرك أنّني

(*) «وأمّا ابن جنّي فإنّه من الكبار في صنعة الإعراب والتصريف، والمحسنين في كل واحد منهما بالتصنيف، غير أنّه إذا تكلّم في المعاني تبلّد حماره ولجّ به عثاره».

Twitter: @ketab_n

في إجازة لأسبوعين. لم أقرأ في ديوان المتنبّي. لم...». ماذا لو كنتِ على أن تقولي مثلاً: «لم أستجز لنفسي أن أقرأ في ديوان المتنبّي بدونِكَ»؟!... «ولكن فرغت من قراءة كتابين عنه...». كنتِ تتقدمين بحذر لم آلَفْهُ منكِ إلّا في المواضع التي تخشين فيها أن يزلّ لسانك أو أن يسبِقَكِ إلى ما يُحرج محدِّثَك. تركتك تتخبّطين، لا تمتعاً بمرآك ومسمعِك تتخبطين، ولكن ثقةً منّي بأنّك لن تتأخري عن لفظ ما في صدرك دفعةً واحدةً غير آبهةٍ بالعواقب. وهو ما كان: «أحلُم بـ"مشروع" خاص يكون المتنبّي شريكاً فيه من قريبٍ أو بعيد... من قريب بترجمةٍ لَهُ تضربُ عرض الحائط بالوقائع التاريخية المختلف فيها... أو قل بسيرةٍ مُتَخَيَّلة تستفيدُ بحريّة من كلِّ المرويّاتِ وتزيدُ عليها! ومن بعيد برواية تاريخيّة عن العصر الذي عاش فيه... "مشروع" طائش لا أجزم بأنّ حماستي له تدوم...».

بخلاف ما قد يوحي به ما تقدّم لم تستأثري بالكلام غير مباليةٍ بي. فمرّاتٍ عديدةً حاولتِ أن تُسلمي زمام الحديث إليّ، ولكنني كُنتُ أتعمّد إعادته إليك، تارة بحجة هازلة من

Twitter: @ketab_n

مثل أنّني لا أحسن التوفيق بين الأكل والكلام، وتارة، بشيء من الجدّ، لا سيّما عند استعراضك ما فاتني من وقائعِ الأسبوع المنصرم بحجة الاستفادة، وكنتُ صادقاً في ذلك.

•

تحت لساني كلام كثير، وتحتي جميعاً رغبة عارمة بالإفضاء به إليك ولكن من أين أبدأ؟ دعي كلامَ ذاتِ النَّفس مني الذي يقتلني ببطءٍ انحباسُهُ في صدري وتلجلُجُهُ فيه. كيف يستقيمُ ألّا أخبرَك، وأنتِ بحكم الإرادة مني والأمر الواقع أقربُ الناس إليّ - ألّا أُخْبِرَكِ بما قد يدخل عمّا قريب على «حياتيَ المهنية» من جديدٍ... أنّني موشك أن أضيف إلى لقبي الذي تعرفينه لي لقباً آخر لا أعرفُ كيف سأدبّره وأتدبره يوم يخرج التصاقه باسمي إلى العلن. أليس أنّني عمّا قريبٍ سأطلُّ من على شاشة قناة التلفزة الجديدة التي تحتل الملصقاتُ الدعائية الضخمة المُبَشِّرة بها معظمَ اللوحات الإعلانية؟ ولكن كيف؟ كيف أُقدّم لإخبارك بذلك؟ سافرتُ إلى بلدي لأشهد دفن أبي، فكيف أُبرّر عودتي معدّاً لبرنامج ومقدّماً له؟ أو كيف أبرّر، ولمّا يمضِ عليّ يومان هنا، أنِ اتّسع وقتي

Twitter: @ketab_n

لعقد صفقة من هذا القبيل؟ لم أتوقّع أن تُمَهّدي لي السبيل إلى ذلك بالإتيان على ذكر القناة الجديدة، ولكن أن تأتي على ذكر شيء، أستطرد منه إلى ما أريد. أفحمتني. فببراءةٍ ما بعدها براءةٌ سألتني إن كانت الملصقاتُ الإعلانيّةُ، حديثُ الناس ومُضْطَرَبُ الشائعات، قد استوقفتني في طريقي إلى عندِك. استويتُ في جلستي استواء مَنْ تَتَوَجَّه إليه الأنظارُ فجأة في مجلس مُزْدَحِم. كنا ولا ثالِثَ لنا، ولكنني لربما كنتُ أتخيّلُني بين إخواني في المسجد الذين سأضطرُّ عاجلاً أم آجلاً إلى موافاتهم برواية مقنعة عن حيثيّاتِ انضمامي إلى فريق القناة الجديدة برتبة معدٍّ لبرنامج دينيٍّ ومقدِّم له. إخواني، من نافل القولِ، أخشاهم أقلّ بكثير منك وكذلك ما أستعدّه لهم. فإخواني أحد اثنين: أخو ثقةٍ بأنّ دَرْوَشتي تمويه كلّها وبأنّني امرؤٌ واسِعُ الاطلاع والاتصال أعلى رتبةً مما أنادى به، أو مُسَلِّمٌ بأنّني من أنا وما أنا بلا زيادة أو نقصان. وكلا الاثنين مُصَدِّق لما يَذهَبُ إليه تصديقاً راكزاً لا ما يُجدي في زحزحته أو توهينه. أمّا أنتِ، أقلّه لما بيننا، فلا هذا تُشْبهين ولا ذاك. ثُمَّ إنَّ معرفَتَك الوثيقة بصورة الإعلامِ ووسائله في بلدكم

Twitter: @ketab_n

واطلاعَك على صورته عموماً تجعلك لا تشبهين في شيء ما يشترك فيه إخواني من انبهارٍ لورود اسم يعرفون صاحبه على صفحاتِ جريدة، أو لمرأى شخصه يعبر كومضة على شاشة تلفزة. كذلك، ولو أنّك بسؤالك ناولتني طرفَ حبل الكلام، فلقد افترضتُ أنّ عليّ توخّي الحذر في جذبه إليّ. أقول افترضتُ لأنّني، كما لم أتبيّن إلّا لاحقاً جدّاً، كنتُ أضدُرُ في حذري تلك الليلة بين يديك كما في مواقف أخرى، عما يمكن تَسْميته ـ احتذاءً بالمثل السائر(*) ـ وسواس المريب، أي قلق الجاني من افتضاح جنايته أو توهّمه آثاراً لها بادية لعيان الآخرين. «كيف لم أشاهدها، إنّها تَقْتَحِمُ البصر كيفما توجّه. ولكن ألم أخبرك أنّ القائمين على القناة هذه اجتاحوني قبل أن اجتاحت ملصقاتُهُمُ المدينة وضواحيَها ولربما ريفَها أيضاً؟».

(بالطبع لم أكن قد أخبرتك بشيءٍ، ولا أتيتُ ولو تلميحاً على ذكر ما اقترح عليّ. لعلّك تتساءلين مثل ما أتساءلُ أنا الآن: ألم يكن في الوُسْعِ أن أتفتّق عن كذبة

(*) كاد المريبُ أن يقول خذوني.

Twitter: @ketab_n

أولى بالتصديقِ من هذه ـ لا سيّما أنّ ما أُطلعك عليه من شؤونيَ الخاصة قليلٌ جدّاً، ومن المستبعد كلَّ الاستبعاد أن أكون قد حدّثتك عن اقتراح من هذا القبيل ونسيت أنّني قد فعلت. هذا ما كان يومذاك إلّا أنّ الصدق يُلْزمني الاعترافَ بما راح يتكشف لي مع الأيام من أنّ باطنيتي التي لطالما احتميتُ بها لا تُغْني عنّي في مجال الكذب اليوميّ الذي لا بُدَّ منه لتسيير شؤون الحياة وتيسيرها!).

اكتفيتِ من الجواب بـ«لا» فيها من الازدراء بسؤاليَ الاستنكاريِّ أكثرُ مما فيها من اللامبالاة. تكفيراً عن كذبتي البَلْقاء تحوّلت على الفور إلى منطق أقربَ إلى التصديق، فتراجعت عن كذبتي بذريعة أنّني لربما فاتني أن أطلعك على ذلك لأنّني كنت قد طويتُ الاقتراح وتناسيتُ الموضوع بانتظار عَرضه على «المراجع المسؤولة» في بلدي والحصول على موافقتها. وأردفت، تشفيقاً لكِ عليّ، «أمّا الآن وقد وافقوا فإنّني حقّاً في تَهَيُّبٍ يُلامِسُ الاضطراب». وإمعاناً في استدراجِكِ إلى مؤازرتي وجدتُني أتابع: «منذ سنواتٍ فقط بدأ البث المتلفز بالوصول إلى قريتنا... كذلك يمكن القول، على سبيل القياس، إنّني عشت طفولة بتراء... هل تعرفين

Twitter: @ketab_n

كيف أُهوّنُ عليّ دخولي هذا المعترك؟ أقولُ لي: لكَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في السابقين من روّاد البث المتلفز أي أولئك الذين لم يكن تلفازٌ قبلهم ولا مُعدّون ولا مقدِّمون».

توقّعتُ منك أن تسأليني عن طبيعة البرنامج أو متى أبدأ في عمليَ الجديدِ أو كيف سأوفِّق بينه وبين التزاماتيَ المَسْجدية، غير أنّك اكتفيت بداية بملاحظة شريرةٍ - أو هكذا بدت لي - «قريباً إذاً تنضمُّ إلى نادي النّجوم ويُصبح لكَ معجبون ومعجبات!». كأنّي بمُلاحظتِك الشريرة ونبرتها المتهكمة أخذتْ لكِ بثأرك منّي وباتَ في وُسْعنا بعد هذه المنازلة المكتومة أن نستأنف الحديثَ مُتَسالمين. كُنْتِ أحيا من أن تستفسريني بفجاجةٍ كيف تمَّ للقائمين على القناة الجديدة اكتشافي، وفيمَ وَقَعَ خيارهم عليَّ دون سواي. ولكنّها استفساراتٌ كانت مُضَمَّنةً في أسئلتِك العديدة التي توجَّهتِ بها إليَّ عن القناة هذه وما يُثيره إنشاؤها من لَغَط، لا سيّما أنّها أوّل محطة تلفزةٍ خاصّةٍ، وعن تصوري للبرنامج وعَمَّن سيشاركني في إعداده. لم أكذب عليكِ في شيء مما أخبرتك لكنّني لم أُزفِقِ الوقائِعَ بمفاتيحها. فطويتُ عنكِ مثلاً أنّ الساعيَ الذي

Twitter: @ketab_n

حَمَل إلـيّ الاقـتراح جاءني أوّل مـرّة صـحـبـةَ أحـد كـبـار موظفي سفارتنا غداةَ حادثة التشويش على خطبتي وطويتُ عنك من أيّ مرجِعٍ عالٍ استحصلت على الـمُوافقة وأية صلةٍ بيني وبين هذا المرجع وأية علاقة سببٍ أو صدفةٍ، أو ما شئتِ، بين انتقالي إلى مدينتكم ومن ثمّ لقائي بكِ، إلخ... وبين ما بيني وبين ذلك المرجع من صلة!

طويتُ عنكِ أيضاً أنّني غداً صباحاً على موعدٍ للقاء أحد القائمين على القناة، ـ موعدٍ لم أطلبه ولا سعيتُ إليه ولكن تَعيَّن بسحر اتصالٍ هاتفي تلقيته صباح اليوم. كذلك فلقد كان من دواعي سروري أن استيقظتْ فجأة ملكتك على إنتاج الأفكار فأخذتِ تُلقين بها إليّ غافلةً على الأرجح أنّني كنتُ في أمسّ الحاجة إلى أن أتزوّد بما تُلقينه إليّ استعداداً لموعدِ الغَد.

على غير عادةٍ لم نُغادرِ المطبخ عند الفراغ من العشاء لتناول القهوة البيضاء حيث اعتدنا، على تلك الأريكة، في غرفة المكتب، بل لبثنا جلوساً إلى الطاولة التي اكتفيتِ بأن أخليتها من بعض الأطباق. لا لسبب مبين تأولتُ امتعاضك الذي لم تتحرّجي عن إبدائه، وبقاءنا في المطبخ

Twitter: @ketab_n

مزيداً من رفع الكلفة بيننا. لم أدرِ أنّ الأمر لن يقف عند هذا الحدّ. فعندما هَمَمْتُ بالرحيل قرابة الحادية عشرة والنِّصف، وعزمتُ عليك ألّا تخرجي من بيتك لإيصالي بسبب الطقس السيىء، ونزلتِ بعد لأيٍ عند طلبي هذا، وكنتُ على أن أتلفّع بمعطفي قلتِ: «انتظر». من غرفةٍ لم أكن قد دخلتها بَعْدُ، غرفة نومك، عدتِ بكيس ورق كبير أخرجتِ منه معطفاً كحليّ اللون: «جرّبه لنتأكد أنّه يوافقك ولا يحتاج إلى تبديل». بلا تردّد امتثلتُ لأمرك وجَرّبته فجاء موافقاً كأنّه خيط لي. دُرتِ حولي ثم غبتِ ثوانيَ، انتهزتها لأختلس إليّ في المرآةِ التي تملأ الحائِطَ المواجه للباب نظرةً، عدتِ بعدها بمقصٍّ صغيرٍ استعملته لإزالةِ وريقاتٍ تتدلّى من كُمّي المعطف. للوهلة الأولى احتُبِس لساني، وعندما أفْلَحْتُ في إطلاقِ سراحه راحَتْ عبارات الشكر والعتب والثناء على ذوقك تتوالى في غير انتظامٍ ولا ترتيب، وتزداد تَقَطُّعاً مع إحساسي بأنّ حمرة الخجل التي كَسَتْ وجنتيّ تغزو سائر جسمي وترفع حرارته. لم تجدي لي مخرجاً سوى حثّي على انتهاز «الهدنة» الجويّة العابرة ـ بدليل توقف المطر عن قرع النوافذ ـ للبحث عن سيارة

Twitter: @ketab_n

أجرة تعود بي إلى مسجدي، مُستلمةً مقبض الباب لفتحه متمنية لي ليلة دافئة. تمتمتُ بكلماتٍ غير مفهومة وانسللتُ من الباب انسلالاً لم يحوجني أن أوسِّع ما شَقَقتِهِ منه.

للمرّة الوحيدة لربّما لم تراجعني الرغبة تلك الليلة، بأن أبقى في ضيافتك وكنفك ولا تساءَلْتُ سؤاليَ الساذج: «هل بين أي رجلٍ وبين أية امرأة يأويان إلى بعضهما البعض أكثرُ ممّا بيني وبينك؟». ساذجاً كان سؤالي لأنّ العكس تماماً هو الصحيح... فلو بين كل رجل وكل امرأةٍ ما بيني وبينكِ لما أوى رجل إلى امرأة ولا أوت امرأة إلى رجلٍ، ولما اشتكى العالم من التكاثر وسُنَّتِ القوانينُ وشُرِّعتِ العقوباتُ للحدّ منه.

كان الطقس بارداً ولكنني كُنْتُ سعيداً بمعطفي الجديد وأسعدَ منّي به كنت مزهواً بأنّني لم أغِبْ عن بالك إذ كنتُ بعيداً عنك. لا ما يُعَكِّرُ عليّ فرحي سوى الكيس الورق الكبير إيّاه الذي أودَعْتِهِ معطفيَ القديم، والذي لا أجرؤ على التخلص منه وممّا يحتوي عليه لخشيتي من التفريط بما قد أكون دسسته في جيوب ذلك

Twitter: @ketab_n

المعطف المتشعبة ـ ما حال بيني وبين أن أحمي من البرد كلتا يدي. وكما أنّ الرغبة بالبقاء في ضيافتك لم تراجعني، لم أرَ في البرد سبباً وجيهاً للانكفاء سريعاً إلى غرفتي.

سيّارة الأجرة التي هوّنت من سرعتها عند اقترابها منّي لم ألتفت إليها. وبين الفينة والأخرى كنت أرسمُ أن أصل إلى طرف شارع أو مفترق طرق، ثم أتوقف في انتظار سيّارة تقلّني إلى مقصِدي. غير أنّني ما كنت أصل إلى حيث عيّنتُ لي حتى كنت أجدني أُتابع سيري مُتَعَمّداً في أحيانٍ أن ألتف حول بناء يسعني العبور أمامه، أو أبسطَ منه أن أتثاقَلَ في مشيي. ظننتني أتابع سيري أو أمشي، لم يكن هذا ولا ذاك، كنتُ هائماً، على وجهي، الأرجَحُ على وَجْهِكِ. رجلا الأمن الفَتِيّان الواقفان عند زاوية الرصيف المقابل يبدوان أنشط من كل زملائهما الذين مررت بهم حتى الآن. كأنّهما في الدقائق الأولى من نوبتهما. لهذا السّبب، أو لمجرد القيام بالواجب أو تحسباً لمرور ذي الرتبة الأرفع، أو اشتباهاً بي وبما أحمِلُ استوقفاني طالبين أن يفتشا الكيس. استوقفاني؟ أفتري

Twitter: @ketab_n

عليهما إنْ أُسَمِّ ما أتياهُ بغيرِ هذا الاسم ولكن أظلم نفسي. فجرّاء استيقافي لم أقف فقط: رُفعتُ وضعتُ أُقِمْتُ أُقعدتُ... انتُشِلتُ مما كُنْتُ فيه... قولي ما شئتِ إلّا أنّني استُوقفت! رغم أنّ رجال أمنٍ فتياناً مثلهم ينتشرون في جوار المسجد كل جمعة لم يحدث لي أن اقتربتُ من أحدهم قربي من هذين الاثنين الليلة. بل لا أذكر أن سَنَحت لي فرصة محادثة أحدهم أو استدعت ذلك مناسبة.

في الضوء الخافِتِ المنبعث من المصابيح الكهربائية المعلقة على عواميدَ شاهقةِ الارتفاع، أخرجتُ معطفي القديم من الكيس ونشرته على مرأى منهما شأن بائع يُدَلِّل على بضاعته في سوق شعبية. تحسّسه أحدهم: لا أجسامَ صلبة أو مريبة. بحكم الضرورة كنتُ أتحسّسه بدوري، لا شبه بين ملمسه وملمس معطفي الجديد. لحسن الحظ أنَّ الضوء كان خافتاً فلم أتبيّن رثاثته التي دُهِشتُ لها لاحقاً، في الضوء، في غرفتي، إذ كنت أتفقد جيوبه. الكيس الورق الكبير الذي استلقى على الرصيف المبلل بهدوء عندما أفرغته من محتواه حَظِيَ هو الآخر بنظرة فاحصة إلى ما بداخله عندما

Twitter: @ketab_n

تناولته لأوضّب فيه المعطف مجدداً. «تفضّل». البرد الذي لم أرَ فيه قبل بعض الوقت سبباً وجيهاً للانكفاء إلى غُرفتي حَضَر كلُّه فجأةً، وكانت الأعجلَ إلى إجابته أسناني التي تمالكتها بصعوبة بالغةٍ من الاصطكاك. لم أتفضّل بل ابتعدتُ قليلاً عن حيثُ كانا يقفان آخذاً هيئة من ينتظر سيّارة أجرة...

أنفي أو السماء أو المدينة: رائحة بارود. هل يُخلّفُ البرق والرعد رائحة بارود؟ أم أنّ استيقافي بحثاً في معطفي القديم عمّا يمكنُ أن يُخِلَّ بالأمن هو ما يملأ خياشيمي؟ أم أنّ الخوفَ - لِيَصْدقَ كلّ الشِّعر الذي أغيّبه - لا رفيقَ سواه في الليالي الباردة الليلاء.

بلحاظ ما كانت عليه تلك الليلة من برد، وما كنتُ عليه أنا، وما أخذ يتناوب عليَّ فجأةً من رعداتٍ، عدتُ لا أميّز بناتِ البرد منها من بناتِ الخوف. لحسن الحظ لم يَطُلِ انتظاري سيّارةَ الأجرة ولا طالت بنا الطريقُ إلى مَقْصدنا.

بعضُ البرد لا سبيلَ إلى تبديده: بردُ غرفتي مثلاً رغم جهود المدفأة الكهربائية التي أوصيتُ الحاجَّ خادمَ

Twitter: @ketab_n

المسجد، خادمي أحياناً، أن يُشعلها قبل إخلادِهِ إلى النوم. والمعطف الذي خَلَعْتِ عليَّ ألا يَصُدُّ البرد؟ معطفك، ليلتذاك على الأقل، كان يُشْعِرُني بالطمأنينة أكثر منه بالدفء، طمأنينةِ مَنْ نادى دثّروني، فأُجيبَ نداؤه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٧

معطفي الجديد، خِلعتك عليَّ، يفضح سائر ملابسي لا معطفي القديم فقط. هذا ما اكتشفته صباح اليوم التالي إذ كنتُ آخُذُ ملابسي محاولاً التأنّق ما استطعت، كرمى موعدٍ لا نظيرَ له في حياتي السابقة. لا مرآةَ في غرفتي تستغرقُ الواقفَ أمامها، ولكن واحدةٌ مُستطيلة تتآكلها شامات سوداء تعلو المغسلة، أستعين بها لإصلاح شعري ولحيتي القليلة خِلقةً التي حَرصْتُ دوماً على الحيلولة دون تجاوزها الحدّ الأدنى (وهو بشهادة اللحى الأشيع حَدٌّ غير معتبر على الإطلاق). لا سبيل إذاً أن أراني فتطمئِنّ نفسي وحسبي أن أُحْسِن الظن بمعطفي الجديد وأن أتوكّل عليه للتستير على ما قد يشوبُ أناقتي من عيوب. من ثمّ كان ما أزمعتُ عليه من عدم التخفف منه!

تمامَ التاسعة دخل عليٌّ الحاج خادم المسجد وأشعرني

Twitter: @ketab_n

بلهفة أنَّ بالباب من يسأل عنّي لاصطحابي، وأنّ سيّارة فارهةً تقف بباب المسجد. بعفوية تناولتُ حقيبتي التي ليس فيها سوى أحد مجلّداتِ ديوان المتنبّي وبعض الأوراق البيضاء كأنّ ذهابي بدونها ينتقص من جدّية الموعد. هي أيضاً لا نسبةَ بينها وبين معطفي الجديد. لثوانٍ، داخلني التردّد في جدوى حملها والتوجس من وقع ذلك على من سألتقي بهم، ولكن سرعان ما تنفست الصعداء إذ تَمَثَّلَتْ لي مشاهد من الحقيقة والتلفزة يظهر فيها رجالٌ أنيقون بأيديهم حقائب عليها آثار البلى: أليس البلى دليلاً على الاستعمال المتكرر الكثير؟ السيّارة الفارهة السوداء هيكلاً ونوافذ التي بغتت خادم المسجد كانت لا تقف بباب المسجد فقط ولكن تَسُدُّ الطريق المواجه لمدخله بالكامل. سبقني المرافِقُ بخطواتٍ وفتح لي باب السّيارة الخلفي. كنت على أن أقول له إنّني أفضّل الجلوس في المقعد الأمامي بجانبه لظنّي أنّه السائق لولا ما تبيّنته، عند فتحه البابَ، أنّ السائق في مقعده لم يغادره.

الصَّمتُ بعض تربية الرجلين وتدريبهما. طوال الطريق لم ينبِسا ببنتِ شفة. مهارة السائق وفراهة السيّارة يبدّدان

Twitter: @ketab_n

أيّ شعور بالحركة، ولولا أنّ المَشاهِدَ التي يَسَعُ المرء، إن شاءَ، أن يتتبعها من وراء النوافذ الداكنة تتوالى (ذلك أنّها لا تقتحم العين) لخال أنّه في طائرة لا صوت لمحركاتها. حسِبْتُ وجهتنا ضاحية المدينة الشمالية، ولكن ها نحن نعدوها ونأخذُ في طريقٍ تقومُ على جوانبها أبنية لم يكتمل إنشاؤها بعد، ثم ننعطف يساراً ونأخذ في أخرى أضيق قليلاً، صاعدة، حديثة التعبيد جداً لا يقوم على جوانبها شيء ألبتة بما يوحي أنّها طريقٌ خاصّة. لم يخطىء ظنّي، فبعد مسير دقائق أسلمتنا الطريقُ إلى مدخلٍ لا بوّابة له تحفظ من الدخول إليه إلّا بإذن وإنّما مجموعة من الأسداد والأحباس المعدنية، أشبه بأثر فنّيٍّ حديث. بعد اتّصال لاسلكي موجز لم أفقه منه شيئاً بين المرافق وزميل له لم أره، ولكن قدّرت أنّه في المقصورة الفضائية الهيئة الرابضة إلى يمين المدخل تحركت هذه الأسداد والأحباس بمقدارٍ أفسح لسيّارتنا المرور بينها. قام في نفسي أنّنا وصلنا فأخذتُ أتهيأ للّقاء كتلميذ لامتحان. خاب ظنّي: فعوض أن يتجه السائقُ بالسيّارة شطر لفيف الأبنية اتجه بها في الاتجاه المعاكس صوبَ باحة تتجمع فيها مركباتٌ وحافلاتٌ من

Twitter: @ketab_n

كل الأحجام ولشتى الاستعمالات. وبوصولنا إلى الباحة يمَّم نحو فِسطاط تَجَمْهَرَ في ظلّه قطارٌ من السيارات المتشابهة. عند المكبح الأخير، قبل أن تهدأ سيارتنا في مكانها، انسلّ المرافق خارجها، وما هي أن توقفت تماماً حتى فَتَحَ لي البابَ الخلفي ودعاني أن أتفضّل.

بالأمس حين أشار عليّ رجلا الأمن أن أتفضّل فهمت بلاغهما أن تابع طريقك. أمّا هذا فإلى أين يُريدني أن أتفضل؟ قبل أن أُتمّ امتثالي لأمره الودّي وأجدني بين سيّارتين، فَتَحَ بابَ السّيارة الأخرى الخلفيّ وكَرَّر عليّ الأمرَ إياه. (في ما بعدُ، مع تعاقب زياراتي إلى المكان، عرفت أن لا سيارة آتيةً من الخارج، على الإطلاق تقريباً، مأذونةٌ أن تتجوّل في الحرم وأنّه على الجميع، موظفين وزواراً، أن يدعوا سيّاراتهم في الباحة على أن يُتولّى نقلهم منها إلى مقصدهم من الأربعة المباني). الأمرُ نفسُهُ تكرر عند وصولنا بعد برهة قصيرة جدّاً إلى مقصِدِنا مع هذا من الفارق أنّني هذه المرّة ترجّلتُ من السيارة لا لأستقل سيارة أخرى ولكن مِصعداً قاد عُروجَهُ بي من الأرض إلى طبقةٍ شاهقة شابٌّ يُحاكي في أناقته كل الذين

Twitter: @ketab_n

التقيت بهم من زملائه، وكمثلهم أيضاً ليس على لسانه إلّا «تَفَضّل».

في ردهة الانتظار التي يُفضي إليها المصعد تَوّاً لم أنتظر إذ تلقفتني مضيفةٌ رافقتني إلى مكتب أسلمتني فيه إلى زميلةٍ لها أعلى رتبةً، رافقتني بدورها إلى مكتب آخر لم تكد ربّته تدعوني بلطفٍ جمٍّ إلى الجلوس وتَهْمِسُ في الهاتف بكلمات لم تبلغ مسمعي، حتى كانت تُصْدِرُ لي الأمْرَ المضاد بالتّفضّل وتسبقني وتقرعُ بيدها قَرعةً رمزية على باب سرعان ما انفتح وتلقّاني بالترحيب، في الجهة الأخرى منه، مَنْ ركبتُ كل هذه المغامراتِ في سبيل لقائه. كأنّي به خيّبتُ انتظاره بعضَ الشيء إذ رأى أمامه رجلاً لا عِمامةَ تُكَلِّلُ رأسَه ولا لحية كالمخلاة تَتَقَدَّمُهُ - رجلاً ربعة في معطف كحلي وبيمينه حقيبة أكل الدهر عليها وشرب. الخمسينيُّ الفتى رغم ما يَخِطُهُ من شيب، الحاكمُ بأمره على هذه المملكة، المُتَتَرِّسُ وراء هذا الجيش من الحجّاب والحاجبات وما يقفون عليه من أبواب وبوّابات لا وقتَ لديه يهدره في تساؤلاتٍ لا طائل تحتها أو في مجاملاتٍ لا مَحَلَّ لها أصلاً. ولكن ما حيلته

Twitter: @ketab_n

بين يدي رجلٍ أجير ولكن يُتفق أنّ ربَّ عَمَلِهِ الفخريَّ، هو ربّ السماواتِ والأرض؟ وددتُ لو أمكنني أنْ أمدّ إليه يد العون، لسانَ العونِ أعني، أن أقول له: لا عليكَ من أنّني رَجُلُ شرعٍ و«دين» وأجيرٌ عند ربِّ العالمين... هذه مهنتي ولو أنّها لا تُشبهُ في شيء مهنتك... معطفُكِ فعّال للغاية وكذلك التدفئةُ رغم رحابة المكان الذي كان يتّسع لمكتبٍ مهيب وتوابعه، وطاولة اجتماعاتٍ دائرية أحصيتُ حولها اثني عشر كرسياً.

بعد الترحيب بي ثانيةً، وفي ما يُشبهُ الدعوة إلى التشمير عن السواعد، اقترح عليَّ أن أتخلّى عن معطفي. أثنيتُ على اقتراحه وسارعتُ إليه متناسياً ما كنتُ أزمعتُ عليه في الصّباح من التستّر به: أوّلاً لئلّا أخذل مضيفي وثانياً، وهو الأهم، لأهدىء به من تَصبّب العرق تحت إبطيّ. كما كنتُ أتوقّع، وأتمنّى، أخذ بناصية الحديث مُستشهداً بصديقه، كما وصفه، شيخي الذي لم يُزَكِّني فقط لعلمي وأخذيَ الأمورَ بما تقتضيه من شدّة أو لين ولكن، على حَدِّ تعبيره، لأنّني، في كل ما أُندب إليه، موضع ثقة الجميع، هُنا وهناك! كذلك، تابَعَ: «سأسمح لنفسي بتسمية

Twitter: @ketab_n

الأشياء بأسمائها بلا لفٍّ ولا دوران. كل وَحَداتِ الإعداد والتقديم اكتملت من حيث العديد وانتظمت إلّا وحدة البرامج الدينية، وأنتَ أدرى لماذا (هل كُنتُ حقّاً أدرى؟). لو كانت النيّة أن نبثّ أية برامج دينية لما أعيانا الأمر: لعمدْنا إلى تلك التي تبثها التلفزة الرسميّة ونسجنا على منوالها أو لاستوردنا برامج من إحدى الدول الشقيقة التي لا اعتراض على إسلامها. ليس هذا ما نُريد. بالطبع برامجنا الدينية ستوضع صوريّاً تحت إشراف وزارة الأوقاف ودائرة الإفتاء فيها، وسننقل خطب الجمعة والأعياد من مظانّها الرسميّة ولكننا، إلى هذه البرامج المُعَلَّبة نَطْمَحُ إلى إنتاج برامج ألصقَ بالواقع... أكثر... وتمتم كلمةً بلغةٍ لم أفهمها، فلنقل أقل تحفّظاً... فلنقل أجرأ».

بدا لي من قلّة الأدب ألّا أُعقِّبَ على كلامه الذي قَطَعْتُهُ عليه إراحةً له، بصراحةٍ تُضاهي صراحته: «في تقديري أنّني على جهلي بمناهج الإعلام المرئي المسموع، أفهم ما عنيتَه بقولك "برامج أقلّ تحفّظاً... أجرأ"، ولا أحْسَبُني أُضيفُ إلى عِلْمِكَ شيئاً بأن أخبرك أنّ الكلامَ في المساجدِ، مساجدِ الأحياء والدساكر التي تشهد معارك

Twitter: @ketab_n

يوميّة من أجل الدفاع عنها وردّ المتسللين إليها بغية فتحها وضمّها إلى ملكوتهم، ـ أقول: إنّ الكلام في هذه المساجد لا يعرف التحفّظ ولا الخفر، ولكن... هل من المسموح به أن تُنقَلَ هذه الحربُ الفقهيّة الظاهر، السياسية في الظاهر والباطن معاً إلى العلن عبر أثير التلفاز؟». طمأنَتْهُ صراحتي. ووَشَتْ بذلك إيماءة برأسه إذ أخذ يستعِدُّ للجواب: «سياسياً لا مشكلة. أما قانونياً فالقناةُ مشروع قائم بأموال خاصة، وذو شخصيّة معنوية مستقلة، مَنْ يَرَ سبباً لمؤاخذتنا فليخاصمنا إلى القضاء».

لم يُخيّرني مضيفي بين القهوة والشاي ولا احتاج أن يستعمل الهاتف أو سواه من وسائل الاتصال ليُقرع البابُ ويتقدّمَ نادِلٌ محترفٌ بيده طبق فضي عليه قدحان من الشاي وقدحان من القهوة. انتهز مُضيفي دخولَ النّادل لينتقل من وراء مكتبه إلى الكرسي المواجِهِ لي، وما إن غادَرَ النادِل وعدنا وحيدين حتى بادرني بـ«حسناً، دعني أصْدُقْكَ القول... أنا لا أحبّ رجال الدين ولا أكرههم بيد أنّي أوثر الابتعاد عنهم. صديقي، شيخك، استثناء يؤكّد القاعدة. وعلى الرغم من إطرائه الواثقِ بك فلقد كُنتُ متهيباً هذا اللقاء...

Twitter: @ketab_n

أعترفُ بأنّني لا أفهم شيئاً في الأديانِ والمعتقدات غير أنّني، بتواضع، أدعي القدرة على التمييز بين برنامج متلفزٍ جيد، سواء أكان دينيّاً أم غير ذلك، وبين آخر رديء... أريد برنامجاً دينياً من ساعة ونصف الساعة، بحساب الوقت المتلفز، يستوفي شرطين: الجودة والموقف الصريح الشّجاع من إسلام أظننا متفقين على رفضه... هل توافق على خوض المغامرة؟». قبل أن يَسْمع جوابي أردف: «ستجد بتصرفك فريقاً من التِّقْنيين والفنيين، ولك أن تَستعين بمن ترتئي».

هل تَتَخيّلين بِمَ كُنتُ أُفكِّر في تلك اللحظات؟ قد أُفاجئك وقَدْ لا تُصَدّقين: بالنجاح في إثبات تفوقي وسبقي، واستحقاقي إيّاك. ومن حيثُ لا أدري أحسَسْتُ بي أتَقَمّصُ الشخصَ الوحيدَ الكفيلَ بتقريبي من مبتغاي، شَخص الطّالِبِ الماكِرِ الذي لا يرى وسيلةً يتشفّى بها من قِسْمَتِهِ ولادةً ونشأةً وإيماناً وعلماً إلّا التَّرفّع عن الأقران حَدَّ الانقطاع. لستُ أدري هل قُلْتُ لي شيئاً من مثلِ هذا: «لا تتغابَ: اجتماع هذه الصُّدف ليس مكافأة لك مكتوبةً باسمك في لوح محفوظ على ما اجتهدته،

Twitter: @ketab_n

فحذارِ أن تَدَعَ الفرصة تفوتك». غير أنّني عَمِلْتُ بمقتضاه. مبالغةً في إشعارِ مُحَدّثي بأنّني في هذا الأمر واحدٌ غادرتُ منطق الحوار وأسْمَعْتُهُ ما قامَ في نفسي أنّه يَوَدُّ سماعه منّي: «بل أنا بتصرفكم، لا تبييضاً لوجه شيخي وتَضْديقاً لتزكيته، ولا عِرفاناً بثقتكم فقط، وإنّما اقتناعاً بضرورة ما تَنْشُدون...».

في هذا المكان الذي كلّ ما فيه ومن فيه يُشْبِهُ ما يراه المشاهد على شاشة التلفزة كان من قِلَّة الفطنة أن يُدْهِشَني انقطاعُ الهاتف عن الرنين طوالَ هذا الوقت وألّا أُحْسِنَ الظن بملكة الكاتبة الحاجبة على تقدير الأمور والمواقف بنفسها لا بأمرٍ صريح. كذلك فحين عاد محدثي، ربُّ عملي الجديد، إلى كرسيّه وراء مكتبه، ونادى على الكاتبة بجهاز غير الهاتف، لم يفتني أنّها، إذ كانت تقف إلى يمينه وتتلّقى توجيهاته بشأني، بمن يُريدني أن ألتقي ووفق أيّ ترتيب، دَسَّت تحت ناظريه وريقةً لم أشكّ في أنّها لائحة بأسماء المُتّصلين به هاتفياً، وأنّه تناول قلماً ورَسَمَ به عليها بعض الإشارات.

لم يأتِ مُضيفي بما يَنِمُّ عن رغبته في رَفْع جلستنا

Twitter: @ketab_n

بل راح يُكَرِّرُ بالتفصيل ويسترجع بعضَ ما توافقنا عليه من مثل «إذاً، غداً صباحاً، تمام التاسعة، تجد السيّارة في انتظارك، وابتداء من العاشرة تبدأ لقاءاتِك بأعضاء الفريق الذي...» وذلك في محاولةٍ واضحةٍ لمساعدةٍ لحظاتِ من الوقتِ الضائع على المرور خفيفة.

من أحدِ اثنين لا ثالثَ لهما كان يُمكن من نَنْتَظِرُ، (أو ما)، أن يَدْخُلَ علينا: من الباب أو من الهاتف. لم يُخطىء ترقبي، فما هي إلّا أن رنَّ جرسُ الهاتف. لم يحتج مضيفي إلى رفع السمّاعة بل اكتفى بالغمز على زرٍّ من أزراره أو أكثر فامتلأت القاعةُ بصوتِ شيخي يتلقّى مُحَدِّثه بـ«مولانا» ويُبادله تحايا وسلامات فيها من الهَزْل مقدارُ ما فيها من الودِّ والدُّخلل. في أعقابِ هذه المقدمة التي تهيأ لي أنّها مَدْخلهما المعتاد إلى الجدّ قال مضيفي لشيخي إنّني ثالثهما، وشكر له تزكيته إيّاي وأعلمه أنّني ابتداء من صباح الغد أباشر لقاءاتي بمن يلزم. وعلى وَعْدٍ إطلاعه بما يَجِدّ أوما إليّ بابتسامة عريضة أنِ اقتربْ وناولني سمّاعة الهاتف لألقي على شيخي التحيّة.

•

Twitter: @ketab_n

منذُ ذلكَ اليوم تملّكني شعورٌ غريبٌ بأنّني شَريكٌ في مُؤامرةٍ إن كُتِب لها أن تنجح يكونُ من شأنِ ذلك أن تتبدّلَ أمورٌ لا حصر لها، وبأنّني أخيراً، وَجَدْتُ المكان المُناسِبَ الذي يتّسع لي جميعاً: لِعَلَني وباطني بمن في ذلك أنتِ! كأيِّ أحدٍ، كنتُ أُبالغ بيني وبيني في أهميّة الأمْرِ الذي دعيتُ إليه. أمّا أنّ برنامجـ«ي»، على سبيل المثال، ليس إلّا أحد عشرات البرامج التي تبثها القناة أسبوعياً، وأنّ المشاهدين بالخيار بين متابعة برامج قناتـ«ي» وبين أن يُفَضّلوا عليها برامج ستّ قنواتٍ أخرى يَسْهُلُ التقاطها ـ هذه الفكرة البسيطة الساذجة لم تخطر لي إلّا بعدَ أسابيع من انغماسي في العمل.

صباحَ اليوم التالي تَكَرّر مَشْهَدُ مغادرتي المسجدَ في السيارة الفارهَة. ولما كان أحد الأيّام المخصَّصة لاستقبال المراجعين والمراجعات فلقد انتهزتها مناسبةً لافتعال ما يُشبِه حفل تسلّم وتسليم بيني وبين زميليَّ المنتدبين لمعاونتي، فأعلمتهما بأنّني كُلِّفت «رسمياً»، وأكّدت على «رسمياً»، المشاركة في إعداد سلسلة من البرامج الدينية وأنّني لهذا السّبب مضطرٌّ إلى التغيّب عن المسجد لفتراتٍ

Twitter: @ketab_n

طويلةٍ، مضيفاً أنّني كُلّي ثقة بهما وبحكمتهما. لم أُشِرْ إطلاقاً إلى ما ذكرته لكِ من أنّني قد أكون أيضاً مُقَدِّم البرنامج. فقبل موعدِ الأمس كنتُ أظُنُّ أنّ الأمر الذي أُدعى إليه سهلٌ يَسير وأنّ البرنامج لن يَعدوَ أن يكون محاضرةً ولكن مصوّرة. أمّا بعده، وبعدَ أن أفهمني محدثي أنّ المطلوب غير ذلك تماماً، فلقد ندمتُ على تسرعي إلى ادعاء الجمع بين الإعداد والتقديم وحاذرتُ أن أعود إلى ارتكاب الخطأ إيّاه، لا سيَّما أنّ ألسِنة زميليّ والحاجّ خادم المسجد لا وليَّ عليها ولا سلطان.

هذا الصباح أيضاً تفضّلتُ بعدد ما تفضّلت بالأمس إلى أن وجدتُني رابع أربعةٍ حول طاولةٍ مستديرة. كان بيننا شابّةٌ أُشير عليها، إكراماً لي على ما يبدو، أن تحتشم للمناسبة فوق ما تعرف، فربطت حول شعرها مِنديلاً لم يَكُفَّ ينفلتُ ويشاكسها. بالطّبع أذكرتني بلقائنا الأوّل في المسجد وكدتُ أنْ أدعوها إلى التخلص منهُ (وهو ما حَصَلَ فعلاً بعد ذلك بأيّام). كانتِ الشابة أفتانا بلا منازع ولكن على الرغم من التقارب في السنّ بيني وبين الآخرين فلقد أشعرني سلوكهم الشديد الحذر والتحفظ

Twitter: @ketab_n

نحوي، نحو الشيخ مني الذي سَبَق إلى خيالهما، - أشعرني بهَرَم لم يكن فيَّ ولم أدرِ كيف أُثبت براءتي منه. بسرعةٍ فاجأتني، وجدتنا في صُلب الموضوع. فبعد تعارفٍ سريع، ناولني المُقَدَّم بينهم، مخرجُ البرنامج، ملفّاً أنيقاً قال إنّه يحتوي على مقترح مبدئي لِما يُمكن أن تكون عليه فِقْراتُ البرنامج. كلّ شيء محسوبٌ بدقّة متناهية: أطوال الفقرات، ترتيبها، المحطات الإعلانية. كما يجب، كان المقترح ينصُّ على أن تُفتتح كلّ حلقةٍ بآي من الذكر الحكيم وأن تُخْتَتَم بدعاء، وبين هذا وذاك كانت تتَسَلْسَلُ عناوينُ برسم التوسيع: «الشريعة في الحياة اليوميّة»، «زيارة إلى مسجد»، «استفتاءات» إلخ... تليها جملةٌ من الملاحظات والأسئلة: «اختيار القرآن للحلقات الست الأولى»، (والمقصود بالطبع آيات القرآن) «الحصول على إحصاء بالمساجد وعناوينها»، «إعداد لائحة استفتاءاتٍ للحلقات الست الأولى»، «مرشحون للمشاركة في الإعداد؟»، «ضيوف؟»، ثمّ مجموعة بنودٍ لم أتمكث عندها إذ اعتبرتُني غيرَ معنيّ بها: «تصوير داخلي/خارجي»، «تجهيزات» إلخ... (في نهاية الاجتماع اعترفَ ليَ المعدّون بأنّ المعلومات

Twitter: @ketab_n

«الإسلاميّة» مصدرها متابعتُهُمُ البرامج الإسلامية التي تُذيعها التلفزات الجارة في حين أنّ ما تبقى من بنات أفكارهم، ولكنّهم لا يعرفون إذا كانت «مقبولة إسلامياً»). بعد استعراض المقترح والاستماع إليهم يُفَصّلون ما يعنونه بهذا العنوان ويقصدونه بهذه الملاحظة أو ذاك السؤال، انتقل بنا مديرُ جلستنا ومخرجها إلى ما أسماه «الموضوع الأصعب»: «نُفَضِّلُ أن يُقَدّم البرنامج شيخٌ لا يُشبه الشيوخ الذين يراهم المشاهدون عادة، مَنْ تقترح؟».

لم يُمْهِلْني فأجِدَ السبيل إلى مخرجٍ لبقٍ يرفع عنّي مؤونة الجواب بل استدرك بصوتٍ خفيضٍ متوجهاً إلى معاونيه، «علماً أنّه لو تُرِكَ ليَ الخيار لاقترحتُ مولانا، صوته إذاعي من الدرجةِ الأولى ووجهه تلفزيوني، وفي أيّة حال فالتجربةُ خير برهان... ما رأيكم مولانا؟». ارتبكتُ ولربما احمرّت وجنتاي حياءً من إطرائه على صوتي ووجهي ولربّما أكثر: كان شأني شأن من يَرِدُ عليه خبر سعيد ويجتهد في إخفاء سروره. كذلك لم أملك سوى أن أعقِّبَ على قول محدثي بـ«لا شك أنّك تبالغ» ولم يملك هو سوى أن يُخاصِمني إلى التجربة التي هي خير برهان!

Twitter: @ketab_n

«هل يتّسع وقتك لنجرّب اليوم؟» هل كان عندي أهمّ من ذلك؟ «يتّسع يا صديقي يتّسع». لا تَسَلني من أين جئته بـ«يا صديقي» ولكنّه ما كان. وَجَّهَ «صديقي» بتوجيهاته إلى معاونيه، بلغة غير التي كنا نتفاوض بها، واسترحنا قليلاً بناء على اقتراحه ريثما يتمّ تجهيز غرفة التصوير التي سيتقرر فيها ما اعتبرته في تلك اللحظاتِ «مصيري». لا أكتُمُك: في تلك اللحظات أيضاً خطرت لي فكرةٌ بدت لي آثمة: أليس من الجائز أن أكون قد أغويتك على غفلةٍ منّي بـ«صوتي الإذاعي ووجهي التلفزيوني». كدتُ أدعني لأفكارٍ أجنّ من مثل: «وماذا لو كنتُ رجلاً جذاباً حقاً؟» ولكن صديقي أنقذني بـ«تفضّل» إلى أن وصلنا إلى مقصورة تعُجّ بآلات لم أتعرَّف منها إلّا على آلة التصوير. كانتِ المقصورة مقسومة قسمين يحجُز بينهما لوح زجاج أو من جنسه. في القِسم المزدحم بالآلات كنا ثلاثة، أنا والشابة وثالث، أمّا في القسم الآخر فجلس إلى طاولةٍ أشبه بآلةِ قانونٍ ضخمة المخرج ومعاونه. أصلحتِ الشّابةُ جلستي ودَسَّت في عُروة سترتي جهازاً منمنماً متصلاً بسلك عَمِلَتْ على إخفائه بمهارة وكررت مرّات عديدة،

Twitter: @ketab_n

كلّما اضطرها الأمر إلى الاقتراب الشديد منّي، نظير لفظة عفواً بغير العربية، وتمالكت نفسها بصعوبة من الضّحِك استجابة للإيماءات الهازئة بحجابها التي كانت تصدرُ عن الثالثِ المتواري وراء آلة التصوير، متظاهرة بعدم الاكتراث لها ولصاحبها، وإذ كان كل ذلك، أشارت بإبهامها إلى المخرج أنْ كلُّ شيء على ما يرام، امتلأ المكانُ الصغير بصوته الذي تلوّن فجأة بنبرة آمرة: «افترض أنّني الجمهور... توجّه إليّ وتجاهل آلة التصوير وكلَّ ما حولك... تيسيراً عليك سوف أسألك أسئلة أجِبْ عنها كيفما اتفق محاولاً التطويل ما أمكن...». هكذا كان، وفوق ذلك يبدو أنّني لم أُجب عن أسئلته كيفما اتفق ولكن بشيء من البلاغة أيضاً. فدونما تعمّد وجدتُني تحت كلّ هذه الأنوار والعيون وفي هذا المكان الحارِّ العاجِّ بالآلات والأسلاك أتحوّل من العاميّة إلى الفصحى، وأفتتح كلامي بالبسملة والصلاة، تماماً كما يُصيبني كُلما ارتقيتُ منبراً أو تحدّثت في مناسبة وفاة؛ (من المُدْهش أنّني في المناسباتِ السّارة لا أتحوّل إلى الفصحى... كأنّما السرور ليس بالأمر الجلل!).

دام الامتحان نحوَ عشرين دقيقةً تخللتها استراحاتٌ

Twitter: @ketab_n

قصيرة تارة لتثبيت الجهاز المنمنم المعلق في عروقي، وتارة أخرى لتبديل طبيعة الإضاءة. لم أحتج إلى انتظار نتيجة الامتحان طويلاً، فالابتسامة العريضة التي عَلَت مُحَيّا صديقي المخرج كانت ليَ البشارةَ وكانت منه لائحة الافتخار بصدق فِراسته. في مقصورة مجاورة جلسنا في العَتَمةِ وشاهدنا الشريطَ الذي فرغنا للتوّ من تصويره. كان للمخرج بين الحين والآخر تعليقاتٌ منها ما يتناول أدائي ومنها ما يعني معاونيه ويتّصل بكيفيّاتٍ يجب تحاشيها في مرّات مقبلة. بالطبع كنتُ غائباً عن تعليقاته حاضراً في عالمٍ آخر. هل سيبدو عليَّ حينما أوافيك الليلةَ أنّ شيئاً لم يكن في الحُسبان، ـ في أي حُسبانٍ على الإطلاق ـ قد دَخَلَ على حياتي وأنّني في غفلةٍ لا مثيلَ لها وبغير جُهْدٍ أو طلبٍ أُجتبى لأمرٍ لا أملك أن أجزم أنّني ابن بجدته أو خَيْرُ مَنْ يُسْعى إليه للاضطلاع به. هذا الشيء الذي لم يكن في الحُسبان انتهى بأن قلب حياتي رأساً على عقِب. أمّا في ما بين ذلك اليومِ الذي ثَبُتَ فيه صلاحي قَلْباً وقالباً لـ«النجومية»، على حَدّ قولك، وبين اليوم الذي أُثْبِتُّ فيهِ عدوّاً من أعداء اللّه (لا أقلّ من ذلك!) فكانت أشياءُ

Twitter: @ketab_n

أُخرى طفيفةٌ عابرةٌ غيرُ ذات بالٍ في عيون الآخرين، ثقيلةٌ في ميزاني راسخةٌ في ذاكرتي، ذاتُ بال لا ما يُضارِعُه أو يُضاهيه. في الطليعةِ من هذه «الأشياء» حرّيّة في التّصرّف بوقتي لم يكن لي عَهْدٌ بها منذ نزولي في بلدكم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٨

لا أدّعي أنّني ولدتُ مفطوراً على الحريّة عموماً أو نشأتُ على حريّة التصرّف بوقتي، بل لا أدّعي أنّني شعرتُ بي مسلوباً حريتي قبل أن التقيتُ بك. فالحرية قبلكِ لم تَعْدُ أن كانت من وقتٍ إلى آخَرَ أمراً مُبَيّتاً بليلٍ، مقضيّاً تحت جنح الظلام. وبهذا المعنى فلقد كان العمل بـ«الحرية» أو تعليقُ العَمَلِ بها مسألةً عارضةً تطرأ من وقتٍ إلى آخر كمثل الألم الذي يُراجِعُ عضواً من أعضاء الجسم في أوقاتٍ مُعَيَّنة أو تحت مناخ ما. من السَّخَف أن أُثَنّيَ على ما تقدّم للتوّ بجملةٍ من قبيلِ «أمّا معكِ...» أوْ ينبغي عليَّ أن أَخُطّ هذه الـ«أمّا» التي يُفترض بها، في هذا المقام أن تُفيد القطيعة بين ما سبق وما يلي ـ أن أخُطّها عملاقةً لا نسبة بينها وبين سائر الكلمات التي تُحيط بها بما يُنَزِّهها أن تُشَبَّهَ بأيّة «أمّا» سلفت أو قد يجري بها القلم.

Twitter: @ketab_n

ليس صدفةً أن سَوّت صلتي المطردةُ بكِ بين الحرية وبين حريتي السلبية في التصرف بوقتي. فمعكِ اكتشفتُ أنّ وقتي هو حياتي وأنّ كلّ ما (ومن) يقيّده يُقيّدها وكلَّ ما (ومن) يُضيّعه يُضَيّعها، وكل ما (ومن) يتعدّى عليه يتعدّى عليها. قبلكِ كنتُ أشتهي النساء، بلا تمييز، ولأنّه كذلك كان قضاءُ هذه الشهوة كلّما حَمَّت، قصراً أو تماماً، بلا تمييز أيضاً. كانت شهوتي أشبهَ بعادةِ النساء، بقَدَرٍ قدّرته الطبيعةُ لغايةٍ في نفسها ولبقاءِ النَّوْع لا لبقاءٍ بعينه، بلا تمييز إذاً. معكِ، سيراً على هذا التشبيه، اضطربت أدوار عادتي، تقاصرت، تطاولت، لحقني من جرّاء ذلك ما يلحق النساء من قَلَقٍ وخلافه... لِرَدّها إلى نصابٍ معقول كان لا بُدَّ من وقتٍ مديدٍ إلى حَدٍّ لأكتشف أنَّ حريّةَ التّصرّف بوقتي سليبةٌ وكذلك سعيي إلى استعادتها. استمرّ هذا السعيُ مُتَقَطِّعاً طيلةَ الفترة التي سبقتِ انتصار التلفزة لي على آلي: مسجدي وإخواني وأمّتيَ الصغيرة. فمنذ تأكد لي أنّني مُقبِلٌ أن أُطِلَّ عليهم من شاشاتهم بل أن تنشقَّ شاشاتُهم عني دونما استئذان مساء كل خميس، ضربتُ عرض الحائط بالكثير من

Twitter: @ketab_n

الأعراف التي كانت ترعى مكاني منهم وبينهم، وفي الطّليعة عدلي في توزيع الوقتِ بين شؤوني وبين شؤونهم علماً أنّ شؤونهم هذه كانت في كثير منها أدخَلَ في المجاملة، سواء في المسجد أو خارجَه، منها بالإدارة والتدبير. لم أجْفُهم ولا صارَمْتُهُم ولكن اقتصدت في مُخالطتهم لا لأفوز بمزيد من الوقت بقربك وصحبتك، بل لأنْفِقَ الكثيرَ منه في التَعَرُّف إلى هموم كُنتُ أعتبرها خارج نطاق صلاحياتي. فأُمّتي التي أُوفدتُ لرعايتها توقّفت طوال ما ينوف على عامين عندَ حدود الحيّ الذي لم يَنْمُ حول المسجد ويتّسع، ولكن اندسّ المَسْجدُ بين أزقّته. أمّا الآن فحدودُ أُمتي حيث يَصِلُ إرسالُ التلفزة. هذا إلّا أنّني لا أنكر أنّ توسّع أُمّتي، وهمومي إذاً، أتاح لي أن أزورك في أوقاتٍ غيرِ تلك التي كانت موعدنا. كذلك حدث لي مراراً خلال الأسابيع المحمومة الأولى من إعداد «برنامجي»، تلك التي كنتُ أغيب فيها عن المسجد أربعة أيامٍ من سبعة، من الاثنين إلى الخميس، ـ حدث لي أن طلبتُ من سائق السيّارة الفارهة أن يَدَعني في طريق العودة من أقصى شمال العاصمةِ إلى أقصى جنوبها

Twitter: @ketab_n

أترجَّلُ غيرَ بعيد من حديقةٍ صغيرة أعبرها فأجدُني على مبْعدةِ خطواتٍ من المبنى الذي تَقْطُنين.

أنانيتي واستغراقي بالكليّة في «مهنتي» المكتسبة صرفاني عمّا كنتُ أثابِرُ عليه كل يومٍ تقريباً من قراءة في ديوان المتنبّي إعداداً للقاءاتنا. بين الحين والآخر كُنتُ أقترح عليكِ أن نقرأ قصيدةً أو بعض قصيدة فكنتِ تجارينني بلا كبير حماسةٍ كما كنتِ تُجارينني كُلَّما عُذْتُ بكِ إلى هواجسيَ المتلفزة، مُسْتزيداً من خبرةٍ لكِ سابقةٍ في هذا المجال لم تشائي يوماً الاسترسال في الحديث عن ملابسات اكتسابها، منتفعاً من قدرتك العجيبة على توليد الأفكار. في معظم الأحيان كنتُ أقطف من هذه الأفكارِ بعض التفاصيل مستبعداً لها أن تلقى القبول. لستُ أدري كم فَوَّتُّ عليّ من ثناء وإطراء ما كان زملائي ليبخلوا بهما عليَّ لولا تسرعي في الحُكم على أفكارك بأنّها فذّةٌ ولكن عصيّة على الاستعمال بسبب من «تجريبيّتها» (كلمة تعلمتها منك ولم ألبث لمّا اشتدّ ساعدي أنْ أخذتُ أرميك بها). هذا ما تَعلّمْتُهُ في أحد تلك الاجتماعاتِ الطّويلة التي تمخّض عنها البرنامج. كنا ذلك اليوم نبحث في

Twitter: @ketab_n

فِقْرة «زيارة إلى مسجد» فرأى أحدهم أن تكون زيارةً إلى مساجد قديمة صحبة مؤرّخ أو أثري. ورأى آخرُ أن تكون جولةً على مساجد منطقة بعينها، وثالثٌ شيئاً بين الرأيين، ولكنّا سرعان ما طرحنا هذه الآراء جانباً باعتبارها مكرورةً لا تُساير نبرة البرنامج، وكدنا نعدل عن هذه الفقرة ونبدأ بالبحث عمّا يَسُدُّ مَسَدّها لولا أن تشجّعتُ في اللحظة الأخيرة على اقتراح فكرةٍ استعرتها منك وحَرصْتُ على التقديم لها بأنّها لا تخرج عن باب الهزل والدُّعابة: «ما رأيكم بأن نُعامِلَ المساجِدَ معاملة ما يُسمّى بمرافق الخدمات الأخرى من فنادق ومطاعم ومسابح فتكون الزيارة بمثابة تحقيقٍ عن مسجد ما، عمارةً وعبادات وخدمات، ينتهي بأن نمنح المسجد المعني عدداً معيناً من النجوم...». أنها فكرة طريفة فهذا ما لم يُخالجني فيه ريبٌ من حين سمعتك تقترحينها، أمّا أنّها «عبقريّة» كما قال صديقيَ المخرج وتابعه الآخرون في ذلك فهذا ما لم أتوقّعه!

بالطبع لم أُصَرِّح لأحدٍ من الحاضرين بأنّ حقوق الفكرة، مهما أطروا عليّ أنا، محفوظة عندي لكِ أنتِ وأنّ هذه الفكرة ليستِ الوحيدةَ التي غَرَفْتُها من مَعينك. ولكنّ

Twitter: @ketab_n

فكرةً كهذه، «بهذه الجرأة»، كما وصفها أحدهم، كانت تحتاج للمضيّ بها قُدماً إلى موافقةِ الأبواب العالية، ولهذا الغرض كان لا بُدَّ من رَفْعِ الاقتراح مكتوباً «ولا أحَدَ لهذه المهمة سواكَ يا مولانا... فأنت أدرى بالخدماتِ التي تُقَدّمها المساجِدُ إلى روّادها!».

على عهد قاطعٍ بأن أحضُر صباح الغدِ إلى موعدنا والاقتراحُ في حقيبتي هُرِعْتُ إلى عندِك. كان موعدنا يومذاك الخامسة. وَصَلْتُ أبكر بساعتين. لا أُخفيك أنّني شعرتُ بشيء من الإحباط إذ لم أجِدْك... أو بالأحرى إذ لم أجدكِ في انتظاري! أوّلَ انهزامي إلى الحديقة المجاورة لم آبَهْ لوصولي قبل موعدنا بساعتين ولا أقمتُ لذلك اعتباراً. بل لا أستَبْعِدُ أنّني للحظاتِ حَمَلْتُ عودتي بخفَّي حنين من أمام بابك على محمل الإهانة. لا يُدْهِشْك أنَّ الرّجُلَ الذي دخل بيتك كسيفاً، مطأطىء الرأسِ والروح، تجبّر ذلك اليوم وكاد يؤاخذك على تخلّفك عن موعدٍ لم يكن بينك وبينه أصلاً! لا يدهشك فالرّجلُ هذا، لحداثة عهده بالثقةِ بنفسه وبرجولته، عُرضةٌ لكل السّقطات بما فيها السقوطُ في حفرةِ الرجولةِ التي حفرتِها له بيديكِ.

Twitter: @ketab_n

كطفلٍ يتهجّى حروف كلمةٍ، واحداً واحداً، قبل أن يجمعها معاً، اقتضاني الوقوفُ على خَطَلي وتخطئةُ نفسي وتسكينُ انفعالي أن أرتّب مقدّماتِ المسألة: أولاً الموعِدُ بينَكَ وبَيْنَها عند الخامسة، ثانياً لقد تَقَدّمتَ عليه بساعتين، ثالثاً، في أية حالٍ من الأحوال، لا سلطانَ لكَ عليها أصلاً، ففيمَ انتفاضُك؟ وأيّة كرامةٍ لك أُهينت؟ لم أجدني أفضل حالاً من بعدِ أن وَضَّحتُ لنفسي أنّ غضبتي المُضريّة في غير محلها فضلاً أن لا وجه لها ذلك أنّني تحوّلت من السَّخَط عليكِ إلى السَّخط عليَّ سَخَطاً مُرفقاً بخجلٍ شديدٍ لم يخفّف منه أنّ أحداً من المتنزهين القلائِلِ في هذا الجوّ البارد كان يعرفني.

بدايةً ارتأيتُ أن أقضيَ الساعتين الفاصلتين عن موعدنا في الحديقة، غير أنّ الرذاذ اللجوج المؤذِنَ بمطرةٍ وشيكةٍ عارمة جعلني أُقلِعُ عن هذا الرأي لا مبقياً لي من مفرٍّ، مع استثنائيَ العودة إلى المسجدِ لضيق الوقت، سوى أحد اثنين لا سابقة لي بأيّهما: أن ألوذ بأحد المقاهي غير البعيدة من هنا أو بالمجمّع التجاري القريب هو الآخر. لم أتردد في اختيار الثاني منهما: كتابي بيميني إن ألتقِ

Twitter: @ketab_n

بأحدهم في هذا المكان الذي يبيعُ من زوّاره كل شيءٍ، أما في المقهى فلا كتاب أشهره لا بيميني ولا بيساري. ثمّ، أليس أنّ صديقيَ المخرج مضى بي قبل أيّام إلى قسم المحاسبة حيث وقّعتُ على إيصالاتٍ تُفيدُ استلامي قدراً معلوماً من القسائِم الصالحة للتبضع في جناح الملبوسات من عددٍ من المحالّ والمجمّعات التجارية ونَصَحَ لي، ضنّاً بوقتي، أن أبدأ جولتي بهذا المجمَّع حيث، لا شكَّ عنده، سأجدُ ضالّتي! مطمئناً إلى هذه الحُجّة «المِهْنية» قصدتُ ملاذي من المطر، مُتَبَضّعي إن اقتضى الأمرُ أن أحتجَّ لتجوالي في صرح الاستهلاك هذا.

المبنى محروس كما يجب أو كما يُفتَرضُ أنّه يجب: طوقان على الأقل من رجال الأمن: واحِدٌ حول المبنى بالزِّي العسكري الصريح وآخَرُ في كلّ أنحائه ابتداء من الباب وصولاً إلى قسم الملبوسات، مروراً بالمصاعد والسلالم الكهربائية، يُمَيِّز المرءُ أفراده بزِيّهم المُوَحَّد الذي لا تُخِلُّ برتابته سوى ربطاتِ العنق التي يُترك أمرُ اختيارها على ما يبدو إلى أصحاب العلاقة. وإلى هذا الجيش من الرجالِ لا يشك الزائر بأنّ المبنى ذا الطبقات السّت مزوّدٌ

Twitter: @ketab_n

أيضاً بكلٍّ ما يلزم من أجهزة وآلات المراقبة عليها المُعَوّل حيث تُخطىء العين البشرية، أو حيث لا تصل، ولكنّه، زائرَ الصّرح المنهمك في السِّلع والبضائع، لا يلحظ شيئاً من هذا - اللهمّ إلّا تلك القنطرة المعدِنية التي تلي الباب والتي لا بُدَّ للداخلِ أن يَمُرَّ تحتها.

النساءُ الثلاثُ اللواتي دخلن قبلي سارعن ما إن وَلَجْنَ الباب إلى حقائبهن الصغيرة الأنيقةِ وفتحنها استعداداً لإرضاء فضول أحد رجلي الأمن المدنيين. لكيلا أبدو غريباً عن عادات أهل المكان عمِلتُ مثل ما عَمِلْن وعَبَرْتُ بسلام. من حيثُ كنتُ طالعتُ اللّوحَةَ التي سُجِّلَ عليها ما يجده المرء في كل طبقة من طبقات المبنى فلم أحتج إلى الاقتراب منها بل تابعتُ الإشارات التي تأخذ بيده إلى حيث المصعد والسلالم الكهربائية. آثرتُ الأوّل لئلّا أكرر تجربة سيئة الذكرى كانت لي أوّل نزولي مدينتكم على سلالمَ من هذا القبيل. للأسف لم تكنِ الساعةُ قد تجاوزتِ الثالثة والنِّصف. أقلّه إذاً عليَّ أن أُمضي هُنا نحوَ الساعة. زوّار المجمّع في هذه السّاعة يُعَدّون على الأصابع، وفوق ذلك لم أُحصِ بينهم للوهلة الأولى أيَّ رجلٍ

Twitter: @ketab_n

سواي. البائعون والبائعات يبتسمون للقادم دونَ أن يُغادروا مواضعهم. في الطبقة الثانية المخصصة لملابس الرجال وحاجيّاتهم طالعني أوّل مغادرتي المصعد جناحٌ مفردٌ للسترات فتوجَّهْتُ إليه بخطى حازمة شأن من يَعْرِفُ ماذا يُريد. تظاهرتُ بتفقد السِّلع متحسساً أقمشتها مُدَقِّقاً في أسعارها. تَمَكُّثي في جناح السترات أوحى للبائعة أنّني جادٌ في الشراء فاقتربتْ مني بتهذيب جمٍّ عارضةً عليَّ مُساعدتي في الاختيار. استرسلتُ في بيان الغرض المِهْني من تفقدي هذه السترات معتذراً به من طرف خفيّ عن أناتي في الاختيار. لم يَزِدْها ذلك إلّا إصراراً على مساعدتي فاستدعت لهذه الغاية زميلاً لها ألبسني وأخلعني ما حلا له من الستراتِ قبل أن سار بي إلى جناح القمصان ثمّ إلى جناح ربطات العنق والمناديل. ساءني أن ينفرد بيَ البائع ولكنَّ صحبته طمأنتني. فبصحبته لا أخشى أن يتعرَّض لي مجدداً أحدٌ من زملائه وزميلاته، ولن ألجأ ثانية إلى بيان «الغرض المهني» من زيارتي وأنّها للاستطلاع لا للابتياع.

مع دنوّ الخامسة كان المَطَرُ على تساقُطِهِ ومع دنوّها أيضاً كانت جولتي صُحبة البائع قد أفضت بنا إلى جناح

Twitter: @ketab_n

مُخَصَّصٍ بالأمتعة من مظلّات وحقائبَ وغلايين وأشياء أخرى لم أتميّز ما تَصْلُح له من استعمالٍ أو فيمَ عَدُّها من أمتعة الرجالِ دون سواهم. بضراعة، قُلْتُ لصاحبي إنّني راغبٌ في شراء مظلّة وفي مساعدته. لعلّه لم يفهمِ انكساري المفاجىء بعد نحو ساعة من الزمن ونَيّف زهدت طوالها عن ابتياع أي شيء مع اتخاذي إيّاه خلالها دليلاً بين الأجنحةِ ووسيطاً بيني وبين القائمين على كلّ منها. ولعلّه أيضاً لم يثق بصدقِ رغبتي في الشراء فاكتفى بأن طلب من زميلته أن تريَني ما لديها من مظلّاتٍ. أرتني وفتحت أدراجاً وأغلقت أخرى واستفاضت في شروحاتٍ استكثَرْتُها على شراء مظلّة، وفي نهاية المطاف ناولتني قُصاصةً توجّهت بها كالأبله إلى الصُّندوق الأقرب لأُسَدِّد ثمن مظلّتي. لم تُغن عنّي شيئاً النظرةُ التي اقتنصتُها إلى القصاصة: لا ثَمَنَ واضحاً مدوّن عليها ولكن مجموعة من الأرقام والخطوط العمودية. طائعاً مطواعاً نقدتُ الموظفة معظم ما في جيبي ثمناً لمظلّة لم أفقهِ العِبرةَ من غلاء ثمنها إلّا حين وَصَلْتُ في حمايتها إلى عندِكِ فاستقبَلْتني بـ«مبروك» ماكرة لئيمة لم أملك معها إلّا أن أقصّ عليك

Twitter: @ketab_n

ما تيسّر لي روايته من مغامرتي في المجمّع التجاري، لا غافلاً في الختام أن ألقي عليكِ مداعباً، وعلى غيابك عن المنزل، تَبِعةَ ما كان من ابتياعي هذه المظلّة الموسومة كما فهمتُ منكِ، بخاتم أحد أشهر المصممين، البادية النشازِ قياساً بقيافتي، «الأليق بالراسخين في الاستهلاك التفاخري منه بالراسخين في العلم أمثال مولانا» على حَدّ قولك...

كانت تلك أوّل مرّة نَفْتَتِحُ فيها لقاءنا هازلين، وأكتشف معها فضائِلَ الهزل... «هذه المظلّة ليستِ الإثم الوحيد الّذي ارتكبته اليوم باسمكِ... هل تذكرين فكرتَكِ "الجهنميّة" القاضية بتقويم المساجدِ تبعاً لنوعية الخدمات التي تقدّمها لمرتاديها؟... لقد سَطَوْتُ عليها خلال اجتماع اليوم فلاقت من الاستحسان ما لم أتوقعه... غير أنّها فكرةٌ من الجُرأة بمكانٍ يقتضي رفعها إلى من بيدهم الحلُّ والربط للحصول على موافقتهم عليها... ولهذه الغاية لا بُدّ من إعداد تصوّر مكتوب... قبل الغد... هل يُمكن أن... أن نتعاون على ذلك؟». بين الجدّ والهزل عقّبتِ على سؤالي بـ«تريدني إذاً أن أضَعَ مواهبي في خدمةِ مشروع إعلامي

Twitter: @ketab_n

تُحيط به الشُّبهات». واستأذنتِ لتعودي بعدَ دقائق في جلبابٍ أسودَ طويلٍ تزينه تطاريزُ دقيقة وأخذتِ مَقْعَدك بحيال الحاسوب الذي كان قد انضافَ إلى أثاثِ هذه الغرفة ذاتِ الاستعمالات المتعددة. سألتني هل من صيغة مُعيّنة أرى أن يُصاغ بها الاقتراح فأجبتك أن لا ولم أزد إلّا أنّني لا علم لي بآداب هذا اللون من ألوان الترسّل. لم تُلِحّي بل استغرقت في الغمز بأناملك الرشيقة على لوحة الأزرار أمامك، مستعينة بين الفينة والأخرى بأداة إلى يمينك متصلة بسلك تمسحين بها على رقعةٍ يعلوها مشهدُ أصيل عند أفُقٍ بحري. بناء على دعوتك اقتربتُ منك وطالعتُ على الشاشة ما تفتقتِ عنه إذ كنتُ جالساً إلى طاولتنا أقلِّبُ صفحاتِ كتاب عن المتنبّي وجدته عليها. ترتيب الصفحة والديباجةُ الموجزة بَدَوَا لي من عمل خبير أمّا اقتراحك «طبقات المساجد» عنواناً لهذه الفقرة فببساطة أفحمني. لم تدع لي خفّتُك في معالجة الأمر ما أقول فتمتمتُ: «والآن؟...» لم تبالي بسؤالي إذ تذكرتِ أن الماء الذي أردته أن يغليَ لا بدّ بدأ يتبخر، فسارعتِ إلى المطبخ.

جلوساً على الأريكة إيّاها وبيد كلّ منّا مشروبه

Twitter: @ketab_n

الساخن وصلتِ الحديث «والآن جاء دورك... عليكَ بمسجدين تعرفهما معرفة جيدة وعارضْ بينهما... لنقل مسجدكَ ومسجداً آخر...». في طَرفةِ عين تبادلنا الأدوار كما يقال: أنتِ المعلّمُ وأنا التلميذ. أثمرت حيلتك ودون كبير جهدٍ أخَذَتِ «المقاييسُ الموضوعيّة» (عبارةٌ أخرى محفوظة حقوقها لك) تنجلي. خوفاً من تبخّرها، لا سيما أنّها، لا كماء شاينا، لا تُعَوَّض إن فاتت، استعنتِ بورقة وقلم وأخذت تدوّنين ما ينفتح علينا من خطرات. قبل العاشرة بقليل جلستُ إلى طاولتنا أطالع الورقتين اللتين لفظتْهما الطابعة للتوّ. أدهشني ما فيهما كما لو أنّني لم أشهد ولادتهما. دعكِ من نظافة الميضأةِ ومن الالتزام الدقيق بمواقيت الصلاة، ومن اشتمال المسجد على خزانة يودع فيها المصلون أحذيتهم، من أين خطر لكِ أن تتساءلي عن توفُّر مواقفَ للسيارات غير بعيد من المسجد وعن القرآن هل يُتْلى فيه بالصوت الحيّ أم يُبثُّ من آلة تسجيل وعن غير ذلك مما لا يستوقفني أنا نفسي، ربّ مسجد العمرين ومدبّره ونزيله، ولا أحداً من رواد المساجد المثابرين.

Twitter: @ketab_n

أبيتِ أن تقف مفاجأتي تلك الليلة عند حَدّ، فما إن فرغنا من طباعة نسخة اعتبرناها ناجزة حتّى تذكّرتِ «شيئاً مهماً» طلبتِ مني معهُ أن أمزّق الورقتين اللتين بين يديَّ: «نسينا البسملة... سأضيفها...» وإمعاناً في اللهو لم تتواني عن سؤالي إذ تَقَوَّسْتِ أمام جهازك العجيب «بأيٍّ خطٍّ تفضِّلُها...؟». ولكنّ نسيانَ البسملة لم يكن من شيءٍ مهمٍّ يُذكر في جنبِ ما كانَ عِنْدَ عتبة بابك التي كنتُ على أهبة اجتيازها عوداً إلى مسجدي، فعندها أيضاً تذكرتِ «شيئاً مهماً» آخر لَبِثْتِ برهةً قبلَ أنْ وجدته حيثُ ذهبتِ تطلبينه: «هذا مفتاح باب المبنى وهذا مفتاح البيت... في مرّة مقبلة لا حاجة بكَ إلى المغامرة هنا وهناك... حسبك انتظاري... هنا!».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٩

لم أحتجْ إلى مفاتيحكِ في اليوم التالي، إذ وصلتُ بعد السابعة وجلسنا نتحايل على الدقائق السُّلَحْفاتية الفاصلة بيننا وبين انتصاف الساعة، موعدِ النشرة الإذاعية الأقرب، تَسَقُّطاً لأخبار انفجارٍ لم يُغْنِ دويُّه الهائل الذي تردّد في أرجاء المدينة عن الوقوف على شيء من تفاصيله.

صوت المذيع ملقياً على مستمعيه تحيّة المساء لا يوحي بالخير، وحتّى بلاغته التي لم تَهِنْ يوماً، ولا رفّ لها جفن، ثقل لسانها من هول الانفجار الذي وقع لساعات خَلَتْ في شارع تجاري مزدحم، مخلّفاً قتلى وجرحى وحرائق... وذعراً غير معهود. لا غروَ: الموتُ، بدخوله قلب المدينة على متن سيّارةٍ مشحونةٍ بالمواد الناسفة، يؤذن بانتقال ما لا يجرؤ أحد بَعْدُ على تسميته حرباً من الخفاء إلى العلن ومن الخاصّ إلى العامّ.

Twitter: @ketab_n

متعطِّشةً إلى تعذيب نفسك، وتعذيبي، بصورٍ لا اكتمال لـ«الحدث» بدونها، سارعتِ صوب التلفاز الذي استجاب على الفور لأوامرك، وصدح بموسيقى رزينة من قبيل تلك التي تبثّها وسائل إعلامنا في المناسبات الجُلّى على خلفية مشهد طبيعي. بصمت انتظرنا، فالكلامُ، أيّ كلام، الآن، في غير محله.

تحسّباً لنفاد صبر المشاهدين، ونحن منهم، بل تسويفاً خالصاً، تلاشى المشهد الطبيعي فجأة وخلفته صورةُ ساعةٍ مزخرفةٍ، يوشك عقرب الدقائق منها أن يلامس القطب، ويعلن دخول التاسعة. مَضَتِ الثواني الفاصلة بين عقرب الدقائق وبين القطب، واستأنف عقربُ الثواني سعيه لامبالياً بما علّقناه عليه من انتظار. حتماً لم تكن هذه أوّلَ مرّةٍ تتأخّر فيها نشرة الأخبار عن موعدها، ولكنَّ تأخّرها الليلة كان حمّال مخاوف لم يجرؤ أحد منّا على مشاطرتها الآخر. أخيراً أطلّ المذيع مُتَجَهّماً وألقى تحية المساء، وشرع في قراءة بيان بين يديه. لا أخبار في النشرة ولكن سرد طويل مُمِلّ لبيانات أمنية وتصريحات رسمية وغير رسمية توالى صدورها منذ وقوع الانفجار تشترك في الرطانة

Twitter: @ketab_n

صياغةً ومفردات، وتتخلّلها بين الحين والآخر صور غير واضحة لمبنى مدمّر، على أنقاضه، وحَوْلَه، شُرَطٌ وعساكر ومسعفون في هيئات مختلفة، للمُشاهد أن يُخَمِّن ما تحتها.

ببراءة خرجتِ على ما لزمناه من صمت منذ تسمّرنا أمام الشاشة وتساءلتِ: «أين القتلى والجرحى في كلّ هذا؟ لماذا يضِنّون علينا بصورهم؟ أم يحسبون أنّهم يسيطرون على الموقف كما يتردّد في بياناتهم إذ يحجبون وجه الموت؟». لم أعلّق، ولا بدر منك ما يستحثّني أن أفعل.

بالنَّقر على أزرار جهاز التحكّم من بُعد، جُلْتِ بنا على عدد من محطّات التلفزة. لا جديد ولا تفاصيل ولا إحصاء دقيقاً لحصيلة الانفجار من القتلى والجرحى. وإذ اكتفت المحطّات الصديقة والشقيقة بالبيان الرسمي الذي ألقى بمسؤولية الانفجار على «جماعة مأجورة من الأشرار»، تميّزتْ إحدى المحطّات العدوّة بأن أدرجتِ الانفجار في سياق ما يشهده بلدانا منذ أشهر، من «حوادث متفرِّقة»، متوقفةً عند التزامن المُدهش بين الانفجار عندكم وبين أنباء لم تتأكد صحتها عن هجومٍ بالقنابل على مخفر

Twitter: @ketab_n

للشرطة عندنا - خبرٌ تفرّدت به المحطة العدوّة دون سائر الأخريات.

•

هل تصبّبتُ ذلك المساء عرقاً بارداً كما أتصبّب الآن؟ بودّي أن كانِ كذلك، عِلماً أنّني الآن لا أفعل إلّا أن أستحضر دقائق ما كان وتفاصيله. يُخرسنا الموت، يرهبنا، يُقيّدنا في مواضعنا ويرغمنا على اقتصاد في التخاطب لا عهد لنا به من ذي قبل. أتردّد، هل أستأذنك لأعود أدراجي، أم أنزل عند مشيئتك، ومشيئتك الآن على ما يبدو لي أن نستغرق، متضامنين، في هذا الصمت الذي يستر على كلّ واحد منا أفكاره وخواطره. أتردّد لئلّا أكتب عليّ أنّني لم أتردّد، وأنّني آثرت صُحبتك، على الانضمام إلى أمّتي الصغيرة التي لا أشك أنّها، أفراداً وجماعات، آذان صاغية إلى نشرات الأخبار، وأشدّ إصغاء إلى الشائعات التي لا أشكّ أيضاً بأنّها باشرت تناسلها السرطاني فور شيوع خبر الانفجار، كأنّها تكوّنت في رحمه، وتناثرت عند وقوعه مع الأشلاء وشظايا الزجاج.

بجهازك السحري تأمرين التلفاز أن يصمت ويعمى

Twitter: @ketab_n

فيطيعَ للحال. كأنّي به كان ثالثاً اضطرّك طيلة مكانه بيننا أن تستوي في جِلستك وأمسكك أن ترتاحي فيها. أمّا الآن، وقد غادَرَنا وعدنا وحدنا، فليس ما يحول بينك وبين تلك الهيئة من التمدد التي ترتاحين إليها والتي تقتضي منك أن تنحدري جميعاً بحيث تفترشين السَجّادة، مُتَّخذة من طرفِ الأريكة وسادة لرأسك.

لا أذكر ولا أحبّ أن أتذكّر كم أقمتُ على حالي التي تركتِني عليها، إذ افترشتِ السجّادة، ولا كم أقمتُ لا مُجترئاً أن آتي حركة أو أنبس ببنت شفة أو حتّى أن أتفقّدك بعينيّ. كان تنفّسك المنتظم دليليَ الأوحدَ على أنّني في يقظة لا في المنام. أما أنت فما أدراني أين كنت وعلى متن أية أفكار كنتِ تُبحرين. وإن صحّ التشبيه وكنت تُبحرين، ففي أفكاري، أنا، كنت أتمرّغ: ها نحن، رجل وامرأة، في خَلوة لا يخشيان أن يفسدَها عليهما أحد، فأين الشيطان؟ أهي ثقة مفرطة بي ما يدعوك أن تتصرّفي في محضر منّي كأنّني لست، أم تُراهنين على قلّة ثقتي بنفسي؟ ثم ماذا، أليس الأمران سيّين؟ وأليس أنّني لا أجرؤ حتّى على النظر إليك؟

Twitter: @ketab_n

من أوّل ما كان بيننا إلى آخره عاد فضلُ المبادرة إليك، الليلةَ أيضاً. جاهلاً كلّ الجهل بماضيك وبالكثير من حاضرك، مغفوراً لي ألّا أعرف من شيء إطلاقاً عن عاداتك في النوم، وألّا أعرف على أيّ الجنبين تؤثرين أن تنقلبي كلّما ضقتِ بالتمدّد على ظهرك. كنتُ عن يمينك ولا شيء عن يسارك وإذ بي أشعر بك تتحرّكين في موضعك، فأنتهزها مناسبة لأنظر إليك فإذا بك، غافيةً، تنقلبين على جنبك الأيمن وإذا برأسك يتدحرج ببطء ويستقرّ فوق الركبة، أسفل فخذي الأيسر. أما ذراعاك فأنزوت يمناهما في البرزخ الحاصل بيننا فيما تمطّت اليسرى واستقرّت على فخذي الأيمن.

أيُدهشك أن أتوقّف بهذا القدر من التأنّي عند هذه «التفاصيل»؟ بيت القصيد أنّها ليست كذلك، ولأبسط سبب: لو كانت كذلك لما كنت أنا أنا، ولربّما لما كنت الآن هنا! أسامحك ألّا تفهمي تباطئي عندها كلّ هذا التباطؤ. أسامحك لأنّ داعيتي إلى هذا القدر من التأنّي تخرج عن حدّ التصديق: لم يحدث من ذي قبل أن جمعتْني بامرأة خلوةٌ آمنةٌ مطمئنّة كمثل التي ألفيتنا فيها،

Twitter: @ketab_n

ولم يحدث من ذي قبل أن خلوتُ بامرأة إلّا وكانت إحدى أولئك النسوة اللواتي يقضين حاجات الرجال بأجر معلوم، وشرٌّ من ذا ما كان يتأبّاه الشيطان في هذه الخلوات من أن يكون وكيلي، وثالثنا!

ها أنذا حيث لا مهرب من أحد اثنين: أن أفتعل العفاف وأغادر بيتك إلى غير ما رجعة، أو أن أسلمني لك ولحكمك ملبّياً نداء خفياً لا أجزم في نَسَبِه: أإلى الحياة أم إلى الطبيعة أم إلى مزيج منهما؟

أحسستُ بشيء من الطمأنينة إذ لم توقظك نظراتي التي لم أتمالك عن إلقائها عليكِ، أعني علينا. كأنّك في استغراقك في هذا النوم رُمْتِ إمهالي المهلةَ الكافية لأتعوّد، في غفلة مقصودة منك، على تدانينا ولأكتشف، من تلقائي، أنّ القرب بين رجل وامرأة مَقام، بكلّ معنى الكلمة، لا خلسة تختلس. دعك من ترّهاتي هذه... كلٌّ ما كان، أنّ استغراقَكِ في النوم رغم ما تحرّكتِهِ وما لامسكِ منّي، أبلعني ريقي وأفسح لي أن أستردّ أنفاسي.

ليس شبقاً ما كان يدعوني أن أمدّ يدي إلى شعرك لأتخلّله بأناملي، أو أن آخذ كفّك بين كفّيّ وأشدّ عليها،

Twitter: @ketab_n

أو أن أُصلح من تمدّدك ـ ليس شبقاً، أو هو الشَّبق كلّه والشبق إليك كلّك.

كأنّي أسمعك تُسرّين لي بتهكّم: «خفّف عنك أيّها الرجل ولا عليك إن اشتهيتني. فهل أنت في النهاية، رغم ما طالعتَني به من أمرك، وما أورِثْتَهُ من قلّة حنكة في معاطاة بنات حواء، هل أنت سوى "رجل" يسري عليه ناموس الطبيعة لا أكثر ولا أقلّ... هبْكَ كُنْتَ آخرَ لا يشكو من شيء ممّا تشكو منه، ووجدتَكَ في مثل موقفنا، ألم يكن مؤذّنُ الطبيعة فيك ليرفع عقيرته بالنداء عليك ولتنفعل وتتردّد وتتزاحم فيك المشاعر والأحاسيس؟».

•

لستِ هنا في منتجعي الآمن لتُسِرّي لي بشيء من هذا، ولكنّ هذا بعض أسوأ ما في أمري الآن، كما في كلّ المرات السابقة التي عطّلني فيها عن المضيّ في روايتي قُدُماً ما تخيّلته من محاججتك إيّاي. فَصَدَّقْتُ خيالي، وانصرفتُ بيني وبيني إلى تفنيد حُجَجِكِ الدّامغة.

اليوم لا أفعل، أو بالأحرى في هذا الشأن لا أفعل. وحتّى إن يصحَّ مقالك بأنّني، شئتُ أم أبيتُ، رجلٌ مثلَه

Twitter: @ketab_n

مثلُ سائر الرجال، أُصِرّ على أنّ شبقي إليك ليلتذاك كان بالضدّ تماماً من «النزوة العابرة». ولو أردتني على أن أجْلِدَ نفسي أكثر لذكّرتك بأنّني لم أغُذ يوماً مما حاولته من إرضاء نزواتي «العابرة» إلّا بخفّي حنين، وبما هو أقلّ منهما، ولتخِذْت من تجاربي البائسة هذه التي قصصت عليك طرفاً منها مصداقاً على ما أقول. ولكنّ هذه الحجة، ما دمنا في مقام المحاجّة، لا ترضيني، لا سيّما أنّ عندي أفحم منها وأقوى. عندي أنّ شبقي إليك زيّن لي مُنىً وأدخل في نفسي السرور: كيف لا وأنّكِ، بسلوكك العفوي، ارتجلت لي من لا شيء اعتباراً.

•

لم أحتج أن أدنو منك أو أن أفتعل الدنوّ. وَضَعْتُ يمناي على طرف جبهتك الأيسر وأخذتْ أناملي تُسَرِّحُ راجفة خصيلات شعرك في الاتجاه نفسه ملامسةً أذنك اليسرى. لم تعترضي بنأمة أو حراك أو ما هو أصرح منهما، بل بخلاف ذلك، وجدتُك بعد هنيهات تُسَوّين من رقدتك بأن انفتلتِ ببطء ورفق شديدين، بحيث صار كلّ رأسك على فَخِذي وصارت يمناي تُحيط وُسْعَها بجبهتك،

Twitter: @ketab_n

وأناملي تكتشف شعرك غير هيّابة من الانحراف بين الفَينة والأخرى ذات اليمين وذات اليسار مُيَمِّمَةً شطر إحدى الأذنين، مداعبة إياها.

•

الكتابة صباحاً غيرها ليلاً؛ هذه الكتابة على الأقلّ. أمس، بعد منتصف الليل بقليل، إذ أويت إلى فراشي، لم آوِ من تعب أو من ضجر أو من لَغَبٍ على المضيّ قُدُماً في رواية ما كان بيننا. فعلتُ لأحتفظ بالتتمّة، ولو لليلة أخيرة، لنفسي. إلى ذلك وجدتُني في ما أسجّله أفتّش التفاصيل تفتيشاً يكاد يُظنّ معه أنّني أبحث فيها عن بنود العَقْد الذي تعاقدناه تلك الليلة، والذي طوى الرُّبعَ الخاليَ الأخيرَ الممتدَّ بيننا، كأنّ في سرد التفاصيل وتعدادها إبراءً لي ولك ممّا كان بيننا.

الآن، صباحاً، مختلفٌ هو الأمر كلّ الاختلاف. لم أشكّ أمس في أنّ الصّباح مقبل أن يكون مختلفاً، ولكن يطمئنني ما يتكشّف لي من أنّ ظنّي في محلّه، وأنّني بين يدي ما وصفتُه البارحة من تدانينا لا يسعني أن أعود القهقرى.

•

Twitter: @ketab_n

أأخرجتُكِ لمساتيَ الوئيدةُ من نومك إلى ما يشبه التناوم؟ نعمْ فعلتْ، ورفقتِ بي فحرّكتِ بأطراف أصابع قدميك مفتاح الضوء لتسودَّ العَتَمَة. وفي العَتَمَة تعانقنا وتلاثمنا وتساوينا في افتراش الأرض وتوسُّد الأريكة، فَحَلَلْتِ أزرار قميصي وحَلَلْتُ أزرار قميصك، وجلتِ بالكفّ والشفتين في أرجاء صدري ومثلك فعلت، ثم، لا أذكر كيف، بلغ عُرْيانا المنتهى، ثم كان بيننا هرج ومرج انتهى بأن أسقط من يدي وارتميت فوقك أستردّ أنفاسي... نعم كان ذلك.

على أنّه، ومهما أنعمتُ الوصف وأطلت فيه، لا أفي ما كان حقّه: لا لأنّه كثير، وهو كذلك، بل لخوفي من أن يتراءى أنّه كذلك ويبدو ما أقوله فيه قليلاً. ومن مُصَدّقي الآن إن قلتُ إنّ الرُّبعَ الخاليَ المنبسطَ بيننا مذ أول تعارفنا طُوِيَ بسحر ساحر ساعة واتتنيَ الشجاعة ووضعتُ يدي على جبهتك، وإنّ ما تلا ذلك هو ما أجّج نيراني وليس ما أوقدها!

•

ديوان أحمدَ على الطاولة حيث تركناه ساعة قمنا

Twitter: @ketab_n

نتسقّط الأخبار، أرمقه ويرمقني. يُذَكّرني، الساعة، أنّني لست الرجل الوحيد تحت هذا السقف وبين هذه الجدران. منذ دقائق أنتظر عودتك وأستأخرك. أتردّد: ليس من عادتك التوسّلُ بالإشارات حيث يُغني الخطاب، أم إنَّ ما عهدته من صراحتك في العبارة، (إن كان عندك مثلاً أن تشعريني بضرورة رحيلي)، لا محلّ له الليلة؟ في تردّدي، أكتشف عريي فأسارع إلى لملمة ملابسي وارتدائها لا مالكاً بصري من استراق نظرات إلى ملابسك المنتشرة، لسبب ما، في دائرة أوسع من تلك التي انتشرت فيها ملابسي. أقلُّ الأدب أن أُهديَكِ تحية الصباح ولو قبل طلوع الفجر. مخففاً الوطء أسترشد بالنور الباهت المنبعث من غرفة في نهاية رواق لم يسبق لي أن ولجتهُ وأتقدم. من جبنٍ تمنّيت لو أجدُكِ غافية فأعودَ أدراجي وأكتفيَ بصباح خير عجلى على وريقة فوق ديوان أحمد. من شُقّ الباب بدا لي ظلّك ساكناً على الحائط المقابل. لئلّا تكون لك من حُجَّة عليّ إن أخطأ ظنّي أنّك في سبات عميق، دفعتُ الباب دفعاً ليّناً فإذا بيدِكِ تنسلّ من تحت اللحاف وتمتدّ في اتّجاهي.

كلّ ما لم يخفِقْه قلبي لساعة خَلَتْ يخفقه الآن. بما

Twitter: @ketab_n

يشبه الانجذاب أتابع تقدمي وأركع بمحاذاة سريرك. قبل أن تحُطّ يدُك على رأسي وتعبثَ بشعريَ القصير، عَرّجتِ على مفتاح النور وتلعّبتِ به حتّى لم يبق من النور الضئيل أصلاً سوى شُعاعة خافتة أمْيَل إلى الصفرة منها إلى البياض. بخلاف ما كان منّي ساعتذاك من إقدام، لم آتِ في موقفي هذا بأية حركة تشي برغبتي الاقترابَ منك أكثر. أدع لك زمام الأمر وزمامي ولكنْ... ولكنْ مثل طفل يُبيّت في نفسه شيئاً، أنتهز العَتَمَة وركوعي للتخلّص سرّاً من حذائي. لستُ في عجلة من الاقتراب منكِ بل في عجلة من الوقوف على حكمِكِ عليّ، وقرارك بشأن ما دَخَلَ بيننا. مكاننا هكذا: أنت في السرير وأنا راكع بمحاذاته، وإن أنا، هنا، إلّا مقدمة تبنين عليها ما تشائين: بيدك أن تمضيَ علينا الساعتان المتبقّيتان لي قبل أن يحين موعد رحيلي ونحن على حالنا هذه، كما بيدكِ أن تقترحي، مجاملةً، إيصالي إلى عندي، فأفهم أنّك راغبة في الخلوّ بنفسك، كما بيدك أن تجذبيني إليك، أو تُشَبِّهي لي أنّك تفعلين، فأُدرِك أن رغبَتكِ بي، كرغبتي بك، لمّا تنقضِ.

لا أذكر كم مرّ علينا من الوقت قبل أن طاف بخاطري

Twitter: @ketab_n

أنّك لربّما، أنت أيضاً، تاركةٌ لي الأمر وزمامه، وعلى انتظارٍ من قَبيل انتظاري، وأنّني إنّما أُضَلّل نفسي إذ أقولُ لها إنّ الأمر بيدكِ وحدَك. ثمّ، ألستِ من بادر ومدّ يده داعياً إيّاي إلى الاقتراب؟ «ما بكَ لا تجرؤ على ردّ التحية بمثلها والتوجّه إليها، نسجاً لحبل كلام يصل ما بينكما، بشيء من قبيل: "كأنّكِ تعبة وعلى شفير نوم عميق، أستأذِنُكِ الرحيل»، أين بلاغتُك يا فتى المنابر المفوّه، بشهادة الأصدقاء والأعداء؟ بل أيّة بلاغة تلك التي لا تتردّد عن التعزّز والتطاول في الحديث عن الدين والدنيا والحياة والموت، وتنهزم هنا حيث غاية الطلب أن تقول بأسلوب وصوت خافتين لا أن تهدر خطيباً».

لم تواتني شجاعةُ القول ولكن شجاعة الفعل. والفعل، على ما تعلّمتُ معك، أخفّ، أحياناً كثيرة، مؤونةً من القول. كانت يُمناكِ ما تزال على رأسي تعبث بشعري فرفعتِ بسراي وأمسكتِ بها وإذ تيقّنتُ من اشتباك أصابعنا أخذتُ أضغط عليها بتؤدةٍ، وكان الضغط عليها لسانَ حالي، ولسانَ عجزي عن رفع عينيّ إلى عينيك والهمس لك بما عندي.

Twitter: @ketab_n

لولا العَتَمَة وما كان يغطّيك أو يغطّي بعضك من مُلاءة لما تجرّأت على عريك وعريي. ذَعِراً، متردّداً، مشدوهاً أتلمّسك بأناة، أمسّد جسدَك البضّ من أقصاه إلى أقصى ما تبلغه ذراعي، وكان أقصى ما تبلغه الركبةَ منك. أتملّى من رائحتك، ويلحّ عليّ أن أضمّك إليّ بكلّ ما أوتيتُ من قوة ولكن أُمْسِكني. لم يكنْ بالأمر الصعب عليّ أن أفعل. فما يَطْرَبُهُ الآن جسدي لا يُنسيني أنّني غِرّ لم يسبق له أن شارك امرأة فراشها ومتعتها. مخافة أن آتيَ ما يفضح جهلي هذا أتروّى. خِلْتِني، لربّما، أتدلّل، فأقبلتِ عليّ معانقة. لم يبق لي إلّا أن أحذو حذوك وأن أغلّب الفطرة منّي، مؤيَّدَة برغبة صادقة، على مخاوفي وعلى ما نسبتُه إليك دوماً من خبرة بأشياء الحياة. حتّى الآن لا أفسّر لي تلك الابتسامة التي كانت مرتسمة على ثغركِ: هل كانتْ تعليقَكِ الساخرَ على ما تقرئين من أفكاري، أم علامة الرضى والإيجاب؟ تلتصقين بي فأتأول التصاقَكِ بمثابة استخلاف لي على توجيه ما نحن فيه. أنصاع، أو بالأحرى تنصاعين. أفكّ عن عنقي طوق ذراعيك الذي يتحكّم بما تطوّقه ذراعي منك، وإذ تتحرران أطوّقك بهما

Twitter: @ketab_n

تحت الإبطين فتنقلبين من جنبك على الظهر فأجدني فوقك. أحني الرأس، أُعمل لساني والشفتين في نهديك، تُعملين لسانك والشفتين في رقبتي، تنتفضين تحتي وتطوين ساقيك فوق ساقيّ، فيستوي مكاني بين فخذيك، يتصادم جسدانا، أتحرّى طريقاً ألج منه إليك، يحلو لكِ ما أتحرّاه فتستزيدين، أَزيدك متحاملاً على نفسي، أشعر بصبري على تَهَتُّكِكِ هذا ينفد، أسحب ذراعي اليمنى من تحت ظهرك وأوجّهها شطر حيائك أمرغ أصابعي في رطوبته، ترأفين بي، تُنَحّين يدي جانباً وتسوّين بانتفاضة سريعة من مكاني في خليجك قبل إرشادي سواء السبيل إلى الموضع الأعمق منك.

•

لم تكن مغادرتُنا سريرَك بأسهل من استقرارنا فيه. كُنتِ البادئة، بالطبع، ولكن ليس هذا فقط. فلقد كان من حسن سياستك، حين أشعرتني بتأهّبك لمرافقتي إلى جامعي، وكنتُ بعدُ في سريرك محتمياً بمُلاءتك، أن انسحبتِ إلى حيث لم أعد أسمع لك حسّاً، ممّا خفّف عنّي مشقّات لا أدري كيف كنتُ لأتكبّدها على محضر منك.

Twitter: @ketab_n

أعرف أنّ كلينا كان تواقاً إلى الخلوّ بنفسه، فلم أنبِس خلال الطريق ببنت شفة ولا أنتِ فعلتِ، وعندما وصلنا إلى المكان المُسَمّى، اقتصر وداعنا على تحية عابرة، لا تُحرج أحداً منّا وإن لم تَلِقْ بما كان بيننا.

أتردد قليلاً بين انتظار الفجر في غرفتي وبين انتظاره في المسجد. لا لسبب وجيه أختار الثاني. فهنا أيضاً، تحت المنبر، شئتُ أم أبيتُ أم بدا ذلك مستغرباً، أنا عندي في بيت الله، في بيتي وفي مركز عملي، أَلِفْتُهُ كما يألف سواي شقّته أو داره أو مكتبه في دائرة حكومية، أو محلّه وراء آلة في مصنع. وكسواي في تلك الدائرة الحكومية أو في ذلك المصنع يحدث أن أكون يوماً نشيطاً وآخر أقلّ نشاطاً، وثالثاً متعكّر المِزاج في عجلة من انقضاء ساعات الدوام. هنا أو في غرفتي لا وجه الآن إلّا وجهُك وتوتّر غريب حذّاه الطمأنينة والخوف.

قرابة الساعةِ قضيتها منتظراً دخول الفجر، محاولاً استرجاعَ ما كانَ بين السابعة من أمس وبين ساعتين خلتا، واستجماعه في تَسَلْسُلٍ مفهوم. أغربُ ما في الأمر أنّني في محاولتي هذه لم يستأثر عليّ التفكيرُ فيك ولكن فيَّ.

Twitter: @ketab_n

شـئـتُ أم أبيتُ، كـان لـي مـن جـسـدي ومـن بـعـض عضلاته التي تـمثل لي أنّه لـم يسبق لها أن تحرّكت ألف سبب وجيه لهذه الأثرة. أمّا أنّني صلَّيْتُ جُنُباً فهذا أيضاً مـمّـا لـم ألتفت إليه إلّا بـعـد الصلاةِ حيثُ وجدتُـني، والانفجار، نجما نَدِيٍّ انعقد على غير موعد وبغير دعوةٍ.

Twitter: @ketab_n

٢٠

عامداً حَمَيْتُ نفسي طيلة الأيّام الماضية من الكتابة إليكِ. عَرَفْتُني منذ شرعتُ في تدوين هذه الصفحات، عرفتني عند الكتابة خجولاً حَدَّ الجُبْن، أمّا متردّداً في استكمال حديثٍ من أحاديثَ عدّة تتزاحَمُ عليّ، حتّى لا أميّز المُهِمَّ بينها مِنَ الأهمّ، فقلّما حدث، من ثم «حِمْيَتي» تلك التي تقيّدتُ بها منصرفاً إلى قراءات متفرقةٍ في الكتب القليلة المتجمعة لديّ. حِمْيتي عن الكتابة هذه لا أغادرها على درايةٍ بأيّ من الأمور المتزاحمة عليّ يجدر بي أن أستأنف رحلة الكتابة ولكن تحت وطأة شعورٍ داهم بأنّ مكاني هنا آخذٌ يَقْلَق وبأنّ الوقتَ المقسومَ لي قضاؤه في هذه العزلة آخِذٌ يضيق. مَن يُصَدِّقُ أنّ ذلك الوقت الذي بدا لي أوّل الأمرِ أبداً لا ضفافَ له ولا قرار، والذي توهّمتُ أنْ لا منجاةَ من ميوعةِ رتابته وشحوب

Twitter: @ketab_n

ألوانه قد انحسر في عرفي وعقلي وخيالي ولم يَعُدْ من شيءٍ سوى مهلةٍ إضافيّة أُمْهَلُها مجاناً لأُتِمَّ ما قضيتُ على نفسي في لحظةٍ نادرةٍ اجتمع لي فيها السَّهو والزّهو معاً من تدوين قطعٍ من سيرتي ومن قصتنا في سجلٍّ حقيقي لا يخلو أن يبقى منه أثرٌ إن أدركني فوتٌ لا يُبقي ولا يذر؟ أكثرُ منه: بهجتي بهذا الوقتِ المهلة، لا يُضاهيها سوى ما تعودُ به الكتابة (إليكِ) عليَّ من متعةٍ ولذاذة. أبعدُ شيء عنّي أن أمدح نفسي أو أن أتركها نهباً لأفاعِلِ التفضيل، ولكن ما تقدّم من قولي هو عندي أخطرُ اعترافٍ أدليتُ به حتى الآن. وليس مفادُ ذلك أنّني الآنَ، فقط، يتولّاني ذانك الشعورانِ بالمتعة واللذاذة... بالطّبع لا... فلولا أنّ الكتابةَ (إليكِ)، وهي بابٌ لم أطرقه آنفاً، قد نزلت مني في ما بين شروعي بتحبير هذه الصفحات والآن بمنزلة الهوى الآمر الناهي المطاع، لتركتُني عند أوّل محنة عَرّضني لها ما أجازف به إذ أُشْهِدُ عليّ من هذه الصفحاتِ شاهداً لا مَوْضِعَ للسِّرِّ عنده(*) ـ لتركتني أنهزم وألوذ بالصمت،

(*) وللسِّرِّ منّي موضع لا يناله نديم ولا يُفضي إليه شرابُ
المتنبي

Twitter: @ketab_n

أعني بأمنه وحماه. ليس كذلكِ ولكن اليومَ فقط، بل الآن فقط، أجرؤ على تسمية هذين الشعورين بما لكلٍّ منهما من اسم لا يخلو، متى ما مرّت به العين مرسوماً أو وَقَعَ في الأذنِ، أن يُهيِّجَ أفكاراً وخيالاتٍ يصعبُ الجمع بينها وبين شارات الحشمة والخفر التي عرفتها لي ولطالما عرّفت نفسي بها.

أمّا أنتِ يا سيدتي فَصَدّقي أنَّ خيبتي ستكون لا مثيلَ لها لو أُخْرِجْتُ من هذا الموضع، إلى أي موضع آخر، ولو كان إلى عندِكِ حيثُ أنتِ الآن، دون أن أُتِمَّ هذه الفصول من روايةِ حياتي المُقبلةِ في ما يبدو أن تَمْضيَ قدماً. يُلقي إليَّ بهذا التخوف ما التقته حياتاي الماضيتان كلٌّ منهما في اتجاه بمناسبة زيارة قريني إياي لأسبوع خلا ووعده بتجديد الزيارة في الأيام المقبلة للوقوف على رأيي في ما حمله إليّ من اقتراح.

لم يدرِ قريني أنّ خُلُوَّ وفاضِهِ من «أخبارٍ سارّة» تُنذِرُ بأنْ تقطع عليَّ عزلتي وحبل الكتابةِ (إليكِ) هو الخبر الوحيدُ الذي عناني أن أسمعه منه. فلا هو ولا أحدٌ سواه يُقَدِّر كم أوغلتُ في الأيام المنصرمة في روايتي وكم

Twitter: @ketab_n

غيّر هذا الإيغالُ من أحوالي. عفوَ الخاطر أم غرضَ استدراجي لم يَسْكُتْ قريني عن دهشته ممّا صفا من مزاجي، على حَدّ قوله، بل أبداها بودّ وحَذب لم أعهدهما منه سابقاً. أحرجني شيئاً ما أن يشفّ سلوكي وحديثي إلى هذا الحدّ عن ارتياحيَ الحادث...

سألني هل أتابع الأخبار فأجبته لامبالياً: «أفضّل أن تفوتني». لم يُلِحّ في السؤال بل عطف عليه بآخر عمّا أقرأ، وكأنّي به توسّل بسؤاله أن يُلقي نظرةً فاحصةً على موجودات طاولتي لعلّه، كما توهمتُ، يخرج منها بتفسير مقنع لما لاحظه من تغيّر مزاجي. لم يحتج إلى التملّي من هذه الموجودات، فهي هي من أوّل قدومي وهي هي ركن مكتبتي الصغيرة الركين: مختار الصّحاح وكتابُ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني، فضلاً عن طبعة من ديوان المتنبّي خاليةٍ من أيّ شرح. «ألا تملّ من القراءة في هذه القواميس؟»، سألني وهو يستعد لأن يمدح جَلَدي من بعدِ أن أُجيب بـ«لا». خذلته مجدداً إذ أجبته بـ«بلى» جازمة. لم أتعمّدِ استفزازه غير أنّه ما كان مني ولربما توسّع في تأوّل «بلى» فافترضها جواباً على سؤالٍ أعمّ من

Twitter: @ketab_n

مثل: «ألا تَشْعُرُ بالملل؟». رأفتُ بِهِ رأفةَ من لا يتمنّى للآخرين ما لا يتمناه لنفسِه مقدارَ ما خِفتُ أن أدعه لتأوّلاته، ولو أنّه خوفٌ في غير محلّه، ولم أرَ من بُدٍّ ابتغاء تصويب ما اختلّ من ميزان حديثنا إلّا أن أسْتَضْعِفَ قائلاً له إنّني راغبٌ في الحصول على بعض الكتب ولا سبيل لي إلى ذلك سوى تحميله هذه المشقة. لم يُخطىء توقّعي إذ تعلّق بسؤالي وراح يُنَوّع الجوابَ عليه بما مفاده أن لا مَشَقَّة على الإطلاق وأن لا عليَّ إلّا موافاته بعناوينِ الكتب التي أرغب في الحصول عليها. وهكذا غُدْتُ أنا السائِلَ وعادَ هو من بيده الأمر. ولأؤكّده في محلّه هذا بادرتُ إلى وريقة وسَجّلْتُ عليها عناوين ثلاثة كتب. ناولته الوريقةَ، تفرّس فيها ثم أعادها إليَّ مُلِحّاً عليَّ أن أزيدَ عليها ما أشاءُ من عناوين. كان ألسن منّي، وأوشك أن يُحرجني ولكنّ البديهة تفتقت مني في اللحظة المناسبة عن الحجّة التي لا تُردُّ: أقسم باللّه إنّني لا أرغب بالحصول سوى على هذه الكتب. «بقسمك هذا يا مولانا تُجرّدني من كلّ أسلحتي ولا تُبقي للمفاوضةِ مجالاً». هذا ما أجابني به محاذراً أن يُبديَ كلَّ ما تحت قوله من مكرٍ، ولكن ليس

Twitter: @ketab_n

إلى حدٍّ لا أسمع معه فحواه: «القسم حجّة الضعفاء!». تجاهلتُ قوله وتصامَمْتُ عمّا تحته وتركتُ له أن يسوق بقيّة لقائنا كما يشاء.

لستُ أدري كيف تسير الأمور بينه وبين الآخرين من نزلاء هذه المحميّة الموكولة رعايتهم إليه غير أنّ ما بيني وبينه، في تصوّري على الأقل، التبس دوماً من حيث إنّ كلّ واحدٍ منّا كان يُبادىء الآخر بالتنازل له ضمناً عن مرتبة المضيف راضياً لنفسه أن يكون الضيف، بل الضيف الثقيل. ولا أشكّ في أنّ التباس ما بيني وبينه أشقُّ عليه منّي بكثير. فعلى حين أنّ زيارته لي كلّما زارني تنقضي عندي فور مغادرته لي واعتكافي مجدداً، لا أراها تنقضي عنده بيسر. فأنا لا سيّد لي أحتاجُ أن أُبرىء ذمتي بين يديه إلّا من اخترته، أي أنتِ، أمّا هو فأسياده، لا ريب، أقلُّ دماثةً منك وتسمُّحاً وأبردُ منطقاً وروحاً، لا رونق لحديثهم ولا طَلاوةَ، ولعلّه إنّما يؤدي قسطه إليهم بأمانة، نزولاً عند ضروراتِ الحياة الدنيا وتكاليفها، ولعله لو كان بالخيار لحزم أمره وحقائبه وطلب لنفسه وعياله السكن تحت سماء تُمْطِرُ ماءً لا دماً. ومن يدري فَلَعَلّه أيضاً من

Twitter: @ketab_n

الذين رحّلوا عائلاتهم إلى بلادٍ آمنة وصاروا في حفظهم أمنَ هذه البلاد أشبه بالمرتزقة في أحسن الأحوال وبكلاب الحراسةِ في أحَطّها والأشيع.

ماذا عساه يكتب قريني في تقاريره التي يرفعها بعد كلّ زيارة: هل يسترعي اهتمامَه ما يلحقُ بمزاجي من تبدّل؟ هل يلاحظ أن لا أثر لقراءةٍ على الجرائد المتكوّمة قرب الباب؟ هل سيرفق بتقريره عن هذه الزيارة صورةً عن الوريقة التي دوّنتُ عليها عناوين الكتب؟

تحكّمي، أو ما بدا لي تحكّماً بمقاليد اللقاء بيني وبين قريني، ملأني ثقة جعلتني أُلبّي دونما تردّد دعوته أن ننتهز اعتدال الطقس للقيام بجولة في «الخارج» نستكمل في أثنائها حديثنا. لم يَبْدُ لي أنّ قريني يعلم إلى ما يدعوني أو يرى ما جَدَّ من أمري إذ جاءت موافقتي سريعةً هينة. حاولت أن أستذكر هل سبقَ له أنّ تقدّم إليَّ بمثل هذا الاقتراح، ولم يحضرني من لقاءاتنا السابقة سوى ما كُنتُ أُشيعُه عليها من انقباضٍ ووجوم كان قريني يتغمّدهما برحابة صدر ـ رحابةِ صَدْر طبيب مأجورٍ على صَبْره لا صديقٍ متبرّعٍ به مِمّا كان يؤجّج غضبي المكتوم عوض

Twitter: @ketab_n

أن يهدىء منه، ويدفعني كأن لامتحان جَلَدِه إلى مزيدٍ من الانطواء على نفسي ومن الانقباض والوجوم. وليس هذا فحسب، بل ليستْ رحابةُ صدره ما كان يُغيظني حقّاً ولكن ما كُنتُ أتَمَثّلُه وراءها أو تحتها أو حيث تشائين من تأويلٍ خاطىء لما أنا فيه. وكم من مرّة، لا سيّما بمناسبة لقاءاتنا الأولى، كدتُ أخرج عن طوري وأكيل له «الحقيقة»: حقيقة أنّ تأويله لما بي، المَقيسَ في الأرجح على هموم نزلاء المحمية الآخرين وشجونهم، ليس منّي في شيء ألبتة... أنّ أحزاني، لو يدري أو يُصَدّق، أحزانٌ حميمةٌ خاصّة ألقت وراء ظهرها تذكاراتِ مَجْد خاطف، وسِيّان عند أحزاني هذه أن يُستعادَ ذلك المجدُ أو أن يكون انصرامه إلى غير ما رجعة... وأنّها، أحزاني، وإن بدت أحياناً أحزانَ حِدادٍ فليس حدادها استباقاً على حياةٍ أخشى أن أُستَلَبَها ولكن على قطعةٍ من حياتي هي الحياةُ عندي كلّها، لا قبل ولا بعد ولا بين بين. هذا بيد أنّني، على ما تتوقعين، والخيلُ أعلم بفرسانها، كنت أردُّ عُرامَ نفسي وأغلّ لساني وأكظم غيظي وأطوي حقيقة أمري معاً. في ما بين هاتيك الأيام ويومي هذا لم يزدد قريني علماً

Twitter: @ketab_n

بدخيلتي ولا تكفّلتُ أنا بأن أزيده علماً، ولهذا لربما، لا لسببٍ آخر، لم يُفاجأ بأنِ انقدتُ لدعوته إلى ارتيادِ خارجِ لمّا أزل أعدّه، من أول اجتيازي عتبة حجرة الدّم هذه، أرضاً حراماً لا أطأها إلّا لضرورة لا أملك دفعها كمثل المعاينة الطّبيّة الشهريّة التي تجري في المبنى المركزي، أو جولات الصيانة الدورية لأجهزة الحماية التي تقتضي هي الأخرى نقلي إلى المبنى المذكور أو، أخيراً لا آخراً، ما كان الشهر الماضي من حملة رش مبيداتٍ أرغمتني على هَجْرِ جناحي طيلة ثمانٍ وأربعين ساعة متواصلة. بل لا يبعد، إن صَحّ افتراضي أنَّ خَفَر المكان من بشرٍ وآلاتٍ يحصون سرّي وجهري، أن يرى قريني في موافقتي على تلبية دعوته مصداقاً على تأويله هو لكآبتي على أنّها حالةٌ «طبيعية» و«عابرة» لا غضاضةَ في أن تتولّى أيّما امرىء ضاق به العلن، وعادَ لا محلَّ له إلّا تحت شمسٍ مشرقُها من وراء أسوارٍ عاليةٍ توشّيها أسلاكٌ شائكةٌ مكهربة يحرسها أرصادٌ أيديهم على قلوبهم وعلى أزندة بنادقهم ـ حالةٌ لا عَجَبَ في أن تزول عنه متى ما رضي بمصيره أو سلّم، تجرّعاً للمرّ، بأنّ مكانه تحت هذه الشمس فصلٌ من فصول مصيره.

Twitter: @ketab_n

لولا ركوني إلى تفسير قلّة مفاجأته على هذا النحو وثقتي المكتسبة بنفسي لا إخالني كُنتُ أجبته إلى دعوته وبلوتني مختاراً ابتلاء ما كنتُ لأتوهَّم أنّ الحياةَ من الدهاءِ حَدَّ أن تحبُكَ حبكةً تفضي إليه.

نزهتنا سيراً على الأقدام تحت أنظارِ مرافقي قريني ذوي القيافة المدنية المهندمة والنظارات السوداء والأسلحة المستترة، بخلافِ حراس المكان المُلَثَّمين المسبوكين سبكاً في ثياب قتال بألوان المكان أشبه بملابس الرياضيين لما تَصِفُهُ من تقاطيع أجسامهم وعضلاتها، والمسلحين في معظمهم ببنادق ذوات مناظير ـ نزهتنا تلك طالت أكثر بكثير ممّا توقعت.

تهيئةً لي وبلا استئذان، انطلق قريني بداية في تحليل سياسي تتشابك فيه مصالح دول كبرى وأخرى أصغر فتقوم بسبب هذا التشابك أوضاع، كانت في أية حالٍ على وشك القيام، وتَقْعُد أخرى ثم لا تلبث أن تفوح من اشتباك المصالح رائحةُ نِفطٍ وأن تُشْتَمَّ روائح ثرواتٍ معدِنيّة وصفقاتٍ سياسيّة مشبوهة. لياقةً كانت تَصْدُرُ عنّي بين الحين والآخر هينمات تُفيده أنْ كُلِّي آذانٌ صاغيةٌ

Twitter: @ketab_n

لما يقول، والحقيقةُ أنّني رغم انشغالي أيضاً بالتملّي من الطبيعة الغنّاء التي تحوط بنا كُنتُ ألقي إليه بعضَ سمعي ومع تطرّقِهِ رويداً رويداً إلى التفاصيل، وأخذِهِ في تسمية الأشياء بأسمائها والناس المعنيين بأسمائهم، راح انتباهي إلى حديثه يقوى ورحتُ أتشوّق إلى معرفة ما يرمي إليه من وراءِ هذه المطالعة المُسْهَبة.

هل تَعَمَّدَ ألّا نبدأ رحلةَ الإياب إلّا وقد نزع من تحليله واستعدٌّ لاستخلاص العبرة منه؟ هذا ما كان: «للأسف كلُّ ما يُعْرَف لا يقال... وإن قيلَ لا يُفهم أو لا يُحْمَل على محمل الجد... أصعبُ ما في حرب المصالح هذه (أدهشني استعماله العبارة بلا تحفّظ) أنّها تُخاضُ علينا باسم الله وكتابِهِ وشريعته... ومسالِكُ الله وكلماته شتّى ملتوية لا يكاد المرء يُمَيّز أيّها يسير بسالكيه إلى الخروج على القانون! أنت أدرى... وأخبر... ناقِلُ الكفر ليس بكافر، أليس كذلك؟ ولكنّه قد يتردد أحياناً عن نقله وفي نقله وهذا ما أنا فيه، وهذا أيضاً ما دعاني إلى التطويل في حديثي إرجاءَ لموافاتك بالرّسالةِ التي حُمِّلْتُ إليك. ببساطة، ويا لها من بساطةٍ، أنا موكَلٌ بأن أستطلِعكَ عن

Twitter: @ketab_n

مدى استعدادك للإطلال مجدداً من على شاشة التلفاز وتقديم درسٍ ديني أسبوعيٍّ أو شيءٍ من هذا القبيل... في طريقي إلى هنا استعرضتُ للمرّة الألف شتى الاحتمالات والأفكار والريب التي قد يُخطِرُها هذا الاقتراحُ في بالك، ولا أشك في أنّك الآن تُسارّ نفسك بشيء من قبيل: لم يَكفِهِم أن أُهْدِرَ دمي مرّة واحدةً بفتوى لا تَسقُط بمرور الزمن، صالحةٍ للتنفيذ حيث أُثقف... أو، أنا الغريقُ ففيمَ خوفهم عليّ من البلل... حقُّكَ أن تظنَّ بنا سوءاً وأن تمر بخاطرك مثل هذه الأفكار وأسوأ منها ولكن لا تنس أنّ ما أصبتَه من نجاح في إعداد ذلك البرنامج وتقديمه، رغم أنَّ حلقاته لم تتجاوزِ الخمسَ عشرةَ، لا سابِقَ له في سجلات التلفزة الدينية، ولا حاجة بي إلى التأكيد على أنّني لا أبالغ فالحجةُ على ذلك لا تحتاجُ إلى بيان... أليس أنّك هنا منذ أشهر بسبب من ذلك النجاح؟».

لم أُجافِ حقيقةَ ما كُنتُ أشعر به إذ قلتُ له بأنّه يُفاجئني وبأنّ هذا الاقتراح آخرُ شيء كنت أتوقّعُ ورودَهُ عليّ، وبأنّني أحتاجُ إلى بعض الوقت للتأمّلِ في الأمر... أما ما لم أقلهُ والذي كنتُ أشعر به أيضاً فإنّ بي رغبةً شديدةً

Twitter: @ketab_n

مُلِحَّةَ بأن أعودَ إلى بُوَيْتي وأن أخلوَ بنفسي وأن أرى في أمري. قامَ في نفسي أن أستفسر قريني هل من سبيل إلى الاتصال بشيخي صاحب التّزكيات، ثم عَدَلْتُ إذ بدا لي أن ليس عندي في واقع الحال ما أقوله له أو أستفتيه فيه ولكنَّ توارد خواطِرَ مدهشاً حدث في تلك اللحظات بيني وبينه. فقريني الذي لم يسبِق طيلةَ الأشهر الماضية أن حَمَلَ إليَّ سلامات من شيخي تَذَكّر فجأة أنّه مؤتمنٌ على أن ينقل إليَّ تحيّاته وأملَه أن يجمعنا لقاء قريب.

لم تزدني تلك التحيّات إلّا توتراً ورغبةً في أن يدعني قريني وشأني. لم يَبْدُ مستعجلاً. عوّلتُ أن يُؤْذِنَ وصولُنا إلى غرفتي بنهاية لقائنا غير أنّه لم يأتِ بما يدلُّ على ذلك بل استأذنني مرافقتي إلى الداخل. سبقني لساني: «البيت بيتك، تفضّل». هل قلتُها حقاً بنبرة هازئةٍ أم هو من سمعها هازئة فرأى من واجبه أن يوضِّح لي مجدداً بأنَّ الأمر مجرّد اقتراح غير ملزم وأنّني بالخِيَرَة بين الرّفض والقَبول... عبارة الترحيب الهازئة التي استدعت منه الإسهاب في هذه الإيضاحات ردّته في ما يبدو عمّا كان على نيّة إضافته حين رافقني إلى الداخل، كذلك فلقد

Twitter: @ketab_n

اقتصر عليها طالباً مني التفكير في الأمر واعداً إيّاي بزيارةٍ قريبةٍ... وبالكتب.

•

أمامي، على الطاولة، مسوّدة رسالةٍ إلى شيخي، ارتأيتُ أن تكون جوابي على الاقتراح الذي حمله إليّ قريني. هاجسي الأوحدُ أن أفوز بمزيد من الوقت. وهذه الرسالةُ التي اتخذتُ من الشكر له على تحيّاته المؤداة إلي مدخلاً لها أفضيتُ منه إلى التأكيد على أنّني لا أقطع أمراً دون الرجوع إليه، وأنّني في انتظار إرشاداته. ـ هذه الرسالة سواء أوصلتْ إلى شيخي أم لم تصل هي سبيلي الوحيد إلى ذلك أو هو ما أراهن عليه. لا أعرفُ على أيّ وجهٍ سيقرأ قريني وأسيادُه رسالتي تلك، ولا أعرفُ أصلاً من أية طبيعةٍ صِلَةُ شيخي بهؤلاء القوم الذين لا وجوه لهم في ذاكرتي ولا أسماء، ولا أبالي أن أعرِفَ أو أن أشتغل بهذا الأمر. الخوفُ حقّي المشروع ورأس خِشيتي أن يُهْدَرَ حقي هذا. الأسْرع إلى الظّنّ أنّه خوفُ الموت، وليس أيَّ موتٍ، الموت قتلاً، وليس أيَّ قتلٍ، القتلَ العذابَ بأيدٍ مطمئنةٍ إلى أنّها تُنفذُ مرسوماً إلهياً وأنَّ اللّه يأخُذُ بيدها. هو كذلك غير أنّ هذا

Twitter: @ketab_n

الخوفَ ليس المُقدَّم عندي، لا عن شجاعةٍ ولكن لأنَّ بي ما هو أكبر منه: بي خوفي أن يُحال بيني وبين السَّير بهذه الشَّهادة إلى آخرها.

في عادة القدامى كُلّما استطردوا وأبعدوا أن يأتوا بشيء من قبيل «نعود إلى ما كُنا فيه» ليعودوا ويستأنفوا حديثهم من حيث قَطَعوه. ليتني بهذه السهولة أعود إلى ما كنتُ فيه وأستأنف حديثي، ولكن هيهات، فمن الآن وصاعداً سأعيش وأكتب ما تبقّى من كتابي تحت وطأةِ الخطر بأن يعجلني الوقت... أعني: ألّا يتّسع الوقت لي: لحياتي الوحيدة التي لا تعترضني شبهة في استحقاقها هذا الاسم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢١

لا وقتَ للتواضع. والتواضع أحياناً أن نُسَمّيَ الأشياءَ بغير أسمائها توريةً أو تكنيةً أو أسهل منه بالاقتصار على التّلميح إليها. لا وقتَ للتواضع، إذاً أيضاً لا وقت للتوسل بالأعذار عن أمور قد تبدو كبيرةً أو فجّة أو يستدعي الأدبُ الرفيعُ المداراة في تناولها.

ذاتَ يومٍ مطيرٍ ائتمنتني على مفاتيح بيتك. وأن تأتمن امرأةٌ رجلاً على مفاتيح بيتها يعني أن تأتمنه على نَفْسِها. والأمانةُ في هذا المقامِ ليستِ الحِفظَ فقط وإنّما الحفظ والتصرّف. لستُ أدري هل تَوَقّعتِ منّي أن أتَصَرّف بالأمانتين، أنتِ والمفاتيحِ، بغير دعوةٍ صريحةٍ منكِ، أم أنّه اقتضاك أنّ يمرّ ذلك الأسبوع لتتيقني من أنّني لن أفعل إلّا بهذا الشرط، فلم تجدي من النّزول عنده بُدّاً وكان ما كان مِمّا أذكرهِ جيّداً جدّاً!

Twitter: @ketab_n

من يومذاك، يوم أن ارتفع السّدُّ الذي كان يَحْجِز بيننا رَجُلاً وامرأة، انفرجت منّي أساريرُ لا تُعَدُّ ولا تُحصى، كثيرٌ منها لا شواهدَ عليه ولا بَيّناتٍ سافرة. ومن يومذاك أيضاً أُحِلَّت لي منازلُ بيتك جميعاً، وصار تردّدي عليه بلا موعدٍ سابق. وشيئاً فشيئاً أخذَ تردّدي ينحو منحى الإقامَةِ فَسَمَّيتِ باسمي الطاولة التي قد اصطنعتِها للحاسوب وجئتِ له بأخرى أصغر ذاتِ عجلاتٍ جعلتها بحذاء طاولتك التي شهدت تعارفنا، وأفردتِ لأوراقي وقرطاسيتي رفّاً من رفوف المكتبة، ولملابسيَ التي راحَتْ تتزايَدُ وتأنَقُ مَوْضعاً من صوانك العملاق. وإلى هذا جميعاً تسارعت وتيرةُ حياتي قياساً بسرعتها التي كنتُ أعرفها لها، وجارَيْتُها في تَسارعها، لاهثاً أحياناً، مُستعيناً بكِ حَيثُ يُمكنُ، مُستقوياً في سِرّي، حَيثُ لا يُمكن. ولكن ليست وتيرةُ حياتي ما تسارع فقط؛ دورةُ الموتِ والحياةِ في بلدينا أيضاً. صحيح أنّ الموتَ في بلدي كان أرخَصَ من الموت هُنا وأنّ الحرب هناكَ كانت أصرح منها هنا، غيرَ أنّ اختلافَ الدارين ومكاني في أحدهما دون الآخرِ لم يحولا بَيني وبين أن تجري عليَّ

Twitter: @ketab_n

الحربان معاً. من قبل أن اختبرتُ الأمْرَ بنفسي، بصفتي إماماً وخطيباً ومُدَرِّساً، تحقّقتُ بالدليل اليومي الملموس أنَّ رعاية إيمان الناس وسياسته أصعب الرعايات والسياسات. كثيراً ما تساءلت، لا سيّما أيّام عملي في وزارة الأوقاف، في المصلحة المعنيّة بإدارة المساجدِ والإشراف عليها، كيف أنَّ العديد من المساجد متروكٌ وشأنه أو بالأحرى لأصحابه يذكرون فيه الله كيفما يشاؤون. ولم يكن ليُطَمْئنني ما يَردُ على مصلحتنا بين الفَينة والأخرى من استفسار إداري من شُعبة النشاطات الدينية في جهاز من أجهزة الأمن عن مسجد ما، فلا نلبث أن نتبيّن بعد البحث في سجلاتنا أنَّ المسجد المذكور بُني على عَقارٍ اشترته جمعيّة خيرية ووقفته وأنّه لا إمامَ له معروفاً لدينا، أو أنَّ إمامه المعروفَ لدينا قد توفي لسنواتٍ خلت. قد يُستَغربُ أن يكون كذلك والبلد في قبضةٍ حديد ولكن أليس ما يجري هُنا وهُناك وهُنالك خيرَ دليلٍ على بُطلان هذا الاستغراب وعلى أنّ اليدَ الحديدَ التي تُلقي الرُّعْبَ في الأفئدةِ، وحيثُ لا يكفي الرعبُ وحده تَزُجّ في السجن وتطلق النار، تتردّد، إن لم

Twitter: @ketab_n

يكن أكثر، حيثُ تقتضي الحاجةُ أو الضرورةُ أن تَمْتَدَّ لتخلع بابَ بيتٍ من بيوت الله ـ ناهيك بأنّها لا سلطان لها على ما يختلج في الأفئدة.

«نحنُ في سباقٍ مع كلمةٍ سبقت[*]، وما لم نُسَلِّم بأنّ كلمتَهم قد سبقت وما لم نحاول، في جملة التدابير، أن نسابقها ونرصدَ الدروس الدينية التي تُلقى في المساجد فعبثاً نحاول... لا أقول إن البادىء بالضّرورة أغلبُ ولكنّني ألاحِظُ فقط أنَّ مَثَلَنا مَثَلُ القوم الذين غُزُوا في عُقر دارهم...». هذا ما رأيته من رأي في ذلك الاجتماع «المغلق» الذي جَمَعَ مسؤولين من وزارتي الأوقافِ في بَلَدينا وآخرين من شُعَبِ النشاطات الدينية.

من أشراطِ الساعَةِ أنَّ الاجتماع لم يُعقد بمبادرة من المسجديّين بل من الأمنيّين، وأنّ الاقتراح الذي أيّدتُه والقاضيَ بتَعَقُّب الدروس الدينية في المساجد والقيام بحملات دروس مضادة جاء من هؤلاء أيضاً. فراتبي كما المئاتُ من أمثالي أتلقّاه نظير قيامي في المبدأ وبحسب

(*) ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك﴾، طه، ١٢٩.

Twitter: @ketab_n

المسمى الوظيفي بأعمال ثلاثةٍ هي إمامة الصلاة وخطبة الجمُعة والعيدين والتدريس.

وإذ لا يحتاج الأولان من هذه الثلاثةِ إلى بيان وإذ يمكن التحكم بهما فالأخير لا بيانَ جامعاً متفقاً عليه له. فلقد يكونُ موضوعُ الدرس شيئاً من نحو العربيّة وصرفها كما أنّه قد يكون درساً في التفسير أو الحديث أو السنّة؛ ولمّا أنّه كذلك فمَنْ يضمن لِمَنْ كيف يُفَسِّرُ هذا أو ذاك آياتِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يضمنُ أنَّ هذا أو ذاك من أصحاب العمائم أو من «حَمَلَة الكتاب والسنة» ليس ممن لا تطمئن لهم نفسٌ إلّا بأقوى الإيمان، وأقوى الإيمان في هذا المقام الإنكار اليدوي(*) ومن يضمن لِمَنْ ما يقول هذا أو ذاك شارحاً حديثه «أُمِرْتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلّا الله، فمن قال لا إله إلّا الله عَصَمَ مني ماله ونفسه (...)»، أو حديثه «إنّ بني إسرائيل قد افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وأنتم تفترقون على مثلها، كلها في النار إلّا فرقةً»... ثُمَّ إنّ التدريس في المسجد يدخُلُ تحت حَدّ

(*) «من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيّره بيده فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، حديث.

Twitter: @ketab_n

الدعوة «وعلى جميع أهل العلم من حَمَلَة الكتاب والسنة في كلِّ مكان أن يقوموا بواجب الدعوة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (...) وعليهم أن يبلِّغوا رسالة الله أينما كانوا، في المسجد وفي البيت وفي الطريق وفي السيّارة وفي الطائرة وفي القطار...»(*)، فمن يَضمن لمن عِلْمَ هذا أو ذاك؟ ضيفي أنّ المساجِدَ، وإن تكن بيوتَ اللّه، لا يُعهد في إدارتها والإشراف عليها إلى ملائكةٍ مقرّبين وإنّما إلى بشر لا تُغني مشيختم عن كونهم موظفين حكوميين... كسالى في معظم الأحيان!

بل هَبي شيخاً موظفاً حكومياً نزيهاً يقومُ بواجبه على أكمل وجهٍ ويُلقي درساً مرّةً في الأسبوع أو مَرّتين، هل تظنّين أنّ روّادَ حلقته لا ينصرفون عنه وعن حلقته وعن مسجده إن كان بارد الحديث والقصص والأسلوب، إلى حَلَقةِ شيخٍ لَسِنٍ لَحِنٍ كيّس؛ بل ظُنّي به وبأمانته وبمنطقه خيراً، أنّى لَهُ أن يَمْنع أيّاً كان من دخول مسجده والصلاة فيه والاختلاط بجمهور المصلين وبثّ

(*) استشهاد صادق.

Twitter: @ketab_n

دعواه في صفوفهم. أقول هذا لا مستثنياً نفسي من كل السيئات التي عَدَّدْتُ. فعند وصولي إلى مدينتكم مُدجّجاً بلقبيَ المُثَلَّث وَجَدْتُ أنَّ سلفي كان يكتفي بإلقاء بعض الدروس، الأقرب إلى العظاتِ الأخلاقية، في المناسبات وخلال شهر رمضان. رفعاً لأيٍّ عتبٍ وتنشيطاً للمسجد عَمِلْتُ على تَنْظيم درسٍ أسبوعيٍّ عامٍّ على شاكلة دروس سَلَفي، أي أقرب إلى العظة، بين المغربِ والعِشاء من كلِّ خميس. في الأسابيع الأولى كان عَدَدُ الحضور لا بأس به، غير أنّ معظم هؤلاء كان يأتي إمّا بنيّة التعارف وإمّا مجاملةً للشيخ الجديد وإمّا لطَلَبِ خدمةٍ، ومعظم هؤلاء كانوا من الكهولِ وما فوق. على مَرّ الأسابيع تضاءل عدد الحضور أو بالأحرى عادَ لا يتجاوَزُ المثابرين على الصلاةِ في المسجد واستحال الدَّرس إلى جلسةِ سَمَرٍ تمتد أحياناً إلى ما بعدَ فريضة العشاء. لا ريبَ أنّ زملاء لي حاولوا مثلما حاولت وفشلوا مثلما فشلت، غير أنّ فشلي طَفَّفَ منه أنّ مسجدي كان مَقْصِد أهل الحي لشؤون دنياهم أكثر منه لشؤون دينهم وهذا ما أتاح لي ألّا تَقْتَصِرَ صِلاتي على الورعين منهم فقط وما أتاح لي أيضاً، من قبلِ أن تبدأ

Twitter: @ketab_n

محاولاتُ الاستيلاء على المسجد التي جئتُ على ذكر البعض منها، أن أستقبلَ ما اختلف على المسجد والحي والبلد كقدرٍ مكتوبٍ لاحت له لوائحُ وأنذرت به نُذر. ثمّ لا تنسي أن للّه في خلقه شؤوناً وأن لكل امرىءٍ من دهره ما يُريدُ وما لا يُريد، وما يُغامر فيه وفي سبيله وما لا يُغامر، وما يسري على الناس من هذا يسري أيضاً على حَمَلَةِ لقب المشيخة. أنا مثلاً، عندما أُذكر في الشيوخ أئمّة المساجد، يقول المحبّون إنّني دافعتُ عن مسجدي حتّى الرّمق الأخير (يُبالغون لا شكّ قليلاً فهذا الرّمق الأخير هو ما أتنفّس منذ شهور!). دافعتُ عن مسجدي؟ نعم فعلت أو بالأحرى أظهرتُ أنّني مُصِرٌّ على الدفاع عنه، ولَعَلَّ إظهاريَ العزمَ على ذلك هو ما حماه أكثر من دفاعي عنه. ولكن هل أستطيع القول إنّني أفلحتُ في تحويل مسجدي إلى بيتٍ للّه نموذجٍ يحتذى؟ لا أدّعي ذلك بل أكاد أذهب إلى أنّ ما انتهى إليه مسجدي يجعل منه شرَّ نموذجٍ، ونموذجاً للشّرِّ الذي لا يَسَعُ أحداً منّا، قتلةً ومقتولين، أن يغسل يديه منه.

•

Twitter: @ketab_n

مع بداية إطلالاتي المتلفزة دبّت في جُمُعاتِ المسجد حياةٌ جديدة. حقيقةً لم أتوقّع أن تُتَرْجم نجوميتي الناشئةُ عن نفسها بهذه السرعة وأن يفيدَ المسجدُ منها بهذا القدر. ولكنه ما كان...

مع ثالث جمُعةٍ تَلَتْ ثالث ظهوراتي المتلفزة قطع اليقينُ الشكَّ عندي بأنّ عدد الوجوه الكثيرة غير المألوفة منّي في ازدياد مطرد. وممّا أكّدني في ذلك أيضاً التفافُ العديدين حولي عَقِبَ الفراغ من الصلاةِ، مَنْ لمجرّد السَّلام ومَنْ للسّلام والثّناء على خاطرة صَدَرَت عني، ومَنْ للسلام والثناء على البرنامج عموماً وتسجيل الاعتراض على الخاطرة التي كان الآخرُ يمتدحها، ومَنْ للسلام وطلب موعِدٍ لمشورة «شخصية».

كان السلامُ هو اللازِمَةَ، وما يُزفَقُ به، متى أُرفِقَ، هو الوسيلة إليه. مراراً تحادثنا في هذا الموضوع وإذ كنتُ أُبدي لكِ دَهْشتي من تحوّلي السريعِ إلى نَجمٍ يُسعى إلى الصّلاة خلفه وإلى السلام عليه كان جوابُكِ أنّ «كُفّ عن افتعال تواضُعٍ أنْتَ أدرى بأنّه التجبُّر بعينه». واقع الحالِ أنّ دهشتي كانت أبعد شيء عن الافتعال أوّلاً لقياسي على

Twitter: @ketab_n

نفسي: لا أذكُرُ أنّني بذلتُ أدنى مشقةٍ في سبيل إلقاء التحيّة على كبيرٍ مُتَلْفَزٍ أو مُهاب، لا في الجامعة ولا أثناء عملي في الوزارة ولا بعد ذلك، وثانياً، وهو الأهم، أنَّ إعداد فِقراتِ البرنامج الموكلة إليَّ وتَقَمُّصَ شخص المُقَدِّم كانا يورثانني على مدار الأسبوع همّاً لا أكاد أُفلتُ منه عصر الأربعاءِ مع الانتهاء من التسجيل حتى أقع في شباكه مجدداً صباح السبت موعد اللقاء الأسبوعي الذي يجمع كلّ أعضاء الفريق، والذي يُنْجِز مُخَطَّط الحلقة المقبلة. وغنيٌّ عن الإشارة أنّه لقاء يقتضي الإعدادَ له.

هذا جميعاً، لا شكَّ عندي، كان غائباً تماماً عن جمهور المُسَلِّمين الذي كان أفراده لا يرون فيَّ إلّا ما تنقله الشاشات. وعلى الرغم من أنّ إحدى الحِكَم الأثيرة عندكِ كانت أنَّ «النجومية مهنةٌ» ومن أنّكِ خلعتِ عِذارَ التَّحفظ أحياناً وأفهمتِني بصريح العبارة أنّه «في النهاية»، أي «في اعتبارِ التلفاز، هذا الضَّرع العملاق الذي يرفد العِبادَ بالصُّور والتصوّرات على حدّ سواء» ـ أنّه، بصرف النظر عن اختلاف الجمهور، لا فرق من حيثُ «الوظيفة الاجتماعية» (عبارة أخرى قَبَسْتُها منك) بيني

Twitter: @ketab_n

وبين المُغَنّي الشابِّ الصاعد معبود شريحةٍ من المراهقين والمراهقات وبين زميلتي الغادةِ الحسناء مقدّمة برنامج الألعاب، وسواهما من النجوم التي يتهافت المعجبون للسلام عليها ـ أقول، على الرغم من ذلك ومن تقريبك الأمر إليّ، بفجاجةٍ أحياناً ولكن دونما تثريبٍ أو إزراء، لم أفقه مقالتك وأعِ «حقيقة» شخصيَ الجديدِ إلّا يوم قَرّبتُه أنا نفسي إليّ مُتَوَسّلاً إلى ذلك بتشبيهِ من مقلع تربيتي، وكان ذلك يومَ أن تساءلتُ بشيء من السذاجة والتوجس معاً: «أليسَ إصرارهم على السلام عليّ وعلى أمثالي شكلاً من أشكال التبرك؟» ولم أملك إلّا الإقرار بأنّه كذلك.

لأنّ الأمر كان عندَكِ نافلاً ولأنّكِ كنتِ ترين إليه بعين مجرِّبة لاهيةٍ معاً لا تضع السيف في موضع الندى ولا يُعَطِّلُها التأمُّلَ عن العمل، فلقد أخطر لكِ حديثي المتكررُ عن السّحر الذي ألفيتُني على حينِ غِرَّة أُسَلِّطه على الأقربين والأبعدين فكرةً لا تقلّ مَضاء عن تلك القاضية بتصنيف المساجد طبقاتٍ، التي أُخِذَ بها والتي حرّكت مع انتقالها من القوّة إلى الفعل، أي تَلْفَزتها وبثّها، مواجِدَ كثيرةً كادتْ تؤدي إلى صَرْفِ النَّظر عن الاستمرار

Twitter: @ketab_n

فيها لولا عنادُ صاحب القرار الأخير وتهديدُه بوقف البرنامج برُمّته: «في معظم البرامج الدينية المفتوحة لمشاركة الجمهور، تقف مشاركته عند حدِّ السؤال أو الاستفتاء، لماذا لا تُقلب الآيةُ ويُسأل الجمهور رأيه في مسائل عمليةٍ تعنيه وتعني الدين؟». لم أُعَلّق على اقتراحك ولكن كعادتي خبأته في ذاكرتي لعلّ وعسى. بعد أيّام على ذلك، ومن قبلِ أن تسنح لي مناسبة استخراجه فاجأتِني به وقد أعددتِه ونضدتِه ولم تدعي لي سوى أن أرفعه لحصافة الحجة التي احتججتِ له بها. فلقد كان فريق البرنامج، بما فيه أنا، ومن أثق برأيهم، وأنتِ، على اتفاقٍ بأنّ أضعف الفقراتِ تلك التي تُعنى بأخبار المسلمين في العالم ولكنّنا، الفريقَ، كان يعوزنا البديل منه أو لربما تكاسلنا عن إعمال الرأي. مع حُضورِ اقتراحِكِ أُسقط في يدي. كان يُمكن أن أطرح اقتراحك جانباً فلا أرفعه مدعياً أنْ قد رفعتُه ورُفض غير أنَّ مجرّد الفكرة لم تخطر لي بل كان أن رفعتُه ولم تمض أيّام إلّا وضمَّ الفريقَ وأحد مسؤولي المحطة النافذي الرأي مجلسٌ للبحث في التفاصيل. آنذاك كان شغل المدينة الشاغل سلسلةَ جرائم قتل استهدفت عدداً من المومساتِ

Twitter: @ketab_n

وتبنّتها جماعةٌ تدّعي الذود عن الفضيلة(*). بوحي منكِ اقترحتُ أن يكون على موضوع الساعة هذا مدارُ الفِقْرة التي قسمنا وقتها القليل قسمين: أوّل يستغرق ثلثيه يُناقش خلاله مدعوون من «عامة الناس» المسألة المختارة، وثانٍ يأتي على الثلث الباقي، أوضّح فيه رأي الشرع. بعد تردُّدٍ أُخذ باقتراحي علماً أنّني أنا نفسي كدت أتراجع عنه تحت تأثير الخوف الذي تولى بعض الزملاء ودعوتهم إلى اختيار موضوع أقلّ استفزازاً لـ«المشاعر الدينية». لا حاجة بي أن أحدِّثك عما كان للأمر من وقع؛ فأن يتفق الأربعة المدعوون مع إدانتهم للرذيلة والبغاء على أنَّ قَتْلَ هؤلاء المومساتِ، ولو بأيدٍ طاهرة مطهرة ونوايا صافية، جريمةٌ، وأن يؤيّدَهُمُ الشرعُ في ذلك بلساني، باعتبار أنّ النهي عن المنكر، مع إدانته المبرمة للمنكر، ليس حقاً مشاعاً يصطنعه أيّ إنسان لنفسه وكيفما كان، وأن يقال ذلك من شاشة القناة ذات الحظوة لدى جمهور المشاهدين

(*) بالطبع (!) لم يلبث أن اتضح أنّ الجماعة المذكورة لم توجد يوماً وأنّ مرتكبي هذه الجرائم كانوا قتلة مأجورين اكترى خدماتهم للقيام بهذه الاغتيالات جهاز أمن «غير منضبط»!

Twitter: @ketab_n

بشهادة استطلاعات الرأي وضمن برنامج ديني عنوانُه «السلام عليكم» ـ الشطر الأوّل من تحيّة الإسلام(*) ـ كان ذاك أمراً غير مسبوقٍ أثار حفيظة البعض ونقمة البعض الآخر، إلّا أنّه لم يزد البرنامج إلّا شهرة والفقيرَ إلى ربّه، تلميذكِ النجيب، إلّا نجومية.

وككلِّ النجوم صار تلميذُك النجيبُ محطَّ الأنظار وحسد الحسّاد بل محطَّ حسدهم مقدار ما كانتِ الأنظارُ ترنو إليه. وبطبيعة الحال فلقد كان المُبَرَّزون بين الحسّادِ بعضَ زملائي من أهل بلدكمُ الذين استكثروا على «الغريب» الذي هو أنا، المشكوك في عِلْمِهِ (بحكم أنّ التفاوت بين بلدينا لا يعفُّ عن معاهِدِ العلم الشرعي) أن يحصُدَ كل هذا النجاح دونهم. غريب أنا ولكنَّ دار

(*) «يروي صاحب المحبر، (ابن أمية)، أنّ العربي البدوي كان إذا لقي واحداً من عشيره وأهله حيّاه بالتحية التي توقع عليه السلام، أي الحياة الرخوة والطيّبة والخلو من الانتهاب والغزو والسبي والغصب، وبَدَره بتمني الموت لعدوّه، وهو كلٌّ من ليس من قبيله. فالتحية العربية، التي أخرج منها الإسلامُ الأولُ شطرَها الثاني، أي تمنّي الموت، وقَصَرَها على استنزال السلام (والأمن) ورحمةِ الله وبركاته، جمعت في كُل واحدٍ وجميعٍ سلامَ الأهلِ والقبيل والنسيب، وموت الغريب الأجنبي (...)».
وضاح شرارة، *الموت لعدوكم*، دار الجديد، بيروت، ١٩٩١، ص ٩٧/٩٨.

Twitter: @ketab_n

الإسلامِ، رغم أنوفهم، بَلَدٌ واحد بل «بمنزلة البلدة الواحدة»(*) ولي في آلافٍ مؤلّفة من «حملَةِ الكتاب والسنّة» الذين ساحوا في طلبه وتبليغه بعيداً عن مساقط رؤوسهم أُسىً حسنة، أما علمي فلم يكن ليتدنى عن علم أعلمهم، وحيث كانت قدمي تَزِلّ كُنتُ ألوذ ببلاغتي وبياني فأُسْكِتُ حيثُ لا أُفحِم. على أنّه وعلى أنّ كلتا الحجتين كانتا ممّا لا يَصْلُح للقدح فيَّ علانيّة فإنّ حسّادي، حتّى الداعين منهم على المنابر إلى إسلام الكتاب والميزان دون إسلام الحديد(**)، لم يَعْدَموا حجة ثالثةً ألحن من المذكورتين وأدعى إلى التصديقِ بين العامّة والخاصة، أعني خاصة العامة، مفادها أنّني تُسَيِّرني في كل ما آتي وأقول يَدٌ خفيّة

(*) «إذا دخل العدوّ بلاد الإسلام فلا ريب أنّه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة» (استشهاد صادق).

(**) «أرسل الله مع نبيه الكتاب والميزان والحديد. قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنّ الله لقوي عزيز﴾ (الحديد، ٢٥). فكتابه يهدي إلى الحق، والحديد يقوّم من خرج عنه، والناس لا يُصلحهم إلّا هذا، ومتى ضعف في الناس أحد الأمرين، الكتاب أو الحديد، حصل الفساد والخراب. قال صلعم: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده"» (استشهاد صادق).

Twitter: @ketab_n

هي نفسُها التي جاءت بي قبلَ سنواتٍ إلى مسجد الغرباء وهي التي صنعت منّي نجماً وهي التي تحميني.

ومن الطريف أن زملائيَ النافسين عليّ نجوميتي المباغِتَةَ لم يكونوا المروّجين الوحيدين لهذه الشائعة، فإلى جانبهم كان يُرَوِّجها أيضاً، وعلى نحو أوسع وأنشط، وبكل الوسائل لا بالمشافهة فقط، فريقُ الخصوم المتغلغلُ حتّى إلى مشارف مسجدي، المُبَشِّرُ بإسلام الحديد والعذاب الأليم. والحقّ أنّ ما كان يزعجني في هذه الشائعة ليس رواجها ولكن غباءها. فأنَّ يداً أو أيدياً أخذت بيدي وجاءت بي إلى مدينتكم إماماً لمسجد الغرباء ثمَّ كتبت اسمي مُزَكِّيَةً إياي لإعداد ذلك البرنامج وتقديمه إلى آخره ليس ممّا أنكره بل لربّما اتفق لي مراراً مذ بدأت العمل في التلفزة أن تعمّدت الاعترافَ بما لشيخي النافذ من أيادٍ بيضاء عليَّ، أمّا وصف هذه اليد بالخفيّة فهو ما كُنْتُ أرى فيه الغباء بعينه. كيف تكونُ خفيةً ولا يَدَ سواها هُنا أو هناك تملك أن تنفع أو تضرَّ أو أن تعتزل النَّفع والضرر؟ رغم وضوح هذه الحقيقة وضوحَ الشَّمْسِ في تموز فلقد رسخ الاعتقاد بأنّها خفيّة ولا يمكن زحزحتها. زيدي على

Twitter: @ketab_n

ذلك ممّا كان يزعجني في هذه الشائعةِ أنّ اليد الوحيدة التي كانت تُسَيّرني وكانت أهلاً لأن توصف بالخفيّة هي يدُكِ أنتِ لا أيّة يدٍ أخرى، وأنّني كنت مُكرهاً على السّكوتِ عن فضلها.

•

في هذه الأثناء كانت حياتنا معاً تجري مجراها وراء جدران بيتك لا يُعَكِّر من صفوها شيء.

عند مباشرتي تدوينَ هذه الاستطرادات لم أكن لأخطو خطوةً في رواية ما كان بيننا إلّا وأسْتَوْقِفني عن المضيّ قُدُماً مخلّياً بين نفسي وبين الدهشة من أنّه كان. إذ ذاك كنتُ بعدُ مدهوشاً من أنّه قد قُدّر لشيخ مسجد الغرباء الذي هو أنا أن يتّصل ما بينه وبين امرأة في مقتبل العمر تجمع الفتنة من أطرافها. اليومَ، وعلى ما يُراجعني من تلك الدهشة بين الحين والآخر، حقّي وحقُّكِ عندي أن يُدهشني أن تفاهمنا كلّ ما تفاهمناه بأقلّ قدر من الكلام والتخاطب أي بما لا يكاد يذكر. بل كيف لا يُدهشني أنّنا لم نحتج لينتقل ما بيننا من طورٍ إلى آخر، ولأتدرّج من رتبة عابر سبيل من سبل حياتك إلى رتبة خِدْنٍ خليلٍ

Twitter: @ketab_n

عشيق، ولتتدرجي أنتِ من رتبة امرأة طيَّ الغيب إلى رتبة مشيرةٍ خليلةٍ عشيقةٍ ـ كيف لا يدهشني أنّنا لم نحتج ليكون ذلك جميعاً وليستتب إلّا إلى أن نبدأ: أن نأتي الشيء مرّة ليصير لنا سَمْتاً وسُنّةً.

كان ذلك وكان أيضاً أنّه بلا كلامٍ ولا اتفاقٍ صريحٍ على ذلك لم يحدث أن فاتَحَ أحدنا الآخر بـ«مستقبل» ما يُمكن أن تؤول إليه هذه العِشرة. والحق أنّ غياب «المستقبل» عن جدول أعمالِ رجلٍ وامرأة تربط بينهما رابطةٌ وثيقةٌ حميمةٌ من مثل التي كانت بيننا فرصةٌ عظيمةٌ ونادرة. بلا كلامٍ ولا اتفاق صريح أيضاً أحسنّا انتهاز هذه الفرصة اليومَ تلو الآخر، ولو أنّ ذلك كان معروفاً من الآخرين لما خَلا، حتماً، من أن يثير الحَسَدَ والحسّاد علينا!

وإذ لا بُدَّ مِنْ أن أضيف، أضيفُ أنّ كلَّ ما جئتُ على ذكره حتّى الآن مهما كان بيننا يبقى ناقصاً ما لم أفِ ما تبادلناهُ من علم حقّه. بين ما تعلّمته منك وما تعلّمتِه مني لا وجه للمفاضلة. فما اسْتَفَدْتِه منّي لا يعدو بضعَ قواعد نحوٍ وصرفٍ سِيّانٍ معرفتها أو الجهلُ بها، فضلاً أنّ أيَّ متمكن من النحو والصّرفِ كان كفيلاً بشرحها لكِ

Twitter: @ketab_n

مثلما فعلتُ أو لربما بأفْضَلَ مِمّا فعلت. أما ما استفدتُه منكِ فأقلُّ ما يُقالُ فيه أنّه يفوت العَدّ والإحصاء. فالزاعم أنّ الحياةَ عِلْمٌ يُختتم ليس أنا. من قبلِ أن أُبعث حيّاً على يديك كانتِ الحياةُ لا شيء يُذكر ويُحصى. من بعده نُفِخَتِ الحياةُ في كل شيء وفي كل الأشياء، حتى أتفهها وأقلها خطراً، ومن ثَمّ عادت لا تغيبُ عن الذِّكْرِ ولا تَقَعُ تحت حَدِّ الإحصاء. لا أبالغ، صدّقيني: عِلْمُ التوحيدِ سلبني الله الذي رأيته في بديع خلقه وأحببته دونما مساعدةٍ من أحد، وحياتي قبلك قَبَّحَت لي الحياة وسلبتني الشَّوْقَ إليها... أللّهُ لم ألتقِ من يَرُدّه عليَّ أو يردّني إليهِ بل ما التقيتُ إلّا بمن نأيتُ بنفسي، في سرّ نفسي، أن أشترك في الله معهم، أمّا الحياةُ فالتقيت بمن ردّها عليَّ وردّني إليها وكان ذلك أنتِ. ولادةٌ ثانية أم بعث أوّل، إن هي إلّا كنايات شاحبةٌ لا تُغْني بلاغتها الطنّانةُ المريبة عن وَصْفِ ما جَدّ من أمري شيئاً فشيئاً بمقدار ما كان الذي بيننا تتوثّق عراه. أعرفُ أنّني مهما عَدّدتُ من وجوه الحياة وتفاصيلها التي كان لك الفضلُ بهدايتي إليها فلسوف يخرج من يقول بازدراء: أهذه هي الحياة؟ على

Twitter: @ketab_n

أنّه، فلستُ أستثني من دائرة الحياة شيئاً على الإطلاق ولا يعنيني ما يحتقره الآخرون من شؤونها أو يتظاهرون باحتقاره، على الأرجح لعدم معرفتهم بها واختبارهم إيّاها. دعكِ من القراءة التي تَعَلَّمْتُها مجدداً على يديك في ديوان المتنبّي ودعك من نقاشاتنا التي متى ما لم أستفد منها فكرةً استفدتُ منها عبارة جديدة أو استعمالاً حادِثاً للفظة معروفة، ودَعْكِ من إطلاقِ بصريَ الحسير تربيةً صَوْبَ أمداءٍ مجهولة، ـ دعك من هذا جميعاً فهو ليس بيت القصيد. فهذا جميعاً ما كان يَسَعُكِ أن تُبلغيني إيّاه لولا ما شَفَيْتِهِ ممّا أسميته في مكانٍ ما من استطراداتي هذه «شيخوختي المبكرة». يحدثُ، نعم، أن تُراجعني أحياناً عوارض هذه الشيخوخة، بَلْهَ أن توسوس لي وَسْوَسَة شيطانٍ خنّاس ولكنْ بين أن تُراجِعَني مُسارقةً ووَسْوَسَةً وأن أصمُدَ لها وأساجلها مُتَسَلّحاً بما اكتسبته منكِ، وبين أن تَفْتِك بي آمنةً مطمئنة بونٌ شاسِعٌ. كلُّ الجَدِّ الذي يُنسب إليَّ، وقد يُنْسَب إليه عِزُّ شيخ الغرباء بعدَ فاقةٍ وخمول لا يُساوي عندي الخفّةَ التي راضتني عليها صحبتك، والتي لولاها لما مشيتها خُطى واثقةً أو أكاد إلى حيثُ أنا الآن.

Twitter: @ketab_n

أدين لكِ بأن بَدَّلتِ من هندامي، ومَنْ سواكِ أدرى بأنّه ليس من صغائر الأمور أن يَقْتَنِع امرؤ بأنّه لا عَيْبَ في أن يتأنّق ولا بأن يتخفّف من ملابسه، إلّا القدر المريح منها، ساعةَ لا حاجة به إليها جميعاً، وأدين لكِ بأن تعلّمت بأنَّ ثالث رجلٍ وامرأةٍ وراء بابٍ موصد ليس الشيطان حكماً، وأدين لكِ بما تيقنته من أنّ كتب الفقه على المذاهب الأربعة، الخمسة، الستة، ما تشائين، لا تَتَّسِعُ على إسهابها ورطانتها لما يُمكن رجلاً وامرأةً أن يُدركاه في لحظةِ تجلٍّ! (لا لا أتحدث بلغة الصوفيين!).

لا أذكُرُ متى كانت تلك الليلةُ التي سألتني فيها ما معناه: «ألا تغارُ منه؟، قَصَدْتُ أحمدَ المتنبّي. ألا يُسَوِّلُ لك فضولُكَ أن تستطلع فيمَ أقضي هذه الساعاتِ الطوالَ بين ديوانه وبين هذه الأوراق والإضبارات؟». أجبتك أنّني بالطبع أغارُ ولكن أدعُ لكِ أن تسأمي منه فلا أحتاجُ بعد ذلك إلى أدنى جُهدٍ أبذله لاستردادك منه، وإذ أعياكِ الجوابُ أو لم يُفتح عليك بجوابٍ يقفُ لحجّتي عَلَلْتِ كبرياءكِ بشيء من الغُنج وسألتني ما لا أملك إلّا أن أُجيبكِ إليه: «ألا تظنّه عاتباً علينا؟ أليس الأولى بأن نخرج له زكاة

Twitter: @ketab_n

وقتنا؟». شَرَطْتُ عليكِ أن أختار القصيدة. وافقتِ. حذّرتك بأنها مما قاله في صباه. استفسرتِ عن مغزى تحذيري. تشاغلتُ بالبحث عنها في فهرس القوافي وأطلتُ رغم أنّ القافِيّاتِ قليل في جنب سواهن. كرّرتِ الاستفسارَ فاكتفيتُ من الجواب بأنّها ممّا يقوله المرء في صباه. لعلّك فَهمتِ قصدي أو لعلّ النكتة التي حبكت من تلقائها: «وممّا يتصاباهُ الشيخ أيضاً؟» أفحمتني ففتحتُ الديوانَ على الصفحة التي يمثلُ فيها مطلع قصيدته في مدح أبي المنتصر شجاع بن محمّد بن أوس بن معن بن الرضى الأزدي ووضعته تحت ناظريك وتركتك تقرئينَ وفي النّفس منّي شيء آخرُ غير أن ألْفِتَكِ إلى أن خَبَرَ «جُهد الصبابة» في البيت الثاني هو جملةُ «أن تكون»، وأنّ «ما» من قوله، في البيت الرابع، «ما تنطفي» مَصْدَرِيّة وأنّ في هذا البيت نكتةً نحويةً تُمَثِّلُ على أحد خلافاتِ البصريين والكوفيين وأنّ فيه لربما دليلاً يُضاف إلى أدلّة على أنّ المتنبّي، عن فطرة أو عن عَمْدٍ، أنشأ بعضاً من شعره بلغةِ القرآن ومتشابهها لا بالعربية فقط(*)!

(*) أرقٌ على أرق ومثلي يأرقُ وجوىً يزيدُ وعَبرةٌ تترقرقُ

Twitter: @ketab_n

تركتك تقرئين وفي النَّفْسِ أن أعترف لكِ بأن الأبياتَ

جهدُ الصّبابة أن تكون كما أرى   عينٌ مُسَهّدة وقلبٌ يخفقُ
ما لاحَ برقٌ أو ترنّم طائرٌ   إلا انثنيتُ ولي فؤادٌ شيِّقُ
جرّبتُ من نار الهوى ما تنطفي   نارُ الغضى وتكِلُّ عما تُحرقُ
وعذلتُ أهل العشق حتى ذقته   فعجبتُ كيف يموت من لا يعشقُ

الأرق، فقد النوم، والجوى، الحرقة من حزن أو عشق، والعَبرة، اللمعة تتردد في العين. يقول، لي سهاد بعد سهاد على أثر سهاد، ومثلي ممن كان عاشقاً يسهد لامتناع النوم عليه، وحرقته تزداد كل يوم ودمعه يسيل.

"جهد الصبابة" مبتدأ خبره "أن تكون"، والجهد، بالفتح، المشقة، وبالضم الطاقة والوسع، وقيل هما لغتان بمعنى، والصبابة، رقة الشوق. و"عين"، خبر مبتدأ محذوف، تقديره عيني عين، ويجوز أن تكون "عين" خبراً عن "جهد الصبابة"، وأن تكون في موضع الحال. يقول، غاية الشوق أن تكون بهذه الحال التي أنا فيها.

انثنيت، رجعت، "ولي فؤاد"، جملة حالية، والشيق، المشتاق، وهو معلوم أنّ لمعان البرق يهيج العاشق ويحرك شوقه إلى أحبته لأنّه يتذكر به ارتحالهم للنجعة وفراقهم، ولأنّ البرق ربما لمع من الجانب الذي هم به، وكذلك ترنم الطائر.

الغضى، شجر معروف يستوقد به، فتكون ناره أبقى. يقول، جربت من نار الهوى ناراً تكلّ نار الغضى عما تحرقه تلك النار وتنطفىء عنه ولا تحرقه، يريد أنّ نار الهوى أشد إحراقاً من نار الغضى.

فـ"ما" من قوله "ما تنطفي" مصدرية، والضمير في تحرق، لـ"نار الهوى"، و"عما تحرق" متعلق بـ"تكل"، ومعمول تنطفي، كما يقول العكبري، محذوف على رأي البصريين في إعمال ثاني الفعلين، كقولك، رضيت وصفحت عن زيد، فحذفت معمول الأول لدلالة الثاني عليه، وحجتهم أنّ الثاني أقرب إلى المعمول، واختار الكوفيون إعمال الأول لأنه أسبق في الذكر، وقد جاء في الكتاب العزيز إعمال الثاني. فهو دليل للبصري، وجاء في أشعار العرب إعمال الأول. ففي القرآن

Twitter: @ketab_n

الستةَ الأوائل من هذه القصيدة هي بعضُ ما صبّرني على عشقك، وأنّني رغم اعترافي بجميل أحمدك عليّ شَبَبْتُ عن طوقه ولا حاجة بي بعدُ أن أعذل أهل العشقِ ولا أن أعذرهم لأنّني أصبحتُ منهم، وفي النفس أن أُرفق القولَ بالفعل وأن أقطع عليك حبل القراءةِ وأن أجذبكِ إليّ... وهو ما لم أُطِق أن تبلغي البيت السّادس لأفعله.

دونما إنذار نهضتُ من كرسيّي ووقفتُ وراءك ووضعتُ كفّيّ على كتفيك العاريتين. تَهَدّج صوتك. لم أُبالِ ولا استبرأتُ لما أفعله بدعوتك إلى المتابعة أو شيء من هذا القبيل. وقبل أن يَخْفُتَ صوتك تمام الخُفُوت أسْدَلْتُ ذراعيّ إلى جوار الإبطين وفي لمح البصر دَسَسْتُ كَفَّيّ بينهما ورفعتك بل لم يقتضني أن أفعل إذ وَقَفتِ طائعةً، وطائعةً سرنا ملتصقين من خَلْفٍ إلى مَخدعك.

﴿آتوني أفرغ عليه قطراً﴾. وفي البيت محذوفان، هذا الذي ذكرناه، والثاني حذف العائد إلى "ما" الثانية من صلتها، وفيه حذفان آخران تقديرهما جربت من قوة نار الهوى انطفاء نار الغضى وكلولها عن إحراق ما تحرقه نار الهوى.

أنظر شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦، ج ٣، ص ٧٣/٧٤.

Twitter: @ketab_n

أدنيتك من الجدار وفتلتك بحيث صرتِ قُبالتي. وضعتُ يداً وراء رأسك لأحجز بينه وبين الجدار وراحت الأخرى تجول على رِدفيك. في ما كنتُ منكباً على شفتيك وعنقك أحسستُ بيدك تعالج سروالي فيسقط أرضاً. كنتُ حافياً فلم أحتج إلى جهد كبير لأتخلص منه. حاولتُ أن أدفعك إلى الفراش لكنَّك خررتِ على ركبتيك وتناولت بكلتا يديك ذكري كمن يحمل بهما حملاً ينوء بقدره أكثر منه بثقله وقرّبتِهِ من شفتيك وراح يغيب في فمك ببطء. لبعض الوقتِ أطْبَقْتِ عليه بشفتيك ثم رُحْتِ بمثله من البطء تحركين رأسك من الأمام إلى الخلف فلا يكاد يظهر بعضُه حتى يغيب كلُّه من جديدٍ فيكتظّ فيه الدَّمُ وتكتظّ فيَّ اللّذة. طوال تلك اللحظاتِ التي لا أعرف كم دامت أعترف أنّني أهْمَلتك لا ملقياً بالاً إلّا إلى متعتي.

في النهاية، نهاية الجهد، جهد التمالك، لا نهايةِ المتعة، أدركتُ أنّك كنت في انتظاري. عالمةً بذاتِ نفسي، لم تدعيني وشأني وجسدي المتهالك فجأةً ونفسي التي تَتَوَجّسين أن تحلّ منّي مَحَلّ الضمير فتأخذ في مؤاخذتي

Twitter: @ketab_n

وتقريعي(*) بل تلقيتني برفق وسرتِ بنا متعانقين إلى فراشك الوثير. نهضتِ إلى مستراحك الفسيح الذي لم يسبق لي أن دخلت إليه وأنت فيه بل لم يخطر لي يوماً أنّني قد أفعل. ولكنّ داعيتي إليكِ هذه الليلة كانت أقوى من أغلالي. خريرُ الماء الذي آذَنَ بفراغك من قضاء حاجاتك الحميمة شجعني على اللحاقِ بك. رأيتِني في

(*) وكُنْتِ مصيبةً في توجسك ففي تلك الأثناء عادتني فجأة وقائع حادثة أثرت فيّ واستفدتُ منها الكثير. ففي عداد الأسئلة الخطيّة التي وردت يوماً على شيخ من أساتذتي كنت أثابر على متابعة الدرس العام الذي كان يلقيه عقب فريضة العشاء من كل خميس في مسجد قريب من الكلية ويفتح بعده باب الأسئلة والاستفتاءات ـ في عداد الأسئلة الخطية التي وردت عليه واحِدٌ تمكّث على غير عادة في قراءته على ملأ من الحضور بصوته الجهير. وعندما حزم أمره وأخذ في قراءة السؤال كان في جهارة صوته تعمّد وجهد لا يخفيان. والحق أنّ استفتاء أخينا الحريص على دينه ودنياه كان يستحق التروي في إذاعته: «هل يجوز للمرأة أن تأخذ ذكر زوجها بيديها وفمها كالسندويشة؟». لست أدري كيف تلقى سائر الحاضرين الاستفتاء ولا التفتُّ إليهم إذ كُنتُ كلّي عيوناً شاخصةً إلى شيخي لا أريدُ أن يفوتني شيء من حسن تخلصه الذي لم أشك فيه فلقد كنت أتمثلني في مثل هذا الموقف وأتصبّب عرقاً. تنحنح الشيخ وجرض بريقه مرّات قبل أن أجاب: «إنّ سؤال السائل فظ... ولكن ما سأل عنه جائز...»، وسارع إلى الاستفتاء التالي. كان درساً لا كسائر الدروس!

السؤال والجواب صادقان. أنظر: القاضي الشيخ محمد أحمد كنعان، *أصول المعاشرة الزوجية*، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٣، ص ٩٩.

Twitter: @ketab_n

المرآة أتقدمّ عارياً نحوك. تابعتِ ما كنتِ فيه من تفريش أسنانك ثم من تسويكها بطرف الفرشاة. بقدرة قادر انقدتُ إليك حتى وجدتُني ملتصقاً بكِ، الذراعانِ مني يطوقان الصَّدر ويهصران الثديين فيما الذَّكر يحاوِل جاهداً التسلل بين الرِّدفين. عندما باءت محاولاتهُ بالفشل لم أرَ بُدّاً من الاستعانة بيديَ التي راحَتْ تعبث بما يتوارى من حواسك في مثلث الشعر أسفلَ بطنك. لم تصمدي طويلاً لعبث أناملي. على غِرّة منك، أو هكذا بدا لي، نبتَ لكِ جناحان فأخذتِ تتلوَّين وإذ أعياكِ التلوّي أو ضاقَ عن احتواءِ متعتك تمطيتِ من تِلقائك، متكئة على حافّة المغسلة، مُفَرّجة ما بين فخذيك. كالطير لا يحتاج أن يُعلّم الطيران لم أحتج إلى أن أكون قد عالجتُ من قبلُ هذه الهيئة من الوصالِ لأعْرِفَ ماذا ينبغي لي الآن إذ شَرّعتِ لي الطريق إليكِ أن أفعل، ولا كيف أقودُ رقصتنا الشبقة. لم نشأ عندما قضيتِ وطرك مني وقفّيتُ على أثرك أن نعودَ إلى فراشك مفترقين. حاولنا السَّيْرَ ببطءٍ متداخلين. لم نفلح فانفصلنا مُكْرَهين ثم لم نلبث، خفافاً، أن جَدَّدنا طيراننا على متن فراشك.

Twitter: @ketab_n

تلك الليلة علمتُ علم اليقين أنّ رأسمال المتعة ليس جسدين عاريين في فراش واحِدٍ، أغني، ليس فقط جسدين عاريين في فراشٍ واحِدٍ!

Twitter: @ketab_n

٢٢

غيابُ قرينيَ الطويلُ يُقلقني أكثرَ ممّا يُطمئنني. وعوداً لم يسبِقْ أن قطع لي، إلّا ما استقطعتُه بمناسبة زيارته الأخيرة، أمّا مواعيده فلم يحدث أن أخلَّ بها. أريدُه أن يغيب وأن يطول غيابه ولكن على علم بما يؤخِّره عن زيارتي فأعرف هل أوجز أم أستفيض. مذ انقضى الأسبوع الذي واعدني ألّا يَمُرَّ إلّا ويكون قد عاد إلى زيارتي وأنا مُتَرَدِّدٌ بين الإبطاء والعجلة. هل صرفوا النَّظر عن إخراجي من خبائي؟ إن كان ذلك فما حاجتهم إلى الاستمرار في حفظي والسهر عليّ؟ ألا يعقل أن يأتيني اليومَ أو غداً من يبلغُني أنّ الأسبابَ التي أوجبت الإتيان بي إلى هنا قد زالت أو أسوأ منه أنّ السلطة التي لها الوصاية عليَّ تريدني أن أعود من حيثُ جئت؟ كصُداعٍ خفيفٍ ولكن مُتَّصلٍ تُرافقني هذه التساؤلات ولا أفلحُ في طَردِها ولا في تسكينها.

Twitter: @ketab_n

ويزيدُ من تسلّطها لربما، بل لا ريبَ، أنّني أبلغ في رواية حياتي إلى عشيّات إهدارِ دمي والمجيء بي إلى هنا. لا أريد لهذا التوارد (الغريب) بين قلقي هذه الأيّام وبين خِفّتي تلك الأيّام أن يؤثّر فيَّ أو يلقي بظلاله عليّ، غير أنَّ الإرادة وحدها، مهما صحّت، لا تكفي للحيلولة دون ذلك. ليس لربّما إلّا أن أتظاهر بأنّه لا جديدَ تحت الشمس. فيمَ تعفّفي اليومَ عن هذه الحيلة وقد تَوَسَّلْتُ بها مراراً؟

عندما أنظر إلى ما كان، وكيف كان، لا سيّما تلك العشيّات، لا أكاد أصدّق بكم من الطيش والسذاجة عشت ما عشته! ولا أكاد أصدق كم تغافلتُ عمّا يمكن أن يُورثه أو أن يتسبّب به. بالطبع كنتُ مدركاً أيّ شأنٍ أتعاطى، ومدركاً أيَّ الفريقين أنصر، ومطمئناً كل الاطمئنانِ إلى ما أجهَرُ به من رأي، سوى أنَّ نشوتي بنفسي وبكِ وبما بيننا كانت أحياناً كثيرة تبتلع إدراكي ذاك واطمئناني هذا، وتغيّبهما في لجّتها السحيقة. وخير دليلٍ على ذلك صَمَمي عن نواقيس الخطر العديدة التي دُقّت المرّة تلو المرّة والتي كان يُفترض برجلٍ عاقلٍ و«مسؤول» أن يُلقي إليها بالاً. على أنّه فليس ممّا أستبعده أنّني عامداً

Twitter: @ketab_n

تصامَمْتُ عنها وعامداً تجاهلتها، وليس ممّا أستبعده أيضاً أنّ العِزّة التي أخذتنيِ هي التي حيّرتِ الخصومَ فيَّ وردّدتهم في حزم أمرهم والتعجيل في أجلي.

كلّي ثقة أنَّ قتلي كان عليهم يسيراً فلقد أثبتوا في اختراقِ الحواجز والحمايات مهاراتٍ يُحسدون عليها وفي التفنن في القتل مثلَها، علاوةً عليه فلم يكن قتلي ليستلزم منهم جهداً كبيراً أو دقّة بالغة. فرغم النصائح الكثيرة لم أغيّر في شيء من عاداتي، بل رفضتُ أن أتنقّل بسيّارة خاصّة وأن يُرتب مرافقون للسهر على أمني، وأقمتُ على ذلك إلى ما قبل أيام قليلة من الانتقال بي إلى هنا، حيث أُفهمت أنّني من ذلك الحين وصاعداً لستُ في خِيَرة من أمري وأمني.

مدهش أن ينكبَّ المرءُ على بيان أسباب العفِّ عن قتله في ما يشبه الاعتذار عن بقائه حياً يرزق، ـ الاعتذار من القتلى الذين فاته أن يُكْتَبَ في عِدادهم ومن الأحياء الذين يَتَطَفَّل عليهم. من أوّل ظهوراتي المتلفزة وَصَفَتْني بياناتُ الخصومِ بـ«المهرج» ونَحَتْ منحى تسفيهي أكثر منها منحى مُساجلتي. مع ازدهار صلاة الجمُعة في مسجدي أُعيد النَّظر على ما يبدو في صفةِ «المهرج» وفي جدوى

Twitter: @ketab_n

التعرض لشخصي، وصار مكسر العصا الأثير لديهم «مَسْجدَ الضِّرارِ وإمامه المنافق المهرج». هذا بدوره لم يزد نشوتي إلّا تأججاً وعمائي إلّا إطباقاً. فدون سائر مساجد المدينة والجوار كان مسجدي الوحيدَ الذي تزوره عدساتُ التلفزة لا لامتحان نوعية الخدمات التي يُقدّمها إلى رواده وإنّما لاستفسار هؤلاء كيف لا يخشون ارتياده والصلاة وراء إمامه.

لـ«أصدقائي» في الأمن تفسيرٌ مُدَجَّجٌ بالتواريخ والتفاصيل لما كان من العفِّ عنّي والإبقاء عليّ، ولعلّ تفسيرهم الذي مفاده أنّ الجنوح إلى العنف مردّه إلى نجاح العمليات الأمنية في تفكيك شبكات «الأشرار»، ـ لعلّ تفسيرهم هو الأصوب إلّا أنّه، حتى اليوم، لم يَكْفِ لإقناعي، ما زلتُ مصرّاً على أنّ تَوَرُّطَهم في وصفي بـ«المهرج» هو ما حَقَن طيلة تلكَ الأشهر دمي. فعلى وصفهم إيّاي بـ«المهرج» كان جوابيَ الأوحدُ الاستعلاء متمثلاً تارةً بالآية ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نبتغي الجاهلين﴾(*) وتارة أخرى بأحد قولي شاعرك «إذا أتتك

(*) القصص، ٥٥.

Twitter: @ketab_n

مذمتي من ناقص»(*) (مستدركاً بالاستعاذة من الكبر ودعوى الكمال) أو «من ذا يَعَضُّ الكلب إن عضّا»(**) وثالثة بالاثنين معاً. وحيث كان الآخرون لا يستوقفهم أن أجْمَعَ الاستشهاد بمُعْجز التنزيل ومعجز أحمد في سياقةٍ واحدةٍ كنتِ تعلمين أنّني لا أصدُرُ في الجمع بينهما عن صُدفةٍ أُلقّاها ولكن عن عَمْدٍ ونيّة. فأيّامذاك فقط كنتِ قد أشركتني في سرِّ اهتمامك الشخصي بالمتنبّي في معزل من «المشروع» الذي يَسَّرَ لنا أن نلتقي، وفي احتشادك لقراءات شتّى منها ما يتصل بشخصه وبعصره ومنها ما يتطرقُ إلى مواضيع أعمَّ كتاريخ التنبّؤ في الإسلام ودراسات عن «لغة المولدين» وابن جني والفارابي إلخ...

«لا أدّعي أنّ علمي القليل يؤهلني أن أخوض غمار البحث العلمي الدقيق ولكن أدّعي أنّ مراسيَ المتنبّي، مراسيَ الهاوي، يُؤَهّلني أن أسجِّلَ على سبيل الانطباع كما يُقال بعضَ ما يُخطره لي. لا أجرؤ على القول بعدُ إنَّ ما أحاوله في هذا الشأن قد يمثل في يوم من الأيامِ كتاباً أو،

(*) وإذا أتتك مذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأنّي كامل

(**) ولم أكلّمه، احتقاراً به، من ذا يَعَضُّ الكلب إن عضّا

Twitter: @ketab_n

إن مَثَلَ على هذه الصورة، قد يجد قراءً. ولكن إن انتهى كتاباً ـ وعذيري يومذاك أنّني لا مزيدَ من الجهد أبذله على ما بين دفتيه ـ فأراه يَقَعُ في فصولٍ متفرقةٍ، ثلاثة عشر لربما، مدار أحدها، بالطبع، على مولد المتنبّي، "الشاذ"(*)، برأي أحدهم، ونسبه المُحَيِّر، وآخر على اتفاق(؟!) حمّال معانٍ لا حَصْرَ لها متى ما تفكر المرء فيه، ألا وهو تجايل المتنبي والفارابي وإيواء بلاط سيف الدولة لكليهما(**). لا يعنيني أنّهما التقيا أو لم يلتقيا، أو سمع أحدهما بالآخر أو لم يسمع، أو لم يتسع لهما معاً مجلس سيف الدولة (!) ولكن يستوقفني ما تشي به قراءةُ آثار كل منهما من اكتمال تفرّق العربية

(*) «هذا كلّه يكفي لأقتنع بأنّ مولد المتنبّي كان شاذاً، وبأنّ المتنبّي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها».

طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٥.

(**) رغم فارق السن بين المتنبّي والفارابي حيث كانت ولادة الأول عام ٩١٥م وولادة الثاني عام ٨٧٠ م فلقد كان اللقاء بين المتنبّي وسيف الدولة نحو عام ٩٤٨م. أما الفارابي فـ«غشي بلاط سيف الدولة من سنة ٣٣٤هـ (حوالى ٩٤٥م) إلى ٣٣٦هـ (حوالى ٩٤٧م) ورحل إلى مصر في سنة ٣٣٧هـ (٩٤٨م)... ثم عاد إلى دمشق في سنة ٣٣٨هـ».

أنظر تواريخ رحلات الفارابي في: د. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مادة الفارابي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤، ج ٢، ص٩٣ وما يليها.

Twitter: @ketab_n

أيدي سبأ لذلك العهد البعيد، إذ ماذا يبقى من لسان يَقْرُضُ الشعر بلغة ويتفلسف أو يحاول أن يتفلسف بلغة أخرى. يبدو لي أحياناً أنّ المُتَنَبّي الذي كتب قصائده مرّتين، أولى عندما كتب كل واحدةٍ منها، وثانية عندما تخير ما يستأهل الحفظ واطّرح الباقي، ـ يبدو لي أنّه كان يكتب ضِدّ الفارابي... قل لي هل تُصَدِّق أنّه ادّعى النبوّة؟».

لم أفهم كيف تحوّلتِ مما كنتِ آخذةً فيه إلى هذا السؤال ولكنّ جوابي كان حاضراً، فلطالما شَغَلَتني هذه المسألة، مسألة النبوّة، وزادني بها شُغلاً ما قرأته على اسمك ونيتك عن المتنبّي، «لَستُ أدري بأية أذن قد تسمعين ما سأقول ولكن... بصراحة لا أستهجن على الإطلاق أن تكونَ نفسه قد زيّنت له ادّعاء النبوة باعتبارها أخصر الطرق لبلوغ هذا الذي أراده وأَجَلّهُ عن التسمية(*)، بل يدهشني أن يكون البعض قد تطوّع جاهداً لإثبات "براءتـ"ـه من هذا الادّعاء... في عالم ثقافته لُهاث من عُمْرِ هذه الثقافة وراء الأنبياء وأنصاف الأنبياء ومن يقومُ مقامهم

(*) يقولون لي، ما أنت في كُلِّ بلدة   وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسمى

Twitter: @ketab_n

ويَسُدُّ مَسدَّهم، في هذه "المَنْبأةِ" إن جازَ لي القول، (صرفاً يجوزا)، أقلُّ ما يتوقعه المرء من فتى طموحٍ ذي نَسَبٍ، اللّهُ وحْدَه يَعْلم إلى أين يرتفع(*)، أن يُحاوِلَ مُلكاً

(*) في الرواية «المدرسيّة» الأشيع هو:

«أبو الطيب المتنبيّ: هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة تسمى كندة، فنسب إليها، وليس هو من كندة التي هي قبيلة، بل هو جعفي القبيلة ـ بضم الجيم وسكون العين ـ وهو جعفي بن سعد العَشيرة بن مذحج ـ واسمه مالك ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان.

نشأ بالكوفة (...) ويقال: إن أباه كان سقاء بالكوفة، ثم انتقل إلى الشام بولده، ونشأ ولده بالشام، وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي حيث قال:

أيُّ فضل لشاعر يطلبُ الفضـ ـل من الناس بكرةً وعشيّا

عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المُحيّا

شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، ج ١، ص٣، سبق ذكره.

•

ولكنّ محمود محمد شاكر، لا يرى «بأساً من ترجيح الظن بأنّ المتنبّي كان من أبناء العلويين فإنّ هذا يُفسّر كل غموض في حياة الرجل وفيما روي عن نسبه من الملفقات» وعليه فـ«وضع القضية» عند مؤلف *المتنبي* «هو هذا:

تزوّج رجلٌ من العلويين، ولا جرم أن يكون من كبارهم، بنت جدة المتنبّي، فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين، ولأمرٍ ما أريد هذا الرجل العلويُّ على طلاق امرأته وفراقها، وحمله العلويون على ذلك، ففارقها وطلقها، فرجعت إلى أمّها بجنينها أو طفلها، وحزنت حزناً أهلكها، فاستلّها الموت وذهب بها، وبقي الطفل

Twitter: @ketab_n

فكفلته جدّته وتعهدته وقامت بأمره، حتى بلغ مبلغ الفتيان، ودلّته على الطريق بعد أن صرّحت له بحقيقة أمره، وصحيح نسبته، وكان من حزمها أن حذّرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه، وأخذت عليه المواثيق والعهود، بحبّها له وحبّه لها، وأنّه إن فعل كان في ذلك هلاكُها وهلاكُه، فبقي على ذلك متململاً حتى كان من أمره ما كان من ادّعائه العلوية بالشأم، فقبض عليه، فاضطرّ إلى الإخلاد والتسليم، وحرص على أن يطيع أمر جدّته، بعد أن علم حَزمها وصوابَ رأيها، وإخلاصها له المشورة، ومحضها له النصيحة.

وهذا الوضعُ لقضية المتنبّي هو الذي يفسّر لك طول تكتّم المتنبّي على نسبه، وإخفائه جهده من أصحاب الألسنة المتنقلة بين الرجال، ويفسّر أيضاً مخرج قصّة (أبيه السقّاء)، وحرصَهُم على حبكها والتقديم لها بلطيف القول، وحسن العبارة، (...) ويأتيك بالدّليل البيّن في أمر دخوله كتّاب أشرافِ العلويين بالكوفة وتعلمه دروس العلوية ـ ويُبين أيضاً عن السبب الذي من أجله سكت المتنبّي عن مدح العلويين وعظمائهم وأصحاب الجاه والسلطان منهم وهو بالكوفة، ثم تأبّيه على مدحِ أبي القاسم العلويِّ صاحب الأمير ابن طغج حين كان بالرملة، ثم ما كان قبلُ من إرصادِ العلويين له عبيدهم لقتله بكفر عاقب (...)».

محمود محمّد شاكر، المتنبي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٧، السفر الأول، ص ٤٥/٤٦، سبق ذكره.

•

أما عبد الغني الملاح فيختم الكتاب الذي أفرده لاستقصاء نسب المتنبّي بالاستنتاج التالي:

«واستناداً إلى ما ذهبتُ إليه في هذا الكتاب يصبح نسبه كما يأتي: أحمد (المتنبي) بن محمد (المهدي) بن الحسن (العسكري) بن علي (الهادي) بن

Twitter: @ketab_n

أنّه سرعان ما تبيّن سوقيّة هذه الدعوى فرجَعَ عنها، لا رجوعاً عن خطأ، ولكن إلى الشعر وهذه مأثرته لئلّا أقول عبقريته...

لعل أحمدَكِ في القرمتين الصفصاف(*)، بين البلوغ والرشد سناً، لم يكن ليعرف ما يخبئه له الغيب (اللهم أن تَصِحّ نبوّته): أنَّ ابن جني سوف "يستشهد بشعره متجاوزاً بذلك ما حدَّده متشددو النحاة من الوقوف بالاستشهاد

محمد (الجواد) بن علي (الرضا) بن موسى (الكاظم) بن جعفر (الصادق) بن محمد (الباقر) بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب».

عبد الغني الملاح، المتنبي يسترد أباه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠، ص ١٦٣.

(*) «اجتمعت على المتنبّي عيونُ الفاطميين، وعيونُ العلويين، وعيونُ الدولة القائمة في الشام. فلما ظهر في بني عديٍّ أرسلوا في القبض عليه، فطاردوه من بلد إلى بلد، وكان يستخفي منهم، حتى وقع أخيراً في يد ابن علي الهاشمي العلوي، في قرية يُقال لها كوتكين، فقُبض عليه وأُمِر النجار بأن يجعل في رجليه وعُنقه قرمتين من خَشَب الصَّفصاف، فقال له المتنبي:

زعمَ المُقيم بكوتكين بأنّه ... من آلِ هاشمِ بن عبد منافِ

فأجبته: مُذ صرت من أبنائهم ... صارت قيودهم من الصَّفصافِ

وبقي المتنبّي في السجن من أواخر سنة ٣٢١ أو أوائل سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٢٣، ثم أُطلِق».

محمود محمد شاكر، المتنبي، السفر الأول، ص١٠٣/١٠٤، سبق ذكره.

Twitter: @ketab_n

عند الشاعر إبراهيم بن هرمة (١٧٦هـ تقريباً)"(*) وأنّ جمال الدين بن رشيق سيفتي بالقتل دفاعاً عن شرف نبيّ الإسلام ببيت قاله هو(**) - لعله لم يكن ليعرف ذلك ولكنّي على يقين بأنه من يومذاك وثقَ بالشعر أكثر منه بالنبوّة...

بالمناسبة، عندي لكِ حديثٌ نبويٌّ خليق أن تستشهدي به عند الحديث عن اضطراب الأقوال في سَبَب تلقيبه بالمتنبّي... مفادُ الحديث ما لم تخنّي الذاكرةُ "لا تُصَلّوا على النبي"(***) واللطيفة في هذا الحديث أن لفظة

(*) د. محمود الطناحي، مستقبل الثقافة العربية، كتاب الهلال، العدد ٥٨١، ١٩٩٩، ص ٢٢٠.

(**) «... كذلك جمال الدين بن رشيق أفتى ببيت المتنبّي في النصراني الذي سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما ولي الملك الصالح مصر وهو:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فعمل بمقتضاه».

ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت، المجلد الثاني، ص ٢٢/٢٣.

(***) «ومما يجري مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه، ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة، مستنكر الظاهر، وإن كان عقب التأمل سليماً، وبعد الكشف والروية مستقيماً، كالذي رواه الأزديّ عن الصُّولي لبعض المتكلّفين من الشعراء:

إنّني شيخ كبير كافرٌ بالله، سيري
أنتِ ربّي، وإلهي رازق الطفل الصغير

Twitter: @ketab_n

"النبي" فيه تعني الطريق العالية... طريق المتنبئين ما دامتِ الطرق الأخرى تؤخذ عليهم!

«توافقني إذاً أنَّ المتنبي هو الضِّدُّ من الفارابي وأنّ فتىً فَرِغَ من طلب المعالي في ريعان الشباب هو الضِّدُّ من شيخ "أزهد الناس في الدنيا" كفافه في كل يومٍ، على ذمّة ابن خلكان، "أربعة دراهم" ـ أنّه الضِّدُّ من "فيلسوف"

يريد بقوله كافر: أي لابس، لأن الكفر، التغطية، ولذلك سُمي الكافر بالله كافراً، لأنّه قد غطّى نعمة الله بمعصيته، وقوله بالله سيري، يقسم عليها أن تسير. وقوله أنت ربي: يعني ربي ولدك، من التربية. وإلهي رازق الطفل الصغير. كما أنّه رازق الولد الكبير فانظر إلى هذا التكلف الشنيع، والتعمق البشيع. ما اعتاص من حيث البديهة إذا سلم بعد الفكر والروية، إلّا لوماً إن حسُن فيه الظن، أو ذماً إن قوي فيه الارتياب، وقلما يكون ذلك إلّا من خليع بطر، ومُرتاب أشر.

فأما الحديث المرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "لا تصلُّوا على النبيّ" فخارج من هذا النوع من التلبيس، وفي تأويله وجهان: أحدهما، أنّه أراد النهي عن الصلاة في المكان المرتفع المحدود، مأخوذ من النَّبوة.

والثاني: أنّه أراد الطريق، ومنه سُمّي رسلُ الله أنبياء، لأنّهم الطرق إليه، وإنّما زال عنه التلبيس إذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان من قول غيره تلبيساً شنيعاً، لأنّ موضوع خطابه، وشواهد أحواله، يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال في أمر أو نهي إلى ما لا يجوز أن يرد به شرع، وينهى عنه نبيّ...».

أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، قدّم له وحقّقه مصطفى السقا، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨، الطبعة الأولى، ص٤٠٢/٤٠٣.

Twitter: @ketab_n

لا يجرؤ على إنكار النبوة ولا يبقى من فلسفته شيء إن هو سَلَّمَ بها تسليم العجائز فلا يرى بُدّاً من أن يُفْرِدَ لها فصلاً في مؤلّفه الأشهر ـ توّاً بعد الفصل الذي يعقد لـ "القول في سبب المنامات". أمّا بلاغة قوله "في الوحي ورؤية الملك" كما في سوى ذلك فحدّث ولا حرج...

أن تَسْمَعَ بالمُعَيْديّ خير من أن تراه وأن تسمع بالفارابي خير من أن تتكبّد عربيّته!»(*).

وحَدَّثْتِني عن فصولٍ أخرى ما زلتِ تعملين على جمع مادة البعض منها وثالثة قيد التنقيح تودّين أن أقرأها للملاحظة ولتنقيتها من أي خطأ نحوي أو صرفي قد

(*) «فإذا اتفقت التي حاكت بها القوة المتخيلة تلك الأشياء محسوسات، في نهاية الجمال والكمال، قال الذي يرى ذلك إنّ لله عظمة جليلة عجيبة، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات أصلاً. ولا يمتنع أن يكون الإنسان، إذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال، فيقبل، في يقظته، عن العقل الفعّال، الجزئيات الحاضرة والمستقبلة، أو محاكياتها من المحسوسات، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشرفية، ويراها. فيكون له، بما قبله من المعقولات، نبوةٌ بالأشياء الإلهية. فهذا هو أكمل المراتب التي تنتهي إليها القوه المتخيلة، وأكمل المراتب التي يبلغها الإنسان بقوته المتخيلة».

آراء أهل المدينة الفاضلة، قدّم له وحققه د. ألبير نصري نادر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٩، ص ٩٤.

Twitter: @ketab_n

يكون تَسَلّل. مواضيع هذه الفصول كانت كلّها مدهشة، ولكن، عودةً إلى ما كُنتُ فيه قبل هذا الاستطراد الطويل من ذكر المُعْجِزَيْن وتعمّدي الاستشهاد بهما، لا بُدّ لي أن أفيكِ حقّك وأن أفيهما حقّهما ولو بمجرّد الإشارة. فلقد كُنتِ على أن تُفردي أحد فصول كتابك لمُريدَي المتنبّي، أبي عثمان بن جنّي وأبي العلاء المعري، وكيف أنّهما عظّما ديوانه ورفعاه إلى أعلى المراتب.

فابن جنّي المعروف عنه في تخيّر الأسماء الحسان لكتبه(*)، لم يَرَ أليق بتفسيره الكبير لديوان «الشاعر»(**) من أن يَسِمَهُ بـ«الفَسْر». أما أبو العلاء الذي لم يتورّع،

(*) «لقد خلّف كتباً حِساناً تدلّ على فضله الجم وعلمه الغزير وقد تخيّر لها أسماء حساناً كذلك، حتى ليقال إنّ الشيخ أبا إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ، وأستاذ المدرسة النظامية قد سمى بعض كتبه بأسماء كتب لابن جنّي»، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، دون تاريخ، ص ٦٠، من مقدمة المحقق.

(**) «وأخبرت عن أبي العلاء بن سليمان المعري أنّه كان يسمّي المتنبّي: "الشاعر"، ويسمّي غيره من الشعراء باسمه، وكان يقول: ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها» ترجمة المتنبّي من بغية الطلب لابن العديم، في: محمود محمد شاكر، المتنبي، السفر الثاني، ص ٢٨٣، سبق ذكره.

Twitter: @ketab_n

كـشـاعـره، عـن مـنـازلـةِ بـلاغـة الـقـرآن(*)، إن صَـحَّ أنَّ الـمتنبّي حاول ذلك، والذي لم يفت أحدهم أن ديوانه، لزوم ما لا يلزم، يقع في مائة وثلاثة عشر فصلاً، عدد آيات القرآن(**). ـ أمّا أبو العلاء هذا فكان أصرح حيث عَنْوَنَ مختاره من شعر المتنبّي بـ«معجز أحمد».

(*) «قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصرفة، زعم فيه أنّ القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة، حتى صار معجزةً للنبي صلعم، وأنّ كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله، إلّا أنّهم صرفوا عن ذلك، لا أن يكون القرآن في نفسه معجز الفصاحة، وهو مذهبٌ لجماعةٍ من المتكلّمين والرّافضة (...).

قال في تضاعيفه (تضاعيف الكتاب)، وقد حمل جماعةً من الأدباء قول أصحاب هذا الرأي على أنّه لا يمكّن أحدٌ من المعارضة بعد زمان التّحدي، على أن ينظموا على أسلوب القرآن، وأظهر ذلك قومٌ، وأخفاه آخرون.

ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه:

"أقسم بخالق الخيل، والريح الهابة بليل، ما بين الأشراط ومطالع سهيل، إنّ الكافر لطويل الويل، وإنّ العمر لمكفوف الذيل، اتّق مدارج السيل، وطالع التّوبة من قُبيل، تنج وما إخالك بناج".

وقوله:

"أذلّت العائذةُ أباها، وأصاب الوحدة وربّاها، والله بكرمه اجتباها، أولاها الشّرف بما حباها، أرسل الشمال وصباها، «ولا يخافُ عُقباها"».

ياقوت، معجم الأدباء، سبق ذكره، ج ٣، ص ١٣٩/١٤٠.

(**) «شكّ القدماء في كتبه النثرية فاتهموه بمحاكاة القرآن الكريم في كتابه

Twitter: @ketab_n

... أما مادة هذا الفصل، فتحصيل حاصل: المزاحمةُ بين الكتاب والشعر.

استأذنتني أن «تَشطي» على الفكرة التي تقدم لي أن ألمحتُ إليها عن اعتقاديَ الجازم بأنّ رجوع المتنبّي عن دعوى النبوّة كان إلى الشِّعر لا عن الإسراف في الطلب، باعتبارها تكمل فكرتك. لم أجبك إلى استئذانك بل استأذنتك عشيتذاك، إذ قُمْتِ إلى طاولتك تدوّنين ما قدّرتُها خواطر عرضت لك، أن أسبقك إلى المطبخ وأعدّ سفرة عشائنا.

•

كل ما جرى وشهدته وشاركت فيه لم يزدني إلّا

الفصول والغايات. وها أنا ألحظ أيضاً، وبعض الظنّ إثم، أنّ كتابه الشعري، لزوم ما لا يلزم، مؤلف من مائة وثلاثة عشر فصلاً، وسور القرآن العزيز مائة وثلاث عشرة سورة، فهل قصد ذلك يا ترى؟».

مارون عبود، أبو العلاء المعري ـ زوبعة الدهور، دار الثقافة/دار مارون عبود، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٥/٢٦.

الشائع أنّ سُوَرَ القرآن مائة وأربع عشرة سورة ولكنّ في المسألة خلافاً ليست هذه الحاشية الموضع المسمى للخوض فيه، للتوسع فيها أنظر، مثلاً، الفصل المعنون «في عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه» من كتاب الإمام السيوطي الإتقان في علوم القرآن.

Twitter: @ketab_n

اطمئناناً إلى ما ذهبتُ إليه في تلك العشية: النبوّة، بأشكالها الشتّى، دِيْنُ العامَّة.

أقولُ قَوْلي هذا لا مُستثنياً نفسي، فهل كنتُ في عملي المتلفز وعلى منبر مسجدي إلّا شيئاً كنبيّ؟ وهل خصومي، الأمراء منهم المبايَعون على الطاعةِ والموت، والأخفض جناحاً الداعون بألسنتهم إلى إسلام الحديد، سوى أنصاف أنبياء؟ وهل تساجُلنا اليومي بالآية والحديث والأثر والحجة إلّا حرب بين دينين لكل منهما أنبياؤه ودعاته، ولكن يتفق أنّهما يحملان الاسم نفسه ويستشهدان بالحديث النبويّ إيّاه(*) ويدّعي كلّ منهما الوَصْل بليلى... وفوقَ الوصل بقليل؟!

أعرفُ أنّ وراء حرب الدينين وأنبيائهما في عداد ما وراءها أشياء وأشياء لا شأن لربِّ السماء بها وإنّما لأرباب الأرض ومن دونهم من أهل القوة وأهل الضّعف على حدّ سواء، وأنّ البعض يقرأ هذه الحرب بلغة كلّها أرقام وخطوط بيانية لا أنا أفقه منها شيئاً ولا من هو أفقه مني

(*) «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة»، حديث.

Twitter: @ketab_n

في الدين وأحفظ للحديث وألزم بالسّنّة، غير أنّ هذا جميعاً لا يُغيّر من الأمر شيئاً، ولا الخطط الرامية إلى «رفع مستوى الخدمات» في الدساكر المكتظة والأرياف النائية بحكم رداءة خطوط المواصلات، لا بحكم المسافات، ولا «السعي إلى تحفيز الاستثمار» توصلاً إلى «خلق»(!) لا أدري كم فرصة عمل... ففي ما بين ذلك وإلى أن تُملأ الأرض قسطاً وعدلاً وفرص عمل(!) فإنّ مفاتيح الجنة، مدموغة باسم اللّه ورسوله والدين الذي لن يُقبل سواه، تُستنسخ بالمئات وتوزّع على فتيان وشبّانٍ في عجلةٍ من مغادرةِ أولاهم التي لم يمضِ عليهم سوى القليل القليل في رحابها (الضّيّقة!) إلى آخرة أشهى وأقرب بما لا يُقاسُ من أحلامهم. كانوا يَقتلون ويُقتَلون وكان الموتُ يربح الجولة تلو الجولةِ لا سائلاً من القاتل ولا مَن القتيل، فشئنا أم أبينا كنّا جميعاً نحطب في حبله ـ حبل الموت.

أنّ تسلسلاً محكماً من الصدف، أشبه بالقدر الذي لا رادّ له، هو الذي قادَ خطواتي إلى حيثُ أنا وأتاح لي فرصاً تترى لكي أعبّر عن ذواتِ نفسي، هذا أيضاً لا يغيّر من الأمرِ شيئاً. ففي هذه الحرب الفتنة، التي أصاب فيها الموتُ

Twitter: @ketab_n

القدح الـمُعلّى ويُصيب، كان لا مَحَلَّ للأخذ بالحديث الذي يُريدُ أنّ القاعدَ خيرٌ من القائم والقائم خيرٌ من الـماشي(*).

ولو أنّني أُسأل اليومَ، بعد كلّ الذي جرى وعلى هَذي كل الذي تُسفرُ عنه هذه الحرب مـمّا وراءها هل أنا نادم على أن ركبتُ فيها وحَمَلْتُ وربما بكلماتي قتلت أو هَوَّنْتُ القتل أو هوَّنتُ من شأنِهِ لقلتُ لا. وإذ لَسْتُ نادماً فلا عن مكابرةٍ أو عناد ولكن لأنّني لا أرى ما أندمُ عليه، أم تراني أندمُ على أنّني في النهاية (النهاية؟!) لم أفعل سوى أن تحزّبتُ لحزب الحياة وعاديتُ حتى الموت حزبَ الموت؟

•

كانوا يتسمّون «الطائفة المنصورة»، وكانت زرايتي الأثيرة عليهم «الطائفة المنصورة بالموت» ـ موت العقل والعاطفة والجسد، ولا أحسبني كنت مبالغاً. فالموتُ الذي رفعوا التنافس عليه إلى مرتبة العبادة كان الخمول بعينه، وفي أحسن الأحوال، جهد المقلّ ومن ثمّ فتكه السّرطاني ومدّه الطاغي وسحره في آنٍ معاً. في جنب هذا الموت لا بُدّ لي

(*) «ستكون فتنة القاعِدُ فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي ويكون الماشي فيها خيراً من الساعي».

Twitter: @ketab_n

من الاعتراف أنّ الحياة التي زعِمتُ التحزب لها كانت قليلةً هزيلةً مُجحفةً وحيث لم تكن كذلك، قليلةً هزيلةً مُجحفةً، كُنتُ لا أستطيع التحزب لها عَلَناً، ولا بُدّ لي من الاعتراف أيضاً أنّ الإسلام الذي بُحِحْتُ في الدعوة إليه كان لا يضمن الجنّة... فأنا أيضاً، لا تنسي، حتى في تحزّبي للحياة، كنت أفعل باسم الله ورسوله والدين القيم!

Twitter: @ketab_n

٢٣

كالساعة لا يعرفُ المرء متى تأتي، كذلك كان من أمري في غضون الأسابيع الثلاثة التي سبقت المجيء بي إلى هنا. فبعد اعتذار أوّل من طرفي عن تلبية الدعوة إلى المحاضرة في تلك الجامعة بسبب وفاة الوالد، وثانٍ من طرف المدير عن موعدٍ كنّا عيّناهُ «بسبب الظروف»، وثالثٍ مجدداً من طرفي بداعية مشاغلي الجديدة، كان الاتفاقُ أخيراً على موعدٍ رابعٍ مع تعديلٍ في صيغة الدعوة يلحظ صفتي المُكْتَسَبَة. فمن دعوةٍ إلى المحاضرة في «الإسلام والنظم السياسية الحديثة» صارت الدعوة إلى «لقاء حواريٍّ مع إعلامي إسلامي عن تجربته في قطاع التلفزة». أضحكتنا صيغة الدعوة حتى الدمع، وهزئتِ بِوُدٍّ من «الإعلامي» ما حلا لك الهزء، واخترت لي ملابسي التي ارتديتها يومذاك وألححتِ عليّ ألّا أدعَ خجلي يغلبني فأنسى أو أتناسى إشعار زملائي في التلفزة بأمر

Twitter: @ketab_n

المحاضرة وموعدها. أمّا «زملائي» في وسائل الإعلام الأخرى فتولّيتِ بنفسك إبراد الدعوات إليهم. وهكذا سار كل شيء على ما يُرام، أو هكذا بدا لي.

كما في كل الجامعات كان للطلّاب الإسلاميين في هذه الجامعة حضورٌ يُحسب له ألفُ حساب وسجلٌ عدليٌّ حافلٌ لا يُستهانُ به هو الآخر. كذلك فلم أستبعد أن يعمدوا إلى إثارة الشغب في أثناء المحاضرة. طالعتُ المدير بمخاوفي فكان جوابه أنّ المشاغبة ضمن حرم الجامعة خير من المشاغبة خارجه، فاعتبرتُ جوابه هذا إجازة لي بأن أطلق للساني العنان. يبقى أنّ ما تغاضينا عنه، أنا نفسي والمدير، هو طبيعةُ الشغب الذي قد يعمدون إلى إثارته أو لعلّنا افترضنا ضمناً أنّه لن يعدوَ ما يلجؤون إليه من شغبٍ في مثل هذه المناسبات. والحقُّ أنّني إذ سايرتك في إشعار زملائي بأمر المحاضرة وموعدها، فأشار كبيرهم على الفور بأن يُرْسَلَ فريق تصوير «لتغطية الحدث»، غلبني خجلي فلم أطالع المدير بأنّ «الحدث» قد يحظى بـ«تغطية إعلامية» وبأنّ هذه «التغطية» قد تحدو بأصحابنا إلى المشاغبة بما يوافق المقام. ولكن هيبني طالعته، هل كان ذلك ليبدّل من الأمر شيئاً؟

Twitter: @ketab_n

من على المنصة التي وصلنا إليها من باب جانبي وحيث تبوأتُ مقعدي بين مدير الجامعة ومدير الكلية الداعية، «كلية الإعلام والعلاقات العامّة» تبيّنت على الفور أنّهم وأنّهنّ الكثرة الكاثرة من الجمهور. فما خلا بضعة صفوفٍ أمامية مختلطة من الجنسين ولا سيماء «إسلاميةً» على وجوه أصحابها وصاحباتها، كانت اللحى والحُجُب تشي بالجلّاس والجالساتِ على سائر الدكك الأخرى ناهيك بانشطار هذه الطائفة من الجمهور شطرين، فالجناح الأيمن من الصفوف للشبّان والأيسر للشابّات؛ ناهيك بأنّ معظم المتحجبات كنَّ يوارين الأجزاء الظاهرة من وجوههن، إلّا العيون، بكرّاسة أو منديل ورقي أو ما أشبه. فمنذ أشهر، ولأسباب أمنية، حُظرَ النقاب في الجامعات وباتَ على الملتزمات أن يأخذن في تفسير الآيات التي تُستَخْرج منها الأحكام الخاصة بلباس المرأة الشرعي بالقول الأسمح - إن جاز عليه هذا الوصف![*]. بناء عليه بدت لي نافلةً ملاحظة

(*) «إنّ وصف النقاب بأنّه بدعة دخيلة، وأنّه ليس من الدين ولا من الإسلام في شيء، وأنّه إنّما دخل على المسلمين في عصور الانحطاط الشديد - الواقع أنّ هذا الوصف غير علمي، وغير موضوعي، وهو تبسيط مخلّ بجوهر القضية».

Twitter: @ketab_n

ومضلل عن تبين الموضوع على حقيقته.

فمما لا يماري فيه أحد يعرف مصادر العلم وأقوال العلماء أنّ القضية خلافية، أعني قضية جواز كشف الوجه أو وجوب تغطيته، ومعه الكفّان أيضاً. وقد اختلف فيها العلماء ـ من فقهاء ومفسرين ومحدّثين، قديماً، ولا يزالون مختلفين إلى اليوم.

وسبب الاختلاف يرجع إلى موقفهم من النصوص الواردة في الموضوع ومدى فهمهم لها، حيث لم يرد فيه نص قطعي الثبوت والدلالة، ولو وجد لحسم الأمر. فهم مختلفون في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها﴾.

فرووا عن ابن مسعود أنّه قال، ﴿إلّا ما ظهر منها﴾: الثياب والجلباب، أي الثياب الخارجية التي لا يمكن إخفاؤها. ورووا عن ابن عباس أنّه فسّر ﴿ما ظهر منها﴾ بالكحل والخاتم. وروي مثله عن أنس بن مالك، وقريب منه عن عائشة. وأحياناً يضيف ابن عباس إلى الكحل والخاتم: خضاب الكف، أو المسكة، أي السوار، أو القرط والقلادة. وقد يُعبّر عن الزينة بموضعها. فيقول ابن عباس: رقعة الوجه وباطن الكف. وجاء ذلك عن سعيد بن جبير وعطاء وغيرهما. وبعضهم جعل بعض الذراع مما ظهر منها. وفسّر ابن عطية ما ظهر منها أنّه ما انكشف لضرورة، كأن كشفته الريح أو نحو ذلك.

وهم مختلفون في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾. ما المراد بإدناء الجلابيب في الآية الكريمة؟

فرووا عن ابن عباس نقيض ما روي عنه في تفسير الآية الأولى!!

ورووا عن بعض التابعين، عبيدة السلماني، أنّه فسّر الإدناء تفسيراً عملياً بأن غطى وجهه ورأسه، وأبرز عينه اليسرى!! ومثله عن محمد بن كعب القرظي. وخالفهما عكرمة مولى ابن عباس، فقال: تغطي ثغرة نحرها بجلبابها، تدنيه عليها.

Twitter: @ketab_n

احتلال القاعة للحيلولة دون...» وإذ أومأتُ إليه برأسي أن لا حاجة به إلى مزيد من الشّرح لم يبالِ بل استهلّ جملةً ثانية: «يبدو أنّهم يملؤون الرُّواق المفضي إلى باب القاعة الرئيسي لثني أيّ كان عن الدخول».

من حذر أن أرتبك، ذلك أنّ حَذَرَ الارتباكِ لم يُغادرني يوماً رغم ما يُنْسبُ إليّ من «تجربة»، خَلَعْتُ نظّارتي. وأظنني أحسنتُ صنعاً. فما إن انتهيتُ من مطالعتي التي سُقْتها بناء على نصيحتك بصيغة المتكلم وأدرتها على وقائع وتفاصيل حقيقيّة وأحياناً هازلة تخلّلتْ تجربتي القصيرة ـ ما إن انتهيتُ وفتح صاحبُ الدعوة مدير الكلية باب الأسئلة حتى ارتفعتِ الأيدي؛ وههنا أيضاً لم تُخطىء عيناي المجردتان من نظّارتيهما في تعيين الصفوف التي ترتفع منها مُعظم الأيدي. تخوّفتُ أن يتهيب المديران أو أن يسبق إلى أحدهما الخوف فيتجاوز أصحاب الأيدي

وقال سعيد بن جبير: لا يحل لمسلمة أن يراها غريب إلّا أن يكون عليها القناع فوق الخمار وقد شدّت به رأسها ونحرها».

الدكتور يوسف القرضاوي، النقاب للمرأة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٠/١١/١٢.

Twitter: @ketab_n

القليلة المرتفعة في الصفوف الأمامية إلى زملائهم في الصفوف التالية، فسارعتُ إلى صاحبة اليد الوحيدة المرفوعة بين السّافرات القلائل ودعوتها أن تسأل. فعلتْ وكانَ سؤالاً سَهْماً شجاعاً حتى كدتُ أقولُ إنّك وراءه: «هل تظُنّون أنّ برنامجكم، وهو شئتم أم أبيتم دَعَويٌّ، ناجح في الدعوة، نجاحَه كبرنامج تلفزيوني؟» أجبتُ بما تيسّر من الكلام المباح: أنّه لا منقصة في كونه برنامجاً دَعَوياً وأنّ نجاحه كبرنامج مفخرة لا أدّعيها... أما نجاحه في "سباق الدعوة"، وكانت النكتة التي احتبكت تحت لساني تُلِحُّ عليَّ ألّا أبلعها، فخير دليل على ذلك كما ترين يا آنستي وأرى بنفسي الجمهور الذي يُشَرّفني بالمشاركة في هذا اللقاء».

أضحكت نُكتتي الجميع بما في ذلك «الجمهور» الذي غمزتُ من قناته ولو أن صفوفه استعادت وقارها أسرعَ مما استعادته الصفوف الأمامية.

توخّياً للعدل، ولو أنّه عدلٌ خواتيمُهُ معقدوةٌ سَلَفاً لذوي العَدَد، دعوتُ جماعة من أصحاب الأيدي المرفوعة، دونما تعيين، فتبادل أصحابها أقلّ من نظرة، وَقَفَ بعدها أحدُ مُقَدَّميهم واسترسل في سؤال فضفاضٍ بدأه بالبسملة

Twitter: @ketab_n

وضمّنه ما يحفظه من أقوال تؤيّد إرساءَ «ما ظهر منها» والجلباب والإدناء من الآيتين الخِلافيَّتَيْن(*) على النقاب دون سواه من مظاهر التستر لينتهي إلى الاستفسار عن «مشروعية القرار الذي قرّرته إداراتُ الجامعاتِ ـ وتلفّتَ ذات اليمين واليسار مبتسماً كأن ليُفهم ديرته أنّ في فمه ماءً إذ يعزو القرار إلى "إدارات الجامعات" ـ بحظر النقاب على الأخوات تحت طائلةِ منعهنّ من دخول الحُرَم الجامعيّة».

سارع مدير الكلية إلى الاعتراض على السؤال بحجة أنّه «خارج عن الموضوع» وأنّه «انتهاز صارخ لهذه اللقاء العلني الإعلامي للتطرق إلى شؤون جامعيّة خاصة». وتابعه مدير الجامعة في اعتراضه هذا متوسلاً بالحجة إيّاها. وفي تقديري أنّ السائل ومَنْ معه كانوا لا ينتظرون سوى اعتراض أو ما أشبه من هذا القبيل لـ«إثبات وجودهم» بل بزِّ الآخرين بما يقدرون عليه من وجود وانتزاع للنجومية وهو ما كان، حيث أخذت تعلو في القاعة صيحات استنكار متواردة

(*) ﴿ولا يبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها﴾، النور: ٣١.

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾، الأحزاب: ٥٩.

Twitter: @ketab_n

مفادها جميعاً ما فحواه: «نقاب أخواتنا شأن جامعي؟! متى كان النزول عند أوامر الشريعة ونواهيها شأناً جامعياً؟». ولم يخلُ بعضُهم من رفع عقيرته بشيء من قبيل: «وفسق الكاسيات العاريات(*) لِمَ لا يكون شأناً جامعياً؟».

لثوانٍ أو لربما أكثر احترتُ في أمري، هل أدلي بدلوي أم أنافق وأعتبر أنَّ ما يدور من حولي تحت أنظار آلات التصوير شأنٌ جامعي ليس لي أن أتطفّل عليه. تخاذُلُ المُديرين أو ما بدا لي تخاذلاً وشروع القوم في الانسحاب من القاعةِ على نحو منظَّم ومسرحي على وقع صيحات «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» مُعلنين بذلك نهاية اللقاء لم يَدَعاني بالخيار من التدخّل أو عدمه، فنهضتُ وتناولتُ المذياع وهتفتُ فيه موجهاً كلامي إلى خطيبهِم الذي كان يقف في الممر الفاصل بين الجناحين من صفوف الدِّكك، مولياً المنصّة ظهره، وقفة قائد يراقب انسحاب جنوده من الميدان: «لقد سألتَ سؤالاً فإليك الجواب». لم يبالِ بخطابي إيّاه ولا أنا اكترثت بإعراضه: «تقولون إن النقاب

(*) عن أبي هريرة قال: «قال رسولُ اللّه (صلعم) «نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُرَقَّقاتٌ مائلاتٌ مميلاتٌ لا يدخلن الجنة...».

Twitter: @ketab_n

ليس شأناً جامعياً وأنا أوافقكم على ذلك. وبالعودة إلى سؤالك أذهبُ إلى أبعد من ذلك، إلى ما لم تقله مُراعاةً لحرمة الحرم الجامعي: إنّ القرار القاضي بحظر النقاب على الطالبات لا تُسأل عنه إدارة الجامعة وإنّما الحكومة، ولكنْ أقول لك ولمن يريد أن يسمع، وأتحملُ تَبِعة ما أقول، إنّ للسلطان ـ والسلطان في عصرنا هو الدولةُ بأداتها التنفيذية التي هي الحكومة ـ للسلطان، نزولاً على رأي الشرع، أن يُعَطِّل، موقّتاً، ما يراه من أحكام الشرع إذا كان في تعطيل هذا الحكم أو ذاك، في زمان مُعَيّن، جَلْبُ مصلحة أو، أقلّه، درء مفسدة. كذلك، وعلى افتراض أنّ النقابَ حكمٌ شرعيٌّ ثابتُ القطعية، علماً أنّه أبعدُ ما يكون، فلا بأس من تعطيلِهِ ولا إثم طالما أنّ القصْدَ من وراء ذلك الحيلولةُ دون التوسل به لذرّ الفتنة وإلحاق الضّرر. النقاب اليوم، في الجامعة وفي سواها من المرافق، ذريعةٌ مفضيةٌ إلى مفسدةٍ غالبةٍ وهذه ذريعة يرى عامّة أهل العلم بالأصول وجوبَ سَدّها، وعليه فلا ما يقال باسم الشرع في حظر النقاب في الجامعة أو في سواها»(*). عندها فقط، وكان

(*) «الذريعة المُفضية إلى مفسدة: هي الوسيلة التي وضعت في أصل الوضع

Twitter: @ketab_n

آخرُ رتلٍ من جنود الطالب القائد يأخُذُ شَطْرَ الباب، استدار نحوي وصرخ بأعلى صوته: «من يُعَطِّلْ حكماً يُعَطِّلْ أحكاماً... كفى هُراء يا شيخ التعطيل» وانفتل في مكانه مُقفّياً على آثار المنسحبين خاتماً قطارهم.

كُنتُ على متابعة اللقاء بمن حضر، إلّا أن المديرَيْن ارتأيا غير ذلك. لياقةً لبَّيت دعوتهما إلى تناول القهوة في مكتب أحدهما. رغم ثنائهما على شجاعتي كان الارتباك بادياً عليهما فرشفتُ قهوتي بأقصى سرعةٍ لا تُخِلُّ بالأدب، وتركتهما يتخبطان في هموم يَومهما والغد وسارعتُ إلى عندك، إلى حيث كُنتِ قد سبقتني. هنا أيضاً لم أُطِلِ المُقام. أنتِ أيضاً كانتِ «الحادثة»، والمهارة في افتعالها،

للتوصل إلى أمر مباح، ولم يقصد بها التوصل إلى مفسدة، ولكنها تُفضي إلى المفسدة غالباً، وتكون المفسدة أرجح من المصلحة.

مثالها: سبُّ آلهة المشركين بين ظهرانيهم، فإنّه وسيلةٌ لأمرٍ مباح، ولم يقصد به التوصل إلى مفسدةٍ، ولكنه قد يفضي إلى مفسدةٍ متمثّلةٍ في سبِّ الكفار اللهَ عزَّ وجلَّ، ردّاً على سبِّ آلهتهم. ولذلك، فإنَّ عامة أهل العلم بالأصول، يرون وجوب سدِّ هذه الذريعة...».

الدكتور قطب مصطفى سانو، *معجم مصطلحات أصول الفقه*، دار الفكر المعاصر/ دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٠، ص ٢١٣.

Twitter: @ketab_n

هـمـا مـا استوقفك. استـمـعتُ إليك تـنـقلين إلـيّ بعض ما سمعته من تعليقات جيرانك وجاراتك من جُلّاس الصفوف الأمامية وجليساتها. بيد أنّني كنتُ في شغل عن ذلك جميعاً بما فَتَحَتْه عليّ مفرداتُ المساجلة القصيرة بيني وبين ذلك الشابّ، وبتساؤل ظاهره غايةٌ في البساطة: «هل من سبيل إلى التوفيق بين الإسلام وبين مقتضيات العيش في هذا العالم إلّا بتعطيل معظم أحكام الإسلام أو في الأقلّ بِسَنٍّ اختيارية الفردي منها، على صعوبة الفَصْلِ بين أحكام فردية محض وأخرى جماعية؟ أليس ما نحاول إثباته على الدوام، وفي سائر مرافق الحياة العامة والخاصة، ومن شتى الطرق وبشتى الحِيَلِ أحياناً والإغفالات المقصودة أحياناً أخرى، ـ أليس ما نحاول إثباته هو أنّ مقاصِدَ الإسلام، إلّا متى ما ألْجَمَتْنا صراحةُ بعض النصوص، موافقةٌ لِمُثُل العصرِ الغالبة؟ ـ بصرف النظر عن أسباب غلبتها.

من زمن بعيد كنتُ لم أنشَبْ في مثل هذه التساؤلات العامّة التي قد يراها البعض «عميقة» في حين أنها منّي صمتي وجهري وأقرب إليّ من حبل الوريد،

Twitter: @ketab_n

لذلك آثرتُ يومذاك تلبية داعية الانفراد بنفسي والعودة إلى مسجدي على تلبية دعوتك إلى البقاء في ضيافتك.

لا جديد في المسجد سوى تنويه عابر من الحاج إلى أنّ الشيخ فلاناً، «الذي مضى على آخر زيارة له إلينا وقت طويل» جاء بصحبة رجلٍ وفتاتين وانتظروك لساعة وسيجدّدون المرور للقائك غداً في الصباح الباكر. لم أكترث بتحرّي المزيد من التفاصيل. لا شك، بدليل الرجل والفتاتين، أنّه جاء يسأل خدمةً.

راجياً في سرّي أن تكون خدمةً يسيرةً لا فكّ حبل مشنقة أغلقت باب غرفتي عليَّ وعلى شياطيني.

Twitter: @ketab_n

٢٤

أبكر مـمّا توقّعتُ حضر زائر الأمـس وصحبه. لحسن الحظ كنتُ في مكتبي فلم يزعجني تبكيره ولا اقتضاه أن يعتذر عنه. تحيّاتٌ وأشواق وسؤال عن الصحة والحال وعتابٌ رقيق على طول الغيبة ومناداة على الحاج أن يُعاجلنا بكوبين من الشاي، كل ذلك قبل أن يخطر لي سؤالُه عن صَحْبِهِ الذين قيل لي إنّهم رافقوه البارحة وشاركوه انتظاري، فأتى بيده حركةً فهمتُ منها أن لا شيء عاجلاً، وبعدَ هنيهةٍ شرح حركة يده: «لولاهم، رغم شوقي إلى زيارتك، لـما تجشّمتُ مشاقّ هذه السفرة التي أنت أدرى كم كانت مُحَبّبةً إليّ. ولكن دعنا منهم الآن... إنّهم في الخارج... نعود إليهم وإلى حديثهم في ما بعد... بالطبع ما سَمَحَ بذلك وقتُكَ».

كانتْ نبرةُ صوته كسيرةً كما لم أعهد منه من ذي قبل، ليس انكسارِ السائل، فلطالما جاءني من قبل أن

Twitter: @ketab_n

أصبحت نجماً ساعياً خيراً في أمر يخص هذا أو ذاك من أهل القرية التي عُيّن لسنواتٍ بعيدة خَلَتْ إماماً لمسجدها فَتَمَلَّك فيها وتزوّج واستوطن، ـ لطالما جاءني في مثل ذلك وأسعَفتْه خفّةُ روحه ومحفوظاتُه من الشعر في أن يطلب ما يشاء كأنّه لا يطلب، دون مقدّماتٍ وفي منأى من أي تبذّل في العبارة أو تذلّل في السلوك. ليس انكسار السائل ما كان في نبرة صوته بل انكسارُ الكسير وهذا ما لم يعتم أنْ تبدّى لي بعد دقائق قليلة من دخوله عليَّ تَعَطَّل في أثنائها الكلام مرّاتٍ عديدةً وغارَ في مجاملاتٍ كنا لا نتبادلها إلّا على سبيل النكتة والمُزاح. شقَّ عليَّ الأمْرُ فلم أتمالكني عن الإلحاح في الاستفسار عن صحّته وصحّة الأهل كأنّما المرض أهون الشرور: «صحتي قياساً بسنّي، ولله الحمد، على أحسن ما يُرام والأهل والأولاد بخير ولكن... كأنّك لم تسمع بما جَدَّ من أمري...». في الحقيقة لم يكنْ حديثُ ما جَدَّ من أمره قد أتاني، وإلّا أن يأتيني سماعاً وعنعنة لا أظنّ كان له أن يُنمى إليّ من طريقٍ أخرى وهو ما لم يتفق. لم أشأ أن أزيد عليه انكساره فأقول له مثلاً إنّ أخباره لا تتصدّر عناوين الصحف (وهو

Twitter: @ketab_n

جوابٌ ما كنتُ لأتردد عنه في أيّامنا الخوالي) فاعتذرتُ عن جَهلي بانشغالاتي التي تجعلني أُقصِّر عن تسقّط أخبار الأصدقاء. لم يُبالِ باعتذاري بل كرر السؤال: «أحقّاً لم تَعْلم بما كان؟! ظننتك أولى الناس بأن يَرِدَ عليك وأن تتعقّب حيثياته وتفاصيله». كان كمن قُطِّعَتْ به الأسباب إذ وَجَدَ نفسه مُلجأً إلى التسليم بأنَّ فاجعته مزدوجة: فهي لم تُصبْه فقط ولكنّ خبرها لم يَطِرْ في الآفاق بخلاف ما كان يحسب (ولربما يُعَزّي نفسه بذلك). حاولتُ أن أُعِلَّ الحِداد المُخيّم علينا بشيء من العبث فذهبتُ، وهو من أبرع من عرفت في تقليد الآخرين، إلى محاكاة ما كان من طريقته في خطابي كلما جاءني وألفاني مكتئباً: «ما الخطب يا رجل؟». لم يستجب لمحاولتي بل تنهد بحسرة وتمتم: «سقى الله هاتيك الأيام». عاملته معاملة المحزون فلم أُجَدِّد الاستفسار، بل تركتُ له أن يخرج من صَمْتِهِ الهوينى، فلولا أنّه راغِبٌ في بثّي ما بنفسه، قلتُ لي، لما آثر الانفراد بي مرجئاً الخوض في ما جاء من أجله. لم يطل انتظاري ولا خيّبه: «بما أنّك لا تعلم بما جرى لي فأنتَ بالضرورة لا تعلمُ أيضاً بأنّني هذه

Twitter: @ketab_n

الجُبَّة عدتُ لا أتلفع بها وهذه العِمامة عدتُ لا أتتوّج بها إلّا في "المناسبات"، وأنّني لولا أن يقول أصحابُك في المسجدِ ماذا دهاه لما جئتك بما تراني فيه الآن من زيٍّ صار منّي بمثابة الزيّ التنكّري». لم أفهم ممّا قاله شيئاً ولم أُخفِهِ أنّني لم أفهم. «لأشهر خَلَتْ يا صديقي استولَوا على مسجدي وطردوني منه وباتت رعيّتي نباتية حيوانية: أشجار بستانيَ الصغير وبقوله وبضعة خراف وبضع دجاجاتٍ يؤمّهن ديكٌ رزّيٌّ، قدوةٌ تُحتذى في العدلِ بينهن!».

كان في حديثه غُصّةٌ ومرارة ولكن طمأنني بعض الشيء، إن جاز القول، ما تأكّد لي من غلبةِ روح المرح عليه رغم تلك الغُصّة والمرارة، وهو ما شَجّعني على أن أحمِلَ مُجَدّداً مُستزيداً من تفاصيل ما كان. «لا أظنُّ أنّ ما شهده مسجدي يختلف كثيراً عمّا شهدته مساجد أخرى، لا سيّما في الأطراف. كانت البداية مَوْجَةَ اهتداءٍ لا سابقَ لها في صفوف الشبان، وصنو الاهتداء ارتيادُ المسجد. كُنْتُ أرى جمهورَ مسجدي يزدادُ وتتبدّل ملامحه. فمن بعد أن كان المسجد أشبه بالنادي المغلق معظم أعضائه من الكهول ومن المتقدمين في العُمْر انفتح

Twitter: @ketab_n

فجأة على وجوهٍ جديدة ولغة جديدةٍ ونشاطاتٍ لا سابق عَهْدٍ له بها. كانتِ الصلواتُ الأوقاتَ الوحيدةَ التي يختلط فيها الفريقان، وحتّى قولي «يختلط» فيه شيء من المبالغة إذ قلّما كُنْتَ ترى في الصفِّ الواحد أفراداً من الفريقين، أمّا قبل الصلاة وبعدها فأصبح لكلٍّ منهما زاويته: هنا القُدامى يتجاذبون أطراف أحاديثَ يُمكن أن يتجاذبوها في أيّ مكانٍ آخر، وهناك مؤمنو الشَّتْوة الأخيرة الذين يُقاسُ عُمْر إيمانِ كلّ منهم بطول لحيته، يتخافتون ويتسارّون. في الأسابيع الأولى كانت علامات حضورهم الفارقةُ تقتصر على تمسكهم الشديد ببعض السنن وإظهارهم هذا التمسك، وأحياناً على توجيه انتقاداتٍ "أخوية" إلى هذا أو ذاك بشأن طريقة وضوئه أو هيئة صلاته أو ما أشبه. لم تكن هذه الانتقادات على أخويتها، تلقى القبول الحسن أو تؤخذ مأخذ النصيحة. ومع أنّه لم يحدث أن تسببت هذه الانتقادات في مُشادّاتٍ تَتَجاوزُ التّنابُذَ بِحُجَجٍ غير متكافئةٍ: مأثرة التقدّم في الإيمان والسبق إليه في مُقابل الالتزام الدقيق بشعائر الإيمان بل والمبالغة في ذلك، فإنَّ انقطاعَ حبل الكلام والتفاهم زاد من النُّفرة بين الفريقين ومن الحذر أو بالأحرى من حذر

Twitter: @ketab_n

أحدهم، فريق السّابقين، من الآخر، إن لم يكن لأسبابٍ فلسبب واحدٍ على الأقلّ وهو أنّ هذا الأخير كان يُظْهِرُ من الثقةِ بالنّفس، بعدَ الله طبعاً، ومن الاعتقاد المبرم بأنّه ويدَه ولسانه على الحق ما لم يُمَكِّن أولئك، وأنا منهم، أن يُجاروه فيه أو أن يُضارعوه.

لا أخلو من التساؤل بين الحين والحين هل إنّني بذلتُ كل ما في وسعي دفاعاً عن مسجدي وتالياً عن نفسي ومكانتي، ولا أنتهي إلى جوابٍ شاف. فأحياناً يبدو لي أنّه لم يكن بإمكاني أكثرُ ممّا كان وأحياناً أخرى ألومُني على أنّني جَبُنتُ. فيوماً من تلك الأيام خفضتُ بصري تحت وطأةِ نظراتهم الحادة، ويوماً آخر غمرني التردد فلم أشجع على مواقفةِ فَقيههم الهذرِ المُدَلِّس الحامِلِ شَرعَ الله على رأي فقهي شاذٍّ وهكذا. قل لي، بربك، وأصدقني القول: هل تعتقد بأنّني قصّرت؟ مهلاً. دعني أقصّ عليكَ ما جرى ثمّ أدغلْكَ تقول. وقعتِ الواقعة الأولى الجديرة بهذا الاسم بيني وبينهم عندما جاؤوني مطالبين بأن تبقى أبواب المسجد مشرعة ليل نهار. كما لا يخفى عليك كان ذلك مطلباً حقّاً يُرادُ به باطل. فإذ لا يَسَعُ أيّاً كان أن

Twitter: @ketab_n

يَمْنَعَ عباد اللّه من ارتياد بيوته(*)، لم أكن في وارد إهداء المسجد إليهم على طبق من فضّة، فتذرّعتُ، بعد الإقرار لهم بأنّ بيوت الله أولى البيوتِ بألّا تُغْلقَ أبوابها، بأنّني مسؤول عن إدارة المسجد أمام وزارة الأوقاف، وأنّ التلكؤ في تكليف من يقوم بخدمة المسجد يضطرني إلى غلق أبوابه إلّا في أوقات الصلاة. بطبيعة الحال كانت حجتي واهية يُطْعَنُ فيها من وجوه شتّى. بدايةً اقترحوا أن يتولوا مداورةَ خدمة المسجد وإذ أجبت بأنّ الموافقة على ذلك ليست من صلاحيّاتي نقلوا السّجالَ إلى مرتبة أعلى: «مِنْ متى تفتحُ بيوتُ الله أبوابها وتوصدها نزولاً عند قراراتِ تقرّرها أو لا تقرّرها إدارات، أقلّ ما يُقال فيها أنّها فاسدة؟». لم أشأ أن أُتابعهم فَلُذْتُ، ولربّما أخطأت، بالعناد وأجبتهم بأنّني أرفض زجّي في مسائل لا شأنَ لي بها. تبادلوا النظرات مكتفين بشيء من قبيل «حسناً» غامضةٍ وتحيّة فاترة. في الليلةِ نفسها، تحت جنح الظلام، خلعوا باب المسجدِ ومنذ ذلك الحين راحوا يتناوبون على المرابطةِ فيه

(*) ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾، البقرة: ١١٤.

Twitter: @ketab_n

ليل نهار كما يتناوبُ الجند على حراسة ثغرٍ من الثغور. للأمانةِ لا بُدَّ أن أزيد بأنّ كبيرهم استقبلني فَجْرَ ذلك اليوم عند باب المسجد بتهذيب جمٍّ وشرح لي أنّ ما أقدموا عليه ليس تحدياً لي أو انتقاصاً من مكانتي ولكن «كما تَعلَم فـ"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"»، مقترحاً عليّ ختاماً، إبراءً لذمتي أمام وزارة الأوقاف، أن أتقدّم ببلاغ إلى مخفر الشرطة أعرض فيه لما كان! كما ترددتُ أنا في رفع الأمر إلى وزارة الأوقاف تردّد رئيس مخفر الشرطة كثيراً قبل أن رفع الأمر إلى مرؤوسيه ليرفعوه بدورهم أعلى فأعلى. في ما بين ذلك ـ تَرَدُّدِنا ولامبالاةِ المسؤولين ـ تغيّر وجهُ المسجد بكلٍّ معنى الكلمة. ضاربين عرض الحائط بالوزارة وبالقوانين، عملوا على ترميم المسجد، قاضمين بالجملة أمتاراً مربعةً من الطريق المفضية إليه والتي لم يتأخروا بالطبع عن تعبيدها، وردّوا الروح إلى الميضأةِ وثبّتوا في قمّة المئذنة أربعة مكبرات صوتٍ تنشر كلمة التقوى إلى حيث يصل هديرها من الأربعة الأرجاء. تهذيبهم الأشبه بالانضباط العسكري وأياديهم البيضاء على المسجد وعلى العديد من أهل القرية زلزل عالمنا الصغير زلزلة

Twitter: @ketab_n

صامتة عنيفة كان من أبرز أماراتها تنامي عطف صريحٍ على هؤلاء، مقرونٍ بحمل إيمانهم الذي تمثّل أوّل الأمر نزوة مثيرة للتهكم على مَخمَلِ النموذج الجديد بالمحاكاة، وبلاغتهم على محمل الكلام المنزل. نجاحاتهم المتتالية في احتلال الأرض والرؤوس تحاشوا الترجمة عنها على نحو عُنْجُهيّ يبثُّ الاضطراب والمخاوف في صفوف أهل القرية فرأيتهم ينتهجون سياسةً لحمتها «عمل الخير» وسُداها معاونة المجلس البلدي على خططه المتواضعة، ومعاونةُ الرعيان على تطبيب مواشيهم ومعاونة التلاميذ بتنظيم «دروس تقوية» مجانية إلخ... أمّا أنا فلم يبدر منهم نحوي ما آخذه عليهم فاستمرّوا في الصلاة ورائي، إلّا أنّهم عطّلوا جُمعتي. فصباح كل جمُعة كانوا وأنصارهم الجدد الذين انضوى بينهم بعض السابقين يأخذون شطر قرية مجاورةٍ، خطيبُ مسجدها أحد شيوخهم المُبَرّزين فيخلو مسجدي إلّا من قلّةٍ قليلةٍ لا يَسْتوفي عددها الشرط الشرعي لإقامة صلاة الجمُعة فأكتفي بفريضة الظّهر... على كره وقهر كنتُ أسكتُ عمّا يُنمى إليّ من مقارناتِ بعض المريدين المفتونين بين خُطبيَ المُمِلّة المكرورة الجبانة وخطب

Twitter: @ketab_n

زميلي المشَوِّقة المتوهجة الشجاعة. يقربُ في نفسي أحياناً، ولا إخالني مخطئاً، أنّ ما جئتُ على ذكره من تهذيبهم الصّوري ووداعتهم المتزلفة إنّما كانا، في ما يعنيني على الأقل، ضرباً من التعذيب اليومي يُرادُ منه إحراجي توصّلاً إلى إخراجي عن طوري بما يُشَبَّه معه أنّني أقدمتُ على ذلك من تلقائي ولغاية في نفسي أو لداعيةٍ من دواعيها، وهو في واقع الحال ما كان. فبعد ظهر ذلك السبت نقلتْ مكبراتُ الصوت إلى أهل القريةِ خبر اعتقال زميلي وخصمي اللدود، شيخهم الذي يتجشمون كل جُمعة مشقة ارتياد مسجده في القرية المجاورة طرباً بخطبه النارية. وفي أعقاب الخبر كانتِ المكبّراتُ تذيع عليهم نصَّ بيانٍ سياسي ينعى على «نظام الإثم والبغي والعدوان» بالطول والعرض، جَوْرَه وتفرعُنَه، إلى آخره وآخر المعزوفة، متوعداً إيّاه والسائرين في ركابه بسوء العاقبة والمنقلب.

أنَّ النظام بَرٌّ أو فاجِرٌ أو أنّ شيخهم فَمَ الذهب مظلومٌ أو أنّ قوماً يُريدون أن يُطفئوا نور الله ﴿ويأبى الله إلّا أن يُتِمَّ نوره﴾(*) - كل هذه الاعتبارات لم تعنني ولا

(*) التوبة، ٣٢.

Twitter: @ketab_n

استوقفتني ساعةَ راحت مكبرات الصوتِ المثبتةُ على مئذنة مسجدي تلقي حممها. محنقاً مغيظاً ممتلئاً غُصصاً هرولتُ إلى مسجدي لا لأستوضح جلية الأمر ولا لأُسَجِّل اعتراضي بل، بسذاجة، لأسترده موهِماً نفسي أنّهم بهذا الصنيع يسفرون عن وجههم الحقيقي ويقيمون الحُجة على نفسهم بلسانهم وأيديهم، وأنّ أحداً من أهل القرية، بمن فيهم المفتونون، لن يرضى بتحويل المسجد، بيتِ الله، إلى منبر لبثّ دعاياتٍ سياسيّة افترضتُ أن لا شأن لنا بها. لو كانت البقيّة ما تقدّره وتتوقعه فقط لأعفيتك من الاستماع إليها ولكنها أفظعُ وأذلّ. بالطّبع ردّوني على أعقابي خائباً ولم يرتفع صوتٌ واحدٌ لنُصرتي. ولو أنّ ما جرى اقتصِر على هذا لهان ولكنّهم، وقد نجح سعيهم في إحراجي وإخراجي، انتهزوها مناسبة لتصفية كلّ حساباتهم دفعةً واحدة فاتهموني، لحضّي إياهم على عدم الخلط بين الدين وبين السياسة وبين أعدائهم وبين أعداء الله، بإضلال الناس عن سبيل الله و... بـ "التعامل(!) مع أجهزة الأمن" "فعليك بنفسك يا مولانا، قالها فقيهُهم بنزقه السّامّ الهادىء، وسارعْ إلى مغفرة من ربك... قبل أن يفوت الأوان". لم يدعوا لي أن

Twitter: @ketab_n

أرى في أمري وهل إنّني مذنبٌ حقّاً في حقٍّ ربي أو أحدٍ من عباده. فتمامَ منتصف الليل من اليوم نفسه دهم بيتي عدد من الشبان اقتادوني معصوب العينين إلى معسكر لهم لا أعرف أين في أحد الجبال المحيطة بالقرية على مَبْعَدَة زهاءِ الساعة ونصف الساعة رحلة بالسّيارة.

من لحظة اقتيادي وضعتُ الموت الشنيعَ نصب عينيَّ ولم أَدْعُ اللّه إلّا أن يعجلوا فيه ويُهَوِّنه عليّ بأن يُوكَلَ قتلي إلى غِرٍّ يَبْتَسِرُهُ ابتِساراً لا إلى أحد أولئك العتاة الذين كان وصف ما يخلِّفونه من القتلى في أعقاب حملاتهم التأديبية كافياً لأن يدعوَ المرءُ اللّهَ بمثل ما دعوته. قد يخطر لكَ أن ترتكب حماقة تهنئتي بالسّلامة على غرار ما كان من بعض أهل القرية غداة الإفراج عنّي. رجاء لا تفعل. أسوأ ما يلحق بامرىءٍ تعرّض للقتل، لأيّ ضرب من ضروب القتل، وبقي على قيد الحياة، أنَّ أحداً لا يُصَدّقه إن قال بأنّ الموت بات يجري منه مجرى الدّم. لماذا نُصَدِّق أنّ الموتَ شقيقُ الروح (والجسد) من مريضٍ بسرطان الدم ولا نثق بصلةِ الرحم التي بين حيٍّ وبين الموتِ من بعدِ إذ يكون قد نجا منه؟ والنجاةُ من الموت يا صديقي ليست دوماً بأن يمرّ

Twitter: @ketab_n

الموت بمحاذاتك أو أن تمرَّ بمحاذاته ولكنها أحياناً، بل في معظم الأحيان، أن يَمْرُقَ فيك الموت ولو مروقَ سَهْمٍ نابض. طيلة يومين استُجوبتُ وعلى معظم الأسئلةِ التي سُئلتها كنت لا أملك إجاباتٍ شافية أو غير شافية. لا أظنهم كانوا يجهلون ما يُحيطُ به علمي وما لا يحيط ومن ثَمَّ عزوفهم عن استعمال الشدة عند استجوابي بخلاف آخرين كُنتُ أسمع صيحاتهم المُنكرة وتوسلاتهم الضارعة.

قبل طلوع فجر اليوم الثالث جاؤوني بوثيقةٍ طلبوا منّي نسخها بخطّي ومهرها بتوقيعي. كانت اعترافاً بـ«التعامل مع الأجهزة تحت الضغط وتزويدِها معلوماتٍ يمكنها إلحاق الإساءة بالمسيرة المباركة» (حرفيّاً) وتوبةً إلى الله نصوحاً وبراءةً من النظام وأهله. بصراحة لم أتردد في الانصياع لما أمروني به من نسخها والتوقيع عليها على علمٍ بأنَّ النزول عند أمرهم لا يضمن نجاتي، إن كان قَلَمُ أميرهم قد جرى بغير ذلك. أخرجوني من الكوخ الذي كُنتُ مُختجزاً فيه، وبأوجز عبارة أشار عليّ أحدُهم بأن أنتظر، وتوجّه ورفيقاه إلى حيث كان يتجمع أصحابهم لأداء الفجر. توجست شرّاً من تركي بلا حراسة فلم أتزحزح من مكاني.

Twitter: @ketab_n

كانت هيئة صلاتهم غريبة عجيبة، ولقد اقتضاني أن أتأملَ ما يدور تحت ناظري برهةً لا بأس بها قبل أن تبيّنتُ أنّهم إنّما يؤدّون فريضة الفجر مُتّبعين أحكام صلاة الخوف(*) التي قرأتُ عنها في الكتب وما شهدتها تُقامُ

(*) «يسّر الله تعالى على عباده فلم يجعل عليهم في الدين من حرج. وحيث أمرهم بالصلاة يسّر عليهم أداءها حتى لا تمر بأحدهم حالة من سفر أو خوف أو مواجهة عدو، أو عذر أو مرض، أو ظروف طبيعية إلّا أدى واجبه أيسر ما يكون، ومن ذلك صلاة الخوف التي شُرّعت للمجاهدين، خاصة حين يواجهون عدوهم ويخشون أن يدهمهم وهم في صلاتهم فحينئذ لا يجتمعون جميعاً على هيئة صلاة الجماعة المعروفة بل يؤدون صلاة الخوف. وقد أُخذ تشريع صلاة الخوف من قوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إنّ الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معكَ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إنّ الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً. فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾.

الخوف نوعان:

النوع الأول: خوف يمنع من إكمال هيئة الصلاة، وذلك حين المسابقة أو مناشبة الحرب فتؤخر الصلاة حين يُخاف فوات وقتها ثم يصلي كيف أمكن مشياً أو ركضاً إيماءً بالشروع والسجود إلى القِبلة وغيرها ولا يمنع ما يحتاج من قول أو فعل.

Twitter: @ketab_n

قبل يومي ذاك. عَقِبَ الصلاة جاء من رافقني إلى حيثُ كانوا متجمعين للصلاة وبوأني محلاً من حلقةٍ ملتفة حول من عرفتُ استنتاجاً أنّه أميرهم، وعرفتُ من سياقِ الحديث أنّه في زيارة إلى هذا المعسكر. ألقى على المتحلقين حوله، وأنا منهم، عظة موجزة في فضل الرِّباط وحراسة الثغور، ثم أجاب على بضعة استفتاءاتٍ قبل أن تكرّم فأشار إليّ بيده وأردف، كما لو أنّه يَسْتَتِمُّ حديثاً لم أسمع مطلَعَه: "يقولون إنّنا نسفك الدماء التي حرّم اللّه. لو كان كذلك هل كنا أبقينا عليه؟ (قاصداً إياي). لقد استتبناه فاعترف بما تقدّم من ذنبه وتاب إلى الله وبرىء من الفَجَرَة المتفرعنين، وإذ اتضح لنا أن ليس ما يوجبُ إقامة حدّ من حدود الله عليه عَزّرناه بسجنه أيّاماً وهو

النوع الثاني: خوف يتوقع معه مغارة العدو إن اشتغل المسلمون كلهم بالصلاة، فيجوز لهم أن يصلوا أفذاذاً وأن تصلي فئة بإمام وأخرى بإمام، ويجوز أن يصلوا صلاة الخوف المشروعة، ولها صفات كثيرة، ومع الحروب المعاصرة وإمكاناتها المتجددة في القصف والتدمير، فإنّ المجاهدين يصلون حسبما يتيسر لهم، في جماعات متفرقة أو أفذاذاً حتى لا يجتمعوا في ساحة واحدة فيحصبهم العدو...».

أحمد علي الإمام، *نظرات معاصرة في فقه الجهاد*، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص ٨٨ وما بعدها.

Twitter: @ketab_n

حُرٌّ من هذه اللحظة في أن يرجِع إلى أهله وعياله. من يَقُلْ لكم إنّنا نسفك الدماء التي حرّم الله قولوا له إنّ دستورنا في القتل هو الآية الكريمة: ﴿ولا تقتلوا النَّفس التي حرّم اللّهُ إلّا بالحق ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾(*)". لم أصدّق أُذنيّ إذ سمعته يتحدّث عن إطلاق سراحي. ولاحقاً، بعد أيّام طويلةٍ على إطلاقِ سراحي، بدأتُ أجرؤ على تذكّر تلك اللحظاتِ والتفكّر فيها واستفظاعها حقّ فظاعتها. تأخّر الإفراجُ عني حتى قُرابةِ منتصف الليل حيث أعادوني، معصوب العينين، في سيّارة حضرت بسحر ساحر، إلى مشارف القرية. لم أروِ لأحدٍ قبل اليوم ما عشته تلك الأيامَ الثلاثة بهذا التفصيل. والحقُّ أنّني لم أحتجْ أن أفعل ولا وَسِعني، فغداة الإفراج عنّي كانتِ الأخبار قد سبقت بألسنَة منها المغرِضُ ومنها المغرَّرُ به: شيخكم الذي كنتم تُثنون على زهده وتستأنسون بفكاهته هل عَرَفْتموه أخيراً على حقيقته وعَرَفتم تلك الجبّة الخَلِقَة من كانت تواري؟ ﴿قل جاء الحقّ وزَهَقَ

(*) الإسراء: ٣٣.

Twitter: @ketab_n

الباطل﴾[*]... شيخكم ذو الاحترام الكبير لم يكن سوى مخبر صغير... لقد اعترف بكل شيء... ولولا أن يُساء تفسيرُ إقامة الحدّ عليه، في هذه المرحلة، باعتباره شيخاً، للقي المصير الذي يستحق. هل أتاكَ ما بدأتُ به حديثي من أنّ هذه الجبّة وهذه العِمامة باتتا مني بمنزلة الأزياء التنكرية؟».

رأفةً به، ولربما خوفاً من انفجار أوداجه التي انتفخت انتفاخاً عجيباً قطعتُ عليه استرساله الذي لم يَبْدُ لي أنّ وصول روايته إلى نهايتها كفيلٌ بكبحه. لا أظُنّني قُلتُ شيئاً ذا بالٍ، أوّلاً لأنّه ليس ما يُقال، وثانياً لأنّني كنتُ مشغولاً بتخيّل أيّ وقع يمكن أن يكون لروايته لو يُتاح لها أن تسجَّل وتبثّ. ما لم يَدُرْ لي بِخَلَدٍ هو أنَّ ما سلَف لم يكن سوى غيضٍ من فيض ما في جعبته!

رَطَّبَ حَلْقَهُ برشفاتٍ متتالية من فنجان شايه الذي ذهبتْ بحرارته شهادته المُشهبة ثم، كمن يتبيّن أنّه أتى سهواً ما يوجبُ الاعتذار عنه، حدّق فيّ وسبقت يداهُ لسانَه

(*) الإسراء، ٨١.

Twitter: @ketab_n

إلى بيان غرضه، فوجدتُني أنهضُ من كرسيّي وأقترب منه ثمّ أنحني على جبهته وأقبّلها. كانت يداه اللتان تمسكتا بيديّ الاثنتين ترتجفان وكأنّي سَمِعْتُ أسنانه تصطك. بجهدٍ صَمَدْتُ في مكاني محاذراً أن يختلّ توازني غيرَ متشجّع على الإتيان بأدنى قول أو حركة. لَستُ أدري كم بقينا على هذه الحال التي لم نغادرها إلّا حين استجمع من قواه ما أتاح له أن يُباشر النهوضَ من كرسيّه، ضاغطاً على يديّ ومحرراً إياهما من قبضته في آن، وأن يقول: «اعذرني، ليس هذا ما قصدتك من أجله». اقترحتُ عليه أن يغسِلَ وجهه فلم يمانع وعادَ بعد ثوان متأهباً لاستئناف الحديث: «هذا الرّجل الذي جاء وابنتاه بمعيتي له عندي معزّة خاصة ولولا ذلك لما قصدتك راجياً أن يُقَدِّرك الله على مساعدته. هل تأذنُ بدعوتهم إلى الدخول... الموضوع محرجٌ ولهذا أُفَضِّلُ أن أدع لهم بسطه».

ناديتُ على الحاج بأن يدعهم يتفضّلون. رجلٌ في السّتينَ وصبيّتان إحداهما في العشرينيات والأخرى لا عمرَ لها. حيّوا إلّا هذه الأخيرة، وأخذوا مقاعدهم ولزموا الصّمت. نظرة واحدة كفتِ الرَّجُلَ ليفهم أنّ الكلام له:

Twitter: @ketab_n

«ابنتي هذه يا مولانا، وأشار إلى التي لا عمرَ لها، ليستْ على ما يُرام... لا اعتراضَ على مشيئته سبحانه وتعالى... ولكن...». تداركتِ الأخرى تأتأة أبيها الذي وشى تهدّجُ صوته واختناقُه بما يكلّفه المضيُّ في الكلام قُدماً من عناء، وبحزم وجُرأة وبمفردات مأتاها من قاموس عصري رَوَتْ وأوجزت: «أُختي هذه، لأسباب لا أظنُّ أنّ اللّه مسؤول عنها، وإنّما والداي، تُعاني من تخلّف عقليٍّ حادّ، إنها في الخامسة عشرة من عمرها الطبيعي، ونموها الجسدي مكتمل إلّا أنّها عقلياً، بشهادة الأطباء، لم تتجاوزِ الثامنة... لقد حاولنا حياطتها من الأعظم الذي يُخشى منه على طفلةٍ في جسم امرأةٍ يُغرِّر بها بدمية أو قطعة من الحلوى ولكن... وقعتِ الواقعة وهي على الأرجح في نهاية الشهر الثاني من حملها».

بمقدار ما كانت الصبيّة التي أكبرتُ تماسكها تمضي في سردها، كان الوالد المغلوبُ على أمره يتقوقع على نفسه كأنّه يُحاول أن يتضاءل حدّ الغياب عن الشهود. تَقَوْقَعَ ما أمكنه فضمَّ ساقيه إلى بعضهما وتَكَتَّفَ وأحنى رأسه، وإذ لم يسعه أكثر تجمّد على حاله هذه ولا

Twitter: @ketab_n

ما يدلُّ على محضره بيننا سوى الشهقات المكتومة التي كانت تَنِدُّ عنه. أمّا الفتاة الأخرى، الصغرى، بيتُ القصيد، فلم يكن من سيماها ما يخبّر عن تخلّفها العقلي إلّا، لربما، ما تبيّنته من بَلَهٍ مستحكم في نظراتها إذ حَدّقتُ بها فاحصاً أثناء استماعي إلى حديث الكبرى، بعد تمنّع متعمد عن النظر إلى الفتاتين الباديتي الارتباك في تدبير ما تغطيان به شعرهما، ـ ولعلّ ما أخّرني أيضاً عن اكتشاف حالها تورّمُ الخدين منها وازرقاق الشفتين وتشققهما! (والحال أنّني لم أخطىء بأن تَرَيَّثْتُ في الحكم على نظراتها فلقد أخبرتني الكبرى في اتصالٍ هاتفيٍّ لاحق أنَّ والدتهما التي أجّج اكتشافها حمل ابنتها ما تعاني منه أصلاً من اضطرابات عصبيّة، دأبت يومياً، من حين اكتشافها ذلك على التنكيل بها دونما رادع... على أمل إجهاضها!). «بطبيعة الحال، تابعتِ الكبرى، لا هاجس لوالديّ سوى توقّي الفضيحةِ وشماتة الجيران وهو ما أمسكهما عن الادعاء على الفاعل...».

رانَ على مجلسنا صَمْتٌ في غير محلّه حيث إنّ المتكلمة بَثَّتْ جملتها بثاً خُيِّلَ إليّ معه أنّها سَكَتَتْ

Twitter: @ketab_n

عن أمرٍ كانت على وشْكِ التصريح به، صَمْتٌ لم يلبث زميلي الشيخ أن خرقه بلا مقدّمات: «للعزوف عن الادعاء يا صديقي سَبَبٌ آخر غير توقّي الفضيحة: لقد تبيّن أنَّ الشابّين اللذين اعتادا على استدراجها والتغرير بها والتناوب على اغتصابها، واللذين لا يُعرف من ماء أيّهما حَمَلت، قد التحقا منذ أسابيع بالفرقة الناجية في معاقلها الجبلية. وعندما تَوَجّه الوالد صُحْبة بعض وجهاء القرية وعقّالها بالشكوى سرّاً إلى أحد المشهورين بصِلاته الوثيقة بالفرقة تلك، جاءَهُ الجوابُ بعد أيّام أن لا دليل على تورّط الشابين بالأمر، وأنّه حتى في حال ثبوتِ تورطهما فإنّ الشابّين قد تابا بدليل أنّهما يُبليان أحسن البلاء في ساحاتِ الجهاد. وإذ تجرأ أحدهم وسأل وكيل الفرقةِ المحليّ، أيُّ جهادٍ هذا، مع الفتك بالأعراض، أفحمه بما معناه أنّ اللّه ينصر دينه بالبررة والفجّار سواء بسواء(*)». تشعَّب الحديث بيني وبين زميلي بعض

(*) «ثبت في السير أنّ رجلاً يقال له قزمان خرج مع النبي (صلعم) يوم أُحُد وهو مشرك فقتل ثلاثة من بني عبد الدار حَمَلة لواء المشركين حتى قال (صلعم): «إنّ الله ليأزرُ هذا الدين بالرجل الفاجر»، أحمد علي الإمام، *نظرات معاصرة في فقه الجهاد*، ص ٧١/٧٢، سبق ذكره.

Twitter: @ketab_n

الشيء قبل أن عاد إلى موضوعه: كيف السبيلُ إلى إجهاض الفتاة؟ طمأنتهم، إن جازت العبارة، أنّ الأمر، نظراً إلى ظروف الحمل، ليس بالأمر الصعب ووعدتُهم أن أتولّى متابعته في الأيّام المقبلة.

ألقيتُ قَولي ووعدي جُزافاً مراهناً على قدرتي على إقناع «أصدقائي» في التلفزة بتدبّر إجهاض الفتاة، وإيوائها إن أمكن في مؤسّسة تُعْنَى بالمعوقين عقليّاً، واتخاذ ذلك مدخلاً على العائلة المنكوبة وإلى سبقٍ إعلاميٍّ فريد. بالطبع فكّرت أيضاً بضرورة توثيق شهادة صديقي الشيخ بالصوت والصورة، إلّا أنّني لم أستليق يومذاك مفاتحته بذلك، وللحقيقةِ أيضاً فلقد وجدتُني على نهاية اللقاء أنظر إلى حماستي الأولى بعين العقل فترى هذه العينُ فيها تهوّراً ما بعده تهوّر... كالعادة كان مفرّيَ الوحيدَ أن أرجىء البتّ في ما أترجّح بينه من أفكار إلى حين الوقوف على رأيكِ؛ فثقتي بنفسي بين ناسي وقصّادي من ذوي الحاجاتِ شيء وثقتي بها بين يديكِ شيء آخر.

لم يكن بين قفولهم عائدين إلى القرية التي جاؤوا منها ودخول الظهر سوى دقائق فانتظرتُ دخولها وصلّيت بأهل

Twitter: @ketab_n

المسجد الأربع الركعات، واعتذرت عن عدم مشاركتهم طعام الغداء، ويمّمت شطرَ عندِكِ طلباً للانفراد بنفسي بعض الوقت في انتظار عودتك لمشاورتك. جئتُ أشركك في همٍّ طارىء، فإذا بجواباتك على استفساراتي تبسُط أمام ناظريَّ مشهداً قلّما أتاحت لي وتيرة حياتي المُشَتَّتة بينك وبين المسجد وبين التلفزة أن أنصرف إلى جمع تفاصيله وحذافيره بعضها إلى بعض. كان آخر سؤال سألتنيه: «هل تضمَنُ لشيخك أو للفتاة وأسرتها ألّا يتعرضوا لسوء إن أنتَ حَوّلت مأساتهم إلى مادّة وثائقية؟». والحقُّ أنّني طيلة الساعتين اللتين قضيتهما في انتظارك كاد هذا السؤال أن يكون هاجسيَ الأوحدَ، ولو أنّني تساءلته بصيغة ملطفة نوعاً ما: «كيف السبيل إلى تلفزة ما سمعتُ دون تعريض أصحابه لسوء؟» الآن، أمّا وقد سألتِه جهاراً، فلا معدى بعدُ من الإجابة عليه. لم أستبعد أن تخرجي عليّ بهذا السؤال ولكنْ بين توقُّع أمرٍ والاستعداد له، ولو كلَّ الاستعداد، فرقٌ إنْ تغمّده العقل لا تقوى على إخفائه قسماتُ الوجه أو انفعالاتُ الجوارح. ولكنّ... ولكنَّ أغربَ ما في الأمر أنّنا طوالَ ساعتي الحديث هاتين لم نلحظ مرّة واحدةً أنّني،

Twitter: @ketab_n

لمجرد تقديمي هذا البرنامج، في دائرة الخطر فكيف بي إن أقنعتُ صديقي الشيخَ بإذاعة شهادته أو وظّفتُ مأساة العائلة تلك في الحرب الدائرة بين «الخير» و«الشر»! تَفَطّنتِ إلى ما بي ولربما حدستِ بكل الفِكَر والصور التي توالت عليّ في أثناء حديثنا وبأنّ الإمعان في الاستفسار لن يزيدني سوى غمّ، فانسحبتِ إلى المطبخ داعية إياي إلى موافاتك بعد ثماني دقائق!

كانت تلك إحدى كلماتِ السِّرِّ التي استتبّت بيننا. فإن أنسَ لا أنسَ الخدماتِ الجليلةَ التي أداها إلينا ذلك الفرن السحريّ الذي كنتِ تستودعينه أطباقاً مجلدةً فلا تلبثُ أشعّتُه في غضون دقائق ثمانٍ أن تُلِذّها وتُطيّبها كفعله يومذاك. لم أُطعْكِ بل سارعتُ إلى اللّحاقِ بكِ وأخذتُ لأعتذر عن زجّك في هموم لا ناقة لكِ فيها ولا جمل فصددتني ومِلْتِ بنا إلى أحاديث لا شأن لها بما كُنّا فيه، فأبديتِ مزيد اقتناعك بـ«نظريتي» عن نبوّة المتنبّي التي استحالتْ بترجمتك لها إلى لغتك شيئاً من قبيل أنّها كانت بمثابة الطفولة، بل مرض الطفولة، من سَعْيه المتصل إلى السلطة، والدليلُ على ذلك انصرافُ سعيه، بشهادة

Twitter: @ketab_n

الكثير من شعره، إلى ما هو أخطر من ادعاء النبوة الذي ما كان ليجعل منه سوى واحدٍ بين أنبياء أو مُستنبئين، ـ انصراف سعيه إلى أن يكون خاتم شعراء العربية. «دَعْ جانباً هل أفلح في سَعْيِهِ أم فَشِل، ألَيسَ مدهشاً ذهاب هذه الثقافة بشخص نبيّها وشاعرها إلى تمثّل قصب السبق في الإتيان بالكلمة الفصل، الكلمة التي لا كلمة بعدها، الكلمة التي تَجْمَعُ الكلامَ كلّه وتُنَفِّل وتُسَفِّهُ وتُمَرِّضُ أي كلامٍ يأتي بعدها. هل ترى مثلي ماذا يعني ذلك وماذا تعني كلمةٌ تَحْلُمُ أن تَتَكرَّر هي نفسها إلى ما لا نهايةَ له. ما الفرقُ عندها بين التكرار والصَّمت، أوليس الموت هو التكرار الصامت بامتياز؟ وشهوةُ الكلمةِ الفَصْل ماذا يحولُ في مجال السياسة، سياسة الناس، بينها وبين أن تَتَوَسّل بالقتل؟ هل ما يُسْكِتُ، يكمّ الأفواه، أو يُعطِّلُ الكلام مثل القتل، أو التلويح به؟ يخطُرُ لي أنْ أُعَنْوِنَ ما أكتبه عن نبوة المتنبي «شهوةُ الكلمةِ الفصل» تاركة لام «الفصل» مهملةً بلا تحريك لتحتمل القراءة على الوجهين: على الجرِّ نعتاً لـ«الكلمة» وعلى الرَّفع مبتدأ مؤخّراً(*). ولأن الشيء

(*) للعلم بالشيء والقياس عليه حيث تدعو الحاجة من المفيد الإشارة إلى أنّ

Twitter: @ketab_n

هذين الوجهين الإعرابيين لا يستغرقان كل الاحتمالات ذلك أنّ «الفصل» تقبل كل الحركات دون استثناء: الضم والكسر والفتح.

فـ«الفصل» تقبل الرفع إما على الخبرية وإمّا على الابتداء المؤخر وإما على النعت مع تقدير خبر محذوف للمبتدأ شهوة (شهوةُ الكلمة الفصلُ موجودةٌ).

و«الفصل» تقبل الكسر باعتبارها نعتاً لـ«الكلمة».

و«الفصل» تقبل الفتح بالاعتبارات التالية:

- باعتبارها مفعولاً به للمصدر شهوة مع تقدير خبر (شهوةُ الكلمةِ الفصلَ موجودةٌ).
- باعتبارها مفعولاً به للمصدر شهوة أو نعتاً له مع تقدير فعل من جنس المصدر (أَشتهِ شهوةَ الكلمةِ الفصلَ).
- باعتبارها نعتاً لشهوة مع تقدير فعل للإغراء أو التحذير تصير معه شهوة مفعولاً به (إلزم/أَجتنب شهوةَ الكلمةِ الفصلَ).

(*) «قد يُقطع النعت، عن كونه تابعاً لما قبله في الإعراب، إلى كونه خبراً لمبتدأ محذوف، أو مفعولاً به لفعل محذوف. والغالبُ أن يفعل ذلك بالنعت الذي يُؤتى به لمجرّد المدح، أو الذم، أو الترحم، نحو: "الحمدُ لله العظيمُ، أو العظيمَ". ومنه قوله تعالى: ﴿وامرأتُهُ حمّالةَ الحطب﴾. وتقولُ: "أحسنت إلى فلانٍ المسكينُ، أو المسكينَ".

وقد يُقطع غيره مما لم يُؤت به لذلك، نحو: "مررتُ بخالدٍ النجارُ أو النجارَ".

وتقديرُ الفعل، إن نصبتَ، "أمدح"، فيما أريد به المدحُ و"أذمُّ"، فيما أريد به الذم، و"أرحم"، فيما أُريد به التّرحُّمُ، و"أعني" فيما لم يُرد به مدح ولا ذمٌّ ولا ترحُّمٌ».

الشيخ مصطفى غلاييني، *جامع الدروس العربية*، منشورات المكتبة العصرية، الطبعة ٢٣، ١٩٩٠، ج ٣، ص ٢٢٨.

Twitter: @ketab_n

التي تعلمتِها مؤخراً قبل أن تعودي إلى سيرة المتنبّي وتشكين مما تعانينه في البحث عن تراجم لأبي شجاع فاتك المجنون الذي «لم يَصْدُقِ المتنبّي كما صَدَقَ في مدحه ورثائه»(*). حاولتُ أن أغادر مقعدي لمساعدتك على لملمة سفرتنا لكنّك ألزمتنيه بأن وضعتِ بين يديَّ كتاباً تناولتِه من الرفّ الأعلى من قامتك مقدار شبرين بحركة أبدت لي من رشاقتك شيئاً لم أره فيكِ من ذي قبل وقلتِ: «إقرأ... واختر ما ستطهوه لنا غداً أو بعدَ غد... هل يُرضيكَ أن تستحيلَ هذه الأطباق المجلدةُ كفاف يومنا؟». بالطبع لم أفكَّ حرفاً ولا وعيتُ معنى لكلمة ولكن أخذني حيائي، شريكي فيكِ رغم عشرتنا ومُخاللتنا، من أن تري ما أحسستُ به يطفح على وجهي من رغبتي المُلِحَّةِ فيكِ. ضربتُ كتابَك حِجاباً عليَّ مؤمِّلاً أن أستردّ، متوارياً عن أنظاركِ، أنفاسي. قُلْتِ اقرأ فلم تطالعني في الصفحات التي كُنتُ أقلّب سوى ما اختزنتْ عيناي من صورة نهديك وأنت تتطاولين لتناول الكتاب، يعلوان طرفة

(*) مِمّا فاتنا يومذاك ولم تَلْبثي أن استدركت عليه عجيب الاتفاق في الأسماء بين فاتكِ هذا وفاتك بن أبي الجهل قاتل المتنبّي!

Twitter: @ketab_n

عينٍ ويهبِطان وصورة الردفين يتابعان حركة الصدر فيما الخصر ينكمش. هذا القليل سوّل لي الكثير ولم تكن تلك أوّل مرّةٍ يُسَوِّل لي فيها قليلٌ كثيراً، ولكنني هذه المرّة استحييتُ من حيائي ومن تواريَّ فخلعتُ طاعتك وطويتُ الكتاب على أنفاسي وما تحرّك من شهوتي ورددته إلى موضعه وسبقتُكِ إلى تناولِ الخرقة الرطبة على الدوام، المعلقة بجانب الحوض الذي كنتِ تقفين بإزائه تعالجين الأطباق استعداداً لإيداعها الغسال الكهربائي وانكببتُ على الطاولة أُمعن فيها فركاً. تركتِ ما كنتِ فيه واستدرتِ نحوي واضعةً يديك الاثنتين، كلّاً منهما على أحد كتفي وتمتمتِ: «مكانَك، الأعمال بالنيات! حسبُك أن قد نويت». لم تزيدي على ذلك ولكنَّ ما سرى في أوصالي من الارتعاش كان لا نسبةَ بينه وبين ما أتيته، بل أكاد أن أقول فاق تصوّري. ثُمّ إنّني كنتُ في ما يُشبه الحيرة في ما أنا قيده من رَغبةٍ فيك: أرغبُ فيكِ عاشقةً مُنقطِعة النَّظير (ألا تستحقُّ أن تُوصفَ بانقطاع النظيرِ امرأةٌ أخرجت رجلاً من غباء ذكورته وغيبوبتها فأنّسته؟) مقدار ما أرغب فيك امرأةً نسيجَ وَحْدِها من ذُلِّ التعلُّمِ ومن عزَّةِ المعرفة وشجاعتها،

Twitter: @ketab_n

مقدار ما أرغبُ فيك تقودين سيّارتك بانضباط، أو تؤلفين طعامنا ألواناً لا تخلو، حتى عندما تَسْتَسْهلين فلا تَسْتَلْهمين كتبك، من أثرٍ منك، يشي برهافة ذوقك.

لأنّني، مع شبقي العارم والراشح بلغتنا، أهلَ الفقهِ، مَذْياً(*)، كنتُ في حيرة من رغبتي فيك، لا في ما يشبه الحيرة على ما تقدّم من قولي، ـ لأنّه كان كذلك رأيتُ أن أطوقكِ بذراعيَّ وأن أسير بك إلى مَخدعك، مخدعنا، وأن يَخْتَصِرَ شبقي شهوتي. ما كنتُ أحسبُني أعيش إلى يومٍ أميّز فيه بين شبقي وشهوتي، بيد أنّه ما كان ذلك اليومَ حيث تلذّذتُ بممانعة نفسي فلم ألقِ لها الحبل على الغارب، بل غدرتُ بك إذ نهضتُ دفعةً واحدة وقطعتُ بأربع أو خمس خطواتٍ متقاربة المسافة ما بين الطاولة والحوض الذي

(*) «المذي: بفتح الميم، وسكون الذال، المعجمة، وهذه هي اللغة الفُصحى فيه، وهو: ماء أصفر رقيقٌ في الغالب، يخرج من الرجل والمرأة الكبيرين، عند ثوران الشهوة، من دون دَفْقٍ، وربّما لا يُحِسُّ الشخصُ بخروجه منه، وهو أغلب في النساء منه في الرجال، خصوصاً عند هيجان شهوتهنّ.

والمذي نجسٌ بلا خلاف، فيجب غسله عن الثوب والبدن، وهو ناقض للوضوء، ولا يوجب الغسل بالإجماع».

الشيخ محمد أحمد كنعان، أصول المعاشرة الزوجية، ص ٨٩، سبق ذكره.

Twitter: @ketab_n

تغسلين فيه الأطباق والأواني قبل إيداعها الغسّال الآلي. وعندما تَثَبَّتُّ من مكاني بحياله أخذتُ أشمّرُ بصعوبة أكمام سترتي والقميص الذي تحتها. لم أقصدِ الهزل، غير أنّ ما أخذتُ فيه أوحى إليك بضحكة مجلجلة أتبعتها بـ «اعذرني... ولكن... حبّذا لو استحق شطف هذه الصحون ما ألزمت نفسك به من أمرٍ ليس يلزمها... في أي حالٍ... نزولاً عند إصرارك لن أردّك خائباً». وتناولتِ من وراء باب المطبخ إزاراً عازلاً للماء لم تدع لي رسوم المطرزاتِ التي تزينه أن أشكَّ بأية عنايةٍ كان اختيارك إيّاه، ومددتِه إليَّ مُسْبَلاً بيديك الاثنتين كأن لتريني على أي نحو يُتَّزر به، وترفعي عنّي مؤونة حماقةٍ أنا في غنىً عنها. أحنيتُ رأسي إحناءة طفيفة لأمرّره في شبه الدائرة التي يرسم أحد نصفيها خيطٌ دقيقٌ يصل بين كتفي الإزار والنصف الآخر تجويفٌ ينحدر من أحد الكتفين مُصَعّداً شطر الآخر ـ أحنيتُ رأسي لأفعل فاعترضتني مقترحة عليَّ أن أتخفّف من سترتي التي بالكاد طاوعني قماشها السميكُ أن أُشَمِّرَ كمّيها. لم أملك سوى الانصياع من فرط ما بدا لي مُسْخِراً ما كُنْتُ عليه من الإبقاء على سترتي.

Twitter: @ketab_n

هكذا أيضاً، ولو أنّ يومنا هذا كان ما قبل الأخير، انتسج ما بيننا وتوثّق: لا وعوداً كباراً قطعنا ولا أيماناً غلاظاً حلفنا. أقول هكذا ويعبر في خاطري سربٌ من مثل هذا الذي قصصتُ، ولا أرى لي مفراً من التساؤل بسذاجة هي عندي الصّدق بعينه: هل كان لما بيننا أن يتفتّح لولا هذه الوقائع الصغيرة الصغيرة، التي لا شاهد عليها إلّا كتبُ مكتبتك وأواني مطبخك وجدران مَخْدعك؟ وهل كان ما تدانيناه وتعانقناه وتشافهناه وتكاتفناه وتلاصقناه وتهدهدناه وصعّدناه من أنفاس ليُقْسَمَ لنا لو اقتصر ما بيننا على القراءة في ديوان أحمدك، وعلى التذاكر في أحوال أمّة تُثابر على أن يَصِحَّ وصفُه إيّاها بَمْضَحَكة الأمم. وأجيب بلا تردد: ليس ما بيننا فقط ما كان ليُقسَمَ لنا لولا هذه الوقائع الصغيرة الصغيرة، ولكن أنا نفسي ما كنتُ اليوم من أنا.

فمهما كابرتُ ومهما تواضعتُ ومهما تأبّى قولي على التصديق أو سوّل لسامعه أن يحمله على المجاز لا يسعني ألّا أُسَلِّم أن تلمذتيَ الثانية (والأخيرة؟) كانت على يديك. وأبعدُ شيء عنّي ألّا أعُدَّ في عداد ما اكتسبته منكِ ومن

Twitter: @ketab_n

عِشْرَتك إلّا الأفكار وسواها من المجرّدات. فكيف أُسقط من الحُسبان أنّكِ مَنْ أهداني أوّل نظاراتٍ شمسية وضعتُها في حياتي ومن جَدَّد قيافتي ومن أرشدني إلى تشغيل هذا أو ذاك من الأثاث الكهربائي؟!

•

على الختام من سيرتي هذه التي أُسابق الساعات لاستكمالها، لا أطلب لي جزاءً عدا أن تُصَدّقيها، بل أن تَنزلي عن روايتك لما كان بيننا وتأخذي بروايتي وأن يستوقفَكِ منها ما استوقفني وتُهملي ما أهملت. لكِ أن تستكبري عبوري بهذه الخفّة من ضِفّة إلى أخرى وأن يُظْهِرَك تسلسلُ أفكاري على ما أضطربُ فيه ويضطربُ فيّ. فكيف من حديث غسّال الصحون الآلي أجيء إلى مطالبتك بأن تُصَدِّقي روايتي عن قصتنا: كيف من لا شيء أجدني بين يدي الأمرِ كلّه... لا تُتعبي نفسك في استطلاع كيف ذلك. هو كذلك وكذلك هو، ولعل الغاية القصوى مما أطمح إليه وأطمع به أن أنفخ معنىً في هذا الإذعان لما كان بيننا ـ معنىً سوى التحسر على فواته.

لا ترفاً أَنشدُ ذلك ولا تسلية لي في انتظار ما هو مُقْبِلٌ

Twitter: @ketab_n

أن يؤول إليه أمري: أنشده للضرورة... أمّا من أين أستمدُّ بعدُ هذه القوّة على النُّشدان فمن الكتابةِ (إليكِ)، لا من أي رجاء أو أمل. فصدّقي أو لا تصدّقي، بين هذه الأنقاض التي أفيء إليها، أنقاضِ حياتي، تنبتُ على مرّ الكتابة أعشاب برّية تُغيّر، على ضآلتها، معالمَ بيت الأنقاض هذا، غرفة الدّم هذه. والكتابة (إليكِ)، لا أيُّ رجاء أو أمل، هي ما يزيّن لي أن أرى أحياناً إلى مكاني هنا، في هذه المحميّة المنقطعةِ لُطفاً بي يُضاعِفُ نصيبي من الحياة الدنيا فلا أُحرَمُ من بعدِ أن عشتُها في طرفةِ عينِ ودون أن يتاح لي التمعّن فيها، أن أعيشها القهقرى، فأتباطأ حيث يحلو لي التباطؤ وأتريّثَ حيث يحلو لي التريّثُ، وأمرَّ مرور الكرام على ما يسوؤني ولو أنّني، في واقع الحال، لا أُفلح إلّا قليلاً في تجنّب هذه الساعات المريرة التي عبثاً ما أحاول صمَّ آذاني عن ندائها إيّايَ إلى إيفائها حقّها من السرد والرواية.

•

استفضتُ في الصفحات السابقة فوق ما توقّعت، وتماهَلْتُ كما لا يليقُ برجل في عجلةٍ من أمْره. كذلك لا

Twitter: @ketab_n

بُدَّ من التذكير أنّ الواقعتين اللتين استأثرتا بالصفحاتِ السابقة، زيارة صديقي الشيخ صُحبةَ العائلة المنكوبة ولواذي بكِ، جاءتا عَقِبَ «اللقاء الحواري» في الجامعة الذي قلبتُ «لهم» بمناسبته ظهر المجنّ قلبةً علنية بائنة لا رجعة عنها. رغم اشتدادِ السجال، أعترفُ بأنّني لم أحسبه قاب قوسين من نهايته. في الأيّام التي تلت، وعلى الرُّغم من هواجسي التي جلاها تباسطنا فيها، لم أحِدْ عن الخطّةِ التي رَسَمْت. فجنّدتُ أصدقائي في التلفزة، بعد الاستحصال على موافقة الأبواب العليا، لتدبّر استقبال الفتاة في أحد المستشفيات بغية إجهاضها ومن ثم إيوائها في مؤسسة تعنى بالمعوقين، وجنّدتُ ثقتي المكتسبة بنفسي لحواراتٍ هاتفية طويلة مع شقيقتها التي عَرفتُ أنّها مُمَرِّضة، وأنّها لا تقضي كل وقتها في القرية بل في المدينة الأقرب إليها و.. و.. و... وأنّها مستعدّة لأن تدليَ بشهادة مُفَصّلة تُخَبّرُ فيها محنة قريتها ومحنة شقيقتها.

مكافأةً لي على إبلاءاتي هذه أذنتُ لنفسي الخميس، ليلةَ الجمعة التالي، أن أتناول طعام العشاء في ضيافَتِكِ لا أن أكتفيَ، كما جرى عليه عرفنا، بمرور عابر.

Twitter: @ketab_n

هكذا كان، وعدتُ إلى مسجدي قرابةَ منتصفِ الليل ونمتُ مطمئناً ومطمئناً أيضاً استيقظتُ فجر الجمُعة وانصرفتُ بعدَ الصلاة إلى إعداد خطبة اليوم. وابتداء من الثامنة زارني مَنْ زارني من أهل الحيّ وسارَ كلُّ شيء على ما يُرام إلى أن كان تمام الحادية عشرة والنصف، أي قبل نحو الساعة من الموعد الذي يبدأ فيه المصلون بالتقاطر، حيث دوّى غيرَ بعيد من المَسجدِ دويٌّ سرعانَ ما تبيّن أنّ مصدره عبوة متفجرة حِرَفيّةِ الصُّنع أودِعَتْ أحَدَ براميل القُمامة التي تستقبلُ الداخِلَ إلى الحيِّ من جهة المسجد (فالمَسجد جهةٌ يُسْتَدَلُّ بها لا بيتٌ من بيوت الله فقط). صِغَرُ العبوة وضآلة الانفجار وعدم تسببها بأية أضرار بشرية، وبأضرار مادية لا تذكر، لم يحل دون تحوّل الحيّ في خلال دقائق إلى ساحة حرب بكل معنى الكلمة. فبسرعةِ البرقِ التي نقلتِ الخبرَ إلى كلِّ أرجاء الحيِّ وما وراءه، بشهادة المكالماتِ الهاتفية التي بدأتُ أتلقّاها، بالسرعة نفسِها التحق العشراتُ من رجال الأمنِ بزملائهم الذين كانوا قد وصلوا، ككل جمُعة، عندَ الصباح الباكر.

أنَّ العبوة كانت شيئاً لا يُذكر ولا يُقصدُ منه القتل أو

Twitter: @ketab_n

التدمير، كما قال لي خبير المتفجرات الذي عاين المكان، وأنّها فعلاً لم توقع قتلى، ولا هدمت أبنيةً، لم يُغيّر من واقع الأمر شيئاً، وواقعُ الأمر كما طالعته في صحف اليوم التالي أنّه «تمام الحادية عشرة والنصف من صباح يوم أمس، وَقَعَ على مبعدة مائة متر من مسجد العمرين انفجارٌ في برميل قمامة لم يتسبب لحسن الحظ بأية إصاباتٍ في الأرواح أو أضرار في الممتلكات» وأنّه «على أثر ذلك قامت قوات الأمن بتطويق المكان بحثاً عن عبواتٍ أخرى أمكن الأشرار أن يكونوا قد زرعوها». لم يجدوا عبواتٍ ولكن الانفجار على تواضعه، عطّل صلاة الجمُعة وكان ذلك على ما يبدو قُصارى ما رمى إليه الآمرون به.

•

حَدْسِي هذا الذي شاطَرَني إيّاه زائِرو آخر الليل، حلفائي بحكم الضرورة، تأكد صباح اليوم التالي حين وَصَلَتْ إلى من يعنيهمُ الأمرُ، وفي عدادهم أنا وبعض وجهاء الحي ووسائل الإعلام، رسالةٌ تقع في اثنتي عشرة صفحة تحت عنوان «الصّيحة الأخيرة في تحذير الشيخ مرتكب الكبيرة» (حرفياً).

Twitter: @ketab_n

لم تتضمنِ الرسالة إعلاناً صريحاً عن مسؤولية انفجار اليوم السابق، غير أنّ هذا الترادف بين الانفجار والرسالة لم يدع مجالاً للشك في أنَّ أصحاب التوقيع على هذه هم من أغفل التوقيع على ذلك. بِزَهْوٍ قرأتُ الرسالة الموجهة «إلى هؤلاء المضللين الذين لا يزالون ينظرون إلى هذا الرجل ـ بَلْعام عصره ـ على أنّه من علماء الأمة الحريصين على نُصرة الدين! إلى هؤلاء الذين فتنهم منطق الرجل، إلى هؤلاء الذين لا يزالون يشُدّون الرحال ليستمعوا للرجل ظناً منهم أن يجدوا عنده ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، إلى كلٍّ من يجهل الرجل... ولا يعرفه»(*). وإذ قد يبدو شعوري بالزّهو في غير مَحَلِّه فالأرجحُ عندي أنَّ أجبنَ الجُبناء كان ليشعر بمثله وهو يتبيّن أنّ كلماته قد أُحصيت عليه واحدةً واحدةً، وأنّه قد شَغَلَ ناساً وملأ دنيا، ولو أنَّ هؤلاء الناس يتربصونَ به شراً. فبعد مقدمة وجيزة عن النفاقِ والمنافقين وأنّهم من أوّل الدعوة الإسلامية إلى يومنا هذا لا يفتؤون يتآمرون على هذه

(*) استشهاد صادق.

Twitter: @ketab_n

الأمة «فماذا يُنتظَرُ من دَعيٍّ مُتَطَفِّل على العلم الشرعي، يجمع إلى النفاق العمالة للسلطة وأجهزتها»، ينتقل واضعو الرسالة إلى تأييد اتهامهم هذا بالأدلة فيذكرون بأنّ تعييني إماماً لمسجد العُمرين جاء «في ظروف مشبوهة» وبأنّني «منذ انطلاقة هذه الحركة المباركة» وقفتُ منها «موقف العداء السافر». ويذكرون أيضاً بأنّني، مثلاً، رفضتُ خلال رمضان الماضي أن يُعْتَكَفَ في المسجد وأن تُحيا فيه سهرات تعبّدية(*)... يسوقون هذه الوقائع الأدلّةَ توصّلاً إلى الاستنتاج بأنّ اختياري لـ«بثّ السموم على أثير محطّة تلفزة لا يخفى ارتباطها بدوائر الاستعمار الذي لم يَكُفَّ يُحاول أن يلتقط أنفاسه» إلخ... بأنّ اختياري لهذه

(*) وهو صحيح بمعنى، حيث إنّني كُنتُ أوْلى الناس بالعمل بما اقترحته، تبكيراً في إغلاق المساجد للحيلولة دون انتهاز الشهر الفضيل مناسبة لاحتلال المزيد منها، ولو احتلالاً مؤقتاً، ـ وكان ما اقترحته وأُخذ به، إحياءً سنة رسول الله التخفيف على المؤمنين بقصر صلاة التراويح، في المساجد، والتراويح عشرون ركعةً، بقصرها على ثماني ركعات على أن يتم المؤمنون الركعات الإثنتي عشرة الباقية في بيوتهم، أما زعمُهم أنّني استعنت برجال الشرطةِ في سبيل ذلك فـ«دسّ رخيص» كما يقال. كل ما في الأمر أنّ تدابير أمنية لا شأن لي بها كانت تُدَبَّرُ حول المساجد، ومنها مسجد العمرين، خلال هذا الشهر.

Twitter: @ketab_n

المهمة، «للأمر بالمنكر والنهي عن المعروف»، أمرٌ طبيعي «أمّا ما ليس طبيعيّاً على الإطلاق فأن يُترك هذا الكلب العاوي ينبح قافلةَ الإسلام المحمدي الأصيل ولو أنّ القافلةَ تغذُّ سيرها الحثيثَ في عين الله على الصِّراط المستقيم غير آبهة بهذا الموتور وأمثاله» علماً أنّه «لو أردنا أن نقف عند كل كلمة من كلمات الرجل ونعلِّقَ عليها لطال بنا المقام واتسع الرد ليبلغ مصنفاً كاملاً... ولكن الأوقات لا تتسع لهذا... كما أنّ هذا المتملِّق الساقط في أحضان الطواغيت لا يستحق منا كل ذلك... فأوقاتنا أغلى منه ومن أسياده وطواغيته... ولولا ضرورة تحذير الأمة من ضلال وكفر هذا الهالك الذي عمّت فتنته وراجت على كثير من العباد لما عنيناه أصلاً بالذكر والرد»(*).

يلي ذلك، ولَعَلَّهُ مما ورد في الرسالة أشدّ ما زهاني، إحصاءٌ لما مرّ في حلقات البرنامج مما «يُسَمّيه هذا الجاهل الدّعيّ (أنا!) الذي نصّب نفسه محتسباً على الفُتْيا

(*) استشهاد صادق.

Twitter: @ketab_n

آراء فقهية». وبعد كل رأي أدليتُ به ردٌّ عليه يريده أصحابه مُسكتاً مفحماً مبيناً على جهلي! لا حاجة بي أن أفسر لم زَهَتْني هذه الصفحات دون سائر الرسالة: «هُم» على الأقلّ شاهدوا حلقات البرنامج من الألف إلى الياء وفوق ذلك شاهدوها على مضض بل مُكرهين!

في أعقاب هذا القَدْر من الجهد البلاغي ومن الكدح بالآية القرآنية والحديث النبوي والحجة الفقهية للطعن في آرائي أقلُّ ما يتوقعه المرءُ أن يُبنى على كل هذا مقتضاه وهو فعلاً ما تنتهي إليه الرسالة: «كما ذكرنا من قبلُ لو أردنا أن نقف عند كل كلمة من كلمات هذا الرجل الآنفة الذكر... ونناقشها من الناحية الشرعية أو العقلية، أو من جهة مدى صدقها ومطابقتها للواقع... لطال بنا المقام، ولاستغرق ذلك منّا مُصَنّفاً كاملاً... لذا سنكتفي في تعقيبنا عليها وعلى صاحبها بالتالي:

ما تقدّم من كلام الرجل يدخل في الموالاة الصريحة والكبرى للكفر وملّة الطاغوت الحاكم ونظامه والذي لا يختلف على كفره وطغيانه اثنان عرفا دين الله تعالى.

Twitter: @ketab_n

وعليه يُحمل قوله تعالى في عالم بني إسرائيل بلعام الذي انسلخ من آيات الله ومن دينه بعد أن كان أعلم قومه بسبب دعاء دعا به للكفار من بني قومه على المؤمنين الموحدين: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾، الأعراف: ١٧٤/١٧٥.

ما تقدم من كُفْر بواح على لسان الرجل... لا يمكن لأرباب التأويل ـ بل والتحريف ـ مهما أوتوا من قوة أو قدرة على التحريف أو التأويل أن يؤوِّلوه إلى ما دون الكفر، أو إلى وصف يُخْرجه عن وصف الكفر البواح... إلّا إذا خرجوا في تأويلاتهم وتحريفاتهم عن حدود المفاهيم الشرعية، والدلالات اللغوية المعتبرة...!!

لا يمكن أن يُعذر الرجل ـ فيما أظهر ويظهر منه من كفر بواح ـ بأي مانع من موانع التكفير؛ كالعذر بالجهل، أو التأويل، أو الإكراه، أو غيرها من موانع التكفير المعتبرة...!!

ومهما تكلف له المتكلفون وحاولوا أن يجدوا له عذراً إلّا ووجدوا مقابل ذلك المواقف والعبارات الصريحة بالكفر

Twitter: @ketab_n

التي تردّ عليهم تكلُّفهم وتأويلاتهم التي أرادوا منها إعذار الرجل، وإقالة عثراته...!!

وبالتالي لا موضع هنا مطلقاً لمقولة "ضرورة قيام الحجة قبل تكفير المعين!" إذ إنَّ لهذه المقولة موضعها الصحيح عندما يُحمل الكفر على معين وقع في الكفر لمانع شرعي معتبر شرعاً...

من خلال جميع ما تقدم ذكره فإنّه لا بد لنا شرعاً من أن نحكم على الرجل بأنّه كافر مرتدّ بعينه... تُجرى عليه جميع أحكام الردّة وتبعاتها في الدنيا والآخرة... إلى أن يُظْهِر للأمة براءته من الطاغوت وجنده، ومن كل ما تلبَّسَ به من كُفر بواح ثَبَتَ عليه بالبيّنة القاطعة!

ولا يمنع من ذلك كون الرجل دكتوراً في الشريعة(*)... أو اتساع صيته واسمه... أو كان له جهود نافعة في أول

(*) لست أدري من أين جاؤوني بالدكترة علماً بأنني أضحكني على الدوام حرص بعض الزملاء، بمن فيهم الساعي منهم إلى نيل شهادة الدكتوراه ليس إلّا، ـ حرصهم على أن يسبق اسم الواحد منهم، حتى قبل نيله الشهادة المذكورة، لقب «الشيخ/الدكتور»(!) كأنّما لقب المشيخة وحده لا يُثْبِتُ لصاحبه علماً جديراً بالاحترام!

Twitter: @ketab_n

مراحل الطلب والالتزام... فكل هذا لا يتشفع له عند مورد الكفر البواح المغلظ... ولأنّ العبرة بالخواتيم، وبما يُختم به على المرء، كما قال صلى الله عليه وسلم: "فوالذي نفسي بيده إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع، فيسبِقَ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"، متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تعجبوا بعمل أحد حتى تنظروا بما يختِم له، فإنّ العامل يعمل زماناً من دهره أو بُرهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة، ثمَّ يتحولُّ فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل زماناً من دهره بعمل سيىء لو مات عليه دخل النار، ثمَّ يتحوّل فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً استعمله قبل موته فوفَّقه لعمل صالح، ثم يقبضه عليه". نسأل الله تعالى الثواب وحسن الختام»(*).

(*) استشهاد صادق، بتضرف.

Twitter: @ketab_n

بخلاف ما لَعَلَّهم توقعوا لم يُلْقِ تخييري بين التوبة العلنيّة أو حُكم الله الرُّعب في نفسي أو لربما زاحم الرُّعب ونفاه عنّي ما أخذني من عزَّة لا تُضام لا سيّما أنّ كلا الخيارين كانا سيّين في الموت ولو أنّ أحلاهما دمويٌّ والآخر لا.

لم يكن أمامي إذاً سوى ثالثِ هذين الخيارين: أن أردّ التحيّة بأحسن منها. وكان الردُّ الأسرع يقتضي أن أستعجل استقبال الفتاة في المستشفى فيتاحَ لي أن أُسجل شهادة شقيقتها وهو الترتيب الذي كنتُ، أنا وهذه الأخيرة، قد توافقنا عليه. جرتِ الرياح بما اشتهيتُ وأدهشتني الشقيقةُ بشجاعتها وتماسكها وحُسن منطقها ممّا أعفانا من التدخل إلّا لماماً لتوصيل أوصالِ شهادتها. ولأنّ خياري كان أن أردَّ التحيّة بأحسن منها لا بمثلها فقط فلقد واعدتُ صديقيَ الشيخ المخلوع بزيارته في قريته الأحَدَ التالي (من غير الإفصاح له بالطبع أنّ غايتي من ذلك إقناعه بائتماني على شهادته ـ استدراجه إلى ذلك إن شئتِ!). مقول القول أنّني لم يُراودني أدنى شكٍّ في أنّها النهايةُ تقترب ـ نهاية هذه الحياة!

Twitter: @ketab_n

اليوم، إذ أسترجع هذه الساعاتِ الأخيرة دقيقةً دقيقةً وبالتفصيل المملّ، يستوقفني أنّني ذلك الخميس، على غير ما اعتدتُ، وتعوّد بالي عليه، لم يشغَلني قطُّ ولا شَغِلَه أنَّ غداً الجُمُعة وأنّ هذه الجمعة لن تُشبه كلَّ اللواتي سبقنها بسبب ما كان لأسبوعٍ خلا.

خفيفاً قصدتُ عندك قبل نحو ساعة من موعد بث البرنامج لنشاهده معاً. شاهدناه معاً، وشَهِدَتْ علينا كتبُ مكتبتك ما تحاببناه على الأريكة المواجهة للتلفاز، وجدرانُ مطبخك وأوانيه عشاءَنا الأخيرَ، وبُعيد منتصف الليل بقليل غادرتُك قاصداً مسجدي. إلى مسجدي تلك الليلة لم أصلْ ويقيني أنّني لن أعود...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

آخِـرَة ولا الآخِـرَة... وبعـدُ، فـإلى ذلـك انـتـهـيـتُ، - انتهيتُ من استطراداتي، ولو أنَّ الوقت اتّسع أكثر فلعلي كُنْتُ أزجيته في انتظار أن يمضيَ كلّه بوصف ما كان من أمري في أثناء ذينكِ الأسبوعين اللذين قضيتُهما بعيداً عنك وعن مسجدي، «مجهولَ المصير» في ضيافة الأمنيين الذين ارتأوا أن يُشْرِبوا «الجمهور» نجوميتي حتى الثمالة، فنسجوا في الحقيقة وفي الإعلام روايةً مُحْكَمة عن خطفي على أيدي مجموعة من «الأشرار»، فصلها الثاني والأخير نجاح قوى الخير بشخص قوى الأمن في تحريري من قبضتهم.

كما سبق وقلتُ، لحسن الحظّ أنَّ الوقت لم يتسع وأنّني أُعفيتُ مؤونة العودة إلى وقائع أيامٍ وليالٍ تتنازعني في شأنها مشاعرُ شتّى لم أفلح حتى الآن في المصالحة بينها. فمن نحوِ ما أريد كل الإرادة أن أُصَدّق أنّ الفرار بي تلك

Twitter: @ketab_n

الليلة إذ كنتُ عائداً إلى المسجد في ما يشبه «عملية اختطاف» كان حقّاً «تدبيراً وقائياً مبنياً على معلوماتٍ مؤكّدة» تُفيد أنَّ مريدي الأمير الفلاني كانوا على وشك اختطافي، ومن نحو آخر، وعلى أنَّ احتمال اختطافي أو حتّى اغتيالي لم يكن بالمستبعد على الإطلاق، فإنّ إنقاذي على هذه الصورة المريبة، ثمَّ الزعمَ بأنّني خُطِفتُ وأنَّ عمليةً أمنية «مركبة»(!) أثمرت فكَّ أسري، كلُّ هذا كان يشعرني بالقلق والمضض وقلة الثقة بمن حولي وقلّة الرضا على نفسي. ضيفي إلى ما تقدّم بأنّ هذين الأسبوعين اللذين قضيتهما في مجمّع عسكريّ يأخذ، في آن معاً، من صرامة الثُّكنة ومن رفاه نوادي الضباط، كانا مناسبة أوّلِ أوّلِ اتصالٍ وثيقٍ ومطرد برجالِ ما يُسمّى أجهزة الأمن، علماً أنَّ الشائعات، لا سيّما مع عملي في التلفزة، لم تَنِ تهمِسُ وتجهرُ، بحسب مروّجيها والسائرين بها، بأنّني صنيع الأجهزة وأجيرُها! فيما الحقيقة التي لن يُصدِّقها أحَدٌ سواء من كيّالي التهم جزافاً أو من عامّة الآخرين، أنّني لَستُ صنيع الأجهزة بل صنيع الصُّدفِ ولقائي بكِ - هذا إن لم يكن بُدٌّ من أن أُنسب إلى صانع. والحقيقة الأخرى أنّني، على بيّنةٍ

Twitter: @ketab_n

من أنَّ ما ناديتُ به من آراء كان ظهيراً لفريقٍ وحرباً على فريقٍ، لم أنطِقْ إلّا عن نفسي وذاتها وضيق ذَرْعها.

خيرٌ لي بالطَّبع ألّا أُحَمِّلَ نفسي مزيداً من الأوزار وألّا أُحرِّق مراكبي جميعاً وأن آخذ في اعترافات «وجدانية» من قبيل أنّني الآن فقط، إذ أرى إلى الأمور من بُعْدٍ، أدرك بأنّني اصْطَفَيْتُ قتلةً على قتلةٍ، ولا بأس أن أُسَمّع بين الحين والآخر أنّني غُرِّرَ بي أو انسقتُ إلى ما كنتُ آخذاً فيه انسياقاً لم يكن من سبيل إلى العودة عنه، إلى ما هناك من أعذار قد تكون مُحِلّة. لأيّ شيء تريننى أفعل أو أندمُ أنّني لم أفعل؟ لتطمئِنّ نفسي؟ لا تقلقي عليَّ يا سيدتي: نفسي لا مُطْمَئِنٌّ لها... أم تحسبينني أفعل لأنقذ ما يُمكن إنقاذه لعلَّ الأحوال أن تتبدّلَ وعسى؟ حتى في أسوأ اللحظات التي مرت بي وحيداً كئيباً بين الأربعة الجدران في تلك المحميّة لم أحلُم بأن يُؤْذِنَ خروجي باستئنافِ حياتي السابقة. حُلمي الطفوليُّ المتكرّرُ الوحيدُ كان أن يُسْرى بي بسحر ساحرٍ بعيداً من هذه البلاد التي لا يتمنّاها المرء لعدوّيه، إسراءً لا رجعةَ منه. أقولُ بسحر ساحر لانقطاعِ رجائي من أن تتوفّر لهذا الحلم أدنى

Twitter: @ketab_n

أسباب التحقق... وكان ذلك قلّة ثقةٍ بك وبعنادِكِ لا أملك الآن ولن أملكَ قطّ سوى أن أعتذرَ عنها.

•

ذلك اليوم، ككل يوم، إذ أخذتِ الشمس تميلُ إلى الغروب سَلَّمتُ مضطراً بأنّ الجديد الذي يُفترَضُ بقريني أن يحمِلَه إليَّ قد تأجّل في أحسن الأحوال إلى الغد، وقبلَ أن يهمَّ الليل بالهبوط أويتُ إلى فراشي مؤمّلاً بنوم سريع يرفع عني مَشَقَّةَ مشاهدته يهبطُ وينوء عليَّ ويُحَكّم فيَّ شياطينه. أظنني غفوتُ دون طويل تقلُّبٍ في فراشي واستغرقتُ في نوم عميقٍ بدليلِ أنّ عامِلَ الهاتف الذي لا معرفة شخصية بيني وبينه اعتذرَ بحرارة عن إلحاحه على إيقاظي (وهو إلحاح لم أسمع منه في الحقيقة سوى الرنّات الأخيرة) قبل أنْ أبلغني أنَّ النَّقيبَ الفُلانيّ يَوَدُّ مُحادثتي. بتهذيب عرَّفَ بنفسه تعريفاً موجزاً لم يزدني به وبمحلّه من الإعراب علماً، ثم قال لي إنّه مكلّف مرافقتي إلى اجتماعٍ «في الخارج»، وطلب مني أن أشعرَهُ بجهوزي فور ذلك.

منذ أشهر لم تَطَأْ قدماي «الخارج» غيرَ أنّ فكرة ملاقاة «الخارج» من جديدٍ ليست ما استأثر بي بل

Twitter: @ketab_n

ما وراء ذلك. كأيّ أحدٍ في مثل حالي كنتُ في عجلةٍ من الوقوف على ما ينتظرني، ـ في تهيّب من ذلك وقلق. لحسن الحظّ أنّه لم يكن من سبيل إلى المماطلة أو التأجيل. بسرعة أصلحتُ قيافتي قدر الإمكان وسارعتُ إلى إبلاغِ مُحَدّثي الغُفْل بجهوزي، وما هي إلّا أن جاءني رجعُ الصّدى وبأنّ بوسعي فتح الباب من الداخل (باعتباره لا يُفتح من الداخل فقط). كنتُ أعرفُ أن لا فائدة تُرجى من سؤال كبيرِ مرافقيَّ عن الوُجهة التي نقصِد فاكتفيتُ بأن ألقيتُ عليه تحية المساء ولَزِمْتُ الصَّمت طوال رحلتنا التي دامت نحواً من ساعةٍ ونصف الساعة، والتي قادتنا إلى حيٍّ سكنيٍّ راقٍ غير بعيد من مبنى محطة التلفزة. لوثةُ الأمن التي لحقَ بي رغماً عني شيء منها صوَّرت لي أنّنا بجولاتنا في شوارع هذا الحي إنّما نُمَوِّه وجهتنا الحقيقية، مبنى التلفزة، على مُطاردين قد يكونونَ في إثرنا. خاب ظنّي بملكاتيَ الأمنيّة! فموكبنا الذي لا أعرفُ أين ومتى تألف ـ أي أين ومتى التحقت بالسيّارة التي كنتُ ومرافقي على متنها سيّارتان أُخريان، ـ موكبنا لم يلبث أن توقّف أمام مبنى أسلمني مرافقي عند مدخله إلى من قَدّرتُ أنّه

Twitter: @ketab_n

زميلٌ له. هنا أيضاً خذلتني ملكاتي الأمنيةُ فقلت لي لا بُدّ أنّ هذا المبنى الراقي في هذا الحي الراقي يؤوي للتمويه إدارة ما تعمل لخطورة المهام المولجة بها ليل نهار، وتحت هذا الغطاء من السريّة المرفهة. فعندما فُتِحَ باب الشقة المعلقة في الطبقة الأخيرة، الحادية عشرة، لم يُطالعني ما يوحي بأنّني على حقٍّ في تخميني، فالذي فتح لي الباب كان خادماً أشبه بنادل محترف منه بخفير، ثم إنّ الرواق الذي انتظرتُ فيه ثوانيَ معدودةً كان ينبىء، على قلّة أثاثه، بفخامة خَفِرة ومترفعةٍ لا تُشبه في شيء الفخامة المبتذلة التي رأيتها في ما زرته من مكاتب المُجَمّع العسكري، حيث قضيت الأسبوعين التاليين على خطفيَ المزعوم.

قبل أن أجزِم أنّني في بيت وأبدأ التفكّر بيتَ مَنْ يكون هفَّ ربّه لاستقبالي بأحضانٍ أنِستُ فيها الصِّدقَ والحرارة. وقبل أن أفوه، جواباً على عبارات ترحيبه، إلّا ببضع كلماتٍ متلعثمة غير مفهومة، بادأني، إذ تأبّط ذراعي وسار بي إلى بهو البيت، بالمفيد: «أعرفُ أنّك لم تتوقّع أن يؤتى بكَ إلى هنا... ولكنها يا صديقي ليست المفاجأة الوحيدة التي

Twitter: @ketab_n

تنتظرك فتماسك». حسناً فعل بأن نبّهني على ذلك إذ أقلُّ ما يقال في المفاجآتِ التي تَتالت عليّ تلك العشية أنّها تستحقُّ هذا الاسمَ بجدارة وكلّ الاستحقاق.

على الشرفةِ التي يُفضي إليها البهو الكبير لاحَ لي شخصا رجلين ليس في ملبَس هذا أو ذاك منهما ما يشي بانضوائه إلى أحد السلكين الديني أو العسكري، فلم أحاول أن أتحرّز من يكونان. وحتّى عندما اقتربنا من الشّرفة وتناهى وقعُ أقدامنا إلى مَسْمَع الرجلين الجالسين مستقبلين المدينةَ البعيدة القريبة الملقاة في العَتَمَة وبدا عليهما أنّهما يتهيّآن للوقوف، لم أميّز مَنْ هذا أو ذاك منهما. أُعفيكِ من وصف ما أخذني من مشاعر عندما استدارا نحونا وتعرّفت في أحدهما شيخي صاحب التزكية والفضل في تبديل وُجُهات حياتي، ولكن دهشتي على كبرها لم تَصْمُد لشعورٍ آخر لا أجِدُ له اسماً سوى «الشعور بالراحة» رغم أنّه كان أقوى بكثير من مجرّد كونه شعوراً وبالراحة، ـ راحة حائر يلتقي بعد أيسٍ بمن يستطيع أن يُلقي إليه زمام أموره وأن يوكل إليه حريته. عَقِبَ هاتين المفاجأتين لم يُدهشني أن يكون رابعَنا اللواءُ

Twitter: @ketab_n

فلان، الأشهرُ من أن يعرف، ملك الأمنِ (آنذاك) في جمهوريتكم. بعدَ ترحيب وديّ وإنْ غابت عنه الحرارة تابع الثلاثة حديثهم. سرّني أن كان كذلك إذ أتاح لي عدم احتفالهم بي أن أترجم راحتي استكانةً شاركتْ فيها عضلاتُ جسمي وجوارحُه جميعاً، وأتاح لي أيضاً أن أفهم بوجهٍ عام إلى أين آلتِ الأمور ولأيّ سببٍ يقيم شيخي في بلدكم، ولأيّ سبب يلتقي هؤلاءِ الثلاثةُ هُنا على هذه الشرفة حول أقداحٍ لا أجزمُ بما فيها، مجدّدين لقاءات يستشفُّ من كلامهم أنّها تتالت في الأسابيع الأخيرة.

رغم خطورة ما كانوا يتحدثون فيه لم تغادرني راحة الوهلة الأولى، فمكاني بين هؤلاء الثلاثة، بتوصية لا أشكُّ في أنّ شيخي وراءها، دليلٌ قاطعٌ على أنّه لن يدعني لمصيري وكان هذا، في تلك اللحظات، أقصى ما يمكن أن أتمناه ولو أنَّ آفاق هذا المصير بدت لي، رغم صراحة حديثهم، في ظهر الغيب.

لَستُ أدري هل تَعَمَّدَ شيخي أن تجريَ الأمور على هذا النحو وأن أكتشفَ بنفسي، بالاستماع إليهم، ما جدَّ في غضون الأشهر الماضية أم هي عفويته التي جعلته يعتبر

Twitter: @ketab_n

أنّ استقبالي بينهم أخصرُ السُّبُل إلى إطلاعي على هذا الذي جَدَّ وقلب الأمور رأساً على عقب، ويوشك أن يقلب علناً رتباً ومراتب وسياسات.

كمن انتهى من مسألة وانتقل إلى أخرى بترتيب مرسوم سلفاً تحوّل شيخي بعد أن ختم حديثاً وَجَّهَهُ إلى صديقيه بأنّه، إلى أجلٍ، وطالما أنّه لم يُبَلَّغ بأنّه غيرُ مرغوب فيه «هنا»، في بلدك، فهو يؤثر «البقاء قريباً من مسرح الأحداث»، ـ تحوّل إليّ موجهاً حديثه، هذه المرّة، إلى ثلاثتنا: «ولكنني لا أريدُ أن أُجمِله، يقصِدُ أنا، بقراري هذا»، ثم إليّ: «فكما فهمتَ يا صاحبي من حديثنا، اليوم غيرُ الأمس، وشيخك ذو الرأي النافذ والمُطاع يعيش هنا، معزّزاً مكرماً، ولكن في منفى اختياريٍّ؛ فأصدقاء شيخك هناك انقلبوا في معظمهم عليه متّهمين إيّاه بالفشل، والسياسةَ التي دعا إليها بمثل ذلك؛ وما اتُّهِمَ به، هو وآخرون هناك، اتُّهِمَ به أيضاً، بطبيعة الحال، مَنْ يشاطرهمُ الرأي ويشاطرونه هنا ومنهم هذان الرجلان، وأشار إلى مضيفنا واللواء. لستُ أدري هل فشلنا، كلٌّ في موقعه، وفي حدود مسؤولياته، أم أنّ القضيّة التي دافعنا عنها خاسرة

Twitter: @ketab_n

أصلاً ولا سياسة تُجدي معها. في أية حالٍ فلندعهم يُجَرّبون سياسة اللين والحوار والمصالحة ولنُغنَ بشؤوننا. أنت، ماذا ترى أنت؟». للحظةٍ خلته هازلاً في سؤاله وقلتُ لي: «هل يعقل أن يسألني مثل هذا السؤال... ألا يعرف أين كنتُ طوال الشهور الماضية... وألا يمرّ بخياله بأيّة محنةٍ مررت؟». على الأرجح ارتبكْت، وبدا الارتباك عليَّ وإن لم يكن قد بدا عليَّ فالأرجح أنّ سكوتي عن الجواب حَثّ شيخي على متابعة خطابه إيّاي كأنّه لم يَسأل ولا انتظر أصلاً أن أُجيب «كأيٍّ منا، أمامك اثنان: أن تبقى هنا إلى أن يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً، أعني أن يَقْلَقَ بنا هذا البلدُ أيضاً حتى لا يمكنَ البقاءُ فيه، وإن اخترت هذا نتدبّر لك وظيفةً ما وتكون إلى جانبي يُصيبك ما يُصيبني، أو أن تغادر إلى بلدٍ من بلاد اللّه الواسعة، وإن اخترتَ هذا فالفرصة سانحةٌ... ولو كنتُ أنا أنتَ لما تَرَدَّدْتُ بين الأمرين لا سيّما أنّكَ على ما يبدو أوفرُ حظاً منا جميعاً».

فهمت أنّني بين البقاء وبين الرحيل وأنّه لو كان أنا لما تردّد في اختيار الثاني منهما بيد أنّني لم أفقه شيئاً من قوله إنّ «الفرصة سانحةٌ» وإنّني «الأوفر حظاً»، واقتضاني

Twitter: @ketab_n

أنْ أستجمع كلّ نفسي وكلّ قواها لأستفسره، بعدَ محاولة صادقةٍ لشكره قطعها عليّ بإشارة من يده، عن هذه «الفرصة السانحة» التي تجعل منّي الأوفر حظاً. استغرب استفساري: «كيف؟ ألا تعرفُ أنّ صاحِبَتَك جنّدت كل معارفها وعمِلَتِ المستحيل لإخراجك من هنا واستقبالكَ حيث تعيشُ هي الآن... ألم تَصِلكَ رسائلها؟».

غير مجدٍ أن أُسهِبَ في وصفِ ما لحق بي عند ذاك. بل مهما حاولت، ولقد حاولت، لا أظنني أُحصي يوماً كل ما جاشَ في نفسي وجسدي في غضون تلك الثواني القليلة التي فصلت بين سؤاله عن رسائلك التي لم تصل إليّ وتجديده السؤالَ عن قراري. كنتُ أعيا من أن أُجيبه على سؤاله وكان شيخيَ العَبِثُ أضعف من أن يردّ نكتة بدهت أو لطيفة حضرت فتابع متحوّلاً من عربيّة إلى عربيّة أخرى على غفلةٍ من صديقيه اللذين ضحكا لقوله وأيّداه فيه ولو أنّني لا أظنّهما تفطّنا إلى ما تحته: «في يوم الدين هذا وَدِدْتُ أنَّ لي مثلك صاحبةً أفِرُّ إليها(*)، فلا تتردد». وهكذا كان.

(*) ﴿... يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء يومئذ شأن يُغنيه﴾، عبس: ٣٢ ـ ٣٦.

Twitter: @ketab_n

يوم الدين

بعد طبعتين لبنانيّتين عن دار الجديد، وثالثة جزائريّة عن دار آنيب، ورابعة مصريّة عن دار ميريت، وترجمة لاحقة إلى اللغة الفرنسيّة عن دار سندباد آكت سود، وقّعها يوسف الصدّيق مترجم معاني القرآن، ومؤلّف **لم نقرأ القرآن بعد**، تصدر اليوم طبعة لبنانيّة ثالثة من يوم الدين.

هـذه الروايـة الجدليّة هي مجمع قضايا تُجاوز المباح، وتنفذ إلى جوهر ما يؤرّق مجتمعاتنا من شـؤون تمسّ الدين، والسياسـة، والحبّ. أمّا لغتها، تلك التي أفتـى فيها إمام من أئمّتها الأحياء، خليل رامز سـركيس، بأنّها: «تضرب تجتاح تجدّد ولا تكاد تتقيّد» فهي رابع أبطال الرواية إلى جانب الشيخ الراوي وحبيبته وأحمد المتنبّي.

رشا الأمير

بعـد عملهـا متدرّبة ثـم صحافيّة محترفة فـي النهار العربـي والدولي والوطن العربـي الصادرتين من باريـس ثمانينيّات القرن الماضي، التحقت رشـا الأمير بدار الجديد، مواكبة سـنوات تأسيسـها وازدهارها جوار أستاذها الفتّان، موري المشاريع والأفكار، لقمان سليم .

لها تدين الدار بنشـر أعمال العلاّمة الشـيخ عبـد الله العلايلي، وترجمة كتب السـيّد محمّد خاتمي وعبد الكريم سروش من الفارسـيّة إلى العربيّة، ونشر الديوانين اللذين صالحا محمود درويش مع بيروت.

لها :

فـي قبر في مكان مزدحم، مع لقمان سـليم، حـول تجربتهما في مضمار النشر العربي.

البلد الصغير، حكاية مصوّرة، بالفرنسـيّة، الرسـومات الملوّنـة بتوقيع دانيال قطّار.

ISBN 9953-11-041-7